



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



ارسلنا  
عليكم يا صابغ  
الرماد

www.ghaemiyeh.com  
www.ghaemiyeh.org  
www.ghaemiyeh.net  
www.ghaemiyeh.ir

مختصر في تفسير القرآن  
التفسير الميسر

# مُرْهُ عَلَى الْقُرْآنِ

الجزء السادس عشر

سورة التلوة - سورة البقرة - سورة آل عمران

دار الفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# من هدى القرآن

كاتب:

آيت الله سيد محمد تقى مدرسى

نشرت فى الطباعة:

دار محبى الحسين ( عليه السلام )

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
١٠	من هدى القرآن المجلد ١٦
١٠	اشاره
١١	اشاره
١٣	سوره التغابن
١٣	اشاره
١٥	فضل السوره
١٦	الإطار العام
١٩	[سوره التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ١٠]
١٩	اشاره
١٩	اللغه
٢١	ذلك يوم التغابن
٢١	هدى من الآيات:
٢٢	بينات من الآيات:
٣٦	[سوره التغابن (٦٤): الآيات ١١ الى ١٨]
٣٦	اشاره
٣٧	إتّما أموالكم و أولادكم فتنه
٣٧	هدى من الآيات:
٣٨	بينات من الآيات:
٥٣	سوره الطلاق
٥٣	اشاره
٥٥	فضل السوره
٥٦	الإطار العام
٥٩	[سوره الطلاق (٦٥): الآيات ١ الى ٥]

٥٩ ..... اشاره

٦١ ..... وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

٦١ ..... هدى من الآيات:

٦٣ ..... بينات من الآيات:

٨٠ ..... [سوره الطلاق (٦٥): الآيات ٦ الى ١٢]

٨٠ ..... اشاره

٨٠ ..... اللغه

٨٢ ..... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ

٨٢ ..... هدى من الآيات:

٨٣ ..... بينات من الآيات:

١٠١ ..... سوره التحريم

١٠١ ..... اشاره

١٠٣ ..... الإطار العام

١٠٧ ..... [سوره التحريم (٦٦): الآيات ١ الى ١٢]

١٠٧ ..... اشاره

١٠٧ ..... اللغه

١١٢ ..... لم تحرم ما أحل الله لك

١١٢ ..... بينات من الآيات:

١٣٥ ..... سوره الملك

١٣٥ ..... اشاره

١٣٧ ..... فضل السوره

١٣٨ ..... الإطار العام

١٤١ ..... [سوره الملك (٦٧): الآيات ١ الى ١٤]

١٤١ ..... اشاره

١٤١ ..... اللغه

١٤٤ ..... تبارك الذى بيده الملك

- ١٤٤ ----- هدى من الآيات: -----
- ١٤٥ ----- بينات من الآيات: -----
- ١٦٨ ----- [سوره الملك (٦٧): الآيات ١٥ الى ٣٠] -----
- ١٦٨ ----- اشاره -----
- ١٦٨ ----- اللغه -----
- ١٧١ ----- إِنَّ الْكَافِرُونَ فِي غُورٍ -----
- ١٧١ ----- هدى من الآيات: -----
- ١٧٢ ----- بينات من الآيات: -----
- ١٩٥ ----- سوره القلم -----
- ١٩٥ ----- اشاره -----
- ١٩٧ ----- فضل السوره -----
- ١٩٨ ----- الإطار العام -----
- ٢٠١ ----- [سوره القلم (٦٨): الآيات ١ الى ٣٣] -----
- ٢٠١ ----- اشاره -----
- ٢٠١ ----- اللغه -----
- ٢٠٤ ----- وَ لَا تَطْعَ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ -----
- ٢٠٤ ----- هدى من الآيات: -----
- ٢٠٥ ----- بينات من الآيات: -----
- ٢٢٨ ----- قصه أصحاب الجنه: -----
- ٢٤١ ----- [سوره القلم (٦٨): الآيات ٣٤ الى ٥٢] -----
- ٢٤١ ----- اشاره -----
- ٢٤١ ----- اللغه -----
- ٢٤٣ ----- فاصبر لحكم ربك -----
- ٢٤٣ ----- هدى من الآيات: -----
- ٢٤٥ ----- بينات من الآيات: -----
- ٢٥٩ ----- ثالثا: البطر. -----

- ٢٦٧ ..... سورة الحاقه
- ٢٦٧ ..... اشاره
- ٢٦٩ ..... فضل السوره
- ٢٧٠ ..... الإطار العام
- ٢٧٣ ..... [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ١ الى ١٨]
- ٢٧٣ ..... اشاره
- ٢٧٣ ..... اللغه
- ٢٧٥ ..... و تعيها أذن واعيه
- ٢٧٥ ..... هدى من الآيات:
- ٢٧٦ ..... بينات من الآيات:
- ٢٩٩ ..... [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ١٩ الى ٥٢]
- ٢٩٩ ..... اشاره
- ٢٩٩ ..... اللغه
- ٣٠١ ..... و إته لحقّ اليقين
- ٣٠١ ..... هدى من الآيات:
- ٣٠٢ ..... بينات من الآيات:
- ٣٤١ ..... سورة المعارج
- ٣٤١ ..... اشاره
- ٣٤٣ ..... فضل السوره:
- ٣٤٤ ..... الإطار العام
- ٣٤٧ ..... [سوره المعارج (٧٠): الآيات ١ الى ١٨]
- ٣٤٧ ..... اشاره
- ٣٤٧ ..... اللغه
- ٣٤٩ ..... فاصبر صبرا جميلا
- ٣٤٩ ..... هدى من الآيات:
- ٣٥٠ ..... بينات من الآيات:



٣٦٢ ..... [سوره المعارج (٧٠): الآيات ١٩ الى ٤٤]

٣٦٢ ..... اشاره

٣٦٢ ..... اللغة

٣٦٤ ..... الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ كَأَن لَّمْ يَسْمَعُوا

٣٦٤ ..... هدى من الآيات:

٣٦٥ ..... بينات من الآيات:

٣٩٧ ..... سوره نوح

٣٩٧ ..... اشاره

٣٩٩ ..... فضل السوره:

٤٠٠ ..... الإطار العام:

٤٠٣ ..... [سوره نوح (٧١): الآيات ١ الى ٢٨]

٤٠٣ ..... اشاره

٤٠٣ ..... اللغة

٤٠٦ ..... أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا

٤٠٦ ..... بينات من الآيات:

٤٣٥ ..... سوره الجن

٤٣٥ ..... اشاره

٤٣٧ ..... فضل السوره

٤٣٩ ..... الإطار العام:

٤٤٢ ..... [سوره الجن (٧٢): الآيات ١ الى ٢٨]

٤٤٢ ..... اشاره

٤٤٢ ..... اللغة

٤٤٦ ..... إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا

٤٤٦ ..... بينات من الآيات:

٤٥٩ ..... تعريف مركز

سرشناسه: مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور: من هدی القرآن / محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر: تهران: دار مجبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری: ج ۱۸

شابک: ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-۱۸؛ ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: عربی

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۴م ۱۳۷۷۸

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص: ۱

اشاره



سوره التغابن

اشاره

ص: ۳



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## فضل السوره:

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «من قرأ سورة التغابن في فريضه كانت شفيعه له يوم القيامه، و شاهد عدل عند من يجيز شهادتها، ثم لا تفارقه حتى يدخل الجنة»

ص: ٥

كيف يمكن أن نربح صفقه العمر و نأتى يوم التغابن بالفوز الكبير، ذلك اليوم الذى تلبو الحقائق و يظهر مدى خساره الإنسان و مدى ربحه؟ قبل أن يبصّرنا السياق بالجواب يذكّرنا بجلال الله القدوس عن أى نقص و عجز، و أنّ كل شىء يسبح بحمده، لأنّ له الملك و الحمد جميعا.

□  
و إنّما يكفر من كفر بعد تمام الحجّه عليه، فهو المسؤول عن ضلاله، و هو المجزى بعمله، لأنّ الله قد خلق السموات و الأرض بالحق، و الجزاء صورته من صور الحق.. و أكمل خلق الإنسان (فأعطاه ما يحتاجه لاختيار الحق و أكمل عليه الحجّه) و اليه المصير للجزاء.. و هو عليم بما يسرون و ما يعلنون.. فانى لهم الفرار من الجزاء؟ و الجزاء حق واقع تاريخيا. أ فلا نعتبر به؟ فكم ذاق الكفّار الغابرون و بال



أمرهم. لماذا؟ لأنهم قالوا: «أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا» فمن الذى خسراً هم أم الرسل الطاهرون؟ كانت تلك عاقبه أمرهم فى الأولى، و فى الأخرى يتبؤهم الله بما عملوا و يتم عليهم الحجه البالغه ثم يعذبهم، و يا ويلهم!! فى ذلك اليوم يربح المؤمنون الجنه تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، و إنه حقاً فوز عظيم.

□  
و هكذا يبلغ السياق محور السوره، و يبين كيف يفوز عباد الله الصالحون فى يوم التغابن، و ذلك عبر بصائر ترى:

□  
الأولى: الرضا بالقدر، و الإيمان بأن كل مصيبه تصيبه فيأذن الله.

الثانيه: الإيمان هدى القلب، و به يعرف الإنسان سبيل النجاه عن المصائب و به يتحدّأها.

□  
الثالثه: الطاعه لله و للرسول، و التوكل عليه.

الرابعه: الحذر من أقرب الناس إليه (و هم الأزواج و الأولاد) لأنّ فيهم من هو عدو له، و لكنّ الحذر لا يتحوّل عند المؤمن إلى عداء أو جفاء أو مواقف حدّيه.

الخامسه: اليقظه التامه من (حب) الأموال و الأولاد و (الافتتان) بهم.

السادسه: التقوى بكلّ استطاعته، (و الاجتهاد فى الطاعه)، و الاستماع إلى أوامر الشريعة و وعيها، و الطاعه للقياده الرشيده، و الإنفاق و تجاوز شح الذات.

إِنَّ هَذَا سَبِيلُ الْفَلَاحِ.

و فِي خَاتَمِهِ السُّورَةُ يَأْمُرُنَا اللَّهُ بِأَنْ نَقْرُضَهُ قَرْضًا حَسَنًا (بِالْإِنْفَاقِ أَوْ الْإِسْتِدَانَةِ)، لِأَنَّهُ يُضَاعَفُ ذَلِكَ وَيُغْفَرُ لِصَاحِبِهِ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ، وَإِنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

ص: ٨

## [سوره التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ١٠]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَكْبَرُوا اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النَّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ بُسَّ الْمَصِيرُ (١٠)

## اللغه

٥]و بال أمرهم]:أى وخيم عاقبه كفرهم و ثقل أمرهم بما نالهم العذاب.



□  
لكي تؤمن بالآخرة إيماناً عميقاً لا بدّ من معرفته بالله أولاً، لأنها الدين (١)، والأساس الصحيح الذي تبنى عليه سائر البصائر و الحكم و الشرائع، لذلك نجد السياق القرآني و هو يمضي بنا في التذكير بالبعث و الجزاء (يوم الجمع و التغابن) يهدينا إلى الله و أسمائه الحسنی (الآيات ١/٤)، فهو السبوح، الملك، المحمود، القادر، الخالق، البصير، المصور، إليه المصير، و هو بكلّ شيء عليم، ثم تذكرنا الآيات بالجزاء الذي لقيه الكافرون في التاريخ كدليل إلى الجزاء الأكبر في الآخرة، و أنّ سبب كفرهم هو الاعتماد على المقاييس المادية في موقفهم من قياده الرسل، و كفرهم بالبعث و الحساب، ممّا يبرر لهم عدم تحملهم المسؤولية في الحياة، لذلك يؤكّد القرآن حقيقة الآخرة و ضروره الإيمان بالله و رسوله و الكتاب باعتباره السبيل إلى الصالحات و المستقبل الحسن في الآخرة، على العكس من الكفر الذي

ص: ١١

## بينات من الآيات:

(١) تتصوّر الفلسفات البشريه التي تتحدّد بالجهل والعجز و ضيق الأفق و شح النفس عند الإنسان تتصور العالم الكبير و ما فيه من اختلاف و تسابق ركاما من القوى المتناقضه و المتصارعه، و بالتالى حله لصراع الآلهه و الشركاء المختلفين، كلا..إنما العالم-فى القرآن-ينصوى تحت رايه العبوديه لله.

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ هَكَذَا يَسْبَحُ جَمِيعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِرَبِّ الْعِزَّةِ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَارِفٌ بِاسْتِحْقَاقِ رَبِّهِ لِلتَّنْزِيهِ عَنِ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ فِي ضَمِيرِ الْخَلْقِ وَعَقْلِهِ. وَفَعَلَ الْمُضَارَعَةَ مِنَ التَّسْبِيحِ يَدُلُّ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ فِي التَّسْبِيحِ، وَالسَّبَبُ أَنَّ اللَّهَ تَجَلَّى لِكُلِّ شَيْءٍ بِقَدْرِ وَعِيهِ، وَأَعْطَاهُ حَسْبَمَا شَاءَ مِنْ نُورِهِ، فَوَلَّاهُ كُلَّ شَيْءٍ بِرَبِّهِ وَسَبَّحَهُ وَقَدَّسَهُ بِقَدْرِهِ.

لَهُ الْمُلْكُ وَحْدَهُ وَإِنَّمَا يَمْلِكُ أَحَدٌ شَيْئًا بِتَمْلِيكِهِ لَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ يَبْقَى مَلِكُهُ مَحْدُودًا، وَمَلِكُ اللَّهِ نَافِذٌ يَسْلُبُهُ مَتَى شَاءَ. وَرَبَّنَا لَيْسَ مُتَصَرِّفًا فِي الْأَشْيَاءِ وَحَسَبُ بَلِّ يَمْلِكُهَا وَيَمْلِكُ شَهُودَهَا وَضَمِيرَهَا وَمَبْدَأَهَا وَمَصِيرَهَا، يَمْلِكُهَا دُونَ أَنْ تَمْلِكُهَا هِيَ مِنْهُ شَيْئًا، بَعْكَسِ الْبَشَرِ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَمْتَلِكُ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُ سِوَاهُ فِي حَدِّ الْعِبُودِيَّةِ وَالضَّعْفِ وَالْعِجْزِ. وَحَرَى بِالْمَمْلُوكِ أَنْ يَخْضَعَ لِمَالِكِهِ الْمَطْلُوقِ وَيَتَوَجَّهَ لَهُ بِالتَّسْبِيحِ دُونَ سِوَاهُ. وَإِنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَمَا صَفَّهَ الْقَدْرَهُ وَغَيْرَهُمَا لَا تَدْعُوهُ سَبْحَانَهُ كَمَا الْمَلُوكِ إِلَى الظلم والقهر لمن تحت سلطانه، فكل أفعاله حميده.

وَلَهُ الْحَمْدُ مِمَّا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمِهِ وَ يَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ، فسبحان الذى لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب.

و من تجليات حمده قدرته، فهو ذو القدره على كل ما يريد.

وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ هذه البصيره (قدره الله على كل شىء) هي التي ينبغي أن يتحسسها الإنسان، لأنها محور لكثير من الحقائق و العقائد التي منها الإيمان بالآخرة، فإن الذى لا يؤمن بقدره الله الثابته يصعب عليه التصديق بحقيقه البعث و الجزاء.

و هكذا تتصل هذه البصيره بما يأتى من التذكرة بالبعث.

و تذكير الإنسان بأن الوجود كله يسبح لله يزرع في نفسه الشعور بالشذوذ إذا ما كفر بربه و خالف رسالته، بل و يزرع في داخله الوازع الذى يدفعه للانتظام في المسيره الحقه الواحده حيث العبوديه لله وحده و المعرفه به.

كما تهدينا هذه التذكرة إلى حقيقه أخرى هامه و هي: أن الخليفه بكيونتتها و السنن الحاكمه عليها تدعم المؤمن في مسيرته، لأنه يلتقى معها في المسيره و الهدف، و هذا ما يجعل اتباع الحق سهلا ميسورا و اتباع الباطل عسيرا في الدنيا و الآخرة، و بهذا المضمون جاءت بعض الأخبار التي منها

قول الإمام على -عليه السلام-: «و من ضاق به العدل فالجور عليه أضيق» (١).

[٢] و يتساءل الإنسان: من أين أتيت؟ و من الذى خلقنى؟ و الإجابة على

ص: ١٣

(١-١) بح/ج ٤١ ص ١١٦

ذلك هي التي تحدد مبادئ الناس و مسيرتهم، فيهدى البعض و يضل آخرون، و القرآن هنا يوجهنا إلى الإجابة الحق ليضعنا على الصراط المستقيم في الحياة. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ و ليست الصدفة و لا الشركاء المزعومين من دونه. تلك الفلسفات التي تاهت بعقول الكثير و لا زالت حتى اليوم تضلّها. و حيث أنّ الله هو الخالق فإنّه أهل الملك و الحمد و القدرة، و لكنك مع ذلك ترى بين الناس من يكفر به سبحانه بالرغم من تجليات أسمائه و آياته في طبيعه و في ضمير الإنسان و عقله.

فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ و كما يؤكّد هذا المقطع حرية الإنسان في اختيار مسيرته و مصيره فهو يبيّن مدى طغيان البشر الذين يكفرون بخالقهم بدل أن يشكروه على نعمه الخلق و سائر النعم.

و تنسف الآيه فلسفه الجبر التي تقول بأن الكفر و الإيمان أمر تكويني يحدده الله، فكما يخلق الأسود و الأبيض كذلك يخلق المؤمن و الكافر، كلا.. إنّ الخلق منه تعالى بينما الكفر و الإيمان رهين اختيار الناس و إرادتهم «فمنكم.. و منكم».

وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إذا فعمل الإنسان هو الذي يحدّد مذهبه و مصيره عند الله و ليس لونه أو مجيؤه من الدين كافرين أو مؤمنين و لا- أى شىء آخر. و فى الآيه تحذير من طرف خفى بأنّ حرّيتك أيها الإنسان ليست أبدية، و أنّ الله لم يخلق الناس ليتركهم سدى، أو أنّه مغلوله يدها و محجوب عن الخلق، إنّما هو رقيب و مهيمن عليهم، و هكذا تنفى الآيه التفويض كما تنفى الجبر لتثبت- بالتالى- أمرا وسطا بين الأمرين.



و كلمه أخيره فى هذه الآيه هى: أن اختلاف الناس إلى مؤمن و كافر، و مظلوم و ظالم، و قاتل و مقتول، تجعل البعث و الجزاء ضروره فطريه فى ضوء الإيمان بالإله الملك الحميد الذى من مظاهر حمده العدل. و هذه من الأفكار الرئيسيه فى المبادئ الإسلاميه.

[٣] و نجد آيه هاديه إلى الآخره عند النظر إلى الحياه مفرده مفرده، فهى قائمه على أساس الحق بكل ما تعنى هذه الكلمه من آفاق الواقعيه و النظام السليم، و أهم تلك الآفاق بالنسبه للإنسان أن الحياه عرصه يجرى الله فيها الحق.

خَلَقَ السَّمَّاءَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ الْهَدْفِيهِ مِنَ الْحَقِّ، كَمَا أَنَّ الْعَبْثِيهِ مِنَ الْبَاطِلِ. وَ إِنَّ الْإِنْسَانَ حِينَمَا يَلْقَى بِنَظَرِهِ وَ فِكْرِهِ إِلَى خَلْقِ الْكُونِ يَرَاهُ بِكُلِّ أَجْزَائِهِ حَتَّى الذَّرَّةَ قَدْ خَلَقَ بِحِكْمِهِ وَ هَدَفٍ مَعَيَّنٍ، كَمَا أَنَّهُ عِنْدَ مَا يَعُودُ إِلَى نَفْسِهِ مِنْ رَحْلَةِ الْآفَاقِ يَرَى نَفْسَ الْحَقِيقَةِ، فَهُوَ قَدْ صَوَّرَ وَ خَلَقَ كُلَّ عَضْوٍ مِنْهُ لِعَرَضٍ مُحَدَّدٍ، فَالْعَيْنَ لِلْبَصَارِ، وَ الْإِذْنَ لِلسَّمْعِ، وَ الْأَنْفَ لِلشَّمِّ وَ التَّنْفُسَ وَ..

وَ صَوَّرَكُمْ فَمَا أَحْسَنَ صَوْرَكُمْ فَهَلْ يَعْقِلُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ كَكُلِّ بَلَا هَدَفٍ؟! كَلَّا.. بَلْ لَهُ هَدَفٌ مَعَيَّنٌ هُوَ أَنْ يَقُومَ بِالْحَقِّ وَ هَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ جِزَاءٌ وَ مَصِيرٌ. وَ لِأَنَّ الدُّنْيَا تَقْصُرُ أَنْ تَكُونَ مَحَلًّا لِلْجِزَاءِ الْأَوْفَى فَلَا بَدَّ مِنْ دَارٍ ثَانِيَةٍ يَرْجِعُ فِيهَا النَّاسُ إِلَى رَبِّهِمْ.

وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ [٤] وَ هُوَ تَعَالَى لَا يَقْضِي لِلنَّاسِ بِمَصَائِرِهِمْ اعْتِبَاطًا، إِنَّمَا يَجَازِي كُلَّ فَرْدٍ وَ أَمَةٍ

الجزء الأوفى القائم على علمه النافذ فى كلِّ دقائق الأمور و لطائفها حتى النوايا المنطويه عليها الصدور، و لا يشغله علم عن علم، و لا سمع عن سمع، بل يعلم كل شىء فى آن واحد.

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا.

وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَ تأكيد الله على علمه المحيط بحياه الإنسان يتصل بمنهج الإسلام التربوى القائم على أساس زرع الوازع الدينى فى نفوس المؤمنين، فإنَّ المتحسس لرقابه الله عليه لن يقتحم المحرمات و المعاصى، و لن يتخلف فى أداء الواجبات.. و هذه المنهجية ذاتها هى التى تضع نهايه للخداع الذاتى (المنافقه)، حيث تضع الإنسان أمام يقين بعلم الله بذات صدره، و أنّ جزاءه للناس لا يعتمد على أعمالهم و أقوالهم الظاهره فحسب إنّما يعتمد على ما فى القلوب من النوايا و الخلفيات أيضا.

[٥] و يحثنا القرآن إلى التفكير فى واحده من الآيات الكاشفه لحقيقه كون المصائر بيد الله، و لحقيقه البعث و الجزاء فى الآخره، و هى تاريخ الأمم و الأقوام الذين كفروا بالحق فاستأصلهم الله بألوان من العذاب.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، و الوبال هو السوء، و هنا بمعنى العاقبه السيئه، و ما دام الإنسان مسئولا عن أفعاله فى الدنيا و هى دار امتحان فكيف لا- يكون مسئولا عنها فى الآخره؟! و عموما: فإننا سوف نواجهه إن خالفنا عاجلا أم آجلا فى الدنيا أو فى الآخره.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ينتظرهم في الآخرة. و وصف الله للعذاب بأنه «أليم» ينسف بعض الفلسفات التي حاولت تبرير الذنوب للناس بزعمها أن الإنسان يوم القيامة لا- يشعر بحراره النار، و مثلوا لذلك بالقول أن هناك بعض الحشرات تعيش في النار و لا تتأثر بها! و هو زعم لا دليل عليه.

[٦] أما السبب الذي انتهى بأولئك إلى عذاب الدارين فهو تكبرهم على الرسل، و كفرهم بهم، و توليهم عنهم إلى غيرهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَى الآيات الواضحة التي لا- غموض فيها. إذن كانت الحجّة قائمه و بالغه ممّا يجعل العقلاء يخضعون لها، و لكنّ الكفّار لم يتبعوا العقل، إنّما اتبعوا الأهواء. لذلك لم يسلموا لقياده الرسل.

فَقَالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدِينَا أَنَّهُمْ لم يجدوا ثغره في رسالات الله لكى يعيبيها، و لا نقصا في أخلاق الرسل و سلوكياتهم، و لكنّهم مع ذلك لم يكونوا مستعدين للخضوع لقياده واحد منهم، و لا- لتحمّل المسؤوليه بأيه صوره، لذلك صاروا يبحثون عن تبرير يتخلّصون به من المسؤوليه، فكان قولهم أن الرسل بشر لا يصح الخضوع لهم، و هذا ما يتشبّث به الكفّار عبر التاريخ.. فلما ذا إذا يبعث الله الرسل من البشر أنفسهم؟ و الجواب:

لأمرين أساسيين:

الأول: أن الكفّار أرادوا من ذلك تبرير انحرافهم و كفرهم، فلو أن الله بعث

ملائكته أو جنًا لبحثوا لهم عن تبرير آخر، ولو كان يهّمهم الحق لا تبعوا الرسل الذين جاءوهم بالبينات.

الثانى: أنّ الهدف من بعث الرسل هو تزكيه الإنسان و تطهّره من أمور النزعات السلبية التى فيه كالكبر و السموّ به إلى آفاق العبودية و التسليم للقيم و الحق، و هذا يقتضى أن يكون الرسل من البشر أنفسهم حيث أنّ التسليم لهم أبلغ أثرا فى امتحان البشر، و هل قد تخلّصوا من نزعه الكبر، و تعالوا إلى سماء التواضع لله، علما بأنّ الصراع على السلطة أعظم من أى صراع آخر، و شهوه الرئاسة أشد من أية شهوه أخرى، و أنّ الرسل جاؤوا ليحكموا بين الناس بالعدل، و كان الطغاه يحكمونهم بالجور. و ترى كيف يتنازل الطغاه عن سلطانهم و يسلموا لأمرهم و لأمر من ينوب عنهم من أوصيائهم و أوليائهم؟! إنه حقا ابتلاء عظيم للطغاه و من أيدهم و اتبعهم، و إنّها لفتنة عمياء سقطت فيها أكثرية النفوس الضعيفة، و نجد صورته لها فى أمر الله إبليس بالسجود لآدم و ليس لأعظم ملائكته ممّا أثار رفضه و تمردّه، ممّا يؤكّد بأنّ ظاهر القرآن الشريعة و باطنه الولاية، حيث أنّ خضوع الإنسان لبشر مثله باعتباره وليا عليه من عند الله أمر صعب مستصعب، و هكذا رفض الكفار ذلك.

فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا كَفَرُوا بِالرَّسُولِ وَ الرِّسَالَةِ وَ لَمْ يَشْكُرُوا هَاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ، وَ حَيْثُ لَا يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعِيشَ فِي الْفِرَاقِ فَإِنَّهُمْ حَوَّلُوا وَجْهَهُمْ إِلَى الْقِيَمِ الْفَاسِدَةِ وَ الْقِيَادَاتِ الْمُنْحَرِفَةِ (الضلال)، وَ لَعَلَّ التَّوَلَّى هُنَا بِهَذَا الْمَفْهُومِ، أَيْ تَوَلَّوْا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ بِمَعْنَى وَايِهِ غَيْرِ اللَّهِ، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ تَفَاسِيرِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ - إِنْ تَوَلَّيْتُمْ - أَنْ تُلْفَسُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ»، وَ قَدْ يَكُونُ الْكُفْرُ هُوَ الْمَوْقِفُ النَّفْسِيّ وَ الْمَبْدِئِيّ، بَيْنَمَا التَّوَلَّى هُوَ الْمَوْقِفُ الْعَمَلِيّ السِّيَاسِيّ.

وَاسْتَعْنَى اللَّهُ أَى أَنَّهُ تَعَالَى كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ دِينَهُ وَرَسُولَهُ بِهِمْ فَلَمَّا كَفَرُوا اسْتَعْنَى وَأَظْهَرَ غِنَاهُ عَنْهُمْ فَنَصَرَ دِينَهُ بِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ وَالْمَلَائِكَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. وَهَكَذَا يَكُونُ مَعْنَى الاسْتِغْنَاءِ فَعَلَّ مَا يَظْهَرُ الْغِنَى، وَذَلِكَ عَلَى ضَوْءِ مَعْرِفَتِنَا بِرَبِّنَا وَأَنَّهُ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ مَا يَصْدُقُ عَلَيْنَا مِنَ التَّحَوُّلِ وَالتَّبَدُّلِ سُبْحَانَهُ، فَلَمْ يَكُنْ لِرَبِّنَا حَاجَةٌ فِيهِمْ وَ لَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِنَصْرِ دِينِهِ عِبْرَهُمْ فَرَفَضُوا، حَيْثُ أَنَّ مِنْ نَعْمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ وَسَائِلَ لِنَشْرِ دِينِهِ وَنَصْرِ رَسُولِهِ فَيَطْلُبُ مِنْهُمْ الدَّعْوَةَ أَوْ الْجِهَادَ أَوْ الْقَرْضَ وَ الْإِنْفَاقَ وَ مَا أَشْبَهَ.. لَا لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِمْ إِنَّمَا لِيَتَلَطَّفَ بِهِمْ وَيَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِهِ! وَاللَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ، وَاسْتِغْنَاءُ اللَّهِ عَنْ أَحَدٍ يَعْنِي قَطْعَ حَبْلِ رَحْمَتِهِ عَنْهُ، وَهَذَا سَبَبُ هَلَاكِ الْأَقْوَامِ الَّتِي كَفَرَتْ مِنْ قَبْلُ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَسْتَقْرِضُهُمْ وَيَسْتَنْفِقُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ لِلْإِيمَانِ لِكَيْ يَرْحَمَهُمْ، وَ لَعَلَّ تَأْكِيدَ اللَّهِ عَلَى غِنَاهُ وَاسْتِغْنَائِهِ يَأْتِي لِعِلَاجِ عَقْبِهِ نَفْسِيهِ طَالَمَا مَنَعَتْ وَ لَا زَالَتْ تَمَنَعُ الْكَثِيرَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرَّسَالَةِ وَ التَّسْلِيمِ لِلرَّسُولِ، وَ هِيَ عَقْبَةُ الْإِحْسَاسِ بِالْغِنَى عَنِ الْحَقِّ مِنْ جِهَةٍ، وَ حَاجَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: «إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ» (١) مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

حَمِيدٌ وَ قَدْ أَضَافَ تَعَالَى هَذِهِ الصِّفَةَ لِلْغِنَى لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ غَنِيٍّ حَمِيدًا، فَقَدْ يَطْغِيهِ

ص: ١٩

الغنى، أو تبطره النعم.

[٧] ثم يبين السياق موقف الكفار الأساسى الذى انشطر عنه الاستكبار و الكفر و التولى، و هو عدم إيمانهم بالآخرة، و طبيعى أن من يكفر بالجزاء لا يبالى بتحمل المسؤولية.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا للجزاء بعد الموت، و الزعم هو مجرد الادعاء الذى لا يقين للإنسان به، و حيث أن الكفار لم يجدوا دليلا ينفي الآخرة باعتبارها حقيقة واقعية فطريه فإنهم لجأوا إلى تأكيد زعمهم بكلمه «لن» تبريرا لكفرهم بالحقائق، و لكن القرآن يكذب زعمهم بالتأكيد على البعث و الحساب و من ثم على الجزاء إذ يقول تعالى يخاطب رسوله -صلى الله عليه و آله-:

قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ و فى هذه الآيه تأكيدات عديده و ذلك فى مواجهه زعمهم الباطل، فالتأكيد اللفظى يواجه بتأكيدات فى الكلام أقوى منه. و أمره تعالى الرسول و من خلال ذلك كل مؤمن يواجه شبهات الكفار «قل» لا يعنى مجرد الدعوه للقول بل هو دعوه لاتخاذ موقف مضاد، إذ أن القول هو ما يحكى إيمان الإنسان، و المؤمن مكلف أن يحكى إيمانه بالآخرة موقفا صريحا يتحدى موقف الاستهزاء و الإنكار. ثم إنهم نفوا البعث بينما نجد السياق يؤكد و يضيف بالتأكيد على الجزاء لأنه محور القضية، فهم زعموا أن لا بعث حتى يتحللوا من المسؤولية، بينما القرآن أكد أن إنكارهم البعث لا يخفف عنهم من العذاب شيئا و لا يهون لهم من المسؤولية أمرا.

و فى خاتمه الآيه إشاره إلى أنهم عقبه نفسه عند الكفار أمام إيمانهم بالآخرة

و نسفها.

وَ ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَدِيرٌ، فَهُوَ لَيْسَ كَمَا نَحْنُ الْبَشَرُ عَاجِزًا أَوْ مَحْدُودُ الْقُدْرَةِ، بَلْ هُوَ صَاحِبُ الْمَشِيئَةِ التَّامَّةِ فَلَا شَيْءَ يَمْتَنِعُ عَنْهُ أَوْ يَصْعَبُ عَلَيْهِ. وَقَدْ تَلَمَّسَ فِي الْآيَةِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْكُفَّارَ زَعَمُوا لِلَّهِ مَجْمُوعَةً مِنَ الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُهُ عَاجِزًا عَنْ بَعَثِ النَّاسِ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي فِكْرِهِمْ، وَ ذَلِكَ امْتِدَادٌ لِتَصَوُّرَاتِهِمْ وَ مَقَابِيِسُهُمُ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي دَعَتُهُمُ لِلْكَفْرِ وَ التَّوَلَّى عَنْ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَ رَسَلِهِ.

[٨] وَ لَكِي يَتَجَنَّبَ النَّاسُ وَ بِالْأَمْرِ فِي الدُّنْيَا وَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَ يَفُوزُوا الْفَوْزَ الْعَظِيمَ، يَرَسُمُ الْقُرْآنُ الْمَعَالِمَ الْأَسَاسِيَّةَ لِطَرِيقِ النِّجَاةِ وَ الْفَوْزِ. إِنَّهُ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الْمُنزَلِ مِنْ عِنْدِهِ.

فَمَا مَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ هُوَ الْأَصْلُ وَ لَكِنَّهُ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ لِرَسُولِهِ حَتَّى تَتَحَوَّلَ الرِّسَالَةُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَى وَاقِعِ حَضَارِي بِالانْتِظَامِ تَحْتَ رَايَةِ الْقِيَادَةِ الرَّسَالِيَّةِ، وَ لَا بَدَأَ أَنْ تَصِيرَ وَاقِعًا تَفْصِيلِيًّا يَضَعُ لِمَسَاتِهِ عَلَى جَوَانِبِ حَيَاتِهِ وَ مَفْرَدَاتِهَا الْمَخْتَلِفَةَ، وَ بَعْبَارِهِ: إِنَّ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ لَيْسَ عَقِيدَةً مَجْرَدَةً فِي الْقَلْبِ، وَ لَا مَظَاهِرَ وَ طُقُوسَ فَقَطْ، إِنَّمَا هُوَ مَنَهْجٌ حَيَاةً يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ (فَرْدًا وَ أُمَّةً) أَنْ يَلْتَزِمَ بِهِ.

وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَ الْقُرْآنَ نُورًا لِأَنَّهُ يَخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَ الْكُفْرِ، وَ يَشِيرُ دِفَائِنَ عَقْلِهِ، وَ يَنْمِي بَوَاعِثَ الْخَيْرِ فِي وَجْدَانِهِ، وَ يَرَسُمُ لَهُ مَنَاهِجَ الْحَيَاةِ. وَ أَيُّ نُورٍ أَعْظَمَ مِنْ حَبْلِ اللَّهِ وَ كِتَابِهِ الَّذِي يُوصلُ الْبَشَرِيَّةَ بِاللَّهِ «نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»؟!!

ص: ٢١

و لقد مضى القول فى سورة النور و فى الصف عن أنّ القيادة الرساليه هى الأخرى مظهر و تجل لنور الله، لأنها صورته ناطقه لكتاب الله و مثل أعلى لرسالاته، و إنّ اتباعها ينير للإنسان دروب الحياه الفرعيه المتداخله، و من هنا

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام الباقر-عليه السلام-: «نور الإمام فى قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئه بالنهار» (١).

و الإسلام الأصيل لا يرى الإيمان مجرد الاعتقاد (بالله و بالرسول و بالنور)، إنّما الإيمان تسليم لله، و اتباع للرسول، و تطبيق للكتاب، و بعبارة: الإيمان هو العمل المستمر و المتمن و المخلص الذى يستمد جذوره من اليقين التام بهيمنه الله عزّ و جل، و هذا ما نفهمه من النصوص الدينيه و من قوله سبحانه فى هذه الآيه:

وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فالْمُؤْمِنُ يقرأ فى هذه الخاتمه أنّ عليه الاستمرار فى الإيمان و العمل به، و أن يخلص فيه لوجهه تعالى، بل و يتقن أداءه، لأنه فى حضره خالقه الذى لا يمكنه خداعه أو التدليس عليه، فهو الخبير بأعمال الإنسان بأشمل و أطف ممّا عند الإنسان نفسه.

و كلمه أخيره: كما أنّ رساله نور و أنّ الرسول نور فإنّ من يحمل رساله الرسول اليوم و يكون امتدادا لقيادته الربانيه و نائباً عن خلفائه الأئمّه عليهم السلام- فإنّه هو الآخر نور. أ و ليس داعياً إلى الله؟ أ و ليس يحمل رسالات ربه إلى العباد؟ كذلك كان علماء أمه محمّد-صلى الله عليه و آله- كأنبيا بنى إسرائيل. أو ليسوا هم خلفاء الرسول؟ و كذلك نقرأ

فى حديث النبى يعظ سلمان المحمّدى:

«يا سلمان..و إنّ أكرم العباد إلى الله بعد الأنبياء العلماء، ثم حملة القرآن، يخرجون من الدنيا كما يخرج الأنبياء، و يحشرون من قبورهم مع الأنبياء، و يمرّون

ص: ٢٢



على الصراط مع الأنبياء، و يأخذون ثواب الأنبياء، فطوبى لطالب العلم و حامل القرآن ممّا لهم عند الله من الكرامه و الشرف» (١).

[٩] و تأكيد الله على ضروره الإيمان به و برسوله و بنوره المنزل باعتبار ذلك هو طريق النجاه يوم القيامه.

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ أَى يجمع أوصالكم التى تفرقت بعد الموت و يجمعكم إلى بعضكم مؤمنين و كافرين، و كذلك يجمع الناس مع الرسل ليشهدوا عليهم، و سميت القيامه بيوم الجمع و فى مواضع أخرى بيوم الحشر لأنها اليوم الذى تجتمع فيه البشريه كلها من آدم حتى آخر مولود آدمى.

ذَلِكَ يَوْمِ النَّارِ مَا ذَا يَعْنِي النَّارُ، و لماذا سمى يوم القيامه بيوم التغابن؟ الجواب: إنَّ الغبن فى البيع أو الشراء هو ظهور الخديعه و الغلبه، غبن فلانا نقصه فى الثمن و غيره، فهو غابن و ذاك مغبون (٢)، و التغابن من التفاعل أى أن كل فرد أو طرف يسعى لإيقاع الغبن بالآخر، و سميت الآخره بذلك لأمر أهمها:

١- إن لكل إنسان خلقه الله منزلين فى الآخره، أحدهما فى الجنه و الآخر فى النار، فإذا أفلح أن يكون أهلا للجنه ملك قصوره فيها و ورث أهل النار منزله فيها، كما يرث منازل أهل النار التى كانت لهم فى الجنه، و ذلك قوله تعالى:

ص: ٢٣

١- ١) بح/ج ٩٢ ص ١٨

٢- ٢) المنجد/ماده غبن بتصرف

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ\* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١)، و يومئذ يظهر الغبن لدى أهل النار بخسرانهم الجنة و وقوعهم فى الخساره العظمى بدخول جهنم، و لأنّ المؤمنين يرثون منازلهم فى الجنة فكأنّهم أوقعوا بهم الغبن.

٢- إنّ المؤمنين و الكافرين فى صراع و تحدّد دائمين، و كلّ فريق يحاول إيقاع الخساره بالطرف الآخر عبر الإنتصار عليه أو تحطيمه، و حيث أنّ الدنيا دار الابتلاء لكلا الفريقين فهى للكافرين على المؤمنين تاره، و تاره للمؤمنين على الكافرين، و الغبن فيها نسبى محدود، أمّا فى الآخرة و هى دار الخلود فإنّها المصداق الأعظم للتغابن، فالغابن فيها غابن حقاً، و المغبون فيها خاسر بتمام المعنى. صحيح أنّ أساس الغبن فى الدنيا، لأنّ الدنيا هى دار العمل، و لكنّ ظهوره لا يكون إلاّ فى الآخرة و لا يسمّى الغبن غبناً إلاّ بعد أن يظهر للناس جلياً.

وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحاً أَى يترجم إيمانه إلى العمل فإنّ الإيمان الحقيقى بالله أصل كلّ خير و الباعث على كلّ صلاح. يُكْفَرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ أَى الخطايا الجانيه.

وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَاً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ و هذا مصير الطرف الغابن. و فى الآيه إشاره إلى أحد معانى الشفاعه و هى أن

ص: ٢٤

تكون لدى الإنسان حسنات كبيره تذهب بالسيئات الصغيره.

[١٠] و فى نهايه الـدرس الأوّل من سورـه التـغابن يـضع القرآن بين أيدينا صورـه للفريق المغبون، و أىّ غبن و خساره أعظم من الخلود فى عذاب النار؟! وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ بُئْسَ الْمَصِيرُ إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى الْفَوْزِ كَانَ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَصَائِرُ النَّاسِ، وَ فِي اتِّبَاعِ رِسَالِهِ وَ الْقِيَادَاتِ الرَّسَالِيَّةِ، وَ فِي الْعَمَلِ بِمَنْهَجِ الْفَوْزِ الَّذِي تَنْطَوِي عَلَيْهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ، وَ قَدْ نَبَذُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ فَصَارُوا إِلَى الْخَسْرَانِ.

ص: ٢٥

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدْوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَضَيَّفَحُوا وَتَغَفَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يوقِ شَحْنَفِ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٨)

هدى من الآيات:

كيف نتجنّب الغبن فى يوم التغابن؟ ١- لنعلم أوّلاً: أنّ المصائب أقدار إلهيه، و بالإيمان يهتدى الإنسان كيف يتحصّن ضدّها أو يتعامل معها دون أن ينهار.

٢- الطاعه لله و الرسول، و التوكّل على الله لمقاومه ضغوط الشهوات و نوائب الدهر.

٣- الحذر من الأزواج و الأولاد، لأنّ فيهم من هو عدو لنا، ثم العفو عما تبدو منهم من إساءه، و لنعلم أنّهم فتنه، فلنقاوم الفتنه بابتغاء ما عند الله من أجر عظيم.

٤- التقوى حسب المستطاع، و الطاعه للقياده، و مواجهه شحّ النفس بأداء

### بينات من الآيات:

[١١] ليس من تغيّر خيرا كان أو شرا إلا و يمرّ عبر تدبير الله و إذنه.

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لَأَنَّهُ تَعَالَى الَّذِي يَمُدُّ كُلَّ شَيْءٍ بِنُورِ الْوُجُودِ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَ لَأَنَّهُ الَّذِي وَضَعَ السَّنَنَ فِي الْخَلْقِ وَ يَجْرِيهَا بِسُلْطَانِهِ وَ لَيْسَتْ مِنْ مُصِيبِهِ إِلَّا فِي سِيَاقِ تِلْكَ السَّنَنِ، وَ لَهُ الْإِرَادَةُ غَيْرَ الْمَحْدُودَةِ بِأَن يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ وَ يَغَيِّرَ مَا يَرِيدُ. وَ مَا دَامَتِ الْمَصَائِبُ تَكُونُ بِإِذْنِهِ تَعَالَى وَ هُوَ الْحَمِيدُ الْعَادِلُ الْحَكِيمُ فَلَنْ تَكُونَ بِلا سَبَبٍ وَ مِنْ دُونِ حُكْمِهِ، بَلَى. وَ مِنْ حِكْمَتِهِ وَ لَطْفِهِ أَنَّهُ بَيَّنَّ فِي كِتَابِهِ كَيْفَ يَتَخَلَّصُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَصِيبَةِ، وَ لَكِنْ أَنِّي لِلْإِنْسَانِ أَن يَسْتَفِيدَ مِنْ كِتَابِهِ دُونَ أَن يُؤْمِنَ بِهِ؟! وَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ لِهَدَايَةِ الْقَلْبِ هُنَا مَعَانٍ أُبْرَزُهَا:

١- إِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، وَ بِالتَّالِيِ مَعْرِفَهُ أَنَّهُ الْفَعَالُ لَمَّا يَشَاءُ، وَ أَنَّهُ الْمَهِيْمُنُ عَلَى الْعَالَمِ، وَ أَنَّهُ لَا تَقَعُ مُصِيبَةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، مَعْرِفَهُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ جَمِيعًا تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَسْمُو إِلَى سَمَاءِ التَّسْلِيمِ لِلَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ، مِمَّا يَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى الْاسْتِقَامَةِ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ رَغْمَ التَّحْدِيَّاتِ وَ الْمَشَاكِلِ. وَ تَقْدِيمُ هَذَا الْبَيَانِ هُوَ تَمْهِيدٌ لِلْأَمْرِ الْقَادِمِ بِطَاعَةِ الْقِيَادَةِ الرَّسَالِيَةِ حَيْثُ يُوَاجِهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ أَلْوَانَ الْفِتَنِ وَ الْمَصَائِبِ، وَ إِذَا كَانَتِ الْمَصَائِبُ تَسَبَّبَ لِلْكَثِيرِ الْانْحِرَافَ عَنِ سِوَاءِ السَّبِيلِ فَهِيَ لَا تَزِيدُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا إِيمَانًا

المؤمن كما الذهب يزداد صفاء كلما تعرّض لفتنه النار، وإنّ إيمانه بالله ليزيده صله بربه عند المصائب، لأنّه يعلم بأنّها لا تقع إلاّ بإذنه و لا تزول إلاّ بإذنه، و أنّ خير وسيله لتحديّها هو المزيد من الاتصال به و التقرب إليه، بل يزداد إحساسه بالحاجه إلى الله و ضروره الاستعانه به، كما قال تعالى: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١).

٢- كما أنّ الإيمان معراج الروح إلى التسليم فهو معراج الفكر إلى الصواب، فإنّ المصيبه تفقد أكثر الناس توازنهم النفسى لما تحمله من الضغوط، فتزرع فيهم اليأس من التغيير، و قد تشلّ عقولهم عن التفكير، و لكنّ المؤمن يقف أمامها كالجبل الأشم لا تخرجه عن طوره، و هذا يبقيه مهتديا، و قادرا على الوصول إلى الصواب حتى في ظروف المصيبه، بل إنّها تصبح مدخله لكثير من المعارف، فالمرض يدفعه لمعرفة سنن الله في جسم الإنسان، و طغيان الظلمه يجعله يعرف سنن الله في المجتمع، و هكذا..

٣- أضف إلى ذلك أنّه يجد الحل للمصيبه و الموقف السليم منها نتيجة الإيمان، فالإيمان بالله أكثر من مجرد الاعتقاد. إنّ منهجيّه حياه شامله، و المؤمن عند المصيبه يتذكّر بأنّ الله حكيم لا يفعل شيئا إلاّ لسبب فيبحث عن ذلك السبب، و يتذكّر أنّ الإنسان بأعماله هو السبب الرئيسى لكلّ ما يجرى عليه، تسليمًا لقوله تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (٢) ثم يسعى للتغيير ايمانا بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (٣)،

ص: ٢٩

١- (١) البقره ١٥٦/

٢- (٢) الشورى ٣٠/

٣- (٣) الرعد ١١/

و يستعين بالله بكل ما يستطيع من دعاء و صدقه، لإيمانه بأنه على كل شيء قدير، و أنه يمحو ما يشاء و يثبت، و لأنه قال: أَدْعُونِي أَجْتَبْ لَكُمْ (١)، فالمصيبة إذن تتحول عند المؤمن إلى عمل بمناهج الله، و بالتالى الوصول إلى الحل، و ذلك من مصاديق الهدايه.

□  
وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَ هذه الخاتمه تبنى روح التسليم لقضاء الله عند كل مؤمن، حيث تؤكد له أنّ إذن الله و تدبيره متأسس على علمه، فهو لحكمه يعرفها، و لأسباب أحاط بها.

و نجد فى الآيه التفاته لطيفه تتصل بنظريه الجبر التى عالجهها كثير من المفسرين عند هذه الآيه، فقد زعم البعض بأنّ الإنسان ليس له اختيار فى الحياه ما دام الله هو الذى يقدر شؤونها- كالمصائب- و يجريها كيف يشاء! و لكنّ القرآن يحل هذه الإشكاليه باختصار و بأسلوب بليغ حيث يؤكد دور الإنسان فى صنع واقعه و مصيره بالقول: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ . إذن فالهدايه التى هى من عند الله لا- تحصل إلا- بعد إيمان الإنسان نفسه بالله، و على هذه السنه تمضى الحياه بخيرها و شرها، بأفراحها و أحزانها، كما أننا نستطيع أن نفسر كل الحوادث بهذه البصيره.

و سؤال أخير فى الآيه: لماذا قال ربنا: «يَهْدِ قَلْبَهُ» و لم يقل: يهديه، كما فى كثير من الآيات الأخرى؟ و الجواب: أولاً: لبيان أنّ صلاح الإنسان و فساده (هدايته و ضلاله) كلّ ذلك متصل بما ينطوى عليه قلبه من الأفكار و المعتقدات، و بالتالى فإنّ التغيير الحقيقى و الجذرى يتم بتغيير القلب.

ص: ٣٠



ثانياً: لبيان شموليه الهدايه فهدايه الله لقلب المؤمن تجعله خالصاً من كل انحراف و ضلاله، فإنّ القلوب قد تكون مزيجاً من الحقّ و الباطل إلاّ قلب المؤمن حيث يصفو للحقّ دون الباطل و للهدى دون الضلال، أى أنّ الإيمان صنو لهدايه القلب حيث يقوده إلى سائر الحقائق، و يبصره في جميع أبعاده و جوانب الحياه، و كلما زاد إيمان أحد زاد هدى قلبه.

[١٢] و أعظم مصيبه تصيب البشر هي التخلّف في الدنيا و دخول النار و التعرّض لسخط الله في الآخرة، و لكي يتجنّبها الإنسان يجب أن يطيع الله، و يتبع قياده الشرعيه، و يعمل بمناهج الحق التي بلّغها الرسول -صلى الله عليه و آله- و فضّلها أئمه الهدى و العلماء الصالحون. و هكذا يوصل القرآن حقيقه الإيمان بالله و بالآخرة بحقيقه الإيمان بالرسول (القياده الإلهيه). و لقد مهّد السياق للحديث عن طاعه القياده بما تضمّنته الآيه السالفه من بيان عن المصاعب، و انطوت عليه من دعوه للتسليم لله فيها، لأنّ الطاعه لله و اتباع القياده الرساليه التي تنشئ التغيير سوف يتسبب بلا-شك في كثير من المشاكل و الضغوط التي ينبغي تحدّيها بروح التسليم لله عزّ و جل، و لكنّها تقضى على مشاكل أكبر بصوره جذريه.

□ □ □  
وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ نَقَفَ هُنَا عِنْدَ تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَهُوَ تَارَهُ يَقُولُ: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ أُخْرَى يَقُولُ: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ، بِإِضَافَةِ فِعْلِ الْأَمْرِ أَطِيعُوا، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ. أَوْ لَيْسَ الْعَطْفُ بِالْوَاوِ وَحْدَهُ كَمَا لَتَأْدِيهِ نَفْسُ الْمَعْنَى؟ وَ الْجَوَابُ: إِنَّ لِكُلِّ التَّعْبِيرِينَ ظِلَالَهُ الْخَاصَّ فِي الْمَعْنَى وَ النِّفْسِ، وَ لَعَلَّ الْعَطْفَ بِالْوَاوِ وَحْدَهَا يَبَيِّنُ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ هِيَ امْتِدَادُ لَطَاعَةِ اللَّهِ، بَيْنَمَا الْعَطْفُ بِهَا مَعَ الْفِعْلِ: أَطِيعُوا يُؤَكِّدُ اسْتِحَالَه الْفَصْلَ بَيْنَ طَاعَةِ اللَّهِ وَ طَاعَةِ الْقِيَادَةِ الرَّسَالِيَةِ،

بأن يزعم البعض بأنه يكتفى بالقرآن طاعة لله و بعدها لا داعى لطاعه أحد رسولا أو إماما أو عالما..و اللطيف أن هذا التعبير ورد فى سياق سورة التغابن التى تعرضت لإشكاليته الفصل بين طاعه الله و طاعه رسوله حيث قال الكفّار: أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنَا (الآيه ٦)محاولة للفصل بين الطاعتين.و يحذّر الله من عصيانه و رسوله و التولّى لغيرهما إذ يقول:

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ و كفى بهذه الآيه تحذيرا للناس و تهديدا للكفّار.

[١٣]و لما انتقد القرآن موقف الكفر و التولّى من قبل الكفّار تجاه رسلهم لكونهم بشر أمثالهم،و بالتالى التقليل من شأنهم و تبرير عصيانهم،أكد هنا فى سياق أمره بطاعه الرسول(القائد الربانى)و انطلاقا من منهجيته المتوازنه على حقيقه التوحيد كحدّ لتقديس الرسل و الأولياء القاده،فإنه لا يجوز بحال من الأحوال اعتبارهم شركاء لله أو أنصاف آلهه، كما صنع بعض النصارى و اليهود بالنسبه لعيسى و عزيز -عليه السلام-،فالطاعه للقياده و العباده لله وحده.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ و قد أكد القرآن على ضروره التوحيد و التوكّل فى سياق أمره بطاعته و طاعه رسوله لأنّ هناك سببين يدعوان الإنسان للتخلف عن الطاعه لهما:

الأول:الشرك بالله سبحانه شركا مبدئيا باتباع الأفكار و الفلسفات الضاله، أو عمليا بالخضوع للإرادات الأخرى من دون الله لمجاراه الشهوات و المصالح،أو اتباع الطواغيت و الركوع إليهم.و لكى يسمو الإنسان إلى آفاق الطاعه و التسليم لله و لقياده الحق يجب أولا أن يتطهّر من رواسب الشرك،و يتخلّص من أغلاله،

و يتحدّى الأنداد المزعومه.

الثانى: الضعف و الانهزام أمام الضغوط و التحديّات المضاده لخط الرسول و القيادة الإلهيه، فإن أجلى صور التحدى و الضغوط تبرز فى مواجهه النظام الاجتماعى بكلّ أبعاده سياسيًا و اقتصاديًا و اجتماعيًا و أخلاقيًا و يجب على المؤمن أن يستقيم فى خطّ التوحيد رغم ذلك، و هذا بحاجه إلى إرادته صلبه تجعله أشد من الجبال، و هذه يستمدّها من الاستعانه بصاحب القدره الواسعه و التوكل عليه. و ما أوجج الحركات الرساليه و المجاهدين للصمود فى مسيره التغيير عبر التوكل على خالق السماوات و الأرض، و اللاتجاء إلى حصن ولايته و عزّته و قدرته.

[١٤] و يذكّرنا الوحي بأحد أقوى و أخطر التحديّات التى يواجهها المؤمنون فى طريق الجهاد و الطاعه لله و للقياده الرساليه و هو تحدى الأسره، ذلك لأنّ الأسره هى حلقة الوصل الأساسيه بين الإنسان و محيطه الثقافى و السياسى، و لذلك فهى أقرب تأثيرا و أبلغ نفاذا فى إرادته المجاهد.

ثم إنّ مقاومه المؤمنين للطاغوت تنعكس بصوره حادّه و سريعه على أسرهم، فإذا بها كلّها أو بعضها تقف عقبه فى طريق الجهاد، فينهاروا نتيجة الصلوات التى تربطهم بها. و لكى يستقيم المؤمن لا بد أن يتذكّر هذه الحقيقه، و يحرق سفن العوده إلى الشرك، و يتحصّن ضد وسائل الضغوط، و من أبرزها الأسره، و ذلك عبر تحديّها بصلابه التقوى و الإيمان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ

قال الإمام الباقر عليه السلام:- «و ذلك أنّ الرجل كان إذا أراد الهجرة إلى الرسول-صلى الله عليه و آله- تعلق به ابنه و امرأته، و قالوا: ننشدك الله أن تذهب عنّا و تدعنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحدّتهم الله

أبناءهم و نساءهم و نهاهم عن طاعتهم، و منهم من يمضى و يذرهم و يقول: أما و الله لئن لم تهاجروا معى ثم يجمع الله بينى و بينكم فى دار الهجره لا أنفعكم بشىء أبدا» (١).

و فى توجيه القرآن الخطاب للمؤمنين بالذات فى هذه الآيه بيان لحقيقه واقعيه و هى: أنّ المؤمن الحقيقى مجاهد بطبعه، لذلك تتوالى عليه الضغوط و التحديات، و لأنّه من دون سائر الناس يتحمّل المسؤوليه الرساليه، و بالتالى فإنّه الأولى بمثل هذا الخطاب، و الأقرب لفهم معانيه، فهو هنا ذلك الإنسان الذى آمن بربه وحده، و أطاع قياده الحق متوكّلا على الله. و كيف يدرك المتقاعسون معنى التحديات الأسريه و الاجتماعيه و السياسيه و هم يسبحون مع تيارها و ليس ضده كما يفعل المؤمنون الصادقون؟! و لا تعنى الآيه من الأزواج النساء و فقط، فقد تكون الزوجه مؤمنه مجاهده و يكون العدو هم الزوج و الأولاد فهى مسئوله أيضا. و ما أروع موقف وهب الأنصارى حينما تحدّى تشييط زوجته إذ تعلّقت به لتردعه عن خوض القتال دفاعا عن الإسلام بين يدى الإمام الحسين -عليه السلام- و لكنّه اندفع إلى الشهاده، لأنّ حبّ الله كان أنفذ بقلبه من عاطفته تجاه زوجته الشابه! و ما أعظم موقف آسيه بنت مزاحم و هى تتحدّى طغيان زوجها فرعون حتى استشهدت موثقه بالأوتاد! و لعمري إنّ التاريخ الرسالى لحافل بمواقف البطوله للنساء و الرجال على سواء، الذين فكّوا حلقة الأسره، و انطلقوا فى رحاب الدفاع عن القيم الساميه.

و كما أنّ العداوه تتخذ ألوانا فإنّ عداوه الأزواج و الأولاد قد لا تظهر على شفره سيف، و لا سنان رمح، و لكنّها تتمثل فى مظاهر أخرى عاطفيه و اجتماعيه و اقتصاديه، فحينما يكون المؤمن متفانيا لقضيته منصهرا فى بوتقه أهدافه فإنّ معاداه

ص: ٣٤

أسرته للقضية و الأهداف هي في الواقع معاداه له ذاته،و لو جاءت تلك المعادات في صوره قشيبه من جهه التظاهر بحبه.

و إذا لم يحذر المؤمن هذه العداوه فإنّ عاقبته الخسران،ذلك أنّ الطغاه و المترفين و الكسالى و الرجعيين يحسنون استخدام سلاح الأسره ضد المؤمن الرسالى،لذلك تراهم ما يبرحون يسعون بشتى الأساليب ترغيبا و ترهيبا و تضليلا لإدخالها في معادله الصراع ضد الرساليين.

فأخذروهم أى خذوا الحيطه المسبقه،و تحصنوا ضد عداوتهم.و أمره تعالى بالاحتياط هنا ثم دعوته إلى الصفح و التسامح بعدئذ يدلّ على أنّ العداوه المعنیه ليست التى تصل إلى حدّ القتال بل هي العداوه الخفيه،كالتى تستهدف التثييط و النيل من عزيمه الجهاد لدى الإنسان المؤمن.

و ثمّيه ملاحظه جديره بالانتباه تجدها في وزن كلمات الآيه من الزاويه البلاغيه،فقد قال تعالى:«عدوا»بالإفراد،ثم قال:«فاحذروهم»بالجمع، لأنّ العدو قد يكون واحدا منهم و لكنّه مندسّ بين أبناء العائله و مؤثر فيهم فلا بد أن يحذر المؤمن الجميع و يتوجس خيفه من أى كلمه تثبيط تتغلّف بالودّ و العاطفه، سواء صدرت من أمه و أبيه أو زوجته و بنيه أو أخته و أخيه،و بهذا الحذر وحده يستطيع أن يتجنّب الفضل الذى وقع فيه الكثير من الناس،فما أكثر القرارات الصائبه التى ضربت عرض الحائط بسبب دمعته تحلّقت في جفون الزوجات أو كلمه عاطفيه صدرت من أم أو أب؟! و ليست الدعوه إلى الحذر تعنى المقاطعه التامه مع الأسره،كلا..بل لا بد أن يتحرك في علاقاته ضمن معادله متوازنه إحدى كفتيها الاحتياط و الحذر،و الأخرى

وَ إِنْ تَعَفُّوا وَ تَصْفِحُوا وَ تَغْفِرُوا وَ هَذِهِ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ لَصَفِّهِ وَاحِدَةٌ هِيَ التَّنَازُلُ عَنِ الْحَقُوقِ الشَّخْصِيَّةِ بِالسَّمَاحَةِ وَ سَعَةِ الصَّدْرِ لِمَصَالِحِ الْأَسْرَةِ. وَ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَسْمُوَ بِنَفْسِهِ إِلَى آفَاقِ الْحِلْمِ وَ السَّمَاحَةِ تَخَلُّقًا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ، وَ يَتَحَمَّلُ بَعْضَ الْإِسَاءَاتِ مِنْ أَجْلِ جَذْبِ أَسْرَتِهِ إِلَى الرِّسَالَةِ.

□  
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يَغْفِرُ لِلْمُتَسَامِحِينَ وَ يَرْحَمُهُمْ، وَ هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ التَّسَامُحِ. وَ تَحْسَسُ الْمُؤْمِنُ بِحَاجَتِهِ إِلَى غَفْرَانِ اللَّهِ وَ رَحْمَتِهِ لَا شَكَّ يَدْعُوهُ لِلتَّلَطُّفِ بِمَنْ هُوَ تَحْتَ يَدِهِ وَ قُدْرَتِهِ.

وَ نَعُودُ الْآنَ إِلَى مَعْنَى الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ: (العفو، الصفح، الغفران)، فَالْعَفْوُ هُوَ التَّنَازُلُ عَنِ حَقِّ الْإِنْتِقَامِ وَ الْمِمَاثَلَةِ فِي الْقِصَاصِ وَ بِالذَّاتِ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ، وَ الصَّفْحُ دَرَجَةٌ أَرْفَعُ، إِذْ قَدْ يَتَنَازَلُ الْإِنْسَانُ عَنِ حَقِّهِ فِي الْاِقْتِصَاصِ مِثْلًا وَ لَكِنَّ عِلَاقَتَهُ مَعَ الطَّرْفِ الْآخَرَ تَبْقَى كَدَرِهِ بِسَبَبِ الْإِسَاءَةِ، أَمَّا إِذَا صَفِّحَ عَنْهُ فَهُوَ يَطْوِي صَفْحَهُ الْمَاضِي وَ يَفْتَحُ صَفْحَهُ الْجَدِيدَ فَتَعُودُ عِلَاقَتُهُ الظَّاهِرَةَ بِهِ عِلَاقَةً طَبِيعِيَّةً، وَ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ تَزُولَ الْآثَارُ النَّفْسِيَّةُ الدَّخَالِيَّةُ بِذَلِكَ، بَلَى. إِذَا غَفَرَ أزالَ حَتَّى هَذِهِ الْآثَارَ، بَلْ وَ تَنَازَلَ عَنِ طَلْبِ الْإِنْتِقَامِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ. وَ هَذِهِ الصِّفَاتُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا الْمُؤْمِنُ تَجَاهَ أَسْرَتِهِ وَ الْآخَرِينَ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَ فِي كُلِّ الظُّرُوفِ، وَ بِالذَّاتِ عِنْدَ مَا يَحْتَدِمُ الصَّرَاعُ الْمَبْدِئِيُّ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُمْ، فَإِنَّ هَذَا الصَّرَاعَ يَنْبَغِي أَنْ يَبْقَى فِي حُدُودِ الْمَبْدِئِ وَ لَا يَتَحَوَّلَ إِلَى صَّرَاعِ شَخْصِيٍّ مُسْتَمِرٍّ، فَإِذَا عَادَتِ زَوْجَتُهُ الَّتِي كَانَتْ تَمْنَعُهُ مِنَ الْعَمَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى رَشْدِهَا أَوْ اقْتِنَعَتْ أَبَواهُ وَ سَائِرَ أَسْرَتِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْسِيَ الْإِسَاءَاتِ الَّتِي صَدَرَتْ مِنْهُمْ تَجَاهَهُ، وَ لَا يَذْكُرْهُمْ بِهَا، وَ لَا يَحْمِلُ فِي نَفْسِهِ

غضاضه، ولا يطالبهم بالغرامه، و ما أشبه.

[١٥] وقد لا تبدر العداوه من قبل الأسره تجاه المؤمن، و لكنّه يفتن بهم أو بماله، و لربما نجد البعض تحرّضه زوجته أو أسرته على الجهاد و لكنّ تفكيره فى مستقبلها بعده يمنعه من الإقدام عليه، لذلك حدّثنا الله عن ذلك بقوله:

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ قَدْ يَنْجَحُ الْمُؤْمِنُ فِي مَوَاجَهَتِهَا وَ قَدْ يَفْشَلُ وَ لَكِنَّمَا كَلَّمَهَا بِالْحَصْرِ وَ دُونَ اسْتِثْنَاءِ فِتْنَتِهِ، أَى أَنَّمَا تَضَعُهُ أَمَامَ مَفْتَرِقِ طَرِيقَيْنِ: أَحَدُهُمَا الْحَقُّ وَ الْآخَرُ الْبَاطِلُ، وَ تُثِيرُ فِيهِ نَفْسَهُ الْأَمَارَةَ وَ الْآخَرَى اللّوَامَةَ، لِيَخْتَارَ بِعَقْلِهِ وَ يَمْشَى بِإِرَادَتِهِ فِي أُيْتِهِمَا شَاءَ.

وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَ إِنَّمَا يَذْكُرُ رَبَّنَا بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الصَّادِقَ بِهَا كَفِيلٌ بِأَن يَدْفَعَ الْإِنْسَانَ لِتَجَاوُزِ الْفِتْنَةِ بِنَجَاحٍ فَيَخْتَارُ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَا فِى الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ تَرْغَبُ الْمُؤْمِنُ لِيَسْخَرَ الْأَمْوَالَ وَ الْأَوْلَادَ فِى سَبِيلِ الْحَصُولِ عَلَى مَا عِنْدَهُ تَعَالَى، وَ لَيْسَ جَعَلَهَا عَقِبَهُ دُونَ ذَلِكَ، وَ فَرَقَ بَيْنَ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الَّذِى جَعَلَ أَوْلَادَهُ وَ أَصْحَابَهُ وَ أَهْلَ بَيْتِهِ وَ أَمْوَالَهُ وَسِيلَهُ لِلتَّقَرُّبِ مِنَ اللَّهِ وَ بَيْنَ الزَّبِيرِ الَّذِى أَدْخَلَهُ افْتِتَانَهُ بَوْلَدِهِ عَبْدِ اللَّهِ فِى حَرْبٍ مَعَ وَلِيِّ اللَّهِ وَ حَزْبِهِ فِى مَوْقِعِهِ الْجَمَلِ،

فَقَالَ عَنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَصِفُ عَامِلَ الْإِنْحِرَافِ فِى حَيَاتِهِ: «مَا زَالَ الزَّبِيرُ رَجُلًا مِّنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ حَتَّى نَشَأَ ابْنَهُ الْمَشْؤُومَ عَبْدِ اللَّهِ» (١)، لِأَنَّهُ الَّذِى دَفَعَهُ إِلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَ الرَّئَاسَةِ، وَ حَرَّضَهُ عَلَى الْحَرْبِ ضِدَّ الْإِمَامِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - . وَ هَذِهِ الْبَصِيرَةُ تَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ يَتَصَرَّفُ تَصَرَّفًا مَعْتَدِلًا مَعَ أَمْوَالِهِ وَ أَوْلَادِهِ، فَلَا يَفْرُطُ فِى حَقِّ أبنَائِهِ، وَ لَا يَبْدُرُ فِى صَرْفِ أَمْوَالِهِ، إِنَّمَا يَتَّبِعُ طَرِيقًا وَسَطًا يَزِنُ كُلَّ مَوْقِفٍ مِنْهُ

ص: ٣٧

تجاههما بدقه، و يتصرّف بحكمه، و يتجنّب الاسترسال في موقف إيجابي أو سلبي.

و هكذا روى المفسرون حديثا عن الرسول-صلى الله عليه و آله-نستلهم منه معنى إيجابيا للفتنه، و أنّها لا تعنى طرد الأولاد أو نبد الأموال، بل التصرف الحكيم معها. الحديث كما يلي:

روى عبد الله بن يزيد عن أبيه قال: كان رسول الله يخطب فجاء الحسن و الحسين-عليهما السلام-و عليهما قميصان أحمران يمشيان و يعثران، فنزل رسول الله إليهما فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر، و قال: «صدق الله عزّ و جل: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ يَمْشِيَانِ وَ يَعْتِرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَ رَفَعْتُهُمَا»، ثم أخذ في خطبته (١).

[١٧-١٦] و ليس من درع يتحصن به المؤمنون ضد الفتن أفضل من تقوى الله، لأنها الجبل المتين الذى يوصل الإنسان بربه فى كل مكان و فى كل لحظه من عمره، و فى كل سعى و قول يصدر عنه. هذا أولاً، و ثانياً: السماع لله و لرسوله و الطاعه لهما، و ثالثاً: الإنفاق فى سبيل الله و التضحية بكل ما يملكه الإنسان، فإنّ ذلك هو السبيل المستقيم لنيل ما عنده تعالى من الأجر، و الإنتصار على شح النفس الذى هو أساس كل انحراف فى حياه البشر، و بالتالى الفلاح الحقيقى فى الدنيا و الآخرة.

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ هَذِهِ آيَةٌ بَيَانُ لِقَوْلِ اللَّهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ (٢)، و ذلك

ص: ٣٨

١-١) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٠١

٢-٢) آل عمران ١٠٢/



من وجهين:

الأول: أن الله سبحانه حينما فرض التقوى على الإنسان أعطاه من الاستطاعة ما يمكنه بها إحرازها كما يريد من الله تعالى،

قال الإمام الصادق -عليه السلام-: «ما كلف الله العباد كلفه فعل ولا نهاهم عن شيء حتى جعل لهم الاستطاعة ثم أمرهم و نهاهم» (١) و

قال -عليه السلام-: «و إنما وقع التكليف من الله تبارك و تعالى بعد الاستطاعة، و لا يكون مكلفاً للفعل إلا مستطيعاً» (٢) كما قال تعالى:

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (٣). إذن فتقوى الله بقدر ما يستطيع الإنسان هي نفس حقّ التقاه.

الثاني: أن تقوى الله حقّ تقاته تختلف من إنسان إلى آخر باختلاف الظروف و الإمكانيات الذاتية، فتقوى الأعمى و المريض تختلف عن تقوى السليم في بدنه، و تقوى العالم تختلف عن تقوى الجاهل، و تقوى السجين تختلف عن تقوى الحر، و هكذا.. فإذا ما بذل الإنسان كلّ ذرّه من جهد يستطيعه فقد اتقى ربه حقّ تقاته عملياً. و لذلك فرّق تعالى في الكم بين إنفاق الموسع و المقتر فقال: لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَ مَن قَدِرْ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا (٤).

و نستوحى من الآية: أن المؤمن يجب أن يكون واقعياً في نظره إلى الدين، فيتقى الله حسب استطاعته و مكنته، و إذا لم يستطع فلا يؤنّب نفسه و لا يقنط من

ص: ٣٩

١- ١) نور الثقلين/ ج ٥ ص ٣٤٣

٢- ٢) المصدر

٣- ٣) البقره ٢٨٦/

٤- ٤) الطلاق ٧/

رحمه الله، بل يفعل بقدر وسعه. مثلا: من لم يستطع طولا أن يصلّي قائما فلا يترك صلاته رأسا، بل يصلّيها عن جلوس، و من لم يستطع أن يعارض حاكم السوء فلا يجاربه بقلبه بل يتقيه ظاهرا و يستمر في مقاومته في السر، وهكذا..

قال تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءَ (١)، وقال: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ (٢).. والحاصل: أنّ الإنسان حينما يضطر إلى التقوى الممكنة عملياً لسبب مشروع فهو في الواقع صار إلى التقوى المأمور بها، لأنّ تقوى الله حقّ تقاته تكون بالتزام أحكامه سواء كانت أحكاماً أولية أو ثانوية، وقد لا- تحرز التقوى بحق إلا- بشرب الخمر و أكل الميتة و العمل ظاهرياً في جهاز الحاكم الجائر، كما أكد ذلك الإمام الكاظم- عليه السلام- لصاحبه على بن يقطين الذي أراد الاستقاله من رئاسه الوزراء في عهد هارون حيث منعه و بين له بأنّ بقاءه هو الواجب المطلوب شرعا.

و الآيه الكريمة التي نحن بصددنا تعبير عن النظره الواقعيه في الإسلام، و ينبغي للحركات الرساليه اعتبارها أصلا من أصول التحرك حيث أنّ النظره المثاليه إلى الشريعه تجعل الأولويات ضحيه للأمر الثانويه و الأصول ضحيه للفروع.

وَ اسْمِعُوا وَ اطِيعُوا فَالْمهم إذن ليس الاستماع إلى كلام الله و توجيهات قياده الرساليه فقط، إنّما الأهم هو الطاعه و الإتياع، لأنّ التوجيه لا يؤثر في الواقع إلا إذا سلّمنا له و عملنا بمضامينه، و بالذات تلك التي تتطلب من الإنسان التضحيه لأنها الأصعب،

ص: ٤٠

١-١) آل عمران ٢٨/

٢-٢) النحل ١٠٦/

و التزام الإنسان بها مؤشّر على عمق إيمانه، و اقتحامه عقبه الشح الكبرى. لذا قال تعالى:

وَ أَنْفَقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ أَيُّ أَنَّ الْإِنْفَاقَ يَعُودُ عَلَى صَاحِبِهِ بِالْخَيْرِ، فَهُوَ يَزْكِي النَّفْسَ وَيَزِيدُ إِيمَانَهَا، وَ يَتَقَدَّمُ بِالْمَجْتَمَعِ اقْتِصَادِيًّا لِمَا يَسْبَبُهُ مِنْ نَمَاءٍ فِي الثَّرْوَةِ وَ تَدْوِيرٍ لَهَا. وَ لِلآيَةِ تَفْسِيرٌ آخَرٌ هُوَ: أَنْفَقُوا خَيْرًا فِي مَقَابِلِ الشَّرِّ، فَإِنَّ الْخَيْرَ هُوَ الَّذِي يَعُودُ لِلنَّفْسِ وَ الْمَجْتَمَعِ بِالنَّفْعِ.

وَ مِمَّنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَ شَحَّ النَّفْسَ هُوَ مَجْمُوعُ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَةِ الَّتِي تَعْبُرُ عَنِ حُبِّ الذَّاتِ وَ حُبِّ الدُّنْيَا، كَالْبُخْلِ وَ الْحِرْصِ وَ الْعِنْصَرِيَّةِ وَ مَا أَشْبَهَهُ، وَ إِذَا انْتَصَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى شَحِّ نَفْسِهِ صَارَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ لِأَنَّهُ جَذَرَ كُلَّ ضَلَالٍ وَ انْحِرَافٍ وَ مَعْصِيَةٍ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ، وَ لِأَنَّ الْإِنْتِصَارَ عَلَيْهِ يَفْتَحُ الطَّرِيقَ لَهُ نَحْوَ كُلِّ فَضِيلَةٍ وَ صِلَاحٍ، وَ لِذَلِكَ

يَحَدِّثُنَا أَبُو قَرَّةً فِيَقُولُ: رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (الإمام الصادق عليه السلام) يَطُوفُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى الصَّبَاحِ وَ هُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ قِنِي شَحَّ نَفْسِي، فَقُلْتُ: جَعَلْتَ فِدَاكَ مَا سَمِعْتُكَ تَدْعُو بِغَيْرِ هَذَا الدَّعَاءِ؟ قَالَ: وَ أَيُّ شَيْءٍ أَشَدَّ مِنْ شَحِّ النَّفْسِ، وَ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: «وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١) وَ الْإِنْفَاقَ مِنْ أَهَمِّ الْعَوَامِلِ الَّتِي تَقْضِي عَلَى شَحِّ النَّفْسِ،

جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: «مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ فَقَدْ وَقَى شَحَّ نَفْسِهِ» (٢) إِنَّ تَقْرِيضَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُهُ لَكُمْ

ص: ٤١

١-١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٣٤٦

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٠١

ما هو القرض هنا؟ قال بعضهم: هو الدين، وقال البعض: بل هو كل إنفاق، أو الإنفاق المندوب (بينما الأول كان في عموم الإنفاق). و  
أنى كان فإن لكل هذه المفردات آثارا مباركه في حياه الفرد و المجتمع، و لها أيضا آثار معنويه تتصل بمصير الإنسان في  
الآخره، إذ تسبب في غفران الذنوب باعتباره من الحسنات الكبيره التي تشفع في السيئات.

□  
وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ فهو يرد القرض مضاعفا بشكره، و يغفر الذنوب بحلمه.

[١٨] و كلما كان الإنفاق أصفى من شوائب الرياء و السمعه و المنّ و الاستكبار و ابتغاء المصالح الماديه كلما كان أقرب إلى الله  
و أنفع للنفس و أزكى لها، و ربما لذلك ختمت السوره بالتذكره بأسماء الله:

□  
عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ يعرف ما ينفق، و يعرف لماذا و بأيئه نيه.

□ □  
الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ إِنْفَاقٍ أَحَدٍ أَوْ نَصْرٍ أَحَدٍ، قال سبحانه وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَعْنَىٰ اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

الْحَكِيمُ الَّذِي يَثِيبُ مَنْ يَثِيبُ بِقَدْرِ طَاعَتِهِ وَ إِخْلَاصِهِ، و يعاقب من يعاقب حسب ذنبه و كفره.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يتبصر هذه الحقائق حتى لا نكون من المغبونين.

سوره الطلاق

اشاره

ص: ۴۳



## فضل السوره

من كتاب ثواب الأعمال و عقابها للصدوق (رض) بإسناده عن أبي عبد الله الصادق -عليه السلام- قال: «من قرأ سورة الطلاق و التحريم في فريضه أعاده الله من أن يكون يوم القيامة مَمَّن يخاف أو يحزن، و عوفى من النار، و أدخله الله الجنة بتلاوته إِيَّاهما، و محافظته عليهما؛ لأنَّهُما للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله» تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٣٤٦

فى بادئ الأمر يتراءى أنّ سورة الطلاق تتحدث عن قانون الطلاق، و لكن حينما نتدبر فى سياقها نجد محور السوره الحديث عن التقوى، و ما الحديث عن قانون الطلاق و سنن الله فى الغابرين و..و..إلا إطارا لهذا المحور، و السؤال: ما هو سبب مزج السياق بين الأحكام الشرعيه و بين الأوامر المؤكده بالتقوى؟ و الجواب:

١- إنّ التقوى هى أفضل ضمانه لتنفيذ الأحكام الشرعيه، و التزام الحدود الإلهيه، و الإعتبار بالمواعظ، و العمل بقيم الذكر، و بالذات فى صورتين:

الأولى: القضايا الفرديه التى لا تتصل بالنظام السياسى للأمه بقدر اتصالها بالنظام الاجتماعى و بالقرارات الفرديه للإنسان.

الثانيه: غياب النظام الإسلامى المتكامل (المجتمع الإسلامى، و الحكومه الإلهيه) إذ مع وجود هذا النظام يصعب على الفرد أن يتجاوز حدود الله، لأنه



سيجد من يمنعه و يقف في طريقه، و بالذات في المسائل الاجتماعيه، لذا فقد يلتزم الإنسان بالأحكام خشيه الناس و القانون، أما إذا نمت روح التقوى عند أحد فإنّ من ربه ستكون أعظم من كلّ شيء، و ذلك ما يدعوه لاتباع الحق في أى مكان و زمان حتى لو لم يكن ثمّه نظام إسلامى قائم، بل و لو كان وحده لا يراه أحد من الناس.

٢- أنّ حقيقه التقوى لا- تنمو في القلب إلا إذا اتصلت بمجمل سلوك الإنسان، فهي ليست مفهوما ذهتيا أو ماده للمعرفه، إنّما هي صبغه حياه و لون سلوك، و منهج تكامل، و موقف من الأحداث المتحركه حول الإنسان، لذلك يحدثنا الوحي عنها عبر تيارات الحياه و تطوراتها، و أمواج ضغوطها المختلفه، لكي لا نتعامل مع التقوى كقضييه مجرّده، و بعيده عن التفاعل في قضايانا اليوميه.

و بهذه الطريقه تتصل التقوى بكلّ التعاليم الدينيه، فإذا أمر الله بالتقوى عند الحديث عن قانون الطلاق فإنّ معناها يكون الالتزام بأحكام الله و حدوده فيه.



## [سوره الطلاق (٦٥): الآيات ١ الى ٥]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدُّهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرٌ اللَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)



**هدى من الآيات:**

الأسره كما يراها الإسلام هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع الإسلامى، وقد أولاها القرآن اهتماما بالغاً باعتبارها حصن الفرد و المجتمع، و المدرسه التى تتربى فيها الأجيال، فهو ما يفتأ يعالج القضايا المتصله بها بين سوره و أخرى، ليرسم المنهج المتكامل لمسيره النكاح و المعاشره و التربيه، و لنظامها الداخلى (الدخول و الخروج، و الأكل و النوم) و علاقاتها المختلفه، و فيما بينها حالات الشقاق و الطلاق.

و بالرغم من أنّ بعضاً من المذاهب كالمسيحيه الكاثوليكيه تحزّم الطلاق البته، و بالرغم من أنّه فى شريعته الإسلام نفسه أبغض الحلال إلى الله،

فقد جاء الحديث المأثور عن النبى -صلى الله عليه و آله- أنّه قال: «تزوّجوا و لا تطلّقوا فإنّ

جاء فى حدِيث آخر عنه-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ-: «لَا تَطْلُقُوا النِّسَاءَ إِلَّا مِنْ رَبِّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الذُّوْاقِينَ وَالذُّوْاقَاتِ» (٢) إِلَّا أَنَّهُ تَعَالَى يَشْرَعُهُ لِأَنَّ الرُّوَابِطَ الزَّوْجِيَّةَ فِي نَظَرِ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا وَضَعَتْ لِأَهْدَافٍ فَرْدِيَّةٍ وَأَسْرِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَحَضَارِيَّةٍ، فَإِذَا أَصْبَحَتْ لَا تُؤَدِّي الْأَغْرَاضَ أَوْ أَضْرَّتْ بِهَا فَإِنَّ الطَّلَاقَ يَصِيرُ الْأَوْلَى مِنْهَا.

وَحَيْثُ أَنَّ الطَّلَاقَ عَمَلِيَّةٌ هَدَمَ لِكَيَانَ الْأَسْرَةِ فَقَدْ أُسِّسَ اللَّهُ دِينَهُ عَلَى الْوَقَايَةِ مِنْهُ، وَفِي هَذَا السِّيَاقِ تَنْتَظِمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْقِيُودِ الَّتِي وَضَعَتْ لِیَصْبِحَ الطَّلَاقُ مَشْرُوعًا، كَوَجُوبِ الْعَدَّةِ، وَبَقَاءِ الزَّوْجَةِ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا حِينَهَا لَا هُوَ يَخْرُجُهَا وَلَا هِيَ تَخْرُجُ مِنْهُ، وَحُضُورِ شَاهِدِي عَدْلٍ حِينَ الطَّلَاقِ، وَ مَا إِلَى ذَلِكَ.

وَلَا يَعتَبَرُ الْإِسْلَامُ الطَّلَاقَ مَسْأَلَةً شَخْصِيَّةً يَتَصَرَّفُ فِيهَا الرَّجُلُ كَيْفَ يَشَاءُ -كَمَا يَظُنُّ الْبَعْضُ، وَكَمَا هِيَ عِنْدَ بَعْضِ الْمَذَاهِبِ-، إِنَّمَا هُوَ قَضِيَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ قَسَّ كَيَانَ الْأَسْرَةِ بِصُورِهِ خَاصَّةً وَالمَجْتَمَعِ بِصُورِهِ عَامَّةً. لِذَا يَضَعُ اللَّهُ حُدُودًا يَحْدَرُ مِنْ تَجَاوُزِهَا، بَلْ لَا يَقَعُ الطَّلَاقُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْقَانُونِيَّةِ وَالْوَاقِعِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ إِلَّا ضَمْنَهَا.

وَ يَلَاحِظُ إِلَى جَانِبِ السِّيَاقِ الَّذِي يَعالِجُ مَشْكَلَةَ الطَّلَاقِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْقَانُونِيَّةِ تَأْكِيدَاتٌ مَتتَالِيَةً عَلَى أَهْمِيَّةِ التَّقْوَى وَبَصِيغٍ مُخْتَلَفَةٍ، لِأَنَّهَا الدَّرْعُ الَّتِي تَحْصِنُ المَجْتَمَعُ ضَدَّ المَشَاكِلِ كَالطَّلَاقِ، وَ لِأَنَّهَا الضَّمَانَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَ الْأَهْمُ لِلتَّرَامِ الْإِنْسَانَ بِحُدُودِ اللَّهِ وَ تَنْفِيذِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَ زَمَانٍ.

ص: ٥٢

١-١) مَجْمَعُ الْبَيَانِ/ج ١٠ ص ٣٠٤.

٢-٢) المَصْدَرُ.

[٢-١] فى أول آيه من السياق يوجه الله الخطاب إلى رسوله بصورة خاصه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ بِاعْتِبَارِهِ مَسْئُولًا عَنِ الْأُمَّةِ وَشَاهِدًا عَلَيْهَا، ثُمَّ يَعْمَ الْمُسْلِمِينَ بِبَلَاغِهِ فَائِقَهُ: «طَلَّقْتُمْ»، وَذَلِكَ لِكَيْ يَنْسِفَ الْمِزَاعِمَ الَّتِي تَقُولُ بِأَنَّ عِلَاقَةَ الرَّجُلِ بِزَوْجَتِهِ وَتَدْبِيرَهُ لِشُؤُونِهَا أَمْرًا خَاصًّا بِهِ، وَلا يَمْتُّ بِصِلِهِ إِلَى الدِّينِ الَّذِي تَمَثَّلَهُ الْقِيَادَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، وَيُؤَكِّدُ بِأَنَّ هَذَا الْوَهْمَ غَلَطٌ فَاضِحٌ، لِأَنَّ عِلَاقَةَ الرَّجُلِ بِزَوْجَتِهِ لا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ مَصَالِحِ الْفَرْدِ بَلْ تَنْتَشِرُ إِلَى كُلِّ امْرَأَةٍ. أَوْ لَيْسَتْ الزَّوْجَةُ عَضْوَةٌ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَبِالتَّالِي لَهَا امْتِدَادَاتُهَا وَعِلَاقَاتُهَا بِالْمَجْتَمَعِ وَبِقِيَادَتِهِ؟ فَلا بُدَّ إِذَا أُنْ يَكُونُ التَّعَامُلُ مَعَهَا ضَمَّنَ حُدُودَ اللَّهِ وَتَوْجِيهَ الْقِيَادَةَ الْإِلَهِيَّةَ، وَلِذَلِكَ بَدَأَ الْخُطَابَ بِالنَّبِيِّ ثُمَّ تَوَسَّعَ إِلَى سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ وَالمَلاحِظُ أَنَّهُ تَعَالَى قَال: طَلَّقْتُمُ بَصِيغَةَ الْمَاضِي، ثُمَّ قَال: «فَطَلَّقُوهُنَّ» مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلطَّلَاقِ مَرَحَلَتَيْنِ: الْمَرَحَلَةَ النَّفْسِيَّةَ الْدَاخِلِيَّةَ، وَالمَرَحَلَةَ الْقَانُونِيَّةَ الظَّاهِرِيَّةَ، وَتِلْكَ تَسْبِقُ هَذِهِ إِلَّا- أَنَّهَا لا تَكْفِي لِتَحَقُّقِ الطَّلَاقِ لِأَنَّهُ يَجِبُ إِجْرَاءُ الطَّلَاقِ وَفَقَ حُدُودَهُ وَ مِنْهَا الصِّيغَةُ الَّتِي تَفِيدُ إِيقَاعَهُ كَقَوْلِ الرَّجُلِ: زَوْجَتِي فَلَانَهُ طَالِقٌ، أَوْ: أَنْتِ طَالِقٌ.. كَمَا يَفِيدُ قَوْلُهُ: «طَلَّقْتُمْ» الْجُزْمَ وَالِاسْتِقْرَارَ أَى جُزْمَتُمْ وَاسْتَقْرِيْتُمْ عَلَى هَذَا الْقَرَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ وَ أَرَدْتُمْ إِيقَاعَهُ.

و لعل كلمه «النساء» تنصرف إلى الزوجات اللاتي تمّ الدخول بهن، فإنّ غير المدخول بها ليس لها عدّه، لأنّ الحكمه منها حسب الأخبار منع اختلاف المياه، وهذا منتف إلا في المدخول بهن.

و لأنّ هناك طلاق الجاهليّ و طلاق البدعه لم يدع الوحي الكلمه هكذا إنّما حدّد النوع المشروع و الصحيح من الطلاق، و هو الذى الآيات اللا-حقه تأتى على بيان حدوده و شروطه، و من شروطه العده، و أن يتمّ فى طهر لم يواقعها فيه، لأنّه وحده الذى يدخل فى حساب العده الشرعيه (١).

فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ و كلمه «طلّقوهن» من الناحيه القانونيه تعتبر تشريعا للطلاق، الأمر الذى يختلف فيه الإسلام عن بعض المذاهب التى حرمتها و منعته فلم تحل المشكله، بل تسبب فى كثير من المشاكل النفسيه و الأسريه و الاجتماعيه. و لم يقل الله للعده لكونها تختلف عن امرأه لأخرى، فعده الحامل تختلف عن غير الحامل، قالوا فى تفسير كلمه «لعدّتهن» أى لزمان عدتهن، و ذلك أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه، عن ابن عباس و ابن مسعود و الحسن و مجاهد و ابن سيرين و قتاده و الضحّاك و السدى، فهذا هو الطلاق للعده لأنّها تعتد بذلك الطهر من عدتها، و تحصل فى العده عقيب الطلاق. فالمعنى فطلقوهن لطهرهن الذى يحصيهن من عدتهن، و لا تطلقوهن لحيضهن الذى لا يعتدون به من قرئهن، فعلى هذا يكون العده الطهر (٢).

و تهدينا الآيه إلى أنّ المرأه لا- تنفصل كلياً عن زوجها بمجرد أن تنطق من لسانه صيغه الطلاق الأولى، لتكون حرّه فى اختيار غيره مثلاً، إنّما تبقى فى بيته و تحت مسؤوليته أثناء عدتها، فإذا انتهت العده سرى مفعول الطلاق عملياً فتنفصل المرأه عن زوجها تماماً لتصبح فى غير عهده إلاّ أن يرجع إليها و ترجع إليه، لذلك قال تعالى:

ص: ٥٤

- 
- ١- ١) قال الامام الصادق عليه السلام «لا طلاق إلاّ على طهر من غير جماع» نور الثقلين/ ج ٥ ص ٣٤٧ نقلاً عن أصول الكافى.  
٢- ٢) مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٣٠٣.



وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ قَدْ أَمَرَ الرَّجُلُ بِالذَّاتِ بِالْإِحْصَاءِ لِأَنَّ الطَّلَاقَ بِيَدِهِ وَ لِأَنَّهُ الْمَسْئُولُ عَنِ الْمَرْأَةِ فِي سَكْنِهَا وَ نَفَقَتِهَا وَ حِمَايَتِهَا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَحْصِيَ لِكَيْ يَعْرِفَ بِالضَّبْطِ مَتَى يُمْكِنُهُ التَّحَلُّلُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ. وَ التَّأَكِيدُ عَلَى التَّقْوَى بَعْدَ الْأَمْرِ بِإِحْصَاءِ الْعِدَّةِ يَهْدِينَا إِلَى ضَرُورَةِ الدَّقَّةِ فِي الْحِسَابِ، لِأَنَّ التَّقْوَى هِيَ الَّتِي تَمْنَعُ الْكُذْبَ وَ التَّلَاْعِبَ. وَ فِي الْآيَةِ تَحْذِيرٌ لِلزَّوْجَيْنِ بِأَنَّ اللَّهَ رَقِيبٌ وَ شَاهِدٌ لَا يُمْكِنُ مَخَادَعَتَهُ أَبَدًا، وَ يَنْبَغِي اتِّقَاءَ سَخَطِهِ وَ عَذَابِهِ. وَ لِأَنَّ فِتْرَةَ الْعِدَّةِ مَصِيرِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ لِعِلَاقَةِ الطَّرْفَيْنِ فِيهَا يَرَاغِبُ الرَّجُلُ نَفْسَهُ وَ يَقِيمُ زَوْجَتَهُ مِنْ جَدِيدٍ لِيَقْرَرَ الرَّجُوعَ إِلَيْهَا أَوْ الْإِنْفِصَالَ عَنْهَا فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرِاقِبَ اللَّهَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَ يَكُونَ مَنْصَفًا. وَ لَعَلَّ الرَّجُلَ بِالذَّاتِ يَسْتَطِيعُ مَضَارَّةَ زَوْجَتِهِ فَيَتَلَاْعَبُ بِالْمَدَّةِ بَعِيدًا عَنْ عِلْمِ أَيْ أَحَدٍ، وَ حَيْثُ لَا يَوْجَدُ النِّظَامَ الْإِسْلَامِيَّ الْمَتَكَامِلَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى صَنْعِ مَا يَشَاءُ دُونَ أَنْ يُوَاجِهَ أَيْ إِجْرَاءَاتِ قَضَائِيَّةٍ وَ قَانُونِيَّةٍ تَخَالِفُ هَوَاهُ، لِذَا فَهُوَ مَحْتَاجٌ إِلَى مِرَاقِبَةِ اللَّهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ تَقْوَاهُ (باعتبارها أهم الضمانات التنفيذية للحدود و الشرائع).

وَ يُوَصِّلُ الْقُرْآنُ الدَّعْوَةَ لِلتَّقْوَى بِالنَّهْيِ عَنِ إِخْرَاجِ الْمَطْلُوقَاتِ مِنْ بَيْوتِ الزَّوْجِيَّةِ قَبْلَ الْعِدَّةِ، وَ هَكَذَا نَهَيْتُنَّ عَنِ الْخُرُوجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْآخِرُ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَزِيدِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تَقْوَاهُ.

لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَ لَا يَخْرُجَنَّ إِذْنَ فَقُولِ الرَّجُلُ لِمَرْأَتِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ لَا يَخْرُجُهَا مِنْ مَسْئُولِيَّتِهِ، وَ لَا يَبْزُرُ لَهَا التَّمْرِدَ عَلَيْهِ.. فَإِنَّ الْبَيْتَ يَبْقَى بَيْتَهَا لَا يَجُوزُ لَهُ إِخْرَاجُهَا مِنْهُ، وَ هِيَ تَبْقَى فِي عَهْدَتِهِ لَا يَحِقُّ لَهَا الْخُرُوجُ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ مَا دَامَتِ الْعِدَّةُ لَمْ تَنْقُضْ

«ثلاثه قروء و هي ثلاث حيضات، و إن لم تكن تحيض ثلاثة أشهر، و إن كان بها حمل فإذا وضعت

انقضى أجلها» (١) كما يقول الإمام الصادق-عليه السلام-.

و لعل بقاء المرأة في بيت زوجها أثناء العده-بالذات مع ملاحظه ما ندب إليه الإسلام من التبرج و التزين لزوجها-صلاح كبير، باعتباره يشدهما لبعضهما، و يعيد الرجل إلى زوجته من زوايا إنسانيه عاطفيه و جنسيه حيث يرى ضعفها و انكسارها بين يديه و حيث يرى الزينه و الجمال، و من زاويه دينيه باستشعار التقوى إن كان ثمه طريق للرجعه و الانسجام.

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «المطلقة تكتحل و تختضب و تطيب و تلبس ما شاءت من الثياب لأن الله عزّ و جلّ يقول: لَعَلَّ اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا لَعَلَّهَا أَنْ تَقَعَ فِي نَفْسِهِ فِيرَاجِعَهَا» (٢) و يستثنى القرآن مبرّرا واحدا تبين بسببه الزوجه من زوجها مباشره بحيث يجوز له إخراجها من بيته فلا يكون بيتها و لا يتحمل مسؤوليه الإنفاق و ما أشبه في العده، و هو أن تأتي بفاحشه.

إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ الْأَقْرَبُ أَنَّ الْفَاحِشَةَ هِيَ الْمَعَاصِي الْجَنَسِيَّةِ وَ أَظْهَرُهَا الزَّانَا وَ السَّحَاقُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ لَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَاءَ سَبِيلًا (٣)، و في ذلك جاء الحديث المأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام- حيث قال في تفسير الآيه:

إلا أن تزني فتخرج و يقام عليها الحد (٤)..

ص: ٥٦

١- ١) تفسير القمي/ج ٢ عند الآيه الرابعه.

٢- ٢) تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٣٥٢.

٣- ٣) الإسراء ٣٢.

٤- ٤) تفسير نور الثقلين ج ٢ ص ٣٥٠.

و لكنَّ الفاحشه المبيته تعم حتى سائر الذنوب الكبيره، و بالذات تلك التي تؤثر في العلاقات الزوجيه، كما جاء في عده نصوص منها

المروى عن الإمام الباقر -عليه السلام- في تفسير الآيه «أنتها الإيذاء» (١)، و منها

المأثور عن الإمام الرضا -عليه السلام- قال: «الفاحشه أن تؤذى أهل زوجها و تسبهم» (٢).

□  
وَ تَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَا دَامَتْ حُدُودُ اللَّهِ فَهِيَ مَفْرُوضَةٌ وَ وَاجِبٌ مَرَاعَاتُهَا بِالسَّيْرِ عَلَى هِدَايَا وَ الْخَرِيْطَةِ الَّتِي تَرَسَّمَهَا، لَمَّا فِيهَا مِنْ صِلَاحٍ لِلْفَرْدِ وَ لِلْأَسْرَةِ وَ الْمَجْتَمَعِ، وَ لَا- يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصْطَنِعَ لِنَسْفِهِ حُدُودًا غَيْرَهَا وَ يَتَّبِعَهَا بِاللَّفِّ وَ الدُّورَانِ، أَوْ بَادِعَاءَ أَنْ الْقَضِيَّةِ شَخْصِيَّةً، كَلَّا... إِنَّمَا التَّشْرِيْعُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

□  
وَ مَنْ يَتَّعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ لَا تَبْقَى سَعَادَةٌ وَ لَا قِيَمَةٌ فِي الْعِلَاقَاتِ الزَّوْجِيَّةِ الَّتِي لَا تَحْكُمُهَا الصُّوَابُطُ، وَ لِأَنَّ الْمَجْتَمَعَ الَّذِي لَا- يَحْتَرِمُ النِّظَامَ يَحْطُمُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَ يَسُودُهُ الظُّلْمُ وَ التَّبَادُلُ، وَ لَكِنَّ أَجْلَى صُورِهِ لظُلْمُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِتَعْدِي حُدُودِ اللَّهِ الْعَذَابِ الَّذِي يَلْقَاهُ فِي الْآخِرَةِ جَزَاءً لِمَا كَانَتْ حُرْمَةُ أَحْكَامِ اللَّهِ وَ شَرَائِعِهِ.

و يبيِّن الله الحكمه الأساسيه التي جعلت من أجلها العده، و وجب بقاء المرأه في بيت زوجها أثناءها، و هي رجاء تغيّر المواقف و عوده العلاقه إلى حالها الطبيعي حيث الوثام و المحبه، فلا يصح إذن أن يحكم الإنسان في لحظه غضب و انتقام و ردّه فعل حكم يأس على علاقه مع شريكه حياته بأنّها لا تصلح أبداً، فإنّ الأمور بيد الله يبدّل فيها كيف يشاء، فربما عطف القلوب على بعضها، و ألّفها بعد الفرقه

ص: ٥٧

١-١) المصدر ص ٣٥١.

٢-٢) المصدر.

□ لا تَدْرِ لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا و لَعَلْنَا نَهْتَدِي هُنَا إِلَى فِكْرِهِ تَشْرِيْعِيهِ هَامِهِ هِيَ: أَنَّ تَشْرِيْعَ الطَّلَاقِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَتَنَكَّرَ لَهُ الْبَشَرُ، أَوْ يَلْغُوهُ مِنْ قَائِمَةِ الْقَوَانِينِ الْاجْتِمَاعِيَةِ، لِأَنَّهُ إِذَا يَرَى فِي مَوَارِدِهِ الْمَوْضُوعِيَةِ وَ ضَمَنِ الْحُدُودِ الْإِلَهِيَةِ فَإِنَّهُ يَعُودُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِالنَّفْعِ، فَإِذَا بَتَلَكَّ الرُّوَابِطَ الضَّعِيفَةَ تَصِيرُ مَتِينَةً جَدًّا، وَ تَنْتَهِي الْمَشَاجِرَاتُ وَ أَسْبَابُ الْخِلَافِ، وَ يَزْدَادُ الْحُبُّ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ فَلَا يَفْكَرَا إِلَّا فِي الْمَزِيدِ مِنَ التَّلَاحِمِ بَعْدَ أَنْ ذَاقَا طَعْمَ الْفِرَاقِ بَيْنَهُمَا، وَ بَعَارِهِ: يَحْدُثُ تَحَوُّلٌ إِيْجَابِيٌّ فِي الرُّوَابِطِ الزَّوْجِيَةِ وَ الْأَسْرِيَةِ بِسَبَبِهِ.

و معرفه الإنسان أنه مكره على قبول زوجته لا يبعث فيه التطلع إلى تطوير علاقته معها و تنميه حبه لها بل يجعلها و كأنها شر لا بد منها.

و إذا انقضت العده هنالك لا يسمح له بأن يذرهما كالمعلّقه انتقاما كما يفعل أهل الجاهليه الذين لا يؤمنون بحدّ و لا قيمه في العلاقه الزوجيه سوى الهوى و الشهوه، كالأ... إنّه مخير بين أمرين لا- ثالث لهما، فأما أن يرجع إلى العلاقه الطبيعيه مع أهله و التي شعارها المعروف (الحب و الاحترام و العقلانيه)، و أما الفراق و الانفصال بالمعروف (بعيدا عن التشفّي و الأذى و سوء الخلق). و يقدّم القرآن خيار الرجوع ترجيحاً له على الفراق لأنّ الله يريد خير الأسره و المجتمع و الحفاظ على كيانهما بالحفاظ على تماسكهما من خلال العلاقات الوطيدّه التي منها العلاقات الزوجيه.

□ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ اسْتِخْدَامُ الْقُرْآنِ تَعْبِيرٌ أَمْسَكُوا يُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ انْتِهَاءِ الْعِدَّةِ لَا يَعْنِي إِنْهَاءَ الْعِلَاقَةِ الزَّوْجِيَةِ وَ طَرْدَ الزَّوْجَةِ مِنْ أَسْرَتِهَا، إِنَّمَا يَبْقَى كُلُّ شَيْءٍ

على طبيعته، فالزوج لا يزال زوجها و القائم عليها (ممسك بها) إلا أن يختار الفراق فهناك تتغير الأمور، فتطلق من زوجها بالمفهوم العرفي.

وَ أَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَيْدِ مَنكُم عَلَى الطَّلَاقِ إِذَا كَانَ هُوَ الْخِيَارَ لَا الرَّجْعَةَ، لِأَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ إِلَى شَهَادَةٍ بَلْ يَكْفِي التَّصْرِيحَ بِإِرَادَتِهَا أَوْ مَقَارِبَهُ الزَّوْجَةَ،

فقد جاء في كتاب الكافي قال أبو الحسن موسى الإمام الكاظم عليه السلام- «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ فِي كِتَابِهِ فِي الطَّلَاقِ وَ أَكَّدَ فِيهِ بِشَاهِدَيْنِ وَ لَمْ يَرْضَ بِهِمَا إِلَّا عَدْلَيْنِ» (١) و أهميه الشهود في الطلاق لأمر منها وضع النقاط على الحروف في الإرث و في حريه المرأه بعد فراق زوجها. فلو لا الشهود لكانت المطلقه تدعى في الإرث ما ليس لها، و لكان الرجل يمنع مطلقتها من الزواج بادعاء أنها لا تزال في عصمته مثلا.

و لَكِنَّ الشَّهَادَةَ الْعِظْمَى الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ اعْتِبَارَهَا وَ إِقَامَتَهَا هِيَ الشَّهَادَةُ لِلَّهِ.

وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ وَ لَا- تَقُومُ الشَّهَادَةُ لِلَّهِ إِلَّا- بِشُرُوطِهَا الَّتِي تَتَوَافَرُ عِنْدَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَحْضُرُ عِنْدَ الْعَيُونِ وَ الْأَسْمَاعِ إِنَّمَا يَحْضُرُ عِنْدَ الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ بِهِ عَزَّ وَ جَلَّ.

وَ كَذَلِكَ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا مَحْسُوسًا فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ.

ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَيُّ يُؤْمِنُ بِعِلْمِ اللَّهِ بِالْحَقَائِقِ كَمَا تَكُونُ، وَ يُؤْمِنُ بِالْجِزَاءِ بَعْدَ الْبَعْثِ عَلَى كُلِّ

ص: ٥٩

خير و شر، وشهاده الله لمن يؤمن بذلك أعظم واعظ له عن مخالفه أمره و حدوده علنا أو بما يسمّى بالحيل الشرعيه.

و قد أورد الدكتور بدران أبو العينين أستاذ الشريعة الإسلاميه فى كليه الحقوق بجامعة الإسكندريه و بيروت الغربيه بحثا حول الشهاده على الطلاق و دورها فى تقليل نسبه الطلاق، هذا نصها من كتابه: الفقه المقارن للأحوال الشخصيه:

(ذهب أكثر الفقهاء على أنه لا- يشترط الإشهاد على الطلاق، بل استحبه فقط استنادا إلى أنه لم يؤثر عن الرسول و لا صحابه رسول الله- صلى الله عليه و آله- اشتراط الشهود فى الطلاق، و حملوا الأمر الوارد فى قوله تعالى وَ أَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ عَلَى النَّدْبِ كَمَا فِي: وَ أَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ، و اشترط الإماميه و الظاهرية لوقوع الطلاق إشهاد عدلين، لقوله تعالى: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ الطلاق ٢/ فالله سبحانه طلب الإشهاد على الطلاق الذى سيق الكلام لبيان أحكامه، و من المستهجن أن يعود طلب الإشهاد إلى الرجعه، لأنها إنما ذكرت تبعا و استطرادا، كما قالوا إن من المعلوم أنه ما من حلال أبغض إلى الله من الطلاق، فالدين الإسلامى لا يرغب فى أى نوع من أنواع الفرقة، و لا سيما فى العائله و الأسره، و على الأخص فى الزوجيه بعد ما أفضى كل منهما إلى الآخر بما أفضى. فالشارع بحكمته العاليه يريد تقليل وقوع الطلاق و الفرقة، بتكثير قيوده و شروطه بناء على القاعده المعروفه من أن الشىء إذا كثرت قيوده عز، أو قل وجوده. فلهذا اعتبر الشاهدين العدلين للضبط أولا، و للتأخير و الأناه ثانيا، عسى إلى أن يحضر الشاهدان، أو يحضر الزوجان، أو أحدهما عندها يحصل الندم، و يعودان إلى الألفه، يشير إلى هذا قوله تعالى: لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُجْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا و أيضا قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَمُ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، فهذا الأمر

بالشهادة جاء بعد ذكر إنشاء الطلاق، و جواز الرجعه، فكان المناسب أن يكون راجعا إلى الطلاق، وإن تعليل الإشهاد بأنه يوعظ به من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر يشرح ذلك و يقويه، لأن حضور الشهود العدول لا- يخلو من موعظه حسنه يزجونها إلى الزوجين، فيكون لهما مخرج من الطلاق.

فإذا لم يشهد على الطلاق شاهدين ظاهرهما العدالة يسمعان إنشاء الطلاق كان غير واقع، وكذا لا يقع إذا أشهد عدلا واحدا أو فاسقين يكون باطلا، فإنهم قالوا: إن بالإشهاد على الطلاق يظهر التناسق بين إنشاء الزواج و إنهائه، بل قالوا:

إنه لو طلق ثم أشهد لم يكن ذلك شيئا، و الشرط أن يكونا رجلين عدلين، فلا شهادة للنساء منفردات و لا منضمات للرجال.

و رأى الشيعة الإماميه هو الراجح إذ أنه يضيق دائره الطلاق التي اتسعت الآن كثيرا، كما يسهل إثباته فيما لو وقع خلاف بين الزوجين في الطلاق، و يجرى العمل في مصر على أنه يجب على الموثق «المأذون» أن يجرى الطلاق بحضور شاهدين يثبتهما في إشهاد الطلاق، و يوقعان على وثيقه الطلاق بالشهادة. و قد نص قانون حقوق العائله في الماده (١١٠) على أن الزوج الذى يطلق زوجته مجبور على إخبار المحاكم بذلك (١).

و هذه شهاده بصوره أخرى يقرها القانون المدنى نظرا لأهميتها و واقعيتها.

و يقول الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ و رئيس قسم الشريعة الإسلاميه بكلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقاهره فى كتابه: (الأحوال الشخصيه) مشيدا برأى الإماميه فى الشهاده: (و هذه وجهه نظر يجب عدم التغاضى عنها، فإن الأخذ

ص: ٦١

١- ١) الفقه المقارن للأحوال الشخصيه بين المذاهب الأربعة السنيه و المذهب الجعفرى و القانون طبعه دار النهضه العربيه ص

.٣٧٨

بهذا الرأي يمهد السبيل للصلح في كثير من الحالات حقاً (١).

و من هنا

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الكاظم-عليه السلام- أنه قال لأبي يوسف (الفقيه الحنفى الشهير): «يا أبا يوسف إن الدين ليس بقياس كقياسك و قياس أصحابك. إن الله تبارك و تعالى أمر في كتابه فى الطلاق و أكد فيه بشاهدين، و لم يرض بهما إلا عدلين، و أمر فى كتابه بالتزويج فأهمله بلا شهود، فأتيتم بشاهدين فيما أبطل الله، و أبطلتم شاهدين فيما أكد الله تعالى» (٢).

و يعود القرآن ليؤكد على أهميه التقوى بالذات فى الظروف الصعبة و الحرجه، فإنها قبل كل شىء سبيل الإنسان للانتصار على المشاكل و حلها، لما فيها من زخم إيمانى يثبت المؤمن على الحق، و لأن التقوى فى حقيقتها برنامج متكامل يجد فيه حلاً لكل معضله و مخرجا من كل حرج مهما كان الظاهر باعثا على اليأس و القنوط.

□  
وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَ تَنْقِضْ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ ظَنُونَ الْبَعْضُ بَأَنَّ اتِّبَاعَ شَرَعِ اللَّهِ وَ أَحْكَامِهِ يَضِيْقُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَدَارَ حَرِيْتِهِ، وَ يَسَبِّبُ لَهُ فِى الْحَرْجِ وَ الضِّيْقِ، كَلًّا.. إِنَّمَا يَصِلُ الْبَشَرُ لِأَهْدَافِهِ وَ يَتَخَلَّصُ مِنْ مَشَاكِلِهِ، وَ يَجِدُ الْحُلُولَ النَّاجِعَةَ لَهَا وَ الْمَخَارِجَ مِنَ الْعَسْرِ وَ الْحَرْجِ بِاتِّبَاعِ سُنَنِ اللَّهِ وَ أَحْكَامِهِ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ سُنَنَ اللَّهِ كَمَا السَّبِيلَ الْوَالِحَةَ الَّتِي لَوْ مَشَى عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ بَلَغَ أَهْدَافَهُ بِيَسْرٍ وَ بِلَا عَقَبَاتٍ، وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَتَّقَى فِى الْوَأَقِعِ-الانزلاق عن هذه السنن إلى المتاهات التي لا تزيد السائر فيها إلا ضلالا و بعدا عن أهدافه، فقد تبدو للبعض أن السرقة و الانتهاب و الحيله و الغش و الظلم

ص: ٦٢

١-١) الأحوال الشخصية للدكتور محمد يوسف موسى ص ٢٧١ طبعه ١٩٥٨ م.

٢-٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٣٥٢.



و الاعتداء و الربا و سائر الطرق المحرمه هي وسائل جيده للارتزاق لما في بعضها من ربح عاجل، إلا أن عاقبه هذه الطرق هي الخساره، بينما السعي النظيف و الكسب الحلال هو باب الرزق الواسع و السبيل اللاحب للثروه المشروعه، أما غير المؤمن فهو ينهزم أمام الأزمات و المشاكل إلى حد الانتحار، و كثيرهم الذين انتحروا بسبب عقده الفشل في العلاقات الزوجيه أو الجنسيه. و في تضاعيف الآيه إشاره إلى أن المآزق التي يتورط فيها الإنسان تأتي في الأغلب نتيجة ذنوبه و مخالفته لأحكام الله، فإذا اتقى ابتعد عن الذنوب و نفذ القوانين، و هل تأتي الطرق المسدوده إلا بسبب مخالفه القوانين و الأنظمه؟! [٣] و لأن الفقر و الضيق من المآزق التي يواجهها الرجل في إداره أسرته و الإنفاق على أهله و عياله، فإن الإسلام يسعى أن لا يكون مبررا للطلاق، و ذلك من خلال تنميه روح الأمل بالله و التوكل عليه في روعه بأنه يضمن له رزقه، و هذه الأفكار و المنهجيه تركز على قيمه أساسيه في الإسلام هي إيمانه بضروره دفع الإنسان باتجاه المزيد من تحمل المسؤوليه و ليس تبرير التهرب منها.

وَ يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ أَيُّ أَنْ هُنَاكَ آفَاقًا لِلرِّزْقِ لَا يَتَوَقَّعُهَا الْإِنْسَانُ لِمَحْدُودِيَةِ عِلْمِهِ وَ إِحَاطَتِهِ يَفْتَحُهَا اللَّهُ لَهُ، وَ خَيْرُ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ مَا يَكْتَشِفُهُ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ مِنَ الْوَسَائِلِ وَ الْآفَاقِ الْجَدِيدَةِ لِلتَّنْمِيَةِ وَ الْإِسْتِمَارِ وَ الْإِقْتِصَادِ وَ الَّتِي مَا كَانَتْ تَخْطُرُ عَلَى بَالِ أَحَدٍ مِنْ قَبْلِ،

جاء في الحديث المروى عن الإمام الصادق -عليه السلام- في رسالته إلى بعض أصحابه: «أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله، فإن الله قد ضمن لمن اتقاه أن يحوِّله عما يكره إلى ما يحب، و يرزقه من حيث لا يحتسب، فإياك أن تكون ممن

يخاف على العباد من ذنوبهم، ويأمن العقوبه من ذنبه» (١)و

قال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ أَرْزَاقَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ رِزْقِهِ كَثُرَ دَعَاؤُهُ» (٢)و

قال في حديث آخر يفسر هذه الكلمه:- «يبارك له فيما آتاه» (٣)و الايمان بهذه الحقيقه يقشع عن عقل الإنسان و روحه سحب اليأس و يفكّ أغلاله، و يدعوه إلى المزيد من البحث و السعى طلبا لتلك الآفاق. و ما دام ربنا يرزقنا من حيث لا نحتسب فبالأولى أن يأتنا رزقه من حيث نتوقع حيث نعمل و نسعى و نتبع سبله، و من المعروف: أن ما لثر كان قد حدّر العالم قبل قرن من نقص هائل في الموارد الغذائيه في هذا القرن، و اتبعه الكثير من الكتاب و المؤسسات الدراسيه، بينما فتح الله آفاقا جديده في حقل التقدم العلمى و تنميه الموارد الغذائيه التى تضاعفت خلال القرن الحاضر.. و تبشّر الدراسات بأنّها ستتضاعف في المستقبل.

إنّ آفاق التقدم لا تحد، و إنّ قدرات الإنسان على التكامل عبرها لا تحصى، و إنّما اليأس و سائر الأغلال و الأصر تقيّد البشر من الانبعاث، و لو عرف الإنسان قيمه التوكل على الله فاتقى ربه لرزقه الله من حيث لا يحتسب.

و لا- ريب أنّ الآيه لا- تدعونا إلى الكسل و الجلوس فى البيت على أمل نزول رزق الله بالمعجزه، كلاً.. بل ينبغى النظر لمعناها و التدبر فيها ضمن الأصول العامه التى جاء بها الإسلام و الموجوده فى الآيات الأخرى، كأصل السعى و العمل و الكدح، بل الآيه نفسها تشير إلى ذلك فى الخاتمه و تدعو إلى نفص غبار اليأس و القنوط،

ص: ٦٤

١-١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٣٥٥.

٢-٢) المصدر/ص ٣٥٤.

٣-٣) المصدر/ص ٣٥٧.

والانبعاث بروح الأمل و التوكل. كذلك الآيه تواجه الوسوسه الشيطانيه التي تجعل البعض يزعم أن الرزق لا- يتأتى إلا- عبر الحرام، لذلك يجد مثلاً انفصاله عن دوائر الأنظمه و مؤسساتها أمراً لا يطاق، بينما لو توكلنا على الله فسوف نجده عند حسن ظننا به.

□  
وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ أَى الذى يكفيه، و لا- ينبغى للمؤمن أبداً أن يشك فى قدره الله على تحقيق ما يعد به، مهما كانت الظروف صعبه و معاكسه كما يبدو للإنسان فإن إرادته تعالى فوق كل شىء.

□  
إِنَّ اللَّهَ بِأَلْبَعِ أَمْرِهِ بلى. نحن البشر تثنينا الأسباب، و تحول بيننا و بين ما نريد العقبات و الموانع، لأن إرادتنا محدوده، أما الله فإن إرادته مطلقه. و لكنّه تعالى أبى أن يجرى الأمور إلاً بحكمه و موازين.

□  
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا عَلَى الإِطْلَاق، فليس من شىء خارج على هذا القانون الإلهى العام، و كما تحكم المقاييس الظاهريه الحجم و الوزن و الكثافه و اللون و الأجل و جود كل شىء و من ذلك المشاكل فإنّ هناك سننا و قوانين معنويه تحكمه أيضاً، فلا يمكن للإنسان أن يجد رزقاً حلالاً من غير سعى مادى أو معنوى. و وعد الله برزق من يتقيه و يتوكل عليه أمر من أموره و هو لا- ريب بالغه، و لكنّه جعل لذلك موازين و ضوابط «قدراً» ينبغى للإنسان معرفتها و حلّ مشاكله من خلالها، و يجب عليه السعى فى الحياه لتحقيق أهدافه و تطلعاته و مقاصده انطلاقاً من الإيمان بهذه الحقيقه فى تدبير

جاء فى تفسير هذه الآيه: «أنّ الإمام الصادق-عليه السلام-سأل بعض أصحابه فقال: ما فعل عمر بن مسلم؟ فقال له البعض:

جعلت فداك أقبل على العباده و ترك التجاره، فقال: ويحه أما علم أنّ تارك الطلب لا يستجاب له. إنّ قوما من أصحاب رسول الله لَمَّا نزلت: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» أغلقوا الأبواب، و أقبلوا على العباده، و قالوا: قد كفيينا، فبلغ ذلك النبى فأرسل إليهم قال: ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول الله تكفل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العباده، قال: إنّه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب» (١).

[٤-٥] و كما تتجلى هذه الحقيقه فى عالم التكوين الطبيعى الإقتصاد و الفيزياء و ما أشبهه، فإنها تطبع آثارها فى عالم التشريع أيضاً، حيث فرض الله عدّه معينه كحق من حقوق المرأه و واجب من واجبات الرجل بعد الطلاق.

و بالطبع إنّ هناك حكمه ليست لذات الاعتداد و حسب، بل لاختلاف العده من امرأه إلى أخرى كذلك، قد تتكشف للإنسان فى مفردات العده بالتفكير العميق.

وَ اللَّائِي يَشْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فِي كونهن هل يئسن أم لا؟ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثُهُ أَشْهُرٌ بِنَاءِ عَلَى الْأَصْلِ السَّابِقِ هُوَ عَدَمُ الْيَأْسِ، مما يجعل حكمهن كحكم النساء العاديات. أمّا لو تبين كونهن يائسات فليست لهن عده،

فعن الإمام الصادق -عليه السلام- فى النى يئست من المحيض يطلقها زوجها قال: «قد بانث منه

و لا عدّه عليها» (١). و يظهر من النصوص أنّ الأشهر هي الأشهر الهالديه.

□  
وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ إِذَا ارْتَبَّ فِي كَوْنِهِنَّ بَلْغَنَ الْحَيْضَ فَإِنَّ عَدَّتَهُنَّ كَالْمَشْكُوكِ فِي يَأْسِهِنَّ، أَيْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، تَأْسِيسًا عَلَى الْإِحْتِيَاظِ، فَإِنْ كُنَّ لَمْ يَحِضْنَ فَلَيْسَ ذَلِكَ بَضَارًّا أَحَدًا، وَإِنْ تَبَيَّنَ حَيْضُهُنَّ يَكُونُ الرَّجُلُ قَدْ أَحْرَزَ التَّكْلِيفَ الشَّرْعِيَّ الْمَلْقَى عَلَيْهِ. وَإِلَّا فَإِنَّ الصَّبِيَّةَ لَا عَدَّةَ لَهَا وَ لَوْ دَخَلَ بِهَا،

فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ بَنِّ مَحْبُوبٍ، عَنْ حَمَّادٍ عَنْ عَثْمَانَ، عَمَّنْ رَوَاهُ عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فِي الصَّبِيَّةِ الَّتِي لَا تَحِضُ مِثْلَهَا وَ الَّتِي قَدْ يَسْتَمِنُ مِنَ الْحَيْضِ قَالَ: «لَيْسَ عَلَيْهِمَا عَدَّةٌ وَإِنْ دَخَلَ بِهِمَا» (٢) وَ اعْتَبَارَ الْإِسْلَامَ مَجْرَدَ الرَّيْبِ وَ الشُّكِّ بِمَنْزِلَةِ الْيَقِينِ بَعْدَ الْيَأْسِ لَدَى النِّسَاءِ وَ بِالْحَيْضِ لِلصَّبِيَّةِ عَمَلِيًّا بِحَيْثُ يُعْطَى لِلْمَرْأَةِ حَقَّ الْإِعْتِدَادِ ثَلَاثَ أَشْهُرٍ يَظْهَرُ حِرْصُهُ عَلَى سَلَامَةِ الْأَسْرَةِ وَ الْعَلَاقَاتِ الزَّوْجِيَّةِ، إِذْ لَعَلَّ الْإِخْتِلَافَ يَحُلُّ وَ تَعُودُ الْمِيَاهُ إِلَى مَجَارِيهَا فِي هَذِهِ الْفُرْصَةِ.

□  
وَ أَوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِذَا مَا وَضَعَتِ الْحَمْلَ انْتَهَتْ عَدَّتُهَا،

قال أبو عبد الله -عليه السلام- «طلاق الحبلى واحده و إن شاء راجعها قبل أن تضع، فإن وضعت قبل أن يراجعها فقد بانت منه و هو خاطب من الخطاب» (٣) أى تقبله أو ترفضه. و وضع الحمل خروجه من بطنها ولدا أو سقطا، تماما أو مضغه،

عن عبد الرحمن الحجاج عن أبي الحسن -عليه السلام- قال: سألته عن الحبلى إذا طلقها زوجها فوضعت

ص: ٦٧

١-١) المصدر ص ٤٠٩.

٢-٢) وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٤٠٨.

٣-٣) المصدر ص ٤١٩.

سقطا تم أو لم يتم أو وضعت مضغه فقال: «كل شيء يستبين أنه حمل تم أو لم يتم فقد انقضت عدتها و إن كان مضغه» (١)، و لا يعتد بالمدى أ كانت ثمانيه أشهر أو لحظه واحده بين الطلاق و وضع الحمل. و قد تكون العله التي صارت من أجلها عدده الحامل وضع الحمل أن مسئوليه الحمل مشتركه بين الأم و الأب لذلك تمتد عدتها زمنيا حتى تضع و قد يطول ذلك ثمانيه أشهر، كما أن ذلك يعطى للزوج فرصه أكبر للمراجعه و التفكير، فعسى يعدو إلى تكفّل الولد بعد أن يلقي الله في قلبه حبه، و لعل ظاهر الآيه يدل على أن العده تنقضى حتى لو أجهضت المرأه نفسها لأن المعول على وضع الحمل. أما الحامل التي يتوفى زوجها فعدتها أبعد الأجلين،

فعن سماعه عن الصادق عن الباقر-عليهما السلام-قال: «المتوفى عنها زوجها الحامل أجلها آخر الأجلين، إن كانت حبلية فتتمت لها أربعة أشهر و عشر و لم تضع فإن عدتها إلى أن تضع، و إن كانت تضع حملها قبل أن يتم لها أربعة أشهر و عشر تعتد بعد ما تضع تمام أربعة أشهر و عشر، و ذلك أبعد الأجلين» (٢). و مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا إِذْنًا فَالطريق السليم الذى ينبغى للإنسان أن ينتهجه للخروج من العسر و المشاكل المتأزمه هو التقوى، و خطأ ظن البعض أنه يصل إلى اليسر فى أمره بمخالفه حدود الله و أحكامه.

ذَلِكَ أَمْرٌ اللَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ أَمْرُهُ أَحْكَامُهُ وَ تَعَالِيمُهُ.

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا إِذْنًا فَالطريق السليم الذى ينبغى للإنسان أن ينتهجه للخروج من العسر و المشاكل المتأزمه هو التقوى، و خطأ ظن البعض أنه يصل إلى اليسر فى أمره بمخالفه حدود الله و أحكامه.

ص: ٤٨

١-١) المصدر ٤٢١.

٢-٢) المصدر ص ٤٥٥.

و نساءل: كيف تكفر التقوى سيئات الإنسان؟ والجواب لسببين:

١- لأن أخطاء الإنسان التي تنتهي به إلى المآزق و المشاكل كالطلاق و خراب علاقته مع أهله نتيجة مباشرة لمنهجية خاطئه يتبعها في الحياه، كمنهجية الهوى أو المناهج البشريه الضالاه، و بالتالى عدم اتباعه لنهج الله القويم. و التقوى بمفهومها الواسع ليس مجرد الإيمان بالله و الخشيه منه بل هى إضافه إلى ذلك عوده الإنسان إلى نهج ربه المستقيم الكفيل بتصحيح أخطائه و إزاله آثارها السلبيه فى الواقع.

٢- و لأن التقوى حسنه كبيره تشفع عند الله فى الأخطاء الجانيه. و إلى جانب التكفير عن السيئات هناك ثمره عظيمه أخرى للتقوى تتمثل فى المزيد من الجزاء و الثواب.

و يُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا إِذْ لَا شَكَّ أَنْ الْعَمَلَ الصَّالِحَ كَالصَّدَقَةِ أَعْظَمَ ثَوَابًا وَ أَجْرًا مَعَ التَّقْوَى مِنْهُ بَدُونِهَا، ذَلِكَ أَنَّهُ كَلِمًا زَادَ إِيمَانَ الْإِنْسَانَ كَلِمًا زَادَ إِتْقَانَهُ لِلْعَمَلِ وَ خُلُوصَهُ فِيهِ وَ قَرَبَهُ بِالتَّالِيِ بِهِ إِلَى رَبِّهِ، مِمَّا يَزِيدُ فِي جَزَائِهِ عِنْدَهُ.

ص: ٦٩

أشاره

أَسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلًا فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُوا بِنَفْسِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَ رِزْقُكُمْ فَسْتَرْضِعُوا لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَا عَذَابًا نُكَرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدِيًَا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

اللغة

٦[وجدكم]: أى بقدر امكاناتكم و غناكم و طاقتكم، و عن الحسن و الجبائى: أى ما تجدونه من المساكن، و عن الفراء:

يقول على ما يجد، فإن كان موسعا وسع عليها فى المسكن و النفقه، و ان كان فقيرا فعلى قدر ذلك.

[تضاروهن]: أى تضيقوا عليهن بالضرر فى السكن و النفقه:

[و أمروا]: من الائتمار، و الائتمار: قبول الأمر، و ملاقاته بالتقبل.





هدى من الآيات:

فى الدرء الأءىر من سورة الطلاق ىشرع الله مجموعه من الأحكام المءصلة بالأسره، و بالذاء بالعلاقه بىن الزوجىن ءىء العءه، لىقرّر للمرأة ءق السكنى و النفقه على زوجها، بل أخذ أجره على الرضاعه، كما و ىنهى الرجل عن الإضرار بها و التضىيق عليها تشفىاً أو للخلاص من المسؤولىه بالضغط، ثم يؤكّد بأنّ الائءمار بالمعروف كواجب شرعى على كل مؤمن و مؤمنه ءجاه بعضهم لا ىنبغى أن ىقطع ءباله الاءءلاف مهما بلغ.. و لو بلغ ءاله الطلاق.. لأنّ المسؤولىه الاجءماعىه و اجب إلهى ىجب أن ءبقى ءاكمه فى علاقته المؤمنىن ببعضهم ءىء بعضهم أولىاء بعض فى كل زمان و مكان و ظرف.. و ءبلغ عناية الءىن ءءنىف بالمراه إلى ءدّ ىقرر لها ءق فى قبول الرضاعه أو رفضها، ءلأفا للعرف الذى ءرت علىه المءءماعاء، و ساءت علىه الجاهلىه و الكءىر من المذاهب البشرىه.

ثم يعود القرآن ليضع الميزان الحق في شأن النفقه، فهو كما يوجبها على الرجل حقًا للمرأة، لا- يسمح من جهة أخرى للزوجه استغلال هذا الحق لتطالب زوجها عند قراره بالطلاق نفقه أكثر مما يتحمل تشفيًا منه، فليس أحد مكلفًا في شرع الله أكبر و أكثر مما يستطيع.

و ينتهى السياق القرآنى الذى يتمحور حول التقوى فى هذه السوره ليحذّر من مخالفه شرائع الله و حدوده بصوره عامه و فى حق الأسره بالذات، مشيرا إلى أنّ الأسره لا تختلف فى ظلّ سننه عن المجتمع الكبير الذى لو تجاوز الحدود فإنّ عاقبته الخساره و الدمار كما ينطق بذلك تاريخ الحضارات التى دمّرت فأصبحت عبرا و أحاديث.

و لأنّ المؤمنين أولى بدراسه التاريخ من غيرهم فإنّ الخطاب يتوجه إليهم خاصه لكى يخرجوا بذلك إلى النور، و يختم السوره بالإشاره إلى الحكمه من خلق الإنسان و العالم المسخّر له ألا- و هى أن يتعرّف الله لعباده عبر آياته المبتوئه فى النفس و فى الآفاق لعلهم يخلصون من ظلمات الضلال و الشرك.

### بينات من الآيات:

[٦] لكى لا يظلم المرء زوجته التى عافتها نفسه، و مشى الشيطان بينهما بألف عقده و عقده، يأمر القرآن بأن يختار لها زوجها سكنا مناسباً لوضعهم الاجتماعى بلا تميّز.

أَشْيَ كُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَيَكُنْتُمْ مِنْ وُجُودِكُمْ و الوجد: ما يجده الإنسان و يقدر عليه، و فى المنجد: أنا واجد للشئ أى قادر عليه. و الوجد القدره، يقال أنا واجد الشئ أى قادر عليه. و الآيه تحدّثنا عن نوع

السكن و أنه واجب على الرجل ليس السكنى و حسب بل إسكان زوجته في العده بالذات كما يسكن، فلا يصح أن يسكن هو في المكان المكيف صيفا و شتاء و يسكنها فيما دون ذلك، و لهذا جاء التعبير ب«من» التبعضيه و لا يكون بعض الشيء إلا من نوعه و جنسه. و يحرم الإسلام أن يضّر الرجل بزوجه أثناء العده ليضطرها للتنازل عن النفقه أو الخروج من بيته قبل انتهاء العده باستخدام الضغوط المختلفه الماديه أو المعنويه نفسيه و اقتصاديه و اجتماعيه و أخلاقيه أو ما أشبه مما يحقّ نفس الغرض، بل لا بدّ أن تجد الزوجه الراحة و السعه من جميع جوانبها قدر الإمكان.

□ وَ لَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْنَهُنَّ وَ لَعَلَّ أَبْلَغَ ضَرَرٍ تَنَالَهُ الْمَرْأَةُ الْمَطْلُوقَةُ مِنْ زَوْجِهَا هُوَ جَرَاحَاتِ اللِّسَانِ،

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «لا يضار الرجل امرأته إذا طلقها فيضيق عليها حتى تنتقل قبل أن تنقضى عدتها فإنّ الله قد نهى عن ذلك» (١) و التي لزوجها عليها السكنى و النفقه غير المبتوته (٢)،

فعن أبي بصير عنه-عليه السلام- أنّه «سأله عن المطلقه ثلاثا لها سكنى و نفقه؟ قال: جلى هي؟ قلت: لا، قال:

لا» (٣) و

عن زراره عن أبي جعفر-عليه السلام- قال: «المطلقه ثلاثا ليس لها نفقه على زوجها، إنّما ذلك للتي لزوجها عليها رجعه» (٤).

و كما تمتد عده الحامل إلى الوضع كذلك يجب أن يسكنها و ينفق عليها حتى تضع حملها، لأنّ الولد له، و ثابت علميا أنّ الولد يستهلك ما يحتاج من أمّه، فلو

ص: ٧٤

١- ١) نور الثقلين ج ٥ ص ٣٦٢.

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) المبتوته: المطلقه بانها فلا يحق لزوجها الرجعه لها بته.

٤- ٤) تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٣٦٢.

نقص الكالسيوم في غذاء أمه فإنه سوف يؤثر على تركيبه عظامها، يقول الدكتور محمد على البار في كتابه خلق الإنسان بين الطب و القرآن: (تصاب بعض الأمهات الحوامل بلين في العظام أثناء الحمل، كما تصاب أسنانهن بالالتهابات المتكرره، والسبب في ذلك أن الجنين لكي يبني عظامه يسحب من دم أمه و عظامها الكالسيوم و المواد الضرورية لبناء عظامه، حتى و لو تركها هزيلة هشه العظام شاحبه الوجه تعاني من لين العظام و من فقر الدم.. و يضيف: يقول مجموعه من أساتذه طب النساء و الولاده: و الطفل يعتبر كالنبات الطفيلي الذي يستمد كل ما يحتاج إليه من الشجره التي يتعلق بها، يعيش و يأخذ غذاءه من الأم مهما كانت حالتها أو ظروفها حتى و لو تركها شبحا) (١)، لهذا فالمرأه أحوج ما تكون للعنايه في فتره الحمل.

وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ

جاء في أصول الكافي عن أبي جعفر-عليه السلام-قال: «الحامل أجلها أن تضع حملها و عليه نفقه بالمعروف حتى تضع حملها» (٢)، و لو أنها أرضعت وليدها بعدئذ فلها الحق أن تتقاضى أجرا على الإرضاع، لأنه من الناحيه الشرعيه ليس واجبا على الأم بشكل عام حتى غير المطلقه التي تنتهي عدتها و قيمومه الرجل عليها بعد الوضع، فالحليب ملكها و إن كان من الناحيه التكوينييه يتكون مع الحمل و بسببه.

و العلم الحديث يقر هذه الحقيقه، و على أساسه دعت التشريعات الحديثه الى تخصيصات للمرأة أثناء الرضاعه، و بعض البلدان تشرف على طعام المرأه المرضع و الحامل، و تدعوا إلى الاهتمام بطعامها في هاتين الفترتين.

ص: ٧٥

١-١ المصدر نقلا عن الكافي.

٢-٢ المصدر ص ٤٤٨.

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فِي مَقَابِلِ الرِّضَاعِ. أمّا السكنى و النفقه فليسا واجبين على الزوج بعد الوضع.

و لا- يحقّ للزوج أن يلزم زوجته-و بالذات المطلقة-بالرضاعه،بلى.يجوز التفاهم فى هذه المسأله بين الطرفين بعيدا عن أى لون من الضغوط و السبل الملتويه، بل بالحق.

وَ أَتَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ أَى لِيَأْمُرَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بِالْمَعْرُوفِ بِالتَّشَاوُرِ وَ التَّحَاوُرِ،و لا بد أن يتم ذلك فى إطار صحيح لا يتنكر له العقلاء«بمعروف»حتى يستقر التآمر على رأى يرضاه الطرفان.أمّا إذا حدث الاختلاف فإنّ الحق للأم تقبل الرضاعه أو ترفضها لتكون المرضعه غيرها.

وَ إِنْ تَعَايَرْتُمْ فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ۖ وَ لا- يجوز للأب أن يجبر أم ولده على رضاعته كحل للتعاسر،لأنّ ولايه الرجال على النساء لا تمتد إلى هذه الحدود فى الظروف الطبيعیه فكيف بعد الطلاق؟! و نهتدى من خاتمه الآيه أنّ للحاكم الشرعى أن يلزم الأم بالرضاعه لو توقفت حياه الولد عليها،فيكون الزوج حينئذ ملزما بإعطاء أجره المثل.

[٧]و يعود القرآن لبيان المقياس الذى ينبغى أن يكون ميزانا فيصلا بين الطرفين فى مقدار النفقه،و لكن الوحي لا يحدد ديناراً و لا- درهما بل يضع قيمه تصلح لكل زمان و مكان واحد لأنه لم ينزل لامه دون أخرى،و لا- لجيل دون جيل.من هنا يطرح المقاييس الفطريه العامه بوضوح كاف لينطبق على كل عصر،فما هو

المقياس الذى يحدد كيف و كم تكون النفقه؟إنه استطاعه الزوج الماديه الممكنه،و ليست صفاته،فلو كان غتيا بخيلا فإنه لا يجوز منه التقدير على زوجته المطلقه بالذات حيث تجب عليه نفقتها،بل عليه التوسيع عليها،كما لا يجوز للزوج و لا للحاكم أن يفرض عليه التوسيع فى النفقه لو كان مقترا فقيرا.

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ أَى بَعْضَهَا وَ بِنِسْبَتِهَا،فليس مطالبا ببذل كل ما يملك، إنما الواجب أن يفيض عليها من غناه بحيث يوسع عليها.

وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَ كَانَ فَقِيرًا.

فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا فَتَشْرِيْعُهُ عَزَّ وَ جَلَّ تَشْرِيْعٌ وَاقِعِيٌّ عَمَلِيٌّ،و حاشا له أن يكلف أحدا ما لا يطيق، و هذه الآيه لا تقتصر على مسأله النفقه على الزوجه حين العده،بل هى قاعده لتنظيم الإقتصاد الفردى،و حل المشاكل المتصله به فى المجتمع و الأسره،فلا غرو أن يوسع الغنى على نفسه من المال الحلال لأنَّ الله إذا أنعم على عبد نعمه أحب أن يراها فيه،

قال الإمام أبو عبد الله-عليه السلام- و قد سأله أحد أصحابه عن الرجل الموسر يتخذ الثياب الكثيره الجياد و الطيالس و القمص الكثيره يصون بعضها بعضا يتجمل بها أ يكون مسرفا؟قال لا لأنَّ الله عز و جلَّ يقول:«الآيه» (1)، و من جهة أخرى يجب أن لا ينفق الفقير أكثر من طاقته تلبيه لرغابه الشخصيه أو تظاهرا بين الناس أو لكى يوافق المجتمع المحيط فى معيشته و مظهره،فإنَّ ذلك يوقعه فى

ص: ٧٧

مشاكل اقتصاديه تنتهى إلى انحرافات خطيره بعض الأحيان.

و هذه الآيه يجب أن يتخذها الإنسان شعارا فى إداره نفسه و أسرته. و حيث أن النفقه من واجبات الرجل تجاه أسرته و أهله فإن للمرأة الحق فى طلب الانفصال عنه لو لم يؤدّها الرجل،

فعن أبى بصير عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال: «إن أنفق الرجل على امرأته ما يقيم ظهرها مع الكسوه و إلا فرّق بينهما» (1)، و لكنّ الله يعطى الإنسان شحنه من الأمل برحمته و رزقه، و فى نفس الوقت يدعو من طرف خفى الزوجه إلى الصبر و التحمل تسليما لقضاء الله، و أملا فى فضله، فإنّها لا تدرى لعل زوجها الفقير يصبح غنيا مقتدرا بفضله تعالى.

□  
سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا [٨] و بعد أن بيّن ربنا هذه الحدود الشرعيه يحذّر من عواقب خرقها و تعديها حيث الفشل و العذاب فى الدارين، فإنّها سنّه الله التى تتجلّى فى تاريخ البشريه، و هى كما تجرى فى المجتمعات الكبيره حينما تحادد الله و تخرج عن أمره تجرى فى الأسره ذلك المجتمع الصغير، لأنّ سنن الله واحده تجرى فى الموضوعات الصغيره بمثل ما تجرى فى الحقائق الجليله، أ رأيت سنّه الله فى النار. إنّها تحرق سواء كانت فى عود الثّقاب أو فى فرن عظيم! من هنا علينا أن ندرس التاريخ لنعتبر به فى سلوكنا الفردى فى تنظيم حياتنا الأسريه و فى نظام المجتمع و حركه الحضاره.. لأنّ التاريخ تجسيد لسنن الله و سنن الله واحده فى الصغير و الكبير.

و تنتظم الآيات اللاحقه فى السياق العام للسوره (التقوى) من زاويه مباشره لهذا الموضوع، ذلك أنّ التفكير فى مصير الأمم الماضيه التى تمرّدت على شرائع الله و سننه فلقيت من العذاب ما لا يخطر ببال بشر كفيل بتنميه روح التقوى عند

ص: ٧٨

١- (١) المصدر.



وَ كَأَيُّ مَنِ قَرْيَةٍ أَى: و كم من قريه؟! فكأين تفيد الكثره.

و لعل التعبير بصيغه الكثره الرهيبه يهدف مواجهه حاله الاسترخاء التى تصيب الإنسان بسبب تواتر نعم الله و تتابع آلائه الكثيره،حتى يزعم بأنّ الرب قد غفل عنه أو أهمله أو فوض إليه أمره فيدعوه ذلك إلى الإيغال فى الذنوب،كلاً..إنّ قري كثيره قد دمّرت فحذار أن تدمّر أيضا قريتك الصغيره المتمثله فى الأسره و الكبيره المتمثله فى بلدك،لأنها ليست فوق سنن الله بل هى كأى من القرى الأخرى.

و القرية-كما يبدو-تطلق فى القرآن عاده على المجتمعات المتخلفه الفاسده،بينما تستخدم كلمه بلد أو المدينه للتعبير عن المجتمعات المتحضره،و عدم تحديد الآيه لقرية بذاتها ينطوى على دعوه لدراسه شامله لتأريخ البشريه،ذلك لأنّ الإنسان مفطور على مراجعه التاريخ و الإعتبار به،و نظرتة إليه تحدد نظرتة إلى الحاضر و تطلعه نحو المستقبل.و الرسالات الإلهيه تسعى إلى تصحيح تقييمه للتاريخ،لكى لا تكون نظراته خاطئه و لا حتى عابره،و ذلك لأنّ الكثير حينما يمرّون على آثار الماضين يكتفون بالسياحه أو النياحه،و الأدب العربى-كما سائر آداب البشر-زاخر بروائع الشعر التى تستوقف الإنسان على الأطلال و البكاء حزنا عندها،و قد اشتهر هذا الاستهلال فى شعر العرب،قفا نبكى من ذكرى حبيب و منزل..حتى قيل أنّه مطلع لسبعين رائعه شعريه!! بينما القرآن الكريم يستوقف الإنسان أيضا عند القرى المدمّره و لكن ليس لمجرّد السياحه أو النياحه بل للاتعاظ و الإعتبار.

و لقد مرّ المسلمون فى عهد الإمام على -عليه السلام- على أطلال عاصمه كسرى فأنشد بعضهم:

جرت الرياح على ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فنهرو الإمام و أمره بأن يقرأ: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَ عُيُونٍ».

و هكذا يوجه القرآن هذه النظرة الكامنه فى الإنسان ليقف على الأطلال، و يتذكر الغابرين، و يعتبر بمصيرهم، و يهتدى بالسنن التى كشفتها حياتهم و مماتهم من أجل بناء حياه سعيده آمنه.

و عاده ما ينقل القرآن تاريخ الشعوب و ليس الأفراد، و حتى إذا تحدث عن فرد كفرعون أو هامان أو قارون فغالبا ما يضع الحديث عنه فى إطار اجتماعى باعتباره طاغية أو مرتزق أو مترف، و السبب أن حركه التاريخ أجلي و أوضح حينما يوجه الإنسان نظره و فكره إلى مسيره الأمم و تاريخها، و تدمير المجتمعات و الشعوب أدلّ على سنن الله و حاكميته من هلاك فرد لأنه قد يكون موته بسبب طبيعى، بل إن موته لا يثير الإنسان للتفكر و الإعتبار كما يثيره هلاك الأمم و المجتمعات.

إنّ هلاك الأمم و بصوره متعاقبه لا- يمكن أن يكون أمرا اعتياديا، و هذا ما يتضح عند دراسته تاريخ القرى التى دمّرت و الحضارات التى بادت، فإننا لا شك سنجد سببا لهذه العاقبه و هو الفساد الواقع الذى أفقدها مبرر الحياه، حيث تمردت على النظم الإلهيه، كما قال الله:

عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ وَ العتو: هو المبالغه فى العصيان و الانحراف و التحدى، أمّا الأمر فهو النهج

و السبيل المتمثل في الشرائع و الحدود الإلهيه، كما قال تعالى بعد أن عدّد مجموعه من الأحكام و الحدود في الآيات (١/٤):  
ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ (١)، و لكنّ الله سمّاها كلّها أمرا بصفه الأفراد ربما ليؤكد لنا بأنّها لا تقبل التجزأه أبدا، فمن يعص الله  
أو الرسول و لو في أمر واحد فإنّه يعتبر عاصيا لهما، كما لا يسمّى مطيعا و ملتزما إلّا من يسلم لكلّ ما يصدر عنهما و يعمل به.

و قد أضاف إلى أمره «رسله» لأنّ الطاعه للقياده الرساليه من أعظم و أجلى أوامر الله، لأنّ أمر الله هو القيم التشريعيه كالأحكام و  
النظم و القوانين الصادره عن الله مباشره و المذكوره في رسالته التي أنزلها للناس، بينما أمر الرسول-صلّى الله عليه و آله-هو  
الجانب العملي و السياسي من أمر الله المتجسد في النظام السياسي و الديني الذي يقوده صلى الله عليه و آله و من يمثله بحق، فلا  
يصح إذن أن يقول أحد:حسبي كتاب الله، بل لا بدّ له من البحث عن القياده الإلهيه لكي ينتمى إلى خطها و يجنّد نفسه تحت  
لوائها فلا يعتو عن أمر من أوامرها أبدا، فإنّ في ذلك الخسران و بئس العاقبه.

إنّ الهدف من الخلق و الوجود هو عباده الله: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٢)، فإذا لم يحرز المجتمع هذا الهدف لم  
يبق مبرر لوجوده، و إنّ قيمه الإنسان يستمدّها من مدى تجسيده للحق و طاعته لربه، فإذا تمحض في الشر و العصيان لم تبق له  
قيمه عند الله، و لا عجب حينئذ أن ترى في التاريخ تلك القرى التي دمرها الله لعتوها عن أمره.

فَحَاسَبُنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا إِذْنًا فَالْعَذَابُ الَّذِي حَلَّ بِتِلْكَ الْقُرَى لَيْسَ بِالصَّدْفَةِ، و إنّما هو نتيجة طبيعيه

ص: ٨١

١-١) الطلاق ٥.

٢-٢) الذاريات ٥٦.

لأعمالها السيئه التي تتكشف بالدراسه و المتابعه و التحليل لمسيرتها التي سبقت الهلاك، فلكلّ فعل ردّ فعل، و لكلّ معصيه مردود سلبي على صاحبها، فشرب الخمر يسبّب مجموعه من الأمراض، و الربا يؤدي إلى الفساد الاقتصادي، و الزنا يعدم الأسره، و لكنك إذا جمعت بالحساب الدقيق انحرافات أمّه من الأمم تعتو عن أمر ربها فستجد رد فعلها الخسران و الدمار لا غير، و هذا ما حلّ بتلك القرى من العذاب المنكر الذي لا يتصوّره البشر.

و ما دامت حركه التاريخ في الأمم و الأفراد قائمه على الحسابات الدقيقه فحرىّ بالإنسان أن يدرس كلّ خطوه يقوم بها في الحياه، و كلّ قرار يتخذه صغيرا و كبيرا، في ضوء معادله الربح و الخساره و العاقبه المصيريه.

و الحساب الشديد هو الحساب الدقيق، ذلك لأنّ الله يحاسب الناس بلطفه فيتغاضى عن كثير من سيئاتهم، و لكنّه إذا سخط على أحد بسبب انحراف مجمل سلوكه (أمّه أو فردا) حاسبه بعدله فيصير من الحساب اليسير إلى الآخر الشديد و العسير، و حينئذ لا ينجو من العذاب، و قد أشار الله إلى ذلك بقوله: **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ (١)**، و كما أنّ الله يحاسب الإنسان الذي يكون مجمل مسيرته الصلاح و الحسنات الكبيره حسابا يسيرا فيكفر عنه سيئاته، فإنّه سبحانه يحاسب الذي يكون مجمل مسيرته الفساد و الفواحش الكبيره حسابا عسيرا لا تغفر فيه سيئه بل تتضاعف، و هكذا فعل الله بالقرى التي دمرها، من هنا قال العلامة الطبرسي رحمه الله: «الحساب الشديد الذي ليس فيه عفو» (٢).

و تعذيب الله لتلك القرى ينسف ظنون البعض بأنّه و هو الرحيم أجلّ من أن

ص: ٨٢

١-١) فاطر ٤٥.

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٠٩.

يؤاخذ العباد بما يعصون، و بالتالى مما يعثهم نحو الاسترسال فى الفسق و الانحراف من خلال هذا التبرير الواهى، و هذا أحد معانى قوله سبحانه وَ ذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْرَبْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١) و ذكر ذلك يزرع روح التقوى فى القلب، و يوقف مسيره الاسترسال نحو الهاويه! [٩] إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَمْكُنُهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ فِي الْفِرَاقِ، لِذَلِكَ فَإِنَّ الْقُرَى حِينَمَا عَتَتْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ (مناهجه و نظمه) اصطنعت لنفسها نظما و قوانين بشريه، و لكن هل وصلت إلى أهدافها الحقيقيه، بل هل حققت مصالحها و رغباتها لا أقل؟ كلاً..

لأَنَّ رسالات الله و سيله و حدها التى تسعد الإنسان و تلبى حاجاته، لذلك بقيت و حدها الخط الثابت عبر الزمن، رساله بعد أخرى، و جيلا بعد جيل، أما المذاهب البشريه فهى تبطل الواحد بعد الآخر، فكلما ابتدع المترفون مذهباً وضعياً ليكون بديلاً عن رسالات الله و رسله و غطاء لتسلطهم غير المشروع على رقاب الناس لم يلبث أن ظهر فساد، و انتشرت آثاره السيئه فاستبدلوه بمذهب آخر أو أفسد منه، و ها نحن اليوم نسمع و نقرأ عن إفلاس الشيوعيه، و ظهر ما جرّت على الناس من دمار و قمع و فساد عريض. أو ليس هذا وبالاً و عذاباً؟! بلى؛ و لكن هل يعود الناس إلى مناهج الوحي؟ كلاً.. إنما يبتدع لهم كبراًؤهم مذهباً باطلاً آخر و يأفكونهم به.

فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا أَى ثَقُلَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا الْمَتَمَثِلَةُ فِي الْخُسْرَانِ.

وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا

ص: ٨٣

فهي من جهه خسرت المكاسب و المعطيات العظيمة التي تنال بتطبيق أمر الله و رسله، و من جهه أخرى خسرت سعيها و جهودها و الأهداف التي تمت بلوغها، و هذه هي نتيجة المسيره الخاطئه التي اختارها الناس لأنفسهم، و هكذا كل حضاره لا تقوم على أساس رصين من الحق فإنها تكون كبناء على شرف هار، كلما ارتفع البناء كلما اقترب من الانهيار، و في لحظه يتلاشى كل شيء، و تذهب جهود الملايين من البشر!! [١٠-١١] و الخطير في الأمر أن الخساره و العذاب ليسا في الدنيا فحسب فإن ما في الآخرة أشد و أخزى! أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا و لعل إعداد العذاب بسبب أنه يأتي نتيجة الأفعال التي يجترحها المذنبون في الدنيا فيهيئ الله لكل ذنب ما يناسبه من العذاب كما و كيفاً، مما يجعلنا أشد حذراً من السيئات لأنها تتحوّل إلى عذاب شديد فور وقوعها و لكننا محجوبون عنه اليوم.

و كما تهبط الأمم إلى حدّ الهلاك بالعتوّ عن أمر الله و رسله، و اتباع المناهج البشريه، فإنها ترتقى في مدارج الكمال و التقدم بالتسليم لأمر الله و رسله و بالتقوى و تطبيق شرائعه و مناهجه في الحياه، فتفلح في الدنيا بالخروج من الظلمات إلى النور، و في الآخرة بالخلود في جنّات النعيم.

فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ التَّقْوَىٰ دَرَجَةٌ رَفِيعَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَبْعَثُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْوَعَىٰ لِأَمْرِ اللَّهِ وَ التَّسْلِيمِ لَهُ، فهي إذن تكمل لئبه و عقله، كما تكمل إيمانه و جوانبه الروحيه.

من هنا فإنها أكبر عامل و أوثق ضمانه لاستجابته للحق و التزامه به.

و قد قالوا أنّ أولى الألبابِ بدل عن الَّذِينَ آمَنُوا، و اللب هو مخ الشىء و عمقه، و ذى اللب هو صاحب البصيره التى تنفذ إلى أغوار الأمور، و قد خاطب الله المؤمنين من هذه الزاويه لأنّ دراسه التاريخ و ما صارت إليه تلك القرى و الإعتبار منه يحتاج إلى الإيمان و إلى الألباب و البصائر التى هى محور الثواب و العقاب،

ففى محاسن البرقى مرفوعاً إلى الأئمه عليهم السلام-قال: «ما يعبأ من أهل هذا الدّين بمن لا عقل له»، قال (الراوى) قلت: جعلت فداك أنا أتى قوماً لا- بأس بهم عندنا ممن يصف هذا الأمر ليست له تلك العقول؟ فقال: «ليس هؤلاء ممن خاطب الله فى قوله: «يا ألى الألباب». إنّ الله خلق العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: و عزتى و جلالى ما خلقت شيئاً أحسن منك و لا- أحب إليّ منك أبداً، بك آخذ و بك أعطى» (١) إنّ تقوى الله تعنى تجنّب الوقوع فى سخطه و عذابه، و هى لا تتحقق بالإيمان وحده، بل لا- بد من لب يعرف به الإنسان ما يسخط الرب و ما يرضيه، ذلك لأنّ الشروط الموضوعيه للتقوى متوافره، فتلك هى عبر التاريخ أمامنا، و هذا كتاب الله و رسوله يذكرنا الله بهما.

قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ بِرَبِّهِ، و بالحقائق الفطريه، و يذكره بطاقاته، و قدراته الكامنه، و أهدافه، و تطلّعاته، و يستنقذه من الغفله، فما هو ذلك الذكر؟ رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ قال أكثر المفسرين أنّ الذكر هو الرسول، و الذى يبدو لى أنّ الذكر أعم. إنه

ص: ٨٥





كثيًّا من الظلمات إلى النور، لأنَّ كلَّ عمل قبيح و نيه فاسده و صفه ذميمة ظلام في القلب، و كلَّ عمل صالح و نيه رشيدة و صفه حميده نور، و كلما تزكى القلب و تطهر السلوك من السيئات كلما زاد القلب نورا حتى يصبح العبد من المخلصين، كالذهب المصفى لا يشوب نور إيمانه أى ظلام، و هذا مقام أولياء الله المقربين.

و هكذا ليس آيات الله بديلا عن سعى الإنسان نفسه، إنما دورها هو رسم النهج السليم للكمال و الرقى، و على الإنسان الاجتهاد للعروج عبرها إلى الكمال.

وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَاءُ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا وَ الرزق ما يعطى للإنسان شيئا فشيئا ممَّا يوحى بأنَّ نعيم المؤمنين فى الآخرة لا ينحصر فى ما يعطونهم أول مرّه، إنما هو فى ازدياد و تكامل يوما بعد يوم.

[١٢] و حيث دعتنا أكثر آيات السوره إلى تقوى الله جاءت الخاتمه تعرّفنا بربنا سبحانه، لأنَّ التقوى بنت المعرفة، فكيف إذن نزداد معرفه بربنا لكي نزداد تقوى؟ لننظر إلى الآفاق من حولنا، إلى السماوات و الأرض، و إلى أسمائه المتجليه فى هذه الآفاق. إنها سبيلنا إلى معرفته تعالى، فحيثما رميت ببصرك رأيت عجيب الصنع و عظمه الخلقه، و أتى جلت ببصرك و تعمقت بفكرك فلن تجد إلا إجابته واحده تقودك إلى حقيقه التقوى و سنام المعرفة.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ قِيلَ: السبع كالسبعين كلمه تدلّ على الكثره، و قيل: أن الظاهر هو المقصود،

فهناك سبع سماوات، فما هي السموات السبع؟ هل هي ما تحيط بالأقاليم السبع من الفضاء القريب، باعتبار أن السماء هي الجهة المقابلة للأرض، فإذا كانت الأرضون سبعا-حسب تقسيم الناس يومئذ-فإن سمواتها أيضا سبع، و على هذا فإن الأرضين السبع هي تلك الأقاليم المشهورة في أدب العرب و في عرف الذين خوطبوا بالقرآن، و

قد جاء في حديث الإمام أمير المؤمنين-عليه السلام-: «لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها» (1)، أم أن السماوات السبع اشارة إلى الكواكب أو إلى سبع منظومات شمسية أو إلى المجرات؟ لعل الإنسان يطلع على معانى أخرى إذا تقدم به العلم. و المماثلة بين السماوات و الأرضين هنا قد تكون عدديه و جنسيه حيث أن الأرض من رتق السماء.

يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ «و الأمر»: سنن الله و قضاؤه و تقديراته و ما يبدو له مما يدبر به شؤون الخلق، و لعل ذلك سمي أمرا لأن الله و كل ملائكه على كل شيء ينفذون إرادته في الكائنات، فهو يأمرهم من فوقهم و هم يعملون بما يريد.

و إذا نبحت عن الفلسفه الأساسيه التى خلقت من أجلها السماوات و الأرض، و بالذات السماوات التى لا يطالها الإنسان فإننا سنجدها ليست المتعه بالنظر إليها، و لا ما تقوم به من دور فى وجوده و حياته، إنما هى كما له المعنوى و الروحى بمعرفه ربه من خلال أسمائه المتجلىه فى الكون من حوله.

لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ حَيْثُ تَتَجَلَّىٰ آيَةُ قُدْرَتِهِ فِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ لِلسَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لتهدينا إلى هذه

ص: ٨٨

الحقيقه.

□  
وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَ آيَهُ ذَلِكَ أَمْرُهُ الَّذِي يَنْزِلُ لِتُدْبِيرِ كُلِّ شَيْءٍ. وَ عِلْمُ الْإِنْسَانِ بِقَدْرِهِ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَ عِلْمُهُ الْمَطْلُوقُ وَ بِالتَّالِيِ إِيمَانُهُ بِذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَزْرَعُ فِي نَفْسِهِ التَّقْوَى، حَيْثُ يَخْشَى سَطْوَةَ اللَّهِ الْقَادِرِ، وَ يَتَحَسَّسُ رِقَابَتَهُ عَلَيْهِ فَلَا يَعْصِيهِ فِي عِلْنٍ وَ لَا خَفَاءٍ.

وَ كَلِمَةُ أُخِيرَهُ: إِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَتَّخِذُ الْخَلِيفَةَ وَسِيلَةً لِتَكَامُلِ مَعْرِفَتِهِ وَ إِيمَانِهِ بِرَبِّهِ ضَالٌّ عَنِ هَدْفِ الْخَلْقِ، أَوْ تَدْرِي كَيْفَ؟ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ خَلَقَ مَا فِي الْأَرْضِ لِلْإِنْسَانِ حَتَّى أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ مَحْوَرِ الْخَلْقِ، فَهَلْ خَلَقَهَا لِجَسَدِهِ أَمْ لِرُوحِهِ؟ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَمَيَّزُ بِجَسَدِهِ عَنِ أَيِّ حَيْوَانٍ آخَرَ، وَ لَا- فَضِيلَهُ لَهُ فِي ذَلِكَ أَبَدًا. إِذَا حَكَمَهُ الْخَلْقُ تَكَمَّنَ فِي رُوحِهِ، وَ مَاذَا فِي رُوحِ الْإِنْسَانِ غَيْرِ الْعَقْلِ الَّذِي يَنْمُو بِالنَّظَرِ فِي آفَاقِ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ؟! فَمَنْ لَمْ يَتَكَامَلْ عَقْلُهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَبْطُلُ حَكْمُهُ خَلْقَهُ فَقَطْ، بَلْ وَ حَكْمُهُ الْوُجُودِ مِنْ حَوْلِهِ أَيْضًا. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

ص: ٨٩



سوره التحريم

اشاره

ص: ۹۱



بسم الله الرحمن الرحيم لقد ارتفعت و لا- تزال رايه الجدل بين المذاهب الإسلاميه فى شأن زوجات الرسول-صلى الله عليه و آله-فاختلفوا إلى ثلاثة آراء رئيسه:

الأول:أضفى عليهن مسحه من العصمه متابعه لبعض النصوص، كقول الله:

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (١)، و كونهن مشمولات بآيه التطهير و أخبار وردت، و لأنهن زوجات أفضل خلق الله-صلى الله عليه و آله- الذى لا- يعقل أنه يختار لنفسه من الزوجات إلا خير النساء، و قد دعمت هذا الرأى اعتبارات مذهبيه أخرى.

الثانى: و تطرف فريق إلى حد الطعن فيهن لدوافع مصلحيه أو مذهبيه، كالمنافقين الذين نالوا بالإفك و البهتان من بعض زوجات الرسول-صلى الله عليه و آله-.

ص: ٩٣

الثالث: و بين هذا و ذلك أخذ فريق سبيلا وسطا، فلا تبرير للأخطاء، و لا تضخيم لها: و لكي يصل الباحث إلى الرأى الموضوعى لا بد أن يدرس أمرين أساسيين: أحدهما: تاريخ زوجات الرسول-صلى الله عليه و آله-دراسه موضوعيه، و الآخر: موقف القرآن عبر دراسه شامله لكل ما أورده آياته فى هذا الموضوع، و لكن بما أن فى التاريخ اختلاف و تزويرا فإن القرآن يبقى هو الميزان الثابت و الفرقان الأعظم و بالخصوص فى القضايا الحساسه كالموقف من زوجات سيد الرسل-صلى الله عليه و آله-، فما هو موقف القرآن؟ لقد سجلت الآيات القرآنيه موقف الرساله الإلهيه فى هذه القضيه، و يكفيننا أن نعرض هنا ما جاءت به سوره التحريم التى يبدو أنها تحدّثنا فيما تحدّثنا عن هذا الموضوع كخط عام لآياتها.

١- فى البدايه تبين أنّ الرسول-صلى الله عليه و آله- كان يتعرض للضغط من قبل بعض أزواجه، حتى يضطر فى بعض الأحيان أن يحرم على نفسه ما أحله الله له، فيضيق عليها طمعا فى مرضاتهنّ (الآيات ٢/١)، و هاتان الآيتان تعريض ببعض زوجات الرسول و ليس به-صلى الله عليه و آله-.

٢- إنّ اثنتين منهنّ خانتا النبىّ بإفشاء بعض ما أفضى إليهما من الأسرار (الآيه ٣).

٣- إنهنّ أو بعضهنّ كنّ يملن عن الحق فى بعض الأحيان (تصغى قلوبهن) و يمكن أن يتبن عن ذلك إلى الله، كما يمكن أن يتمادين فى الميل إلى حد المظاهره ضد-الرسول-صلى الله عليه و آله-، و بالتالى الوقوف ضد جبهه الحق التى مثلها الله، و أمين وحيه (جبرئيل)، و خيره المؤمنين، و الملائكه الذين ينصرون النبىّ (الآيه ٤).



٤- إن نساء النبيّ لسن أفضل النساء على الإطلاق، فهو لو طلقهن فقد يجد خيرا منهن بين الناس ممن جمعت فيهن بصورة أفضل صفات الخير و الفضيله كالإسلام و الإيمان و القنوت و التوبه و العباده و السياحه،(الآيه ٥).

٥- يفصل القرآن بين الزوج و زوجته فى التقييم، لأنّ قيمه كلّ إنسان ما يحسنه هو لا ما يحسنه الآخرون مهما كانت الرابطة بينه و بينهم قريبه و حميمه، كما أنّ مقياس القبح هو ما يقوم به الفرد من السيئات لا ما يقوم به الآخرون مهما قربوا منه، إذن فالتقييم الموضوعى الدقيق لأى أحد بتقييمه كفرد منقطع عن أى أحد، و هذا ما يجعل زوجتى نوح و لوط مثلا للكفار فتدخلان النار لا فرق بينهما و بين سائر الناس عند الله من جهه، و من جهه أخرى نفس هذه الحقيقه هى التى تجعل آسياه بنت مزاحم زوجة فرعون الذى ادّعى الربوبيه مثلا للمؤمنين عبر التاريخ، و كذلك مريم التى أحصنت فرجها و صدّقت بكلمات الله و كتبه و قنتت له مع القاتنين(الآيات ١٠،١١،١٢).

٦- و هكذا كانت سوره التحريم تدور حول علاقته الزوج بزوجه حيث ينبغى أن تكون وفق المقاييس الإلهيه، فلا يجوز لأحد أن يقيم الزوجه على أساس زوجها سلبا أو إيجابا، فقد كانتا زوجتا لوط و نوح خائنتين و كانت آسيه صالحه.. و لا يجوز للمرأة أنى كانت أن تنشر أسرار البيت خارجه. و هكذا تتواصل آيات سوره التحريم لتكتمل بصائر آيات سوره الطلاق فى مراعاة التقوى فى سائر أبعاد الحياه الزوجيه.



## [سوره التحريم (٦٦): الآيات ١ الى ١٢]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغَىٰ مَرْضَاتٍ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّهُ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا تَبَأَثَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا تَبَأَّثَ بِهِ قَالَتْ مَنْ أَتَبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَأَثَىٰ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَوَبَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلَمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا وَاجْعَلْ لَنَا نَارًا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحَ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ إِثْنَتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانٌ وَالْحَنُوفَ وَإِذْ قَالَتْ رَبِّ اجْعَلْنِي مُسْلِمَةً مُّؤْمِنَةً قَانِتَةً تَائِبَةً عَابِدَةً سَائِحَةً ثَيِّبَةً وَأَبْكَارًا (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا وَاجْعَلْ لَنَا نَارًا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحَ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ إِثْنَتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانٌ وَالْحَنُوفَ وَإِذْ قَالَتْ رَبِّ اجْعَلْنِي مُسْلِمَةً مُّؤْمِنَةً قَانِتَةً تَائِبَةً عَابِدَةً سَائِحَةً ثَيِّبَةً وَأَبْكَارًا (٥)

## اللغة

٢[تحله أيمانكم]: أصل الحل حل العقده، وهذه الآية تقصد حل عقده الإيمان من الكفار، و روى في الحديث:

«لا يموت للرجل ثلاثه أولاد فتمسه النار إلا تحله القسم» أى قدر ما يقول: ان شاء الله تعالى، و فى الآية دلالة على أن النبى كان قد حلف على الترك، و أمر بتحلّه يمينه بالكفار، فالتحلّه تحلل اليمين.

٣[عَرَّفَ بعضه]: أجمع المفسرون على أن المعنى أبان و فضح لزوجاته ما أذعنه، و لكن يبدو لى أن الكلمه «عَرَّفَ» بالتشديد تعنى الإبراز كما الجبل يسمى عرفا، و قد قال الله: «وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ» أى أبرزها و أظهرها كما العرف، و قال تعالى:

وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ أَى على مشارف، و الإعراض عكس الإعراف أى الإهمال و التغافل.

٤[صَغَتْ قلوبكما]: أى مالت، و قيل: ضاقت و عدلت عن الحق، و يبدو أن ذلك لا ينسجم و الآيه: إذ تقول إن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا و الأصح أنها من الإصغاء لقوله تعالى: وَ لَتَصْغِيَّ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فَكَأَن التوبه الى الله تفتح أسمع القلوب.

[تظاهرا عليه]: تتعاوننا و تعاضدا عليه، و جواب هذا التظاهر و التعاون أن يتظاهر معه الله مولاه و جبريل و صالح المؤمنين و الملائكه بعد ذلك ظهير. أى معين و ناصر، و فى المصطلح الحديث: تظاهر الناس تظاهره، أى اجتمعوا أو خرجوا متعاونين كما فى المنجد، و استظهر به استعان، و الظهره:

العون.

ص: ٩٨

٥]مؤمنات قانتات]و جوابهما قوله: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ وَقوله عن مريم: وَ كَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ وَ لعل ذلك يؤيد الروايات التي تقول: ان الله سوف الجنة من امراه فرعون و مريم عليه السلام .

[سانحات]: قيل: صائمات، و قيل: مجاهدات من الحديث: «سياحه أمتي الجهاد» و في أخرى «جهاد المرأة حسن التبعل»

١٠ [فخانتاهما]: الخيانة و النفاق واحد، إلا- أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد و الأمانة، و النفاق يقال اعتبارا بالدين، فالخيانة مخالفه الحق بنقض العهد في السرّ، و من الخطأ استعمال كلمه الخيانة في الفاحشه، و القرآن لم يورد الخيانة في الفاحشه قطّ، و على ذلك فمن الخطأ القول أنّ الخيانة الزوجيه تدل على الفاحشه.

ص: ١٠٠



[١]

قالوا: إن رسول الله كان في بيت حفصه في يومها، وعادت و كانت ماريه القبطيه تخدمه، فذهبت حفصه في حاجه لها، فتناول رسول الله -صلى الله عليه و آله- ماريه فعلمت حفصه بذلك فغضبت و أقبلت على رسول الله -صلى الله عليه و آله- فقالت: يا رسول الله هذا في يومى، و فى دارى، و على فراشى؟! فاستحى رسول الله -صلى الله عليه و آله- منها فقال: «كفى فقد حرمت ماريه على نفسى، و لا أطأها بعد هذا أبدا» (١)، و على روايه عن الإمام الصادق -عليه السلام- أنه قال: «و الله ما أقربها» (٢)، و تكشف لنا هذه الحادثه التى ذكرها الرواه عن جانب من حياه الرسول مع زوجاته ببيان حقائق ثلاث:

الأولى: ما عليه الرسول -صلى الله عليه و آله- من عظيم الأخلاق، إذ

ص: ١٠٢

---

١- ١) تفسير القمى ج ٢ عند الآيه.

٢- ٢) المصدر



كان يتنازل عن حقوقه الشخصية شريطه ألا- تتعارض من الناحية الشرعية مع حقوق الآخرين، مع ما في ذلك من الحرمان و المشقه ليعيش الآخرون في راحه، فهو أبى و نفسى كما

وصف أمير المؤمنين-عليه السلام-: «نفسه منه في عناء، و الناس منه في راحه، أتعب نفسه لآخرته، و أراح الناس من نفسه» (1)، و ذلك مما يليق بمقام النبوه.

الثانيه: إن بعض زوجات النبى-و بالذات المعنيتين بمطلع سوره التحريم- كن يمارسن ضغوطا عليه لأغراض لا- مبرر لها، بل تتعارض الاستجابه لها عمليا مع أحكام الدين فتصير الحلال حراما.

الثالثه: و هكذا كان الرسول وحده الأسوه للمؤمنين، أما من حوله فليسوا موضع تأسى إلا بمقدار تجسيدهم للحق في حياتهم و اقتدائهم بشخص الرسول، و هكذا بالنسبه إلى كل رسول و كل قائد رسالى إنه وحده المقياس أما من حوله فقد يكونون أبعد الناس عن مثاله و منهجه، أليس ابن نوح كان من الهالكين؟ أو ليست زوجة نوح و زوجته لوط دخلتا النار مع الداخلين؟ و هكذا ينبغى أن ندرس التاريخ فى ضوء هذه الآيه من جديد.

أما كيف تدخّل الوحي فى حادث التحريم و عالجته؟ فهذا ما يجيب عنه السياق حيث يؤكد على أنّ تحريم النبى لما قد حرّمه على نفسه (مقاربه ماريه، أو لعق العسل، أو مقاربه كل نساءه) مما هو حلال فى الأصل لم يكن تشريعا إلهيا تنزل به الوحي ليكون حكما جاريا إنما هو مبادره شخصيه فى حدود الحقوق الشرعيه اختارها النبى لنفسه، لحكمه بالغه تمثّلت فى ابتغاء مرضاه الأزواج، و لهذا جاء الخطاب بقوله تعالى:

ص: ١٠٣

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ و ربما لم يخاطبه الجليل بصفته رسولا يبلغ أحكام الله و رسالته بل بصفته نبيا لكي لا يعدّ إيلاؤه جزء من رساله.

لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إِنَّ التَّحْرِيمَ هُنَا بِمَعْنَى الْاِمْتِنَاعِ وَ لَيْسَ بِمَعْنَى التَّشْرِيْعِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: وَ حَرَّمَ عَلَيهِ الْمُرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ (١)، وَ لَوْ كَانَ الرَّسُولُ بِتَحْرِيمِهِ مُشْرَعًا لَجَاءَ التَّعْبِيرُ (لَا تُحَرِّم) بِالنَّهْيِ، لِأَنَّهُ لَا مُشْرَعَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ مَهْمَا كَانَ أَنْ يَشْرَعَ مِنْ دُونِهِ.

فعن زراره عن أبي جعفر -عليه السلام- قال: سألته عن رجل قال لامرأته:

أنت عليّ حرام، فقال لي «لو كان لي عليه سلطان لأوجعت رأسه و قلت له: الله أحلها لك فما حرّمها عليك؟ إنّه لم يزد علي أن كذب فزعم أنّ ما أحلّ الله له حرام، و لا يدخل عليه طلاق و لا كفاره» (٢) و لم يحرم مشرعا الرسول، إنّما امتنع عن مقاربه ماريه القبطيه لغايه هي إرضاء زوجاته اللاتي أثارتهنّ الغيره.

تَبَغَّيْ مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَ فِي الْآيَةِ تَحْذِيرٌ لِلرَّسُولِ وَ لِكُلِّ قَائِدٍ أَنْ لَا يَتَأَثَّرَ بِأَحَدٍ وَ لَوْ كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الضَّغُوطَ الَّتِي يُوْجِهُهَا الْمُقْرَبُونَ لِلْقِيَادَةِ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ آتِيَهُ مِنْ دَوَافِعِ دَاخِلِيهِ وَ إِنْ كَانَتْ تَتَلَبَّسُ بِهَذَا الثُّوبِ، إِنَّمَا تَنْتَقِلُ عَادَهُ إِلَى بَيْتِ الْقَائِدِ مِنْ أَعْبَدِ نَقْطَةٍ، وَ لَكِنْ عِبْرَ حَلَقَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ حَتَّى تَبْلُغَ الْقَائِدَ، وَ بِالْخُصُوصِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي

ص: ١٠٤

١-١) القصص ١٢

٢-٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٣٦٨ نقلا عن الكافي.

تستهدف الدوائر الاستكباريه فيه محاربتة و القضاء على الدين،فليس من شك أن أجهزه المخابرات و شبكات الأحزاب الفاسده كالشيوعيه و الماسونيه و الصهيونيه و فروعها المبتوثه فى أوساط الأُمَّه كَلَّها تسعى للتأثير على القيادات الدينيه عبر وسائله عديده،وإنها قد تؤثر حتى فى مواقف بعض القيادات و آرائها و فتاويها،فكيف ينبغى أن يتعامل القائد مع مجاميع الضغط هذه فينفى تأثيراتها السلبيه؟إن للقائد صفتين:إنسانيه و قياديه،و عليه أن يحافظ على توازن حكيم،ففى الوقت الذى يتعامل مع زوجته و أولاده و ذوى قرياه بصفته الإنسانيه و بكامل عواطفه و أحاسيسه عليه ألا يسمح لذوى النفوذ أن يؤثروا عليه من خلالها على مركزه القيادى،و هذا ما يشير إليه القرآن فى آيه التحريم.

□  
وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَ يَنْبَغِي لِلْقَائِدِ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ أَيْضًا،ففى الوقت الذى لا يتأثر بضغوط الزوجات لا ينال أذاهن من حلمه وسعه صدره بل يغفر لهن و يرحمهن تخَلَّقًا بصفات الله و طمعا فى غفرانه و رحمته.

[٢]و من مظاهر غفرانه و رحمته عزّ و جلّ أن جعل للمؤمنين مخرجا يتحللون به من اليمين و آثاره الماديه و المعنويه بالكفّاره،و لو كان الله يجعل تحريم الإنسان على نفسه تشريعا لوقع الكثير من الناس فى العسر و لتفككت الكثير من الأسر،حيث تدعوهم الضغوط و حالات الغضب إلى التحريم باليمين فى أحيان كثيره.

□  
قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحَلُّهُ أَيْمَانِكُمْ

قال الإمام أبو جعفر-عليه السلام:- «إنما حرّم عليه الجاريه ماريه و حلف أن لا يقربها،فإنما جعل عليه الكفّاره فى الحلف و لم يجعل عليه فى

التحریم» (١)، وهذا واضح في الآيه «تَحِلُّهُ أَيْمَانِكُمْ»، فلو قال أحد فلانه عليّ حرام دون يمين فلا هي تحرم عليه ولا تجب عليه الكفاره بخرقه لكلامه وقراره، بل لا يكون إيلاء إلا باليمين و لمدته أربعة أشهر،

فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا يكون إيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر» (٢) أي بهذين الشرطين، والذى يظهر من النصوص أنّ ما كان من رسول الله تحريم بيمين و ليس إيلاء، لأن ماريه جاريه لا إيلاء فيها،

فعن أبي نصر عن الامام الرضا عليه السلام قال: سألته عن الرجل يولى من أمته، فقال: «لا. كيف يولى و ليس لها طلاق» (٣) إلا أن يكون النبي -صلى الله عليه و آله- كما قال بعض المفسرين قد حلف بأن لا يقارب أزواجه جميعا بعد تحذير الله له من تحريم ما أحل له ابتغاء مرضاتهن، و الله أعلم.

و لكي يتحلل الرجل من الأيمان بالإيلاء أو مجرده فرض الله كفاره كمخرج و كعقوبه حتى لا يعود لها مرّه أخرى، و هي في صالحه، و هذا يدل عليه قوله سبحانه «لكم» بالرغم من أنّ البعض يراها كلفه و غرامه لله عليه، فهي تزكى النفس، و توقف الغضب عند حدّه. و كفّاره نقض اليمين واجبه فرضها الله، إلا- أن العود إلى ما كان قد حرّمه بها ليس متعلّقا بأدائها، فلا تتكرر الكفاره بتكرار العود قبل أدائها كما هو في الظهار، إنّما تجب مرّه واحده لكل يمين، و مقدارها إطعام عشرة مساكين،

فعن أبي حمزه الثمالي قال: سألت أبا عبد الله -عليه السلام- عن قال: و الله ثم لم يف، فقال: «كفّارته إطعام عشرة مساكين» (٤).

و يأتي هذا الفرض من موقع الولاية الإلهيه على المؤمنين.

ص: ١٠٦

١-١ المصدر

٢-٢ الوسائل ج ١٥ ص ٥٣٨

٣-٣ المصدر ص ٥٣٩

٤-٤ المصدر ص ٥٧١

وَ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ فَاَلَّذِي يَفْرَضُهُ هُوَ الْوَاجِبُ، وَ لَا- يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْخُذُوا تَشْرِيعَاتِهِمْ مِنْ مَصْدَرٍ سِوَاهُ، لِأَنَّهُ حَيْثُ يَشْرَعُ أَهْلٌ لَذَلِكَ، لَا حَاطَتَهُ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ، وَ لِأَنَّهُ لَا يَضَعُ حَكْمًا إِلَّا لِحَكْمِهِ بِالْغَيْهِ.

وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَ إِيمَانُ الْإِنْسَانِ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ لِلَّهِ يَبْعَثُ فِيهِ رُوحَ التَّسْلِيمِ وَ الرِّضَى بِكُلِّ مَا يَفْرَضُهُ عَلَيْهِ حَيْثُ يَشْعُرُ بِفَطْرَتِهِ وَ عَقْلُهُ أَنَّهُ يَتَلَقَّى تَشْرِيعَاتِهِ مِنْ لَدُنِ عَلِيمٍ حَكِيمٍ، بَلْ إِنْ ذَلِكَ يَجْعَلُهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا بِمَا يَنْزِلُ مِنْ عِنْدِهِ، أَمَّا مَا يَضَعُهُ الْبَشَرُ مِنَ النِّظْمِ وَ الْأَحْكَامِ فَإِنَّهَا لَا تَدْعُو إِلَى الْإِطْمِئْنَانِ بِهَا، لِأَنَّ وَاضِعَهَا مَحْدُودُ الْعِلْمِ وَ الْحَكْمِ.

[٣] وَ يَكْشِفُ لَنَا الْوَحْيَ بَعْدَ الْكَلَامِ عَنْ حَادِثِ التَّحْرِيمِ الَّذِي جَاءَ نَتِيجَةً مِنْ ضَغُوطِ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ عَنْ صُورِهِ أُخْرَى سَلْبِيَّةٍ مِنْ تَعَامُلِهِنَّ مَعَهُ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ- حَيْثُ يَفْشِيهِنَّ أَسْرَارَهُ إِلَى الْآخَرِينَ. الْأَمْرُ الَّذِي يَنْطَوِي عَلَى خِيَانَتَيْنِ: خِيَانَتُهُ لَهُ كَزَوْجِهَا فَالزَّوْجَةُ الْمَخْلُصَةُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُسْتَوْدِعَ سِرِّ زَوْجِهَا وَ لَا يَلِيقُ بِهَا إِشَاعَتُهُ لِأَحَدٍ مَهْمَا كَانَ قَرَابَتَهُ وَ مَكَانَتَهُ، وَ خِيَانَتُهُ لَهُ كَنَبِيِّ وَ قَائِدٍ لِلْأُمَّةِ.

وَ إِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا قِيلَ أَنَّهُ تَحْرِيمُ مَارِيهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَ قِيلَ أَنَّهُ تَحَدَّثَ عَنِ التِّيَّارَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْأُمَّةِ، وَ عَنِ مَسْتَقْبَلِ السُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ فِيهَا، وَ هُوَ الْأَقْرَبُ وَ الْأَهْمُ، لِأَنَّ تَحْرِيمَ مَارِيهِ لَمْ يَكُنْ فِي الْخَفَاءِ، وَ لَا يَحْتَاجُ الْكَلَامَ عَنْ إِفْشَاءِ هَكَذَا حَدِيثٍ إِلَى التَّأَكِيدِ عَلَى مَظَاهِرِهِ اللَّهُ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ لِلنَّبِيِّ. وَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ قَالَ الْعَلَّامَةُ الطَّبْرَسِيُّ (رَضِيَ): وَ لَمَّا حَرَّمَ مَارِيهِ الْقَبْطِيَّةَ أَخْبَرَ حَفْصَةَ أَنَّهُ

يملك من بعده أبو بكر و عمر (١).

فَلَمَّا تَبَّأَتْ بِهِ قِيلَ أَنَّ كَلًّا مِنْ حَفْصَةَ وَ عَائِشَةَ أَخْبَرْتَا أَبَوَاهُمَا بِالْأَمْرِ، إِمَّا بِسَبَبِ الْعَلَاقَاتِ الْعَاطِفِيهِ الْمَتِينَةِ بَيْنِ الْبِنْتِ وَ أَبِيهَا، أَوْ لِحُبِّ التَّظَاهَرِ بِالْحَضْوَةِ عِنْدَ الرَّسُولِ، وَ هَذَا مِنْ أَوْسَعِ الْأَبْوَابِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهَا أَسْرَارُ الْإِنْسَانِ إِلَى الْآخِرِينَ. وَ إِذَا كَانَ الْإِنْبَاءُ بِأَسْرَارِ النَّبِيِّ يَتَمَّ بَعِيدًا عَنْ سَمْعِهِ وَ نَظَرِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَكُونَ بَعِيدًا عَنْ رِقَابِهِ اللَّهُ الَّذِي أَخْبَرَ رَسُولَهُ بِالْأَمْرِ.

وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ أَيَّ كَشَفَ لَهُ أَنَّ هَذِهِ الزَّوْجَةَ لَمْ تَصْنِ سِرَّهُ.

عَرَفَ بَعْضُهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ مِمَّا يَفْصَحُ عَنْ مَعْدِنِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ - حَيْثُ الْأَخْلَاقِ وَ الْحِكْمَةِ، فَهُوَ لَمْ يِعَاتِبْهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بَلْ أَظْهَرَ جَانِبًا مِنْ أَمْرِهَا وَ كَأَنَّهُ يَجْهَلُ الْجَوَانِبَ الْآخَرَى، وَ لَعَلَّ مَا أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ كَانَ يَتَسَبَّبُ لَوْ ذَكَرَهُ فِي حَرَجٍ عَظِيمٍ لَهَا، وَ آثَارُ سَلْبِيهِ لَا تَحْمَدُ عَقْبَاهَا، وَ ذَلِكَ غَايَةُ فِي الْحِكْمَةِ لِكُلِّ زَوْجٍ فِي أَسْرَتِهِ، وَ لِكُلِّ قَائِدٍ تَجَاهُ أُمَّتِهِ.

فَلَمَّا تَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا وَ لَعَلَّهَا حِينْتُدَّ كَانَتْ مَرْتَابَهُ فِي أَنَّ مِنْ أَطْلَعَتْهُ عَلَى السِّرِّ هُوَ الَّذِي أَخْبَرَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ - وَ غَابَ عَنْ بَالِهَا وَ إِيمَانِهَا أَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالْوَحَى وَ مُؤَيَّدٌ مِنْ عِنْدِ

ص: ١٠٨

١-١) مجمع البيان/ج ١٠ عند الآية.



أى خيرتهم و أفضلهم، و أفضل كل المؤمنين هو الإمام على -عليه السلام- الذى نصر الرسول فى كل معاركه و حروبه العسكريه و السياسيه و غيرهما، و لذلك جاءت بعض النصوص بهذا التأويل،

قال الإمام الصادق -عليه السلام- «صالح المؤمنين هو على بن أبى طالب عليه السلام» (١).

وَ الْمَلَأِيكُهُ بِعِيدٍ ذِيكَ ظَهِيْرٌ قَالَ ابْن عَبَّاسٍ: سَأَلْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ- فَقَالَ: حَفْصَةُ وَ عَائِشَةُ. أوردته البخارى فى الصحيح (٢).

[٥] و يحذر الله زوجات الرسول من السلوك السلبى تجاهه بأنّ مصلحه رسالته فوق كل شىء، و هو مستعد لتطليقهنّ لو عارضن الرساله دون أن يجعل قيادته و قراراته عرضه للتأثر بالضغط و تبعاً لأهواء الزوجات و ميولهنّ. ثمّ أنه لو فعل ذلك فلن تتعطل مسيرته بل ستستمر، و سيجد بين الناس و عند الله من هو خير من زوجاته.

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مِنَ الْجَهَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَ الْمَادِيَّةِ. و قد وجّه القرآن الحديث من المثنى إلى الجميع لكى يكون ما حدث عبره للجميع، فلا تحدثهن أنفسهن بالسير على خطى الاثنتين. أما الصفات المعنويه التى ينبغى أن تكون فى شريكه حياه الإنسان المؤمن فهى التاليه:

مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَاتِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ

ص: ١١٠

١-١) نور الثقلين ج ٥ ص ٣٧٠

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ عند الآيه.



لقول رسول الله -صلى الله عليه وآله-: «سياحه أمتى الجهاد»، و الهجره صوره من السياحه بهذا المفهوم، و الصفات الآنفه صفات متدرجه فالإيمان فوق التسليم، و القنوت فوق الإيمان، و هكذا.. و هذه الصفات هى الأهم، و تأتى فى الدرجه الثانيه الصفات الماديه الظاهره:

تِيَّابٍ وَ أَبْكَاراً [٦] و بعد أن بين القرآن بأن من الممكن للرسول -صلى الله عليه وآله- أن يجد فى المجتمع زوجات خيرا من زوجاته لو طلقهن ملوفاً لهن بالطلاق لو لم يتبن إلى الله، أمر المؤمنين بتحمل المسؤوليه الرساليه فى إطار الأسره، إذ يجب السعى الحثيث لإنقاذ نفسه و سائر أسرته من نار جهنم، و هذه أعظم مسئوليه للمؤمن تجاه أهله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَ إِنَّهَا لَآيَةٌ عَظِيمَةٌ ترسم للإنسان المؤمن خطوط مسئوليته لتخرجه من إطار الفرديه إلى التطلعات الإنسانيه و الدينيه الواسعه، حيث التفكير فى نجاه الآخرين و فلاحهم كجزء من المسئوليه فى الحياه. و على هذا أكد أئمه الهدى فى تفسيرهم لهذه الآيه الكريمه،

قال سليمان بن خالد: قلت للإمام الصادق -عليه السلام- إن لى أهل بيت و هم يسمعون منى أفأدعوهم إلى هذا الأمر؟ فقال: «نعم. إن الله عزّ و جلّ يقول فى كتابه: الآيه» (١)، و

عن أبى بصير قال: سألت أبا عبد الله -عليه السلام- عن قول الله: الآيه، قلت: هذه نفسى أقيها فكيف أقى أهلى؟ قال:

«تأمرهم بما أمرهم الله به، و تنهاهم عما نهاهم الله عنه، فإن أطاعوك كنت قد

وقيتهم، وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك» (١)، وهذه الرواية تؤكد بأن الدعوه لله مسئوليه مفروضه على المؤمن فى أوساط الأسره (الزوجه و الأولاد)، و أنه يجب عليه أن يكون رسولا لربه فيها يدعوهم إلى الحق و ينهاهم عن الباطل.

و لا يسقط المسئوليه عدم استجابتهم للدعوه،

فقد سئل الإمام الصادق -عليه السلام- عن الآيه فقيل: كيف نقيهن؟ قال: «تأمروهن و تنهونهن»، قيل له:

إننا نأمرهن و ننهاهن فلا يقبلن؟ قال: «إذا أمرتموهن و نهيتموهن فقد قضيتن ما عليكم» (٢)، و لعل الوقايه من النار تمر من خلال اجتناب السيئات و تركيز الصفات المشار إليها فى الآيه اللاحقه فى النفس و الأهل. و أى نار تلك التى يدعونا الله للوقايه منها؟ أولا: إنها تشتعل باحتراق الناس و الحجاره.

وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ فَلَيْسَ النَّاسُ هُنَاكَ يَحْتَرِقُونَ بِالنَّارِ بَلْ يَتَحَوَّلُونَ نيراناً، لأن كل شىء فى جهنم ذو طبيعه ناريه، فهل يتم الاحتراق بتفاعلات ذريه فى الجسم لذلك لا يتحولون رمادا بسرعه، بل يبدل الله جلودهم كلما نضجت ليدوقوا عذاب الهون، أم بطريقه أخرى؟ لا نعلم، إنما يكفيننا أن نتصور ذلك المنظر الرهيب فنخشى و نتقى.

و قالوا عن الحجاره أنها حجاره الكبريت، و لكن يمكن أن يكون عموم الحجاره و يكون احتراقها بتفاعلات ذريه.

ثانيا:

ص: ١١٢

١-١) المصدر.

٢-٢) المصدر ص ٣٧٣.

عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ فَهَم قَسَاهُ التَّعَامُلُ مَعَ أَهْلِ النَّارِ، فَلَا تَرَى فِي شَخْصِيَّتِهِمُ الْبَشَاشَةَ وَاللُّطْفَ، كَمَا أَنَّهِمْ أَقْوِيَاءُ فَتَعْذِيبُهُمْ وَأَخْذُهُمْ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالشَّدَةِ.

□ □ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ مِنْ قَبْلِ فِي تَعْذِيبِ أَهْلِ النَّارِ.

وَ يَقْعُلُونَ □ مَا يُؤْمَرُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَلَا يَتَصَوَّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِقَامَةِ عِلَاقَاتٍ خَاصَّةٍ مَعَهُمْ تَشْبِيهِمْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَجَاهَهُ، فَإِنَّهُمْ عِبَادٌ مَأْمُورُونَ لِلَّهِ وَ لَيْسُوا شُرَكَاءَ، وَ طَاعَتُهُمْ لَهُ عَزَّ وَ جَلَّ لَيْسَ فِيهَا ثَغْرُهُ يَهْرَبُ عِبْرَهَا الْمَعْدَبُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. وَ إِذَا كَانَ ثَمَّ طَرِيقٌ لِاتِّقَاءِ غَلْظَتِهِمْ وَ شِدَّتِهِمْ وَ عَذَابِ النَّارِ فَهُوَ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى سَيِّدِهِمْ وَ التَّحَبُّبُ إِلَيْهِ بِالْإِيمَانِ وَ الطَّاعَةِ، وَ لَا يَتَمُّ ذَلِكَ إِلَّا فِي الدُّنْيَا، فَلَمَّا ذَا يُضَعُّ الْبَعْضُ حُجْبًا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ رَبِّهِ بِاتِّبَاعِ الْفَلَسَفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الشَّرِكِيَّةِ كَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَ الْمَلَائِكَةِ؟! [٧] هُنَا فِي الدُّنْيَا عِنْدَ مَا يُوَاجِهُ الْإِنْسَانُ حَقِيقَةَ رَهْبِيَّةٍ أَوْ مَسْئُولِيَّةٍ ثَقِيلَةٍ يَحَاوِلُ أَنْ يَتَهْرَبَ مِنْهَا بِالْخُدَاعِ الْذَاتِيِّ، فَتَرَاهُ يَلْتَمِسُ الْأَعْذَارَ وَ التَّبْرِيرَاتِ، وَ يَتَحَصَّنُ وَرَاءَ الْأَوْهَامِ وَ الظُّنُونِ، كَلَّا.. إِنَّهَا لَا تَفِيدُهُ هُنَاكَ فِي الْآخِرَةِ شَيْئًا.

□ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ □ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَ مَا دَامَ جَزَاءُ الْآخِرَةِ هُوَ ذَاتُ عَمَلِ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا فَلَا مَعْنَى لِلْعُذْرِ إِذَا، وَ كَيْفَ يَتَخَلَّصُ الْإِنْسَانُ مِمَّا هُوَ جُزْءٌ ذَاتِهِ؟ وَ فِي الْآيَةِ إِحْيَاءٌ بِأَنَّ عَدَمَ اسْتِعْدَادِ الْكُفَّارِ لِلْآخِرَةِ وَ لِقَاءِ اللَّهِ نَتِيجَةُ طَبِيعِيَّةٍ لِكُفْرِهِمْ بِهَا.

[٨] و ينبغي أن تكون هذه التذكرة باعثاً نحو المبادرة إلى التوبة في الدنيا قبل فوات الأوان، توبه صادقاً كأروع ما تكون التوبة، فإن ذلك وحده الاعتذار الذي يقبله الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ بالندم على ما فات، والعزم على ترك الذنب، وإصلاح آثاره السلبية نفسه و اجتماعيه واقتصادييه و..و الاجتهاد فى الصالحات، هكذا

سأل أحمد بن هلال الإمام الهادى-عليه السلام- عن التوبة النصوح ما هي؟ فكتب عليه السلام:

«أن يكون الباطن كالظاهر و أفضل من ذلك» (١)، و

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «هو صوم يوم الأربعاء و الخميس و الجمعة» (٢)، لأن العمل الصالح جزء من التوبة، و

قال الإمام أبو الحسن-عليه السلام-: «يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه» (٣)، و

قال رسول الله-صلى الله عليه و آله- عن التوبة النصوح: «أن يتوب التائب ثم لا يرجع فى ذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع» (٤).

و هذه التوبة هي التي يقبلها الله فيعفو عن سيئات الإنسان بها و يدخله جنات النعيم يوم القيامة.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ حَقًّا: إِنَّ التَّائِبَ عَنْ صَدَقَ يَرْجَىٰ لَهُ أَنْ تَتَحَوَّلَ ذُنُوبُهُ مِنْ عَقْدِهِ سَيِّئُهُ تَعِيقَ﴾

ص: ١١٤

١-١) المصدر ص ٣٧٣.

٢-٢) المصدر.

٣-٣) المصدر ص ٣٧٤.

٤-٤) عن مجمع البيان ج ١ ص ٣١٨ و القرطبي ج ١٨ ص ١٩٧.

مسيرته نحو التكامل إلى دافع قوى نحو الخير و الفضيله، كما أنّ الله سبحانه يمحو من ديوانه السيئات فلا يطلع عليها أحدا حتى أقرب المقربين إليه،

قال معاوية بن وهب: سمعت أبا عبد الله -عليه السلام- (الإمام الصادق) يقول: «إذا تاب العبد توبه نصوحا أحبه الله فستر عليه في الدنيا و الآخرة»، فقلت: كيف يستر عليه؟ قال: «ينسى ملكيه ما كتبنا عليه من الذنوب، و يوحى إلى جوارحه:

اكتمى عليه ذنوبه، و يوحى إلى بقاع الأرض: اكنمى ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه و ليس شىء يشهد عليه بشىء من الذنوب» (1)، فلا يبقى سبب يدخل به النار، و فوق هذا كله يدخله إلى رضوانه و نعيمه في الجنان.

وَ يُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ و تأكيد الله على الجنات يزرع في الإنسان المؤمن إرادته التحدى للشهوات و لزخارف الدنيا الزائلة حيث يتطلع إلى النعيم الأعظم كما و نوعا في الآخرة.

يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِالْعَذَابِ وَ الْمَذَلَّةِ بَيْنَ النَّاسِ، و لعلّ في الآية إشارة إلى أنّ الله يمضى شفاعته الرسول -صلى الله عليه و آله- و المؤمنين معه من أئمة الهدى و الصالحين.

نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيَمَانِهِمُ الَّتِي كَدَحَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أمّا عن النور فالأظهر فيما قيل ثلاثة آراء لا تناقض بينها، أحدها: أنّه العمل الصالح و الإيمان يظهر في صورته نور يوم القيامة، و الثانى: أنّه القرآن الذى مشى على هداية المؤمنون فهو يقودهم إلى الجنة كما قادهم فى الدنيا إلى الصواب و السعادة، و الثالث: أنّه أئمة الهدى و القادة الصالحون الذين

ص: ١١٥

(١-١) المصدر.

اتبعوه في الدنيا، فهم يقودونهم إلى الجنان كما قادوهم إلى الحق والعمل الصالح في دار الدنيا،

قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام: «أئمة المؤمنين نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم حتى ينزلوا منازلهم» (١).

و عند ما نبحت عن الأسباب التي نجى بها المؤمنون من الخزي يوم القيامة، و سعى لأجلها نورهم بين أيديهم، نجد من أهمها طموحهم الكبير للكمال، و توكلهم على ربهم، و دعاؤهم إليه أن يغفر لهم.. هكذا يدعون ربهم:

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَ اغْفِرْ لَنَا وَ من تمام النور كمال الوعي و اصابه الحق في كل جوانب الحياه و أبعادها المختلفه، و هناك علاقه بين دعاء المؤمنين بتمام النور و غفران الذنوب فَإِنَّ الخطايا في الحقيقه ظلمات معنويه تتمثل يوم القيامة، الظلم ظلمات، و الغش ظلمات و هكذا الكذب و الإسراف و..، فهم من جهه يسألون ربهم تمام النور، و من جهه أخرى يطمحون إلى النجاه من ظلمات الذنوب و الخطايا. و دون هاتين الغائتين تقف التحديات الصعبه التي تحتاج إلى عزم الإراده، و استقامه الإيمان، اللذان يستمدهما المؤمنون من ذى القوه المطلقه بالدعاء و التوكل، إذ يعلمون أن بلوغ الغايات الساميه (تمام النور، و الغفران) يحتاج إلى توفيق الله و أن تجانب سعيهم قدرته، و هذا ما تشير إليه الخاتمه:

إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و كلمه أخيره: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَ الدَّعْوَةِ إِلَيْهَا لَمْ يَقُلْ جَزْأً: يُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ.. إنما أضاف (عسى) التي تفيد الترجي..

ص: ١١٤

فالنتيجة المترتبة قد تكون وقد لا- تكون حسب المفهوم الظاهر للكلمه،و ذلك لكى لا يتسرب إلى أفئده المؤمنين الغرور و العجب فيكون الاعتماد منهم على التمنيات بغفران الله بدل السعى و العمل.

[٩]و بعد أن أمر الله بوقايه النفس و الأهل من النار، و التوبه النصوح إليه عزّ و جل،و بالتالى السعى للكمال،أمر النبي-صلى الله عليه و آله-بجهاد الكفار و المنافقين كضروره لتهيئه الظروف و الأسباب من أجل الوقايه و التوبه و الكمال،و ذلك أنّ كثيرا من أسباب الانحراف و النقص التى يتعرض لها المؤمنون تأتي نتيجة تحرك الكفار من الخارج و المنافقين من الداخل ضد الحق و أتباعه،فلا بد إذن من مواجهه بؤره الفساد هذه و القضاء عليها بالجهاد لتكون الظروف ملائمه لبناء المجتمع النموذجى(المتقى،و التائب،و التام).لذلك جاء الأمر للنبي -صلى الله عليه و آله-بمواجهه الكفار و المنافقين.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ أَى جهادا لا هواده فيه،باعتبار القائد الرسالى ليس مسئولا عن أسرته و حسب بل هو فى المجتمع كالأب مسئول أن يقى نفسه و يقيه من النار و الضلال،فلا بد أن يعمد إلى اجتثاث بؤر الانحراف عنه و مما حوله مهما كان ذلك الكافر أو هذا المنافق بعيدا أو قريبا.

وَمَا أُولَٰئِكَ إِلَّا فِي سَعْيِهِمْ بِمَجَاهِدَةِ الْمُؤْمِنِينَ لَئِيْلَ الْآخِرَةِ الْجِزَاءُ لَوَافِي حَيْثُ الْخُلُودِ فِي أَسْوَأَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ مَخْلُوقٍ مِنْ عَاقِبِهِ.

[١٠]و بمناسبة الحديث عن زوجات الرسول الذى يحدد لنا سياق هذه السوره

الموقف السليم منهن تأتي الآيات الثلاث الأخيره لتؤكد على حقيقه هامه يجب الالتفات إليها فى تقييم الناس، وهى أن قيمه كل إنسان بأعماله و مواقفه هو صالحه أو فاسده، بغض النظر عن حوله و من ينتمى إليه. إذن لا يصح أن نفسر التاريخ و القرآن و المواقف تفسيراً تبريرياً توفيقياً عند الحديث عن أخطاء أقرباء الأنبياء نسبا أو صحابه أو زواجا لأن ذلك يجعلنا فى غموض، فقد يكون أقرب الناس إلى نبي من الأنبياء مثلا- للكفار كزوجتى نوح و لوط-عليهما السلام-، بينما يصبح أقرب الناس إلى بؤر الانحراف أمثال فرعون و البيئات الفاسده مثلا للمؤمنين كآسيه بنت مزاحم و مريم ابنه عمران، دون أن يكون فى ذلك إساءه إلى الأنبياء و الصالحين و لا إحسان إلى المنحرفين اللذين ينتمى إليهم كلا المثلين.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا لِأَنَّ الشَّفِيعَ الْحَقِيقَى لِلْإِنْسَانِ عَمَلُهُ الصَّالِحُ لَا الْقَرَابَاتُ وَ لَوْ كَانَتَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْلِيَاءِ، وَ أَعْمَالُهُمَا كَانَتَا سَيِّئَةً لَمَا انطَوَّتْ عَلَيْهِ مِنْ خِيَانَتِهِ لَزُوجِيهِمَا بِإِذَاعِهِ السَّرِّ وَ التَّظَاهَرِ لِجَبْهَةِ الْكُفْرِ (١) وَ خِيَانَتِهِ لِلرَّسَالَةِ وَ الْقِيَمِ الَّتِي جَاءَا بِهِمَا، فَمَا نَفَعَتْهُمَا الْقَرَابَاتُ وَ مَا بَقِيَ لَهُمَا شَيْءٌ يَتَمَيَّزَانِ بِهِ عَنِ النَّاسِ، فَالْقَرَابَةُ وَ حُدُودُهَا لَيْسَتْ ذَاتُ قِيَمَةٍ عِنْدَ اللَّهِ إِتْمَا الْعَمَلُ، بَلْ إِنَّ انْتِمَاءَ الْإِنْسَانِ إِلَى أَىِّ شَخْصٍ أَوْ أَيْهٍ جَبْهَةٍ لَا- يَقَاسُ بِالحِسَابَاتِ المَادِيَةِ كالمَسَافَةِ وَ النِّسْبِ إِنَّمَا بِنُوعِ الْعَمَلِ، وَ انْتِمَاءَ هَاتَيْنِ الزَّوْجَتَيْنِ كَانَ إِلَى جَبْهَةِ الْكُفْرِ فِي الدُّنْيَا وَ أَهْلِ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ لِتَجَانُّسِ الْأَعْمَالِ لِذَلِكَ لَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا نُوحٌ وَ لُوطٌ شَيْئًا.

ص: ١١٨

١- (١) فى المجمع ج ١٠ قال ابن عباس: كانت امرأه نوح كافره تقول للناس إنه مجنون، و إذا آمن بنوح أحد أخبرت الجبابره من قوم نوح به، و كانت امرأه لوط تدل على أضيافه.



وَقِيلَ ادْخُلُوا الدَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ وَقد اعتبر الله هاتين المرأتين مثلاً للذين كفروا لأنهما كان يفترض أن تكونا قومه في الإيمان حيث كانتا تحت عبيد صالحين من الأنبياء، إلا أنهما اختارتا الكفر بدل الإيمان رغم الظروف المساعدة، وهذا المثل يهدينا إلى أن سعى المؤمنين لوقايه أهليهم من النار ليس بالضرورة أن يؤدي إلى نتيجة إيجابية، وأنه من الخطأ تقييم أحد كالأنبياء من خلال زوجاتهم و من حولهم، إنما التقييم السليم يكون عبر أعمالهم و رسالتهم.

و لنا في الآية وقفه عند كلمه الخيانه فهي - كما أعتقد - خيانه بالمقياس الرسالي أى خيانه لحركه الرسول و مبادئه، و ليس كما قد يتقوّل البعض لما فيه من عقد جنسيه أو لاعتماده على الإسرائيليات بأنّها خيانه جنسيه، كلاً.. إنّها خيانه في رساله النبي بدليلين:

الأول: بدلاله السياق، فقد وقع الحديث عن الخيانه في سياق الحديث عن إفشاء السر من قبل زوجات النبي، و حينما تكلم عن زوجتي نوح و لوط ضربهما مثلاً للجبّه المضاده للحق «لِلَّذِينَ كَفَرُوا»، و لو كانت الخيانه جنسيه لضربهم مثلاً للذين فسدوا مثلاً أو للزناه.

الثاني: لأنّ تفسير الخيانه هنا بالخيانه الزوجيه ليس يمس زوجات الأنبياء و حسب بل يمس الأنبياء أنفسهم و يصوّر بيوتهم محلاً للفاحشه و الدعاره، حاشا الأنبياء - عليهم السلام - (١).

[١٢-١١] و يضرب الله مثلاً معاكساً للذين آمنوا، أحدهما من بيت فرعون

ص: ١١٩

---

١- (١) و هذا ما سعى إليه الكاتب الضال سلمان رشدي في أحد فصول كتابه: (الآيات الشيطانيه).

الطاغيه،و الآخر من بيئه بنى إسرائيل المنحرفه حيث مريم بنت عمران.

□  
وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ الَّتِي آمَنَتْ بِنَبِيِّ اللَّهِ، وَ تَحَدَّتْ إِغْرَاءَاتِ السُّلْطَانِ وَ ضُغُوطِ الطَّاغِيَةِ زَوْجَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، رَغْمَ تَضَافِرِ الْعَوَامِلِ الْمَادِيَةِ الَّتِي يَعْتَبَرُهَا الْبَعْضُ مِنَ الْحَتَمِيَّاتِ، حَيْثُ كَانَ فِرْعَوْنُ زَوْجَهَا وَ كَانَتْ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ مِنْ رِعَايَاهُ. كَانَتْ تَنْتَمِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلِ الطَّبَقَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ وَ الْمَعْدَمَةِ بَيْنَمَا كَانَ فِرْعَوْنُ قَائِدَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَ الْمَتْرَفِينَ، وَ كَانَتْ مَصَالِحَهَا الْمَادِيَةِ مُؤَمَّنَةً عِنْدَ فِرْعَوْنَ، فَمَا الَّذِي جَعَلَهَا تَتَحَدَّى وَ تَوَاجِهَ جَبْرُوتَهُ وَ سُلْطَانَهُ؟! إِنَّهُ الْإِيمَانُ الَّذِي جَعَلَهَا تَتَحَدَّى كُلَّ الظُّرُوفِ لِتَكُونَ مِثْلًا رَفِيعًا يَقْتَدَى بِهِ الْمُؤْمِنُونَ عِبْرَ التَّارِيخِ، وَ جَبَلًا لَا تَتَأَثَّرُ بِإِغْرَاءِ وَ لَا بِأَرَهَابِ أَوْ تَضْلِيلِ.

□  
إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ هُنَا إِشَارَتَانِ لَطِيفَتَانِ نَسْتَوْحِيهِمَا مِنَ الْآيَةِ:

الأولى: أن أعظم سبب للانحراف كانت تواجهه آسياه هو غرور السلطان و الملك، فلقد كانت زوجه لأعظم الملوك الذين عرفهم تاريخ البشرية، إلا أنها انتصرت على قمه تحدى الدنيا للإنسان بالرغبه فى نعيم الآخره الذى يتصاغر أمامه كل نعيم، و لقد جاء فى الأخبار أنها كانت ترى قصورها فى الجنة و هى موتده تصب عليها ألوان التعذيب.

الثانية: أن هذه المرأة الشريفه لم يحالفها الحظ فى الزوج الذى ترغب إليه أمثالها من المؤمنات فطلبت من الله أن تصير إلى نعم بيت الزوجيه، و كان طلب البيت بمشابه طلب من فيه، و ماذا يطيب من البيت للمرأة من دون زوج كريم؟ و إذا كان دعاؤها بهذا المعنى فلما ذا لم يصرح به فى القرآن؟ لعل ذلك لأن الآداب الاجتماعيه عند العرب (و ربما عند غيرهم أيضا) ما كانت تستسيغ للمرأة العفيفه

أن تطلب زوجا.

و مما يؤكد هذه الفكرة الروايات التي بينت أنها تصبح زوجه لرسول الله -صلى الله عليه وآله- في الجنة،

فقد أثر عن رسول الله -صلى الله عليه وآله- أنه دخل على خديجه -عليها السلام- وهي في مرض الموت فقال لها: «بالرغم منا ما نرى يا خديجه، فإذا قدمت على ضرائرك (أى اللاتي هن أزواج الرسول كما خديجه) فاقريهن السلام»، فقالت: من هن يا رسول الله؟ فقال: «مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وآسيه امرأه فرعون»، وتوحي بهذه الحقيقه أيضا بقيه الآيه:

وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ فَكَانَتْ تَرْفُضُ الْبَقَاءَ فِي ظَلَمِهِ، وَيَهْدِينَا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: «و عمله» إلى فكره هامه هي أن الإنسان المؤمن قد ينجو بالهجره أو بسقوط النظام الفاسد من أذى الظالمين المباشر، لكنه قد لا ينجو من أعمالهم، فإذا به يصبح ظلما مثلهم و يعمل الفواحش و يقع في الفساد، لذلك ينبغي الدعاء و العمل للنجاه من الظلمه و من الظلم.

□  
وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أُمِّيَا المثل الثاني للمؤمنين فهي مريم ابنه عمران -عليها السلام- فإنها رغم انحراف بنى إسرائيل بعد موسى و شياع الفاحشه بينهم تحدت الانحراف فحافظت على عفتها و طهارتها.

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا وَ لَا رَيْبَ أَنَّ الْأَرْحَامَ الْمُحْصَنَةَ وَ الْفُرُوجَ الْعَفِيفَةَ وَ الْحَجُورَ الطَّيِّبَةَ الطَّاهِرَةَ ستكون

ص: ١٢١

منطلق الأجيال الصالحة، و موضع تجلّى روح الله.

فَنَفَحْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ بَرَزَتْ عَظْمَهُ مَرْيَمُ -عَلَيْهَا السَّلَامُ- فِي تَصْدِيقِهَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ كِتْبِهِ، وَ لَعَلَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ هِيَ أَنْبِيَآؤُهُ كَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لِسَانَهُ فِي خَلْقِهِ وَ يَنْطِقُونَ بِوَحْيِهِ وَ كَلِمَاتِهِ، أَوْ هِيَ الْبَصَائِرُ الْإِلَهِيَّةُ الْبَارِزَةُ الَّتِي مِنَ الصَّعْبِ التَّصْدِيقَ بِهَا، أَمَّا الْكُتُبُ فَهِيَ الرِّسَالَاتُ. وَ لَقَدْ جَعَلَتْ مَرْيَمُ نَفْسَهَا مُصَدِّقًا لِلْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَ انطوت عليه كتب الله.

وَ صَيَّدَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتِبَتْ وَ كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ وَ الْقَانِتُونَ هُمُ الْمُثَابِرُونَ بِالِدَعَاءِ إِلَى اللَّهِ الْمُسْلِمُونَ لَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ رُوحَانِيَّتَهَا وَ تَبْتَلُّهَا الدَّائِمُ. وَ نَسْتَوْحِي مِنَ الْآيَةِ تَأْكِيدًا لِلرُّوَايَاتِ الَّتِي قَالَتْ بِأَنَّهَا تَكُونُ مِنْ زَوْجَاتِ رَسُولِنَا الْأَكْرَمِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ- فِي الْآخِرَةِ حَيْثُ وَعَدَهُ اللَّهُ فِيمَا وَعَدَهُ بِالزَّوْجَاتِ الْقَانِتَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْهُنَّ.

وَ قَدْ يَكُونُ مِنْ مَعَانِي التَّصْدِيقِ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ قَنُوتِهَا أَنَّهَا بَلَغَتْ مَرِحْلَةَ الْعِصْمَةِ، حَيْثُ أَنَّ الْإِنْسَانَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: بَيْنَ الْإِسْتِجَابَةِ لِنَدَاءِ الْبَاطِلِ وَ كَلِمَاتِهِ، أَوْ التَّصْدِيقِ بِالْحَقِّ وَ اتِّبَاعِ نِدَائِهِ وَ مَنَادِيهِ، وَ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ جَادًّا فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ تَمَازِيْرَ فِي دَاخِلِهِ نَدَاءَ الشَّيْطَانِ الْمُنْبَعِثِ مِنْ شَهْوَاتِهِ وَ وَسَاوَسِ نَفْسِهِ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوْءِ وَ هَمْزَاتِ شَيْطَانِهِ الرَّجِيمِ تَمَازِيْرَ عَنِ نَدَاءِ الرَّحْمَنِ الْمُنْبَعِثِ مِنْ عَقْلِهِ وَ وَجْدَانِ نَفْسِهِ اللَّوَّامَةِ وَ إِلْهَامَاتِ رَبِّهِ عِبْرَ مَلَائِكَتِهِ الْكَرَامِ.

وَ هَذَا أَحَدُ وَسَائِلِ الْوَحْيِ الَّذِي هُوَ نَقْرٌ فِي الْقَلْبِ، وَ الَّذِي مِنْ أَمْثَلْتِهِ مَا أَلْهَمَتْ أُمَّ مُوسَى -عَلَيْهَا السَّلَامُ- أَنْ تَلْقَى بَوْلِدَهَا فِي الْيَمِّ.

و هذه الآيات الثلاث تهدينا إلى حقيقه رئيسيه هي أنّ الإنسان قادر على الاستقلال بإرادته و قراره و عمله مهما كانت الظروف مساعده أو معاكسه لما يختاره لنفسه،فالكفر و الإيمان يبدءان من داخل الإنسان و ليس من الظروف و العوامل المحيطه،و بالتالى يمكن القول أنّ هذه الآيات بما ضربته من الأمثال تنسف الفلسفات الضاله القائمه على أساس الإيمان بالحتميات اقتصاديه أو اجتماعيه أو وراثيه أو..أو..فيما يتصل بقرار الإيمان و الكفر فى حياه الإنسان،فهذه آسيه بنت مزاحم و مريم ابنه عمران تحديتا الظروف و الضغوط و آمنتا بالله،بينما كفرت زوجه نوح و لوط رغم العوامل الإيجابيه و المساعده على الإيمان،و إذا كانت هذه البصيره صادقه فى المرأه فإنّ صدقها بالنسبه إلى الرجل أوضح و أجلى أ ليست المرأه ضعيفه أمام الرجل؟

ص: ١٢٣



سوره الملك

اشاره

ص: ۱۲۵





## فضل السوره

فى أصول الكافى عن أبى جعفر (الباقى) عليه السلام قال: «سوره الملك هى المانعہ تمنع من عذاب القبر، وهى مكتوبه فى التوراه سوره الملك، و من قرأها فى ليله فقد أكثر و أطاب و لم يكتب من الغافلين، و إنى لأركع بها بعد عشاء الآخره و أنا جالس، و إنَّ والدى-عليه السلام- كان يقرؤها فى يومه و ليلته، و من قرأها إذا ادخل عليه ناكرو و نكير من قبل رجله قالت رجلاه: ليس لكما إلى ما قبلى سبيل قد كان هذا العبد يقوم علىَّ فيقرأ سورة الملك فى كلِّ يوم و ليله، و إذا أتياه من قبل جوفه قال لهما: ليس لكما إلى ما قبلى سبيل قد كان هذا العبد او عانى سورة الملك، و إذا أتياه من قبل لسانه قال لهما: ليس لكما إلى ما قبلى سبيل قد كان هذا العبد يقرأ بى فى كلِّ يوم و ليله سورة الملك» نور الثقلين / ج ٥ ص ٣٧٨

لعلّ زرع الخشيه من الله بالغيب هو المحور الذى تتصل به كلّ آيات سورة الملك، التى هى بدايه انعطافه كبيره فى السياق القرآنى نحو البصائر التى تنزل بها الوحي فى الجزئين الأخيرين، و اللذان يتألفان فى الأكثر من السوره المكيه التى تذكر بأصول الإسلام كالإيمان بالله، و بالرسول و الرساله، و بالآخره.

١- فى مطلع السوره يتجلّى الله العظيم بأسمائه الحسنى (تبارك، الملك، و القدير، و الخالق، و العزيز، و الغفور، و الرحمن) لأنّ المعرفه السليمه بالله تضع الإنسان المخلوق بوجدانه و عقله و كلّ حواسه أمام الله الخالق سبحانه، ممّا تمنحه الخشيه منه عزّ و جل. و لا ريب أنّ خشيه الإنسان من ربه تكون بقدر معرفته به.

أ و لم يقل تعالى: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**؟ (١). و لكى تكون المعرفه بتلك الدرجه نجد السياق يمزج بينهما و بين تعريف الإنسان بأعظم الأهداف التى

ص: ١٢٨

خلق من أجلها لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا- فليس في منهج الإسلام إذن معرفه لا- تقود إلى العمل الصالح، بل إن أحسن الناس عملا أكثرهم معرفه بربه.

و يزداد الإنسان معرفه بربه كلما جال ببصره و بصيرته في الآفاق من حوله، ففيها تتجلى أسماء الخالق (قدرته و عظمته و تعالیه..) و بالذات إذا كثر ببصره مع عقله المره بعد الأخرى، في مظهر الخلق و جوهره، و في صله بعضه ببعض، حيث يتجلى له ربه و جماله الذي عكس بعض آثاره في الكون بمظهره و جوهره و نظامه المتقن الذي لا يعتوره تفاوت و لا فطور. الآيات (٥/١).

٢- ولأن الكفر من الحجب التي تمنع المعرفة بالله و من ثم خشيته بالغيب جاءت الآيات تذكّر الكافرين بعذاب الآخرة، و تحذّرهم من التكذيب بالندر، كوسيله لهزّ ضمائرهم و إخراجهم من غرور الكفر و غفلته، إذ تضعهم أمام صور من عذاب الخزي في جهنم التي تكاد تتفجر من الغيظ، و بصوره تجعل ذلك الغيب المستقبلي شهودا لمن يسمع أو يعقل، مما يزرع خشيه الله في النفس، فهناك تحوط الكافرين الحسره، و يغمرهم الندم على ما فرطوا في جنب الله و ما صاروا إليه من سوء العاقبه، و لا يملك أحدهم إلا الاعتراف بذنوبه دون أن يجد مبررا يتملص به من المسؤوليه أو يستره بالفضيحه، و أنى له ذلك و شهاده الله محيطه بكل شيء و هو عليم بذات الصدور؟! و كيف لا يعلم اللطيف الخبير بخلقه؟! الآيات (١٤/٦).

٣- ثم يأتي السياق على الأفكار الشركيه فينسفها نسفا، لأنها تدعوا الإنسان الاعتماد على الأنداد المزعومين، و الإعتقاد بأنهم قادرون على تأمينه و حمايته و رزقه من دون الله، باعتبارهم شركاء أو شفعاء أو أنصاف آلهه يؤثرون على مشيئته سبحانه، الأمر الذي يجعله لا يخشى ربه عزّ و جل. الآيات (٣٠/١٥).

و بناء على الحقائق الثلاث المتقدمه يمكن القول بأنّ قوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ

يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ.. هي الآية التي تفصح بجلاء عن المحور الأساسي في هذه السوره المباركه.

ص: ١٣٠

## [سوره الملك (٦٧): الآيات ١ الى ١٤]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصِيرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَاسْتَرْوُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)

## اللغه

١[تبارك]:من برك أى دام فى خير،و منه البركه.

٣[طباقا]:أى واحده فوق الأخرى،وقيل المراد بالمطابقه المشابهه أى يشبه بعضها بعضا فى الإتيان و الإحكام و الاتساق و الانتظام.

[تفاوت]:اختلاف و تناقض.

[فطور]:شقوق و فتوق.

٤[خاسئاً]:مطرودا مبعدا،أى أنّ البصر سوف يعود متعبا دون أن يعثر على عيب فى خلق الله.

[حسير]:هو العارى من الحسير و هم الرّجاله فى الحرب يحسرون عن وجوههم و رؤوسهم أو يكونون لا-درع عليهم، و يقال:أرض عاريه المحاسر،فالبصر يعود و هو عار من أى دلالة و نتیجه تثبت التفاوت أو الفطور فى خلق الله.

٧[شهيقاً]:فى مفردات الراغب:الشهيق طول الزفير و هو ردّ النفس،و أصله من جبل شاهق-أى متناهى الطول.

٨[تميزاً]:تتفّطع و تتفرّق.

ص:١٣٢

١١ [فسحقاً]: أى بعداء، و هو دعاء عليهم أى اسحقهم الله و أبعدهم عن النجاه.

ص: ١٣٣

هدى من الآيات:

لكى يزرع القرآن خشيه الله فى القلوب يذكّرنا بآيات الله و أسمائه، لأنّ المعرفة أساس الخشيه، فهى التى تظهر للإنسان عظمه ربه و أنّه أهل التقوى، و تجعله يراه ببصائر قلبه عبر آياته و أفعاله، فمن خلال سنّه الموت و الحياه يتحسس خلقه الأشياء، و ملكه لها، و قهره إياها، و من خلال النظر فى أنظمه الكائنات يتجلّى له قدرته و حكمته، و إنّهُ ليكلّ بصره فيعود خاسئا حسيرا دون أن يرى ثغره فى خلق الله و تدبيره، ممّا يعزّز لديه الإيمان به عزّ و جلّ كلّما كثر ببصره و بصيرته فى الكائنات.

و حيث يسمو البشر بنفسه و عقله إلى آفاق المعرفة يحضر ذلك الغيب أمامه حضورا بيعته على الخشيه.

ثم يذكّرنا الله بجهنم التى أعدّها للكافرين و كيف أنّها من شده حرارتها ذات شهيق، بل تكاد تتفجر من الغيظ غضبا على أعداء الله، و أنّ الوسيله للخلاص منها



هو سماع النذر و الآيات و استشاره العقل على أثرهما في الدنيا، لأنّ تقصير الإنسان في ذلك هو أعظم الذنوب التي لا يجد مفراً دون الاعتراف بها في الآخرة، و كيف لا يعترف و تحوطه شهاده الله النافذه؟!

### بينات من الآيات:

[١] في أوّل كلمه من سوره الملك يطالعنا اسم من أعظم أسماء الله و هو تبارك، و الذى يقول عنه (و عن اسمين آخرين يماثلانه في العظمه)

الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام:- «إنّ الله تبارك و تعالى خلق اسما بالحروف غير منعوت، و باللفظ غير منطوق، و بالشخص غير متجسد، و بالتشبيه غير موصوف، و باللون غير مصبوغ، منفى عنه الأقطار، مبعده عنه الحدود، محجوب عنه حس كلّ متوهم، مستتر غير مستور، فجعله كلمه تامّه على أربعة أجزاء معا ليس منها واحدا قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثه أسماء لفاقه الخلق إليها، و حجب واحدا منها، و هو الاسم المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثه التي أظهرت، فالظاهر هو: الله، و تبارك، و سبحان (و فى روايه: و تعالى) لكلّ اسم من هذه أربعة أركان، فذلك اثني عشر ركنا، ثم خلق لكلّ ركن منها ثلاثين اسما فعلا منسوباً إليها» (١).

و ربما بسبب عظمه الأسماء الثلاثه التي أظهرها الله لخلقها نجد أئمة الهدى ينعنون عادة ربهم بها، فما تكاد تقرأ حديثاً عن الله إلا يقولون فيه: قال الله تبارك و تعالى.. فما هو معنى «تبارك»؟ إنّ أهم و أظهر معانى هذا الاسم العظيم الخير الكثير المستمر الذى يتصل فى مقام الخالق بتواتر نعمه على الكائنات و تتابع آلائه، التي لولاها ما استمرت و لزال

ص: ١٣٥

وتلاشت السموات والأرض وما بينهما، كما يتصل في مقام الخلقه بأنّها في حاله نموّ و تكامل مستمر، لأنّ خالقها يعطيها بركه تلو أخرى، ممّا يدلّ على أنّ مسيره الخلق تصاعديه. و ما التوسعه التي يضيفها الخالق للسموات حيناً بعد آخر و التي أشار إليها بقوله: وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (١) إلاّ- مظهر لبركات الله، و في القرآن إشارات إلى هذا المعنى إليك بعضها: قال تعالى و هو يتحدث عن الرسالة، تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَيَّ عَبْدِهِ لِيُكَونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (٢) ذلك لأنّ الفرقان نعمه تتواصل و خير مستمر و عطاء لا ينقطع من الدنيا و إلى الآخرة. إذا فهو تجعلّ لاسم ربّنا «تبارك»، و قال في معرض حديثه عن إنشاء الإنسان من طور إلى آخر حتى سواه كاملاً بنعمه العقل: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (٣)، و قال في سياق بيانه لنعمه التي في السماء و بركاته: تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٤).

و هكذا يكون اسم «تبارك» الركن الأخير من أربعه أركان جعلها الله لاسمه الأَعْظَم، و هو يشير إلى صفات فعله، الفَعَالِ لما يريد، الجواد، الكريم، المَنَّان، المتفضّل، الوهّاب، الخالق، البارئ، المصوّر، و هو صانع كلّ مصنوع، و خالق كلّ مخلوق، و رازق كلّ مرزوق، و مالك كلّ مملوك، و راحم كلّ مرحوم، و..و..

أمّا الأركان الثلاثة فإنّ واحدا منها مخزون عند ربّ العزه، بينما الثاني هو:

(الله) الذي يشير إلى صفات الذات، و الثالث هو: (تعالى أو سبحان) الذي يشير إلى صفات الجلال.

ص: ١٣٦

١- (١) الذاريات ٤٧.

٢- (٢) الفرقان ١.

٣- (٣) المؤمنون ١٤.

٤- (٤) الفرقان ٦١/ (و لقد مرّ في مطلع سورة الفرقان تفصيل في بيان هذا المعنى من تبارك فراجع).

لِبَارِكِ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ فَاَلْمَلِكُ الْحَقِيقِي بِيَدِهِ وَحَدَهُ تَعَالَى، لِأَنَّهُ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِأَنَّهُ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي مَلِكِهِ بِصُورِهِ مَطْلُوقًا، أَمَّا مَا يَمْلِكُهُ الْخَلْقُ فَمَا لِكَيْتِهِمْ لَهُ مَحْدُودَةٌ بِقَدْرِ مَا مَنَحَهُمُ اللَّهُ، فَمَتَى شَاءَ زَادَهُ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ أَوْ سَلَبَهُ وَحَوَّلَهُ إِلَى غَيْرِهِمْ.

و هذِهِ الْآيَةُ تَفْتَحُ آفَاقَنَا عَلَى وَجُودِ أَوْسَعِ مِنَ الْأَرْقَامِ الْفَرَضِيَّةِ الَّتِي يَقْدِّرُهَا الْعُلَمَاءُ وَالْفَلَائِكِيُّونَ، بَلْ أَوْسَعُ مِمَّا لِلْإِنْسَانِ الْمَقْدَرَةُ عَلَى تَخْيِيلِهِ مَهْمَا ذَهَبَ بَعِيدًا، وَ أَتَى لَهُ تَصَوُّرُ مَلِكِ اللَّهِ وَ هُوَ يَتَيَّدُ قَادِرُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَ تَمَدُّهُ بِالْبُرْكَهْ بَعْدَ الْبُرْكَهْ؟! وَ هُوَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ كَفَى دَلَالَةً عَلَى أَنَّ الْمَلِكَ بِيَدِهِ تَعَالَى وَ أَنَّهُ صَاحِبُ الْقَدْرِهِ الْمَطْلُوقِ أَنْ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْوُجُودِ مِنْ حَوْلِهِ وَ مَا فِيهِ مِنْ آيَاتِ الْقَدْرِهِ وَ الْعِظْمَةِ، وَ كَيْفَ أَنَّهُ مَسِيرٌ وَفَقِ نِظَامٌ دَقِيقٌ وَضَعَهُ اللَّهُ لَهُ لَا يَخْرُجُ عَنْهُ، وَ لَا تَرَى فِيهِ ثَغْرَهُ أَوْ نَقْصًا أَوْ فَطُورًا.

و

لَقَدْ وَرَدَتْ رَوَايَةٌ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فِي بَيَانِ جَوَانِبِ مِنْ مَعَانِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِيِّ نَذَرَ بَعْضُهَا لِلْفَائِدَةِ: وَ لَمَّا تَسَمَّى بِالْمَلِكِ أَرَادَ تَصْحِيحَ مَعْنَى الْأَسْمِ لِمَقْتَضَى الْحُكْمِ، فَخَلَقَ الْخَلْقَ وَ أَمْرَهُمْ وَ نَهَاهُمْ لِتَحَقُّقِ حَقِيقَةِ الْأَسْمِ وَ مَعْنَى الْمَلِكِ (وَ يَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَنَّ الشَّرَائِعَ مِنْ مَظَاهِرِ اسْمِ الْمَلِكِ الْإِلَهِيِّ)

وَ الْمَلِكُ لَهُ وَجُوهٌ أَرْبَعَةٌ: الْقَدْرَةُ (عَلَى التَّصَرُّفِ فِي الْمَلِكِ بِمَطْلُوقِ التَّصَرُّفِ)،

وَ الْهَيْبَةُ (وَ هِيَ انْعِكَاسُ لِقَدْرِهِ الْمَالِكِ عَلَى الْمَمْلُوكِ)،

وَ السُّطُوهُ (بِأَخْذِ الْمَمْلُوكِينَ بِالْقُوَّةِ وَ الْبَطْشِ حِينَ الْمَخَالَفَةِ. فَسَبْحَانِ مَنْ لَا يَعْتَدِي عَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ بِسُطُوتِهِ)،

وَ الْأَمْرُ وَ النَّهْيُ (تَشْرِيْعِيًّا وَ تَكْوِينِيًّا) (١).

ص: ١٣٧

[٢] و من أظهر آيات ملك الله، و أظهر آيات قدرته: الموت و الحياه، و قد اختلف في معناهما هنا إلى رأيين: أحدهما: أنهما ظاهرتا الموت و الحياه اللتان تطبعان آثارهما على كل شيء، سواء الماديتين كموت الإنسان و حياه الأرض بالزرع، أو المعنويتين كالهدى و الصلاح في مقابل الضلال و الفساد، و الآخر: أنهما إشاره إلى تقسيم الكائنات إلى أشياء جامده و ذات حياه.

## الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ وَ

قد أشار الإمام الباقر -عليه السلام- إلى المعنيين فقال: «الحياه و الموت خلقان (من) خلق الله، فإذا جاء الموت فدخل في الإنسان لم يدخل في شيء إلا - و خرجت منه الحياه» (١) و الذي يظهر لى أنّ الموت هنا بمعنى انفصال الحياه من كائن حي كما تفيد الروايه، و بما أنّ معرفه الحياه بصوره أجلى تتحقق بمعرفه الموت فإنّه قدّم الموت على الحياه، و لا - أعتقد أنّ ما قاله بعض المفسرين و الفلاسفه من أنّ الموت سابق للحياه صحيحاً، لأنّ الإنسان قبل خلقه و وجوده لا يقال له ميت، و كيف يقال للعدم ميت؟! من هنا

جاء في الحديث المروي عن الإمام الباقر -عليه السلام-: «و إنّ الله عزّ و جلّ خلق الحياه قبل الموت» (٢) و قد يكون تقديم الموت على الحياه في الآيه لحكمه أخرى هي أنّ قدره الله تتجلى بالموت حيث لا يجد سبيلاً لتحديده و لا مفراً من سطوته.

كذلك

جاء في الدعاء المأثور: «و قهر عباده بالموت و الفناء» (٣).

و يضع الله الإنسان أمام سنّه الموت الحتمي، و فرصه الحياه، و يذكره في نفس

ص: ١٣٨

١- ١) نور الثقلين / ج ٥- ص ٣٧٩.

٢- ٢) المصدر نقلاً عن أصول الكافي.

٣- ٣) مفاتيح الجنان / دعاء الصباح.

الوقت بالهدف الذى خلق هو كما خلقا من أجله، ألا و هو الابتلاء لاستخراج معدن كل فرد و استظهار خبايا شخصيته، و مع أن الموت من مفردات الابتلاء الا أن الابتلاء أكثر و أعظم تجليا بالحياه..بل لا يكون إلا أثناء الحياه، و لذلك تأخر ذكر الحياه على الموت لتكون هذه الكلمه لصيقه بكلمه الابتلاء.

لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا- إذن يجب على الإنسان و هو يعيش فرصه الحياه أن لا- يضل عن هذا الهدف الكبير، بل يقاوم كل عوامل الانحراف و الغفله عنه، و يسخر كل قدراته المعنويه و الماديه للفلاح و الفوز فيه، بأن يجعل عمره مزرعه لأحسن العمل.

فما هو أحسن العمل؟ إنه ما أخلص فيه الإنسان النيه، و أتقن الأداء، و تحدى به هوى نفسه و أهواء القوى الشيطانيه فى مجتمعه، و كان العمل نفسه من أشرف الطاعات و أعظمها ثوبا عند الله، هكذا

روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال فى تفسير الآيه: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، و أروع عن محارم الله، و أسرع فى طاعه الله» (١)، و

قال: «أَتَمَّكُمْ عَمَلًا، و أشدكم لله خوفا، و أحسنكم فيما أمر الله و نهى عنه نظرا» (٢)، و

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «ليس يعنى أكثركم عملا، و لكن أصوبكم عملا، و إنما الإصابه خشيه الله، و التيه الصادقه» (٣).

و قوله: «ليبلوكم» لا- يعنى أنه تعالى لا يعلم بخلقه، بل ليتحقق ذلك العلم فى عالم التكوين و يطلع الناس أنفسهم على معادتهم، و يعقلون جزاء الله أنه بعدل لا بظلم،

قال الإمام على بن موسى الرضا-عليه السلام-: «خلق خلقه ليبلوهم

ص: ١٣٩

١-١) تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٣٨٠.

٢-٢) المصدر

٣-٣) تفسير البرهان عند الآيه.

بتكليف طاعته و عبادته لا على سبيل الامتحان و التجربه لأنه لم يزل عليما بكلّ شىء» (١).

و لعلّ أظهر تأويل لهذه الآيه هم الأنبياء و الرسل و أئمة الهدى من أهل بيت الرسول، حيث أنّهم جميعا كانوا الأحسن عملا بين خلق الله، فهم-على هذا- أبرز الحكم الإلهيه للخلق. أليس قد أظهرت البلايا أنّهم القمم المضيئه، و الذرى المتساميه؟ و إنّ الله ما اختارهم و لا اصطفاهم إلّا بعلم و حكمه، و ما جعلهم سادات البشر و أمراء الصالحين من عباده إلّا لأنّهم السابقون فى طاعه الله.

و قد قدّر بعضهم فى الآيه كلمه فقالوا: الأصل هو: ليلوكم فينظر أيكم، و لا- أرى لهذا الافتراض و أشباهه مبرّرا فى كتاب الله، فالآيه أعمق بلاغه بوضعها ممّا لو أضفنا إليها شيئا، لأنّنا نفهم منها أنّه تعالى يصنع الصالحين فى رحم الابتلاء، بل إنّ خلق الإنسان يكون ناقصا لو لم يأت إلى الدنيا و يتلى فيها.

و هكذا تكون الآيه مظهر من مظاهر اسم «تبارك» حيث تظهر بركه الله بأجلى صورها و شواهدا فى الصفوه من عباده المؤمنين الصالحين، الذى يتجاوزون فى سبيله كلّ الجاذبيات السلبيه و العقبات الكأداء، و يسمون بأنفسهم إلى آفاق الفضيله ببركه الإيمان به عزّ و جلّ و بنعمه العقل التى وهبها لهم، و لذلك

جاء فى الأخبار عن رسول الله-صلى الله عليه و آله- فى قوله أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا قال:

«أحسن عقلا» (٢).

و لأنّ الإنسان يفلح تاره و يخطئ أخرى و هو يواجه الابتلاءات، أو يتعنّت أحيانا على الحق، جاءت خاتمه الآيه لتسوقه نحو أهدافه فى مسيره العمل بمعادله متوازنه كفتها الأولى الخوف و كفتها الأخرى رجاء رحمه الله و غفرانه، و ذلك من

ص: ١٤٠

١-١) المصدر.

٢-٢) المصدر.

خلال تعريفه باسمين لربه من أهم ما ينبغي له التعرف عليهما..فلا يسترسل مع الرجاء المفرط، ولا يصير فريسه للقنوط.

وَ هُوَ الْعَزِيْزُ الْعَفُوْرُ يأخذ بعزته العاصين المذنبين، و يغفر لمن يتوب، فمن أحسن العمل غفر له، و من أساء عذبه. ثم إننا نهتدى من هذه الخاتمه أن للابتلاء هدفا آخر غير استظهار معدن الناس، و هو الجزاء.

[٣-٤] ثم تأخذ الآيات بأبصارنا و بصائرنا إلى بديع خلقه الكائنات، فإننا إذا أمعنا النظر فيها و القينا نظره إلى السماء التي تمتد مدى أبعد من أدق النواظير و أعظمها التي اخترعها الإنسان بما لا يقدر بشر على تخيله.. و أعظم من حجم السماوات ذلك النظام المتناهي في الدقه الذي يحكمها على ما فيها من المنظومات و المجرات الهائلة، فسنقرأ في الآفاق أسماء ربنا الجليل. إن التفكير في خلق الله يوقف الإنسان أمام حقيقه بديعه هي متانه الحق و التدبير في كل مفردات الكون و أجزائه، و نظره السليمه التي ينبغي أن نسلکها ليست التي تقف بنا عند ظواهر الأشياء، بل التي تحملنا من الظاهر المشهود إلى الباطن المحجوب، و من معرفه المخلوق إلى معرفه الخالق الذي أنشأه و أبدع له النظام الذي يسير عليه.

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا قَالُوا: يَعْنِي بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ: لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١) و يبدو أن التطابق هنا بمعنى الدقه في التكامل و التناسق، من باب المطابقه و الموافقه ضد التناقض و التنافر، و إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على دقه

ص: ١٤١

النظام الحاكم فى الكون و مدى قدره خالقه و عظمته، فإنك مهما بحثت و أجهدت نفسك فلن تجد ثغره و لا عيبا فى خلق الله.

مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ أَى ثَغْرَاتٍ و تناقضات، فإنّ التفاوت بمعنى الاختلاف، و الاختلاف يعنى التناقض، قال تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (١) و قد ذكر اسم «الرحمن» هنا عند الحديث عن نظام الخليقه لأين ذلك من أعظم تجليات رحمته عزّ و جلّ. أ ترى لو كان النظام الكونى متناقضا هل كانت الحياه ممكنه أو ميسره؟! كلاً. و إنّنا مهما تفكرنا فى الخلائق فإننا نجدها محكومها بنظام التكامل المتقن، فالشمس تختلف عن القمر و لكنّ أحدهما يكمل مسيره الآخره، بل يقوم بدور محدّد بحيث لا-تنظم مسيرته إلا-به، بلى. قد نزع أنّهما متناقضان لأين أحدهما(الشمس) نار مشتعله و الآخر(القمر) نور هادئ و لكنّ أحدهما وجه للثانى.

و اللطيف فى التعبير القرآنى عند هذه الآيه أنّه حدّثنا فى المطلع عن السماوات السبع، و لكنّه عند ما نفى وجود التناقض نفاه عن كلّ خلق الله، و ذلك أنّ الإنسان قد يسلم بأنّ خلقا من خلقه تعالى كالسماوات محكم و متقن، و لكنّه يشك فى وجود هذه الحقيقه عند ما يتفكّر فى خلق آخر، فإذا به يتساءل: و لماذا خلق الله الذباب و الميكروبات المهلكه؟ لماذا الزلازل التى يذهب ضحيتها الألوفا من البشر؟ و لكنّ عليه أوّلا: أن يقيس ما يعرفه من خلق البشر بما لا يعرفه، و ثانيا: أن يعالج شكّه باليقين، فلا يسترسل مع وساوس الشيطان، بل يظل باحثا عن الحقيقه حتى يكتشفها. لذلك يأتى الخطاب الإلهى الكريم يدعو كلّ فرد فرد من أبناء

ص: ١٤٢



البشر للنظر و التفكير فى خلق الله، و دراسه الظواهر المختلفه، لأننا كلنا مسئولون عن معرفه الحقيقه و الوصول إلى درجه اليقين من الإيمان بالله، و يقول:

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ و إلى جانب البصر ينبغى أن يعمل الإنسان بصيرته أيضا، فإن العين نافذه القلب على الحياه. و لعل الفرق بين كلمتى «تفاوت و فطور» أنّ التفاوت يكون بين خلق و خلق آخر، و هو منفى لأنّ كلّ خلائق الله يكمل بعضها بعضا فهى منسجمه مع بعضها، أمّا الفطور فيكون فى ذات الخلق الواحد بين أجزائه، و ليس فى خلق من خلقه تعالى ثغره.

و إنّه لعجيب قول ذلك الدكتور الألماني بخنر: «بما أنّنا لم نجد ظاهره واحده فى هذا الكون الرحيب من أبعد نقطه اكتشفناها فى الفضاء و إلى أقرب جرم إلينا، لم نجدها شاذّه عن النظام الكونى، فليس لنا الحاجه إلى افتراض وجود الله» (١).

سبحان الله كيف عمى قلبه و لم يعرف أنّ وجود النظام دليل على من نظّمه و هيمن على إجرائه؟! نعم لو ثمّ تناقض أو تنافر فى نظام الكون لأمكن افتراض أنّ الصدفة هى التى أوجدته، أو أنّ هناك آلهه متعدده شركاء فى الربوبيه يتناقض الكون بتناقض آرائهم و تدبيرهم، و لكننا لا نرى شيئا من ذلك، فما هى إلا حقيقه التوحيد الخالص إذن. و ليست مشكله الدكتور بخنر إلا واحدا من أمرين: فإمّا أن يكون جاحدا معاندا لم يرد التسليم للحق، و إمّا أن يكون قد أخطأ فى منهج البحث و الدراسه لظواهر الكون، بحيث أنّه جعل المزايا العلميه المجرده هدفا من بحثه فلما وجدها توقّف عندها، و هذا خلاف المنهج السليم الذى يأمر به العقل و الدين

ص: ١٤٣

و الذى يدعو إلى تجاوز ظواهر الأمور إلى بواطنها.

إنّ الإنسان لا يستطيع أن يصنع شيئاً إلاّ وفيه ثغره، ولكنك لا تجد ولا بعضاً من فطور في خلق الله، و أنّى يكون ذلك و هو الرحمن، الذى لا يريد لخلقه عناء ولا نصيباً؟ ترى لو كانت الشمس تتغير من موقعها هل نستطيع العيش على هذا الكوكب؟! و هل يمكن لنا الحياه على الأرض لو انعدم الأوكسجين أو تلاشى قانون الجاذبيه؟! كلاً.. إذن فذلك من رحمه خالقنا و تطفه بنا سبحانه.

بلى. قد ينظر الإنسان إلى خلق الله و يتفكر فيه فيزعم أنّ وجود اللوزتين -مثلاً- ثغره في خلق الإنسان، الأمر الذى دعا بعضهم قبل سنين معدودات إلى اقتلاعهما بعيد الولاده! أو يسمّى عضوا داخله بالزائده الدوديه، و تسود هذه الأفكار بين الناس بل في الأوساط العلميه أيضاً ردحا من الزمن، و لكنّه بعد أن يتقدم العلم يكتشف خلاف تلك المزاعم، و يتبين له أنّ اعتقاداته السابقه كانت ظنونا سببها الجهل و التسرع فى الحكم. لذلك يدعو القرآن للتفكر و النظر فى الأمور بامعان مرّات عديده:

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصِرَ كَرَّتَيْنِ وَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، و ابحث بكلّ ما تستطيع عن تناقض و ثغرات فى خلق الله، بل افترضه ذلك ثم حاول أن تثبت وجوده، فهل ستجد إلى ذلك سيلاً؟ كلاً..

و إنّما سستصل إلى حقيقه واحده هى التى أشار إليها القرآن: مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ عِنْدَ تَفَكُّرِكَ فِي أَيِّ خَلْقٍ مِنْ خَلْقِهِ تَعَالَىٰ، حتى.

يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَ هُوَ حَسِيرٌ وَ الْخَاسِئِ الْمَطْرُودِ الْمُبْعَدِ، و تقال هذه الكلمه للكلب و الخنزير، قال صاحب

المنجد: الخاسئ من الخنازير و الكلاب المبرد المطرود، لا يترك أن يدنو من الناس (١) و كأنّ الإنسان حينما يجول ببصره يبحث عن عيب في خلق الله يطرد بلسان حال الخلائق، و كأنّها تقول له: إخساً إنّنا خلق الرحمن الحكيم العليم فلن تجد فينا نقصا، حيث يقال خساً و خسوء البصر: كلّ و أعيأ (٢)، و هذا المعنى قريب أيضا لأنّ الباحث سوف يتعب و يشقى دون العثور على عيب، و كيف يعثر على شيء ليس بموجود؟! و يؤيد هذا القول قوله تعالى: يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصِيرُ فهو يتعب و يكلّ من النظر إلى الخلائق فلا يعود إلى ذلك مرّة أخرى.. بل يرجع صاحبه منهكا دون نتيجة.

أمّا الحسير فقيل: المحقّر، و قيل: من اشتدت حسرته و ندامته على أمر فاته (٣)، و هما محتملان الصّحّه.. و هناك معنى قريب جدا من الآيه هو العارى من الحسر:

الرجياله في الحرب يحسرون عن وجوههم و رؤوسهم، أو يكونون لا- درع عليهم، و يقال: أرض عاريه المحاسر أى لا نبات فيها (٤) و إنّ الإنسان ليعود ببصره و بصيرته من رحله البحث عن التفاوت أو الفطور في خلق الله و هما مجرّدان عاريان من أىّ دلالة و نتيجة تثبت ذلك.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن فرّغ قلبه، و أعمل فكره، ليعلم كيف أقمت عرشك، و كيف ذرأت خلقك، و كيف علّقت في الهواء سماواتك، و كيف مددت على مور الماء أرضك، رجع طرفه حسيرا، و عقله مبهورا، و سمعه والها، و فكره حائرا». (٥).

ص: ١٤٥

١- ١) المنجد ماده خسا.

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) المصدر-ماده حسر.

٤- ٤) المصدر.

٥- ٥) نهج البلاغه خ ١٦٠ ص ٢٢٥.

و لنا فى الآيه الرابعه وقفه عند معنى «كترتين»، فلما ذا قال الله: «ثم ارجع البصر كرتين»؟ و الإجابة:

١- للتأكيد على ضروره أن يركز الإنسان فى بحثه و دراسته، فلا يحكم على شىء من نظره واحده عابره، إنما يجب أن يدرس أموره مرّات عديده ثم يقول رأيه، فقد يكون فى مرّته الأولى غفل عن بعض الجوانب و المعطيات، أو لم يفكر تفكيراً كافياً.

٢- إنّ المعرفة السليمه قد لا تتأتى إلا بالمقارنه بين الأشياء، فينبغى للدارس أن يراجع ببصره و فكره مرتين، مره يرجع إلى ما يريد معرفته و التحقيق فى شأنه، و أخرى يرجع إلى ما يشابهه أو يناقضه للمقارنه.

٣- إنّ دراسته الشىء دراسته شامله تتم بدراسه جانبيين فيه: الجانب المادى الظاهر، و الجانب المعنوى الباطن، و يحتاج الباحث أن يكرّر مرّه ببصره لملاحظه الجانب الأوّل، و كرّره أخرى يرجع بها إلى الجانب الثانى منه.

٤- لكي يرقى الإنسان فى معارفه سلّم التكامل فهو بحاجه إلى إعاده النظر فى ما توصل إليه سابقاً بهدف نقده أو تكميله من خلال نظره تفكرّ جديده، لا حقه بعد السابقه و هكذا.

[٥] و ممّا يؤكّد حاجه الإنسان إلى إعاده النظر فى معارفه أنّ هناك جمله من الأفكار و الإعتقادات الخاطئه (الأساطير) ينطوى عليها فكره لا تتصحح إلا بكترّات أخرى جديده يرجع فيها البصر و البصيره، و من بينها تصوّره المتصل بنظام السماء أنّه فيه ثغرات تنفذ منها الشياطين إلى الملاء الأعلى فتطلع على أقدار الله، و زعمه بأنّ النجوم هى مراكز الأقدار و أنّ لكلّ فرد نجما يخصّه إذا مات سقط، و على ذلك

فسيروا ظاهره الشهب و النيازك، و مضى القول: (نجمي لا يوافق نجمك). و القرآن يشير إلى تلك التصورات و يصححها حين يقول تبارك و تعالى:

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ هِيَ النُّجُومُ الَّتِي تَعْتَبِرُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ قَنَادِيلَ اللَّيْلِ، إِذْ تَهْتَدِي بِهَا السُّفُنُ الَّتِي أَضَلَّتْهَا الْعَوَاصِفُ عَنْ مَسَارِهَا وَ تَضِيءُ دَرَبَ الرَّاعِي السَّارِي بِغَنِيمَاتِهِ لَيْلًا فِي صَحْرَاءٍ بَعِيدَةٍ، كَمَا تَنَاقَى الْمَسْتَلْقَى تَحْتَ السَّمَاءِ فِي اللَّيَالِي الصَّافِيَةِ. وَ لَكِنَّ مَتَانَهُ الْخَلْقَهُ تَرْتَبِطُ بَيْنَ تِلْكَ الزِينَةِ وَ الْإِضَاءَةِ وَ بَيْنَ حِرَاسَةِ السَّمَاءِ فِي تِلْكَ النُّجُومِ، فَهِيَ كَمَا تَزِينُ السَّمَاءَ وَ تَضِيءُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ كَذَلِكَ تَقْصِفُ الشَّيَاطِينَ رَجْمًا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْعَبْثَ بِمَقْدَرَاتِ الْكُونِ، وَ لَا حَتَّى اسْتِرَاقِ السَّمْعِ لِمَعْرِفَةِ تِلْكَ الْمَقْدَرَاتِ.

وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَنْسِفُ زَعْمَ الْجَاهِلِينَ بِأَنَّ الشَّيَاطِينَ قُوَى خَارِقَةٌ وَ عَالَمُهُ بِأَقْدَارِ اللَّهِ لِأَنَّهَا تَخْتَرِقُ السَّمَاوَاتِ وَ تَصِلُ إِلَى الْأَعْلَى، الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَ الْبَعْضَ يَشْرِكُ بِهِمْ، وَ يَتَّبِعُونَ الْكُهَنَةَ بِاعْتِبَارِهِمْ وَ سَائِطَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَ بَيْنَ الْآدَمِيِّينَ، فَإِنَّ النُّجُومَ لَيْسَ كَمَا يَتَصَوَّرُونَ بَلْ هِيَ زِينَةٌ وَ مَصَابِيحٌ وَ رُجُومٌ، وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيْسُوا كَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَرْجَمُونَ.

و لعل هذه الآية تؤكد متانه النظام الكوني و هيمنه الله من زاويتين:

الأولى: أن ما نراه من الشهب و النيازك ليست مجرد قطع تنفصل عن مدار بعض النجوم و الشموس في الفضاء نتيجة عوامل و قوانين فيزيائية بحته و من دون هدف، إنما تنفلت من مواقعها بإرادة الله و لأهداف محدده من بينها رجم الشياطين.

الثانية: أن النظام الكونى نظام متقن، و هو بالرغم من وجود العوامل المضاده التى تحاول خرقه كالشياطين فإنها لا تؤثر فى مسيرته و نظمه، و أن مصير كل محاوله لخرقه هو الفشل. و هذه الحقيقه تعطى الإنسان الاطمئنان و الأمن حيث يشعر أنه يعيش فى كون منظم و محروس.

و يؤكد ربنا فى خاتمه الآيه بأن ما هو أعظم من جزاء الرجم الدينوى للشياطين هو ذلك العذاب المعد لهم فى الآخره.

وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وَيَدُلُّ هَذَا الْمَقْطَعُ عَلَى أَنَّ الشَّيَاطِينَ مَخْلُوقَاتٌ مَكْلُوفَةٌ وَ مَخْتَارَةٌ وَ مَسْئُولَةٌ حَيْثُ تَجْرَى عَلَيْهِمْ سُنَّةُ الْجَزَاءِ.

[٦] و بعد أن انتهى الفصل الأول الذى استهدف زرع الخشيه من الله بالغيب من خلال معرفته بالشهود و من خلال تعريفه نفسه بالآيات، يبدأ السياق القرآنى فصلا آخر لا ينفك عن الأول، بل يلتقى معه فى ذات الهدف، حيث تذكرنا الآيات التالیه بعذاب جهنم و جزاء الله للكافرين.

وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ إِنَّ الْكُفْرَ بِاللَّهِ مِنْ قَبْلِ الْإِنْسَانِ هُوَ الْآخِرُ كَعَمَلِ الشَّيَاطِينِ خَرَقَ لِنَظْمِ اللَّهِ مِمَّا يَسْتَوْجِبُ الْعَذَابَ. و لهذه الآيه صله متينه بالآيه الثانيه فى السوره التى بينت بأن حكمه الخلق استظهار معدن الإنسان بالابتلاء، و الكفر و العذاب صوره لفشل الإنسان فى القيام بدوره و واجبه الذى خلق من أجله، فيتردى فى الجحيم.

وَ بُشِّرَ الْمَصِيرُ

و المصير من الصيروره أى ما يصير الإنسان نفسه إليه.

و يلاحظ فى هذه السوره تأكيد الله على اسم الرحمن أربع مرّات (فى الآيه الثالثه، و التاسعه عشر، و العشرين، و التاسعه و العشرين)، و كأنه تعالى يريد أن يؤكد بأنّه إنّما خلقنا ليرحمنا لا ليعذبنا و لكننا نحن الذين نختار العذاب لأنفسنا بإرادتنا حينما نكفر به، فإنّ ما يصير إليه الإنسان من العقاب نتيجة كفره لا- لأنّ الله سبحانه يريد له بنس المصير.. و بماذا يكفر و يمارس الكفر؟ إنّهُ يكفر بخالقه و رازقه و واهبه الحياه و كلّ ما يملك، و يمارس عناده له بنعمه.. بنعمه المال و القوه و الصحه و السمع و البصر و.. و!..! و لعلّ هذا ما توحى به كلمه «بربّهم» أى به و بوسيله نعمه.

[٩-٧] و يفصّل القرآن القول فى موضوع العذاب مبيننا بعض صفات جهنّم و أحوال أصحابها حينما يلقون فيها، لعلنا نتحسس ذلك الغيب، و نخشى سطوه الله.. فما هى صفات جهنم؟ أوّل صفه لها أنّها- كما الحفره أو الوادى- ذات قعر سحيق، و قد يكون أوّل عذاب يواجهه أهل جهنم فيها هو الإلقاء من الأعلى إلى الأسفل،

فعن الإمام الصادق- عليه السلام- عن الرسول- صلّى الله عليه و آله- عن جبرئيل قال:

«و إنّ جهنّم إذا دخلوها هووا فيها مسيره سبعين عاما» (١) و يعلم الله كم هم يقاسون فى هويهم من ألوان العذاب؟! إذا ألقوا فيها و بناء الفعل هنا للمجهول يدلّ على أنّهم يلقون مكرهين فى النار، و فى

ص: ١٤٩

النصوص إشاره إلى ذلك،

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «و الذى نفسى بيده إنهم يستكروهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط» (١).

سَمِعُوا لَهَا شَهِيْقًا و من أنواع العذاب ما يسمعه الكافرون حين هو يهيم فى جهنم من عظم شهيقها. و الشهيق هو أخذ الهواء إلى داخل الرئه، و كأنّ النار يومئذ تعطى قدره هائله على الجذب فتسحبهم إلى جوفها بشهيق ذى صوت مرعب أعظم بملايين المرّات من الرعد القاصف.

و صفه ثالثه لجهنم أنّها تفور.

وَ هِيَ تَفُورُ و للفوران معنيان: أحدهما: الغليان بارتفاع ما فى الإناء لشدّه الحراره، و فى المنجد: (فارت القدر: غلت و ارتفع ما فيها) (٢) و جهنم يومئذ تتداخل ألسنتها و تتموّج بما يشبه فوران الماء فى القدر لشدّه حرارتها، و الثانى: الغضب، و يقال:

فار فائره أى ثار ثائره و هاج غضبه (٣) و كلا المعنيين مجتمعان فى هذه الكلمه القرآنيه، فإنّ النار يومئذ تفور كالقدر غضبا.

تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ إِنَّهَا أَعْظَمُ مِنْ مَلَايِينِ الْقَنَابِلِ النُّوِيَةِ الَّتِي تَنْفَجِرُ مَرَّةً وَاحِدَةً، حَتَّى تَكَادُ

ص: ١٥٠

١- ١) نور الثقلين/ ج ٤- ص ٨ نقلا عن مجمع البيان.

٢- ٢) المنجد ماده فور.

٣- ٣) المصدر.



تنفجر و يمتاز بعضها عن بعض لو لا- مشيئه الله! او الغيظ الذى يكاد يفجرها هو انعكاس لغضب الله على الكافرين فى واقع جهنم، و الآيه توحى بأن النار لها شعور يوم القيامة، و ليس من شىء يدعوها للغيظ أعظم من عصيان أصحابها لربهم عزّ و جل! و يأبى الله سبحانه إلا- أن يظهر عدالته حتى لأولئك الذين تسيّر بهم الأقدار إلى قعر جهنم فإذا بملائكته يسألونهم عن سبب وصولهم إلى هذا المصير البئيس، لكى لا يدخل النار أحد و فى قلبه ذرّه من شك بأنه سبحانه قد ظلمه، و لكى يصير أهل النار إلى العذاب و هم فى أعظم ما تكون الملامه لأنفسهم على ما فرّطوا فى جنب الله و فى الإعداد لتلك الدار الاخر.

كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ يَحذّرکم من معصيه الله و من هذه النار.

قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَالْحججه إذن بالغه عليهم، و أسباب الهدايه إلى الحق و الوقايه من العذاب و أهمّها المنذر و الإنذار كانت متوافره.

فعن الإمام الصادق- عليه السلام- أنه سأله رجل: لأى شىء بعث الله الأنبياء و الرسل إلى الناس؟ فقال: «لئلا يكون للناس على الله حُجّة بعد الرُّسُل، و لئلا يقولوا ما جاءنا من بشير و نذير، و ليكونوا حجه الله عليهم. ألا تسمع الله عزّ و جلّ يقول حكايه عن خزنه جهنم، و احتجاجهم على أهل النار بالأنبياء و الرسل: الآيتين» (١).

و حيث انتفى التقصير عن الله المعذب ثبت على الطرف الآخر و هم الكافرون

ص: ١٥١

المعذبون، فما هو خطؤهم الفظيع الذى أدى بهم إلى بئس المصير؟ إنه التكذيب بالندر.

فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَ فِي الْآيَةِ بَيَانٌ لثَلَاثَةِ ذُنُوبٍ كَبِيرَةٍ أَقْدَمَ عَلَيْهَا الْكُفَّارُ:

الأول: تكذيبهم الحق فى داخل أنفسهم و عدم استجابتهم له.

الثانى: أنهم بادروا للهجوم المضاد ضد القيم الرسالية التى جاء بها المرسلون و أئمه الحق محاولين سحب الشرعية (أنها من عند الله) عنها، بتصنيفها فى خانة القيم البشرية للتحلل من مسئوليته الالتزام بها، و ذلك أن الملزم للإنسان هو الحق الذى يتصل بالله فقط.

الثالث: اتهام النذر المصلحين بألوان التهم فى محاوله لإسقاط شخصيتهم و ضرب قيادتهم فى المجتمع، و من أبرزها اتهامهم بالضلاله من خلال قيمهم الفاسده و ثقافتهم الخاطئه.

و كلمه «قلنا» تدل على أنهم يحاربون الرسالات و القيادات الرسالية بالإعلام المضلل الذى يحكى ثقافتهم و مواقفهم الجاهليه، و الإنسان قادر على القول للآخرين و التعبير عما يريد بوسائل شتى، كاللسان و الفن و..

[١١-١٠] و غاب عن الكفار أنهم هم الضالون، و أن ورائهم يوما تنتصر فيه الحقيقه و تظهر رغم أنف أعدائها، يوما يفصل فيه القول، و يخسر هنالك المبطلون، يوما يشهد فيه الإنسان على نفسه و يعترف بذنبه.

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ

ص: ١٥٢

فالإنسان إذن يحدّد موقفه و مصيره في الدنيا، فهو الذي يختار الحق أو الباطل، و ينتمى إلى حزب الله أو حزب الشيطان، و بالتالى يسلك طريق الجنة أو النار، و هذه الحقيقة تكون في أجلى صورها يوم القيامة إذ يلاقى كل واحد مصيره الذى هو نتيجة مباشرة لاختياره و عمله في الدنيا، و كفى بهذا البيان الإلهى داعيا للناس إلى التفكير في مستقبلهم الأبدى.

و في هذه الآيه إشارة لطيفة تتصل بمعارف الإنسان، فهو إما يكون تابعا لعاقل فيسمع منه، و إما أن يكون بنفسه قادرا على الاهتداء إلى الحق و الاجتهاد في المعرفة فيعقل، و إما أن يكون ضاللا كهؤلاء الكفار الذين ما كانوا يسمعون و لا يعقلون، بعلمهم بهذه الحقيقة في الدنيا و باعترافهم بها في الآخرة. و إشاره أخرى تهدينا إلى أنّهم كانوا شيئين يقيمون الأمور بالمظاهر المادية، فكأنّهم يعيشون في الدنيا بأبصارهم فقط و بطونهم و.. أمّا الأسماع و العقول فإنّها معطّلة، و الحال أنّ قيمة الإنسان بعقله.. و لو أنّهم كانوا يستفيدون من عقولهم لما ضلّوا، لأنّ العقل يوافق الحق (١٠٠٪).

قال الإمام الصادق -عليه السلام-: «من كان عاقلا كان له دين، و من كان له دين دخل الجنة» (١) و

قال -عليه السلام-: «العقل ما عبد به الرحمن، و اكتسب به الجنان» (٢) و

قال الإمام على -عليه السلام-:

«هبط جبرئيل على آدم -عليه السلام- فقال: يا آدم إنى أمرت أن أخيرك واحد من ثلاث فاخترها ودع اثنتين، فقال له آدم: يا جبرئيل و ما الثلاث؟ فقال: العقل و الحياء و الدين، فقال آدم -عليه السلام-: إنى قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء و للدين: انصرفا و دعاه، فقالا: يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما، و عرج» (٣) و

قال رسول الله

ص: ١٥٣

١- ١) نور الثقلين/ ج ٥- ص ٣٨٢.

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) المصدر.

-صلى الله عليه وآله-: «إنما يرتفع العباد غداً في الدرجات و ينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم» (١) و ما كان الكفار يعقلون فهم لا ينالون شيئاً، بل يتسافلون في درجات العذاب. و إن إغفال الإنسان لدور العقل لهو أعظم الذنوب، لأنه الذى تتفرع عنه كل معصيه و خطيئه، و هذا ما يكتشفه أهل النار يوم القيامة.

فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ و كيف لا يعترف البشر لله بذنبه و له الحجّة البالغة عليه، و كلّ شىء يشهد عليه حتى جوارحه؟! او ربما نهتدى من كلمه «فاعترفوا»-بإضافه إحياءات السياق- أنّ الكفار يرفضون الحق و هم يعلمون فى قراره أنفسهم أنّهم يختارون الباطل إلا أنّهم لا يعترفون بذلك فى الدنيا.

فَسِيحَقًا لِأَضْيَاحِ السَّعِيرِ أى ليكن جزاؤهم أن يسحقوا بالعذاب و بالأقدام، و السحق: هو دق الشىء أشدّ الدق (٢) حتى يصير جزئيات صغيره فى مثل الرمل و الطحين أو أنعم من ذلك، و قيل: هو الإبعاد عن رحمه الله (٣) و المعنيان متحدان لأنّ السحق فى الآخرة بالمعنى الأوّل نتيجة لطرده الله الكافر من رحمته.

[١٢-١٤] و يصل السياق إلى محور السوره حيث التأكيد على خشيه الله بالغيب، فإنّ الآيات التى عزفتنا على جانب من عظمه ربنا فى مطلع السوره، و هكذا التى حدثتنا عن عذاب الكافرين و بعض أحوالهم يوم القيامة، و كذلك بقيه الآيات حتى خاتمه سوره الملك و التى تنسف أفكار الشرك بالله و مزاعم المشركين..

ص: ١٥٤

١-١) المصدر.

٢-٢) المنجد/ماده سحق.

٣-٣) المصدر.

إنَّهَا كُلُّهَا تَهْدَفُ رَفَعْنَا إِلَى مَسْتَوَى خَشِيهِ رَبَّنَا بِالْغَيْبِ.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لَمَّا سَبَقَتْ مِنْهُمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ وَ خَطِيئَاتٍ.

وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ خَشِيهِ اللَّهُ بِالْغَيْبِ مِنَ الْحَسَنَاتِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَذْهَبُ السَّيِّئَاتِ وَ تَضَاعَفُ الصَّالِحَاتِ. فَمَا هُوَ مَعْنَى الْخَشِيهِ بِالْغَيْبِ؟ الْجَوَابُ إِنَّهَا خَوْفُ اللَّهِ بِالْمَعْرِفَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَ لَيْسَ نَتِيجَةُ الْعَوَامِلِ الْمَادِيَّةِ الَّتِي يَعَانِيهَا الْإِنْسَانُ، وَ يَلْمَسُ آثَارَهَا فِي الدُّنْيَا. فِتْنَارِهِ يَلْتَزِمُ الْوَاحِدَ مَنَّا بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَ يَطْبِقُ رِسَالَتَهُ لِأَنَّ الْحَكْمَ بِيَدِ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ يَجْرُونَ حُدُودَهُ وَ أَحْكَامَهُ، فَهُوَ لَا يَقْدَمُ عَلَى السَّرْقَةِ وَ لَا- الزُّنَى لِأَنَّ الْحَاكِمَ سَوْفَ يَقْطَعُ يَدَهُ وَ يَجْلِدُهُ أَوْ يَرْجِمُهُ بِالْحِجَارَةِ، وَ تَارَهُ يَسْتَجِيبُ لِلَّهِ لِمَعْرِفَتِهِ وَ إِيْمَانِهِ بِالْآخِرَةِ، وَ أَنَّهُ تَعَالَى يَعَذِّبُ الْعَصَاةَ بِالنَّارِ، فِإِذَا بِذَلِكَ الْعَامِلِ الْغَيْبِيِّ الَّذِي لَا يَرَاهُ بِبَصَرِهِ وَ لَكِنَّهُ يَعَانِيهِ بِبَصِيرَتِهِ يَعَكْسُ الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ فِي كُلِّ كِيَانِهِ.

وَ مِنَ الْمَعَارِفِ الَّتِي تَبْعَثُ فِي النَّفْسِ رُوحَ الْخَشِيهِ مِنَ اللَّهِ هِيَ مَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِ بِرِقَابَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَ عِلْمُهُ بِهِ، لَا فَرْقَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ بَيْنَ السَّرِّ وَ الْجَهْرِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ تَجْعَلُ مِنَ الْغَيْبِ حَاضِرًا فِي وَعْيِ الْبَشَرِ وَ سَلُوكِهِ.

وَ أَسْرَوْا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِعَذَاتِ الصُّدُورِ أَى مَطَّلَعٍ عَلَى النُّوَايَا الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي تَنْطَوِي عَلَيْهَا نَفُوسُ النَّاسِ، وَ تَصْدُرُ عَنْهَا الْأَقْوَالُ وَ الْأَفْعَالُ فِي مَرَحَلِهِ مَتَأَخَّرَهُ عَنْ تَكْوَنِهَا. وَ هَذَا الْمَسْتَوَى مِنَ الْمَعْرِفَةِ إِذَا سَمِيَ

إليه الإنسان فإنه ليس لا يقترب الذنب في المجتمع ولا بعيدا عن أعين الناس و حسب، بل لا ينجس صدره بنيه سوء أبدا، لأنها هي الأخرى يعلمها الله. وهذه أكبر ضمانه للالتزام بالنظام، وقد أثبتت الإحصاءات أن ثمانين بالمائة من حوادث الاجرام التي تقع في العالم ناشئة من اعتقاد المجرم بأنه قادر على الفلت من الرقابه و الجزاء، لأنّ الحاكم مهما بلغ فهو بشر مثله محدود القدرات اطلاعا و مجازاه، و لكن هل يصدق ذلك بالنسبه إلى الله سبحانه؟ كلاً.. و القرآن ينسف أدنى تصوّر بهذا الاتجاه إذ يقول متسائلا:

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الَّذِي يَنْفَعُ عِلْمَهُ إِلَىٰ أَدْقِ الْأَشْيَاءِ وَ أَخْفَاهَا.

الْخَيْرُ الْعَالِمُ علما شاملا- و كاملا- بخلقه، و إذا كان الخير من البشر يعلم بدقائق ما يصنعه من الأجهزه فكيف بالخالق المطلق العلم؟! إذن فلا تحاول أيها الإنسان أن تخادع نفسك، و لا تسمع لنداء الشيطان الذي يحاول تغريك و الإيحاء لك بأنك بعيد عن الأنظار فتمارس الخطيئه.

و هناك روايه في معنى «الخير»

مأثوره عن الإمام على بن موسى الرضا- عليه السلام-: «و أما الخير فالذي لا يعزب عنه شيء و لا يفوته، ليس للتجربه و للاعتبار بالأشياء، فعند التجربه و الاعتبار علمان لولاهما ما علم، لأنّ من كان كذلك كان جاهلا(قبل العلم و محدود المعرفة)، و الله لم يزل خبيرا بما يخلق، و الخير من الناس المستخبر عن جهل المتعلم، فقد جمعنا الاسم و اختلف

المعنى» (١) فنقول: أنّ الله خير كما نقول أنّ فلانا من الناس خير، فالتسميه واحده، و لكنّ معنى خبره الله يختلف عن معنى خبره الناس.

ص: ١٥٧

---

١-١) نور الثقلين / ج ٥- ص ٣٨٣.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَمْنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَيَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَو لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمْنُ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمْنُ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُوا فِي غَتْوٍ وَ نُفُورٍ (٢١) أَمْنُ يَمْشِي مَكْبًا عَلَيَّ وَجْهَهُ أَهْدَىٰ أَمْنُ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَيَّ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتْ وَجوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَ مَن مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)

١٥[ذلولاً]:سهله،مسخره للبناء و الزرع و دفن الأموات و السير و إجراء الأنهر و القنوات و غيرها..من ذل بمعنى خضع و لان.

[مناكبها]:أى ظهورها و طرقها،و منكب كل شىء أعلاه،و أصله الجانب،و منه منكب الرجل و الريح النكباء.

[النشور]:الحياء بعد الموت،و أصله من النشر ضد الطى.

١٦[تمور]:تضطرب و تموج.

١٧[حاصباً]:الحاصب الحجاره التى يرمى بها كالحصاء،و حصبه بالحصاء إذا رماه بها.



١٨]نكير]:أى إنكارى عليهم حيث عذبوا بألوان العذاب من غرق و خسف و حصب و غيرها.

٢١]لجوا]:استمرّوا فى اللجاج و المخالفه.

[عتوّ]:تعدّ عن الحق.

٢٤]ذراًكم]:أى خلقكم بالتناسل و التوالد.

ص:١٥٩

٢٧ [زلفه]:قربيا.

[تدعون]:تطلبون و تستعجلون،من الدعاء،و قالوا:

تدعون و تدعون بمعنى واحد.

٣٠ [غورا]:غائر فى أعماق الأرض لا يتمكّن الإنسان من إخراجه.

[معين]:ظاهر للعيون،أو بمعنى جار سهل التناول.

ص:١٦٠

هدى من الآيات:

إنَّ الفلسفات الشركيه التي تربط ظواهر الكون و نظمه بالقوى المزعومه من دون الله هي المسؤوله عن مشى الإنسان مكبا على وجهه، ضالا- عن الحقيقه، و هي التي تحجب عنه نور الخشيه من ربّه، و تصنع فى نفسه هاله من الأمن و الاطمئنان الكاذب، الأمر الذى يسوقه نحو ممارسه المعصيه و مخالفه النظام الحق دون وازع أو ضابط، و يسقط من عنده قيم الشرائع و العهود. أو ليست الخشيه روح الالتزام بالنظام؟ بلى. إنَّ الشرك و الاعتقاد بالأنداد هو الذى يترك الإنسان لا مسئولاً، فإذا به لا يخشى من مخالفه الحق، و لا يرى ضروره للشكر على النعم، لأنّه يزعم أنّ الله خلق الوجود و قدّر نظامه ثم فوّض إلى الناس أمورهم، أو فوّضه إلى الأنداد ثم اعتزل، أو أنّ هناك قوى الشركاء التي تنصرهم من دونه تعالى فتقاوم قدرته

و مشيئته سبحانه، فإذا منع رزقه عنهم رزقتهم، وإذا غار ماؤهم جاءتهم بماء معين غيره..و يعالج القرآن هذا الضلال(الغرور و العتو و النفور)بصيرتين:

الأولى: بصيره التوحيد،و أنّ الله وحده الذى بيده الأمر و القدره التامه، و يذكر القرآن بهذه الحقيقه بصوره تكون فيها آيات الدرس الأخير من سوره الملك تفسيراً لآيه محوريه فى السوره هى الآيه الأولى: **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**..

الثانيه:حقيقه البعث و الجزاء،ذلك أنّ جزء كبيراً من شرك الإنسان و عدم إحساسه بالمسؤوليه نتيجته لكفره بالآخره أو شكّه فيها،فلا بد أن يعلم بأنّه منشور محشور.و عند ما يذكر القرآن بهذه الحقيقه يعيدنا إلى آيه محوريه أخرى فى السوره هى الآيه الثانيه: **لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** .

### بينات من الآيات:

[١٥]لم يكن الناس يعرفون فى عصر نزول القرآن أبعاد نعمه الحياه على الأرض كما يعرفون اليوم،و أنّ الأرض تختلف من جهات كثيره عن سائر الكواكب الأخرى من حيث القوانين الطبيعيه التى تحكمها،فجاء القرآن ليفتح أفقهم على معرفه هامه و هى: أنّ الكوكب الذى يعيش على وجهه كسائر الكواكب الأخرى يشبه كره تدور فى هذا الفضاء الرحب و لكنّه يختلف عنها فى كونه مهياً من جميع الجوانب لحياته عليه.و كان حرىّ بالإنسان و هو ينشد غزو الفضاء و ركوب الكواكب الأخرى أن ينطلق من هذه الآيه الكريمه.

أمّا هدف القرآن من بيان هذه الميزه للأرض التى نعيش فوقها فليس أن يضيف إلى العلم معرفه و حسب،بل هنالك هدف أبعد من ذلك..و من دونه لا

تكون معارف البشر ذات قيمه حقيقه، ألا و هو تعريفه بربه، فإنه لو تفكر مليا لعرف أن توفير الأرض لحياء البشر آيه من آياته عز وجل. بلى. ربما يفكر البعض في ذلك و لكنك تجدهم يضلون بإجابات لا رصيد لها من الصحه فإذا بهم يشركون بالله، فأما القدماء فكانوا يتصوّرون أن الأصنام أو الشياطين هي التي صنعت ذلك، و أمّا المعاصرون فقالوا أنها الصدفة!! و لكن القرآن يذكر الإنسان بالحقيقه التي أركزت في فطرته، و يجد أصداءها حينما يستنير عقله، فينقذه من ضلالات الجهل و الشرك، إذ يقول:

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا أَي مَذَلَّهُ ميسيره لكم كالحصان المستراض أو البقره المستألفه، حيث جعل نظامها و ما فيها لصالح الإنسان طعاما و شرابا و هواء و زينه و ما أشبه ممّا يحتاجه و ينفعه كالليل و النهار و الشمس و القمر.. إلخ.

و تدليل الله للأرض انعكاس لاسم «تبارك» حيث أن ذلك من بركته و رحمته.

فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ قوله تعالى: «فامشوا» ليس مجرد أمر تشريعي يوجب السعي، بل هو أمر تكويني، إذ لو لم يقدر الله المشي لما كان أحد يستطيع المشي حتى في مناكب الأرض. و المنكب مفرد مناكب و هو مجتمع رأس الكتف و العضد، و ناحيه كل شيء و جانبه، يقال: سرنا في منكب من الأرض أو الجبل أي في ناحيته، و المنكب من الأرض الطريق (1) و كأن القرآن حينما أمر بالمشي في مناكب الأرض شبها

ص: ١٦٣

بالإنسان، رأسها الجبال و مناكبها السفوح و السهول و ما دون القمم العاليه الوعره التى يصعب المشى فيها. و حينما نمشى فإننا ليس فقط نحصل على الرزق بل و نزداد معرفه أيضا. و هناك علاقه بين فعلى الأمر «امشوا» و «كلوا» ذلك أنّ رزقنا لا يمكن أن يمشى إلينا بل لا بد أن نسعى إليه بأنفسنا، و هذه هى القاعده السليمه التى يجب علينا أن نتبعها فى الحياه لنمارس مسؤوليتنا فيها و نصل إلى اللقمه الحلال و المرضيه عند الله، إذن فليس فى الدين دعوه للخمول و الكسل و التطفل على الآخرين، كما يصوره البعض، إنما هو صورته لسنن الحياه الواقعيه التى لا يمكن لأحد الوصول إلى أهدافه و أغراضه إلا من خلالها و من أهمها سنّه السعى و الكدح.

ثم تنسف الآيه الكريمه فى خاتمتها كلّ القيم الماديه التى تفسر الحياه تفسيراً شئياً، و تحصر مسؤوليه الإنسان فى الوجود فى مساحه ضيقه و تافهه، فإذا تنزل بها تنزل به إلى واد سحيق و طموحات ضاله، و كأنه يشبه الأنعام خلق لياكل ليعيش بلا هدف! كلاً.. إنّ الإنسان له أن يتعلّم من الحياه و الطبيعه من حوله درساً أساسياً، فلينظر إلى ما حوله هل يجد شيئاً خلق بلا هدف؟ فما هو هدفه؟ دعه يبحث عن هدفه فإنه سيجد هدفه أعظم من مجرد الأكل و الشرب و التلذذ، كلاً..

إنّ له تطلّعا أسمى و طموحات أكبر.. مثلاً.. يتطلع كلّ إنسان لملك الأرض و الخلود فى الحياه هل يتحقق له ذلك فى هذه الحياه؟ كلاً.. و هكذا يهتدى الإنسان إلى الإيمان بالآخره، و بعبارة موجزه: سيواجه الحقيقه التى تطرحها الآيه فى خاتمتها:

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ وَ تَنْطَوِي هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ عَلَى مَجْمَلِ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ حَيْثُ الْإِيمَانُ بِالْآخِرَةِ، وَ التَّسْلِيمُ لِلَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ نَفْسِيَا بِالْإِيمَانِ وَ عَمَلِيَا بِاتِّبَاعِ رَسَلِهِ وَ مَنَاهِجِهِ. وَ عِنْدَ مَا تَتَأَمَّلُ فِي

ترابط أجزاء الآيه الكريمة ببعضها نكتشف حقيقه هامه و هى أنّ على الإنسان أن يضع هدفه و يفكر فى مستقبله الأبدى و هو يمارس الحياه بكلّ صورها، أكلا و شربا و سعيا فى طلب الرزق. و من ضروره الأكل و الشرب الحياتيه يجب عليه أن يتحسس حاجاته و هو يمضى إلى مصيره، و من ارتكاز الحصول على الرزق على السعى (أو بتعبير الآيه المشى) يجب أن يعرف بأنّ وصوله إلى غايته فى الآخره هو الآخر يرتكز على السعى، و إنّ خير الزاد فى ذلك السفر الطويل لهو التقوى.

الأكل و الرزق فى الآيه أعمّ من ظاهرها، فالأكل صورته من صور الاستهلاك، و الرزق هو عموم ما يحتاج الإنسان إليه، و الآيه بمجملها توحى بأنّ الأرض خلقت منذلله فى بعض الجوانب و لكن الله يريد للإنسان أن يذلّها كلّها بسعيه، و بالرغم من أنّه لا يقدر على تدليل كلّ شىء فيها لتصبح الأرض جنّه الفردوس لأنّه يتنافى مع حكمه خلق الإنسان فيها ألا و هى الابتلاء، فإنّه قادر على تطوير حياته إلى الأفضل أبدا.

[١٧-١٦] و كما ينبغى للإنسان أن ينتفع من تدليل الأرض له و يتحسس اسم «تبارك» من هذه الرحمه الإلهيه عليه، كذلك يجب عليه أن يستشعر قدره الله على كلّ شىء، و أنّه لو شاء لسلب تلك البركه منه فإذا بتلك الأرض المذلله تصبح كالفرس الجامح تمور مورا، أو يحدث تغييرا فى النظام الكونى فإذا بالسماء التى تحميها تستحيل منطلقا لعذاب مصوب لطاقه للأرض و سكانها به. و تذكّر هذه الحقيقه مهم لأمرين:

الأول: أنّها إلى جانب تنعم الإنسان ببركات الله و رحماته التى فى الطبيعه تعطيه توازنا نفسيا و عقليا و عمليا يسوقه نحو المسيره الصحيحه فى الحياه، فلا تبطر به النعم و تضلله عن أهدافه. فإنّه متى وصل الإنسان إلى اليقين بقدره الله عليه سلّم له

أمره و اتصل به و خضع له، و هذه من أعظم أبعاد الخشية منه تعالى.

الثانى: أنها تجتث من نفس الإنسان جذور الشرك، لكى لا يأمن مكر الله ثم يعصيه اعتمادا على الشركاء المزعومين (كالشياطين و الأصنام و الملائكة بأنهم قادرون على مقاومه قدره الله و منع مشيئته) أو استرسالا مع رحمته تعالى.

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَي تَمُورُ أَي تَمُوجُ و تضطرب كما يمور البحر، و ذلك بإحداث انهيارات أرضيه و زلازل، أو بتغيير النظام الأرضى مرّه واحده مما يفقدها توازنها بصوره رهيبه، و فى الآيه إشاره إلى ذلك بكلمه الخسف التى تعنى التغيير و التبديل باتجاه سلبى.

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُزِيلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا و فى التساؤل ب «أم» تلويح بالنهى عن أن يأمن أحد مكر الله لما فيه ذلك من دواعى المعصيه و الاسترسال، و الحاصب حجاره العذاب المتقده نارا، و قوله تعالى «مَنْ فِي السَّمَاءِ» فى الآيتين محمول على أحد وجوه ثلاثه: فإمّا هو كناية عن تعاليه سبحانه، و إمّا لأنّ فى السماء عرشه الذى تصدر منه أوامره عزّ و جل، و إمّا يكون إشاره إلى الملائكة التى تنفذ أمر الله و مشيئته فى الحياه.

و نتساءل: ما هى العلاقه بين تحذير الله للناس من الكفر به و تهديده بتحطيم النظام الكونى لو كفروا؟ و الجواب: لأنّه تعالى (كما بين فى الآيه الثانیه) إنّما خلق الوجود الحى و الميت لأجل الإنسان، فإذا أفسد البشر حكمه وجوده بطلت حكمه الوجود الذى حوله أيضا.

و ما تحمله آيات الله من الإنذار لا تستوعبه إلا قلوب المؤمنين فإذا هم يخشون



رَبِّهِمْ بِالْغَيْبِ، أَمَّا الْكَافِرُونَ وَ الْمَشْرِكُونَ فَهَم فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ لِأَنَّهُمْ مَحْجُوبُونَ بِالْجَهْلِ وَ الشَّرْكَ عَنْهُ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ مَا دِيُونَ لَا يَرُونَ إِلَّا- الْأُمُورَ الظَّاهِرَةَ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَقْلَ هُوَ الَّذِي يَهْدِي الْإِنْسَانَ إِلَى الْبَاطِنِ مِنْ خِلَالِ الظَّاهِرِ، وَ إِلَى الْغَيْبِ عِبْرَ الشُّهُودِ، وَ هُوَ مَعْطَلٌ لَدَيْهِمْ، كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ الْمَوْعِظَةَ مِنَ الْعُقَلَاءِ، هَكَذَا تَرَاهُمْ يَعْتَرِفُونَ فِي الْآخِرَةِ، وَ إِلَيْهِمْ يُوَجَّهُ الْقُرْآنُ هَذَا التَّحْذِيرَ الْمَبْطُنَ:

فَسَيَتَعَلَّمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ حِينَمَا تَخْسَفُ بِهِمُ الْأَرْضُ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا، أَوْ فِي الْآخِرَةِ حَيْثُ الْعَذَابُ الْمَقِيمُ وَ الْأَلِيمُ، هُنَالِكَ يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ النَّذِيرِ.

[١٨] وَ لَكِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَكْتَفِي بِالْمَسْتَقْبَلِ الْغَائِبِ دَلِيلًا عَلَى حَقَائِقِهِ بَلْ وَ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهَا بِالشُّوَاهِدِ الظَّاهِرَةِ، لَكِي لَا يَبْقَى لِبَشَرٍ مَا يَبْرُرُ لَهُ الْكُفْرَ وَ الزَّيْغَ، وَ لِتَكُونَ لَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَمَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ وَ قُدْرَتِهِ عَلَى صَنْعِ مَا يَشَاءُ؟ لِنَدْرَسُ التَّارِيخَ الْبَشَرِيَّ فَهُوَ خَيْرٌ مَعْلَمٌ لِلْإِنْسَانِ، حَيْثُ يَهْدِيهِ إِلَى سُنَنِ اللَّهِ وَ آيَاتِ مَعْرِفَتِهِ، وَ نَحْنُ حِينَمَا نَتَّبِعُ حَوَادِثَهُ فَسَنَجِدُ الْكَثِيرَ مِنَ الْأُمَّمِ وَ الْمَجْتَمَعَاتِ الَّتِي ذَهَبَتْ ضَحِيحَةً كَفَرَهَا وَ فَسَوَقَهَا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَذَاقَتْ أَلْوَانًا مِنَ الْعَذَابِ لَا يَسْتَوْعِبُهَا فِكْرُ لِهَوْلِهَا وَ فِظَاعَتِهَا.

وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَيْنَ قَرَى لُوطَ الْمُؤْتَفِكَةِ؟ وَ أَيْنَ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمَهُ؟ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ غَيْرَ إِجَابَةٍ وَاحِدَةٍ:

إِنَّهُمْ دَحَرُوا وَ بَادَتْ حَضَارَاتُهُمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَخْشَوْا رَبَّهُمْ وَ يَتَّبِعُوا رِسَالَاتِهِ وَ رَسَلَهُ.

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ □

ص: ١٤٧

فكيف كان العذاب المنكر الذى لم يكونوا يحتسبوه و الذى نزل بساحتهم من عند الله سبحانه؟! و يحتمل هذا المقطع معنى آخر غير المنكر الفطيع إذا تصوّرنا القرآن يتساءل:

كيف إذن تنكرون، و الشواهد ظاهره، و الآيات قائمه؟ [١٩] و يلفت القرآن الأنظار و الأفكار إلى مشهد الطيور و هى تطير فى الفضاء، ليشير عقولنا نحو دراسته هذه الظاهره التى تحكى تذليل الله السماء للطيور برحمته، و تكشف عن مئات القوانين العلميه التى تفيد الإنسان فى حياته و حضارته. فلما ذا لا يتساءل ما هى القوانين الفيزيائيه التى يمكن فى ضوئها الطيران؟ و لماذا لا يبحث عن الأسباب و العوامل التى تجعل الطائر يسبح فى الفضاء دون أن يقع على الأرض؟ و أهم من ذلك كله لماذا لا يحاول أن يتصل قلبه بروح هذا العالم ليراه آيه واضحه من آيات ربه العظيم؟ أ و لم يروا إلى الطير فوقهم صافات و يقبضن ما يمسكهن إلا الرخمن و الصف هو بسط الجناحين بينما القبض هو جمعهما إلى الجسم، و لعل فى الآيه إشارة بهاتين الكلمتين إلى نوعين من الطيور: أحدهما صفه أكثر من قبضه، و الآخر العكس، و إلى أيهما نظر الإنسان تجلت آيات رحمه الله، و لكثها أظهر عند رؤيه ما يصف منها، و ربما لذلك تقدّم ذكره على الذى يقبض.. و إنما يكون طيران الطيور مظهر لرحمه الله لأنه تعالى لو لم يذل لها الفضاء بالنظام الذى يسمح لها بالطيران لما كانت تجد سبيلا إلى ذلك فهو الذى يمسكها، و لأنها بالطيران تستطيع الهرب من الأخطار.

و لعل كلمه «فوقهم» فى الآيه تثير الإنسان نحو التحدى فىسعى ليكون قادرا

على الطيران، و ما كان الإنسان ليكتشف أسرار الطيران لو لم يكن يدرس هذه الظاهره الكونيه و يطلع على قوانينها فإذا به يصنع مختلف وسائل الطيران.

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ فهو يعطى كلَّ خلق من خلقه القدرات و الصفات ما يتناسب معه و مع دوره فى الحياه، حتى يكون كل شىء فى نفسه و حسب هدفه كاملا. قد منحه ربه كل ما يحتاج، و ذلك يؤكد الحقيقه التى تعلنها الآيه: إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ يتبصر حقيقته و دوره و الهدف من خلقه و تناسب هذا الخلق مع سائر خلقه سبحانه.

و نحن يجب أن نهتدى إليها حينما نشاهد طائرا يطير و قد جعل كل شىء مناسبا لحركته فى الفضاء: حجمه، أجنحته، تركيبه بدنه، طعامه و شرابه، و توالده و تكاثره، هذا ما نعرفه و سائر البشر، أمّا العلماء و المتخصصون الذين يدرسون حياه مخلوقات الله جامده أو متحركه فهم كلّمًا ازدادوا معرفه بها ازدادوا إيمانًا بدقه صنعه عزّ و جلّ.

تعالوا نستمع إلى

الإمام جعفر بن محمّد الصادق -عليه السلام- يحدث رجلا من شيعته (المفضل بن عمر) عن الدقه فى خلقه الطير و الحكمه فى صنعه:

«تأمّل يا مفضل الطائر و خلقته فإنه حين قدر أن يكون طائرا فى الجوّ خفّف جسمه و ادمج خلقه، فاقصر به من القوائم الأربع على اثنتين، و من الأصابع الخمس على أربع، و من منفيذى للزبل و البول على واحد يجمعهما، ثم خلق ذا جؤجؤ محدّد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه، كما جعل السفينه بهذه الهيئه لتشقّ الماء و تنفذ فيه، و جعل فى جناحيه و ذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران، و كسى كلّ الريش ليداخله الهواء فيقلّه، و لما قدر أن يكون طعمه الحَبّ و اللّحم يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان، و خلق له منقار

ص: ١٦٩

صلب جاس يتناول به طعمه فلا ينسجج من لقط الحب، و لا يتقصف من نهش اللحم، و لما عدم الأسنان و صار يزدرد الحب (أى يتلعه و يسرع الطيران) صحيحا و اللحم غريضا أعين بفضل حراره فى الجوف تطحن له الطعم طحنا يستغنى به عن المضغ؛ و اعتبر ذلك بأن عجم العنب و غيره يخرج من أجواف الإنس صحيحا، و يطحن فى أجواف الطير لا- يرى له أثر، ثم جعل مما يبيض بيضا و لا- يلد و لا-ده لكيلا- يثقل عن الطيران فأنه لو كانت الفراخ فى جوفه تمكث حتى تستحکم لأ-ثقلته و عاقته عن النهوض و الطيران، فجعل كل شىء من خلقه مشاكلا للأمر الذى قدّر أن يكون عليه..» تأمل ريش الطير كيف هو؟ فإنك تراه منسوجا كنسج الثوب من سلوك دقاق قد ألف بعضه إلى كتأليف الخيط إلى الخيط و الشعره إلى الشعره، ثم ترى ذلك النسج إذا مددته يفتح قليلا و لا ينشق لتداخله الريح فيقل الطائر إذا طار، و ترى فى وسط الريشه عمودا غليظا متينا قد نسج عليه الذى هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته، و هو القصبه التى هو فى وسط الريشه، و هو مع ذلك أجوف ليخف على الطائر و لا يعوقه عن الطيران (١) [٢٠] و لا- شك أن ذلك الجهل بواقع الحياه هو جهل بآيات الله سبحانه، مما يدعو الإنسان إلى التكذيب بالحق و الكفر بربه، و بالتالى أن يشرك به الأنداد المزعومين، ظنا منه بأنه قادر بواسطتهم على الفرار من سلطان الله القاهر و على التهرب من مسئوليته الحق، الأمر الذى يجعله يعيش فى الحياه من دون قيد أو ضابط، و لكن القرآن ينسف هذه الأفكار و المزاعم من جذورها مبينا بأنها ليست سوى نشوه من الغرور الجامح.

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

ص: ١٧٠

و«من دون الرحمن» تتسع إلى معنيين هما:

١-الضد..و عليه تنصرف الآيه إلى الشركاء الموهومين و القوى التي يغتر بها الكافرون كالمال و السلطه فإنها كلها لا تنصرهم ضد الله،و لو نصرتهم جدلا فهي لا تنفعهم شيئا.

٢-أو تكون الآيه منصرفه إلى الشفعاء فإنهم كذلك لا يمكن أن يشفعوا لأحد من دون إذن الله و رحمته،فلما ذا يجعل الإنسان بينه و بين ربه حجبا و وسائل،و هو قادر على الاتصال بمصدر الرحمه و النصر؟! إنَّ الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء و الأولياء ليسوا بدائل عن طاعه الله،و عن الدعاء إليه مباشرة،بل هم وسائل و سبل إلى الرحمن سبحانه.

إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ وَ الْغُرُورُ هُوَ الْوَهْمُ. أ ترى كم هو مغرور ذلك الغبي الذي يزعم أنه قادر على مقاومه الانفجار النووي بيمينه؟!بلى.قد يزخرف القول و يخادع نفسه و لكنّه عند مواجهه الحقيقه يكتشف أنه إنما كان في غرور محيط،و إنّنا نرى اليوم مدى الغرور الذي فيه قوى الاستكبار العالمى،لما تملك من ترسانات الأسلحه،و القدره الاقتصاديه،و لكن أين هذا كله من قدره الله المطلقه حتى يبارزونه عزّ و جل و يدعون أنهم سوف ينتصرون على الحق؟! و عاده لا يكتشف الغرور إلا بعد فوات الأوان عند ما يصطدم الإنسان بالحقيقه المره حيث لا ينفعه شيئا.

و تتسائل:ألم يكن من الأنسب أن يذكر هنا أسماء العزه و القوه بدل اسم

«الرحمن» حيث أنّ السياق سياق التحدى، و لكننا عند التدبر نهتدى إلى إشاره لطيفه في ذكر اسم «الرحمن» فكأنّ القرآن يقول للإنسان بأنّ مصالحك الحقيقه تجدها عند صاحب الرحمه، فلما ذا تتخذ الشركاء من دونه؟! عند ما تضيق مذاهب الحياه أين نلجأ. أو ليس إلى رحاب رحمه الله؟ و حينما تتوالى المصائب و النكبات إلى من نجأ. أو ليس إلى حصن الرحمن؟ [٢١] و إنّه لثابت فطرياً و عملياً لذوى العقول أنّهم إنّما ينتصرون على المشاكل و التحديات بفضل الله، و لا يلمسون أثراً لقوى أخرى تنصرهم و يستعينون بها عند الشدائد سواه سبحانه، و عند ما تحبس السماء غيثها هل يقدر الشركاء المزعومون أن ينزلوه؟ كلاً.. ألا- ترى كيف يجار الإنسان عند ما يحبس رزقه إلى ربه، تبعه إلى ذك الفطره، و يحثه العقل؟! أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزُوقُكُمْ إِنْ أَمْسَيْكَ رِزْقُهُ و يبدو أنّ الرزق هو أرضيه الاكتساب، فلو لا- أنّ الأرض خصبه و المياه متوفّره هل يمكن للزارع أن يكتسب منها شيئاً؟! و لو لا أنّ البلد يكون فيه معادن و منابع هل يمكن للصناعى أن يطوّر صناعته أو يستخرج نفطاً أو ذهباً أو حجراً كريماً؟! و هكذا يتقلب البشر فى رزق الله يكتسب منه معاشه فإن انعدم الرزق لم يبق معاش، و لكن بالرغم من وضوح هذه الحقيقه ترى الكفّار يصرون على الكفر و الغرور.

بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ لَّجَّ و لجاجه: عند فى الخصومه، و تمادى فى العناد إلى الفعل المزجور عنه، و لَجَّ

فى الأمر: لازمه و أبى أن ينصرف عنه (١) إصرارا، و العتو: الاستكبار الذى يجاوز الحد، و القلب يقسو فلا يلين، و الظالم يطغى و يتجبر (٢)، و النفور: يعنى التباعد و نفر الظبى و غيره شرد و ابتعد، و الإنسان أعرض عن الشىء و صدّ (٣)، و فى كلمه «نفور» تشبيه للكفّار بالحمير و الدواب (٤) إذ تمادوا فى معانده الحق مع وضوحه، و أصروا على لزوم الباطل مع زهوقه، و تجاوزوا الحد فى الاستكبار، و ركبوا التباعد عن الحق شردا و إعراضا و صدودا.

[٢٣-٢٢] و كيف لنا أن نتصور مسيره من كان فى غرور و لجاجه من العتو و النفور عن الهدى و الحق، إلا كمن يمشى مرسلا نظره إلى الأرض لا يرى أمامه، أو كمن على بصره غشاوه يتخبط و لا يهتدى سبيلا أ فهل يستوى هو و من يبصر أمامه و ينتفع بجميع حواسه و هو على صراط مستقيم؟! أ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ و للكبّ معنيان -حسبما قالوا-: أحدهما الذى ينظر إلى الأرض و هو يمشى، و الثانى من لف على وجهه شيئا يقال تكبكب فى ثيابه إذا تلفف بها، و المكب على وجهه الذى لفّ عليه شيئا، و السوى الذى يمشى بكامل حواسه و إمكاناته و وعيه فهو السوى، قال تعالى: آتَيْتَكَ إِلَّا تَكَلَّمُ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (٥) أى كامله، و قال: فَسَيَتَعَلَّمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَ مِنَ اهْتَدَىٰ (٦) أى الصراط

ص: ١٧٣

١-١) المنجد ماده لج.

٢-٢) المصدر ماده نفر بتصرف.

٣-٣) المصدر بتصرف.

٤-٤) قال تعالى: كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ \* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرِهِ الْمَدْرُ ٥١/٥٠.

٥-٥) مريم ١٠.

٦-٦) طه ١٣٥.

السليم، وإن الكافرين لا يمشون في الحياه بكامل حواسهم و وعيهم، وليس أدل على ذلك من أنهم معطله أسماعهم عن تلقى المواعظ، وعقولهم عن وعى الحق واستيعابه كما وصفوا أنفسهم و كما وصفهم ربهم فى قوله: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا (١) و يؤكد هذه الحقيقه قوله تعالى فى الآيه اللاحقه مفسرا معنى المكب:

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ قِيلَ: إنكم لا تشكرون إلا قليلا، وقيل: إن المعنى لا يشكرون منكم إلا قليل، و كلا المعنيين صحيح. و إن للشكر بالنعمة جانبين:

الأول: أن لا يستخدم الإنسان نعم الله عليه فى معصيته، فيسمع باذنه ما حرّمه عليه كالغيبه و الكذب و الغناء، أو ينظر بعينه ما هو محضور كأعراض الناس و عوراتهم، أو يجعل فؤاده عشا للشيطان فيملؤه بالظنون و النوايا السيئه و الأفكار الضاله.. و هكذا.

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «شكر النعمة اجتناب المحارم» (٢)، و

قال الإمام على-عليه السلام-: «شكر كل نعمه الورع عمّا حرّم الله» (٣).

الثانى: أن يسخر ما أنعم الله به عليه فى طاعته و إعلاء كلمته، بأن يجعله وجوده و كيانه فى طاعته و خدمه الحق و اهله، و محاربه الباطل و أعداء الله، فيستمع بإذنه علوم الحق و مواعظ الصدق، و يوظف بصره فى النظر إلى آيات ربه و كتابه،

ص: ١٧٤

١- (١) الأعراف ١٧٩.

٢- (٢) موسوعه بحار الأنوار/ج ٧١ ص ٤٠.

٣- (٣) المصدر ص ٤٢.



و يصير فؤاده وسيله لمعرفة الحق و التفكير فيما ينفع به رسالته و نفسه و الناس، و هكذا سائر النعم و الهبات الإلهيه.

و إذا فعل الإنسان ذلك يكون شاكرا، و لا يتم الشكر إلا بمعرفة المنعم و التوجه إليه به، فإنّ الإنسان عرضه للشرك في الشكر أيضا، لذلك جاءت بدايه الآيه توجهنّا إلى المنعم و أنه أهل الشكر، و على هذه الحقيقه أكدت النصوص المستفيضه

عن أئمه الهدى، قال الإمام زين العابدين على بن الحسين -عليه السلام-:

الحمد لله الذى لو حبس عن عباده معرفه حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعه، و أسبغ عليهم من نعمه المتظاهره، لتصرّفوا فى مننه فلم يحمده، و توسّعوا فى رزقه لم يشكروه، و لو كانوا كذلك لخرجوا من حودود الإنسانيه إلى حدّ البهيمه، فكانوا كما وصف فى كتابه: «إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (١) و

قال الإمام الحسن العسكرى -عليه السلام-: «لا يعرف النعمه إلا الشاكرو، و لا يشكر النعمه إلا العارف» (٢) و

أوحى الله تعالى إلى موسى -عليه السلام-:

«يا موسى اشكرنى حق شكرى، فقال: يا ربّ كيف أشكرك حقّ شكرك و ليس من شكر أشكر به إلا - و أنت أنعمت به على؟! فقال يا موسى شكرتنى حق شكرى حين علمت أنّ ذلك منى». (٣)

[٢٧-٢٤] و عند التفكير فى الآيه (٢٣) و الآيه (٢٤) نجدهما تجيبان على أهمّ الأسئلة المصيريه التى تخطر على بال كلّ إنسان: من الذى أوجدنى و وهبنى ما أنا فيه من النعم؟ و من الذى ذرأنا فى الأرض؟ ثم ماذا بعد الدنيا، و إلى أين تسير بنا الأقدار؟ هذه الأسئلة و أمثالها تؤكّد أنّ معرفه الخالق مسأله فطريه ملحّه عند كلّ إنسان، و هى إن لم يجب عليها الإجابه السليمه فسوف يظل الإنسان حائرا لأنها

ص: ١٧٥

١-١) الصحيفه السجديه الدعاء الأول.

٢-٢) موسوعه بحار الأنوار ج ٧٨ ص ٣٧٨.

٣-٣) المصدر ج ١٣ ص ٣٥١.

أسئله مصيريه ترسم إجابته كل واحد عليها شخصيته (فكره و سلوكه و علاقته) كما تحدّد مستقبله.

و حيث أنّ القرآن منزل من ربّ الإنسان الذى خلقه و يعلم ما توسوس به نفسه و ذات صدره، فإنّ آياته جاءت واقعيه و شفاء لما فى صدره، و علاجاً لكلّ قضاياها و مسائله، و إنّ هذه الآيات بحقّ تعبر عمّا فى ضمير كلّ بشر و حاشا لله و هو الرحمن اللطيف بعباده أن يدعهم فى حيره من هذه الأسئله الخطيره فيضلون كفرا و شركا، و هكذا قال ربنا سبحانه:

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ و ليست الصدفة أو الطبيعه أو القوى المزعومه من دونه سبحانه، و الذرأ هنا بمعنى الخلق و النشر، فإنّه تعالى خلقنا فى الأرض و نشرنا فى أقطارها، قال الله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيبًا (١) أى ممّا خلق و بث، و قال: وَ مِمَّا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ (٢) أى خلق و وزع، و ذرأ الحبوب فى الأرض فرقها و بذرها. و الحشر هو الجمع، و السؤال: هل خلق الإنسان فى الأرض ليعود إليها بعد الموت دون هدف و مسئوليته؟ كلاً.. إنّما هى مرحله فى دورته الحياتيه التى لا تنتهى، فقبل أن يذرأ فى الأرض فى عالم الدر، و بعد هذه الدنيا يبدأ رحله إلى عالم البرزخ ثم عالم الحشر و الجزاء حيث يلاقى مصيره الأبدى، و ما دامت بدايه الإنسان من الله و نهايته إليه و مصيره بيده فما أحوجه أن يوظّف وجوده فى هذه الأرض و نعم الله عليه من أجل حشر سعيد فى الآخرة.

و ما أعظم ذكر الآخرة و الحشر فى قلوب الصالحين، و حسب ما

يقول الإمام على

ص: ١٧٦

١- (١) الانعام ١٣٦.

٢- (٢) النحل ١٣.

-عليه السلام-: «و لو لا الأجل الذى كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم فى أبدانهم طرفه عين أبدا» (١)، ولكنك ترى الضالين الذين حجبتهم الكفر والشرك عن رؤيه هذه الحقيقه يستهزون بها فيذهبون فرصتهم الوحيده فى بحوث عقيمه تافهه، فيتساءلون-مثلا-عن موعد الساعه.

وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ و أسئله أخرى تافهه كقولهم: كيف يحيى الله الموتى؟ و إنك حين تدرس خلفياتها و أهدافها فى نفوسهم تجد أنهم لا- يريدون بها معرفه الحقيقه، إنما مجرد الجدل و العناد. أو ليسوا يبحثون عن تبرير للتملص من مسئوليته الالتزام بالحق، و اتباع القياده الرساليه فى الحياه، و الهرب من و خز الضمير و نداء الفطره؟ إذن لا بد أن يكفروا بالآخره لأن الإيمان بها قمه الشعور بالمسئوليته، و لكن هل يعبر إنكارهم للحقيقه الواقعيه شيئا، فلا تقع الساعه و يصبح الداعيه إليها كاذبا لو كفروا بها؟ كلا.. فلينكر أحد حقيقه الموت، و ليكذب من يذكره بها، فهل يبقى خالدا إلى الأبد و يصير المذكر كاذبا؟ و سؤال آخر: هل أن عدم علم الإنسان بلحظه موته -مثلا- ينفى حقيقه الموت؟ فلما ذا يعتبر الجاحلون عدم إخبار الرسول-صلى الله عليه و آله- لهم بموعده الساعه دليلا على انتفائها و كذب المؤمنين بها؟ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ و هنا نتساءل: لماذا تأتي هذه الإجابه كلما تحدى الكفار الرسول بالسؤال عن موعد الساعه، أو ليس الأفضل أن يطلعه الله عليها فيجيبهم و ينتصر عليهم فى الجدل؟

ص: ١٧٧

١-١) هكذا وصفهم إمام المتقين على بن أبى طالب فى الخطبه ١٩٣ من نهج البلاغه.

و الجواب: هنا أسباب تكشف عن جانب من الحكمه الإلهيه، تبرّر عدم الإجابة على سؤالهم تيريرا موضوعيا واقعيا، هي:

أولاً- لأنّ من عظمه الساعه (ساعه الموت و القيامه) و أثرها فى الإنسان يكمن فى أنّها مستوره، ممّا يدعوه لاجتناب الباطل و اتباع الحق فى كلّ لحظه من حياته خشيه أن تحلّ به الساعه فيها فيلقى ربه على معصيه. و إلاّ- لكان الناس يسترسلون فى الباطل و يزعمون أنّهم سوف يتوبون قبل موتهم بساعه! و

قد أشار الإمام الصادق- عليه السلام- إلى ذلك بقوله: «ثم (لو) عرف ذلك وثق بالبقاء و انهمك فى اللذات و المعاصى، و عمل على أنّه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب فى آخر عمره، و هذا مذهب لا يرضاه الله من عباده و لا يقبله» (1) ثانياً: أنّ الكافر الذى أركس فى الغرور و العتو و النفور عن الحق لا- يغيّر فيه إخبار أحد له بموعد الساعه، بل لا- يصدق أحدا لو أخبره و لو كان مصيباً، لأنّ مشكلته أنّه لا يؤمن بالأساس و هو الساعه. فهب أنّ الرسول- صلّى الله عليه و آله- قال له أنّك تموت بعد خمسين يوماً، أو أنّ الساعه تقع بعد ألف عام، فهل يصبح من المتقين؟ كلا.. إذ أنّ سؤاله ليس بهدف معرفه الحق و التسليم له عند ظهوره، إنّما لمجرد الجدل و المعانده.

ثالثاً: أنّ الرسول و كل داعيه إلى الحق ليس مسئولا أن يجارى الناس و بالذات الملحدين منهم فى كل شىء، و يجب على كل سؤال، فإنّ الأسئلة لا تنتهى، و لو أنّه ينصب نفسه للرد و المجادله فسوف يضيع الكثير من وقته و جهوده فى أمور لا طائل منها و لا فائده دون أن يصل إلى ما يريد، و بالخصوص أنّ من بين

ص: ١٧٨

الناس من هو بارع فى صناعه السؤال و الذى لا يهدف من ورائه إلا الجدل الفارغ، إنما مسئوليته المؤمن الرسالى إبلاغ رساله الله إلى الناس بأمانه و وضوح.

وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ و تهدينا خاتمه الآيه إلى حقيقتين فى منهجيه الدعوه السليمه إلى الله:

الأولى: أن على الفرد الرسالى التحرك وفق ما ترسمه له رسالته و توحى به أهدافه فى الحياه، دون أن يلتفت كثيرا إلى ما يشيره الآخرون أعداء و منافسين و جاهلين من إشكالات و أسئلة و ملاحظات تافهه، لأنه لو التفت إلى ذلك فلن يصل إلى أهدافه.

الثانيه: أن التواضع للحق مسأله مهمه فى الدعوه، فإذا سئل عمّا لا يعلم يجب أن يقول لا أعلم..و إلا أصيبت مقاتله كما يقول الإمام على عليه السلام، فليس العيب أن يعترف الإنسان بالجهل إنما العيب الكبير أن يقول ما لا يعلم. فهذا سيد البشر على عظمته يجب و قد سئل عن الساعه التى لا يعلم ميعادها: إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ و إنما للحصر، فليس من أحد يعلم بميقات وعد الله غيره، و لا يكتفى القرآن بهذه الإجابة بل يضع الكافرين أمام آثاره المريعه عند ما يحين أجله فتساء وجوههم، و يعلمون إلى حدّ اليقين حقًا بالآخره و صدق الرسول، و يشهدون وقوعه الرهيب، يوم لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً أَى و قد اقترب منه الموت، أو عند ما تظهر للناس علامات الساعه و آياتها كزلزله الأرض، هنالك يكتشفون فظاعه خطئهم، فيتحسرون و يندمون على ما فرطوا فى جنب الله فى أنفسهم، و لكن الأمر لا ينتهى عند هذا و الحد إنما تملوهم آثار الهوان و العذاب حتى تظهر على وجوههم التى طالما صدّوا بها عن الحق.

سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيُ أَسَاءَهَا شَيْءٌ أَوْ أَحَدٌ كَالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ خَزَنَةٌ جَهَنَّمَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ تِلْكَ الْأَثَارَ الَّتِي تَظْهَرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ يَوْمَئِذٍ وَتَسْوَأُهُمْ هِيَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَعَقَائِدِهِمُ الْخَاطِئَةِ. قَالَ فِي الْمُنْجِدِ: سَاءَ الْأَمْرُ فَلَانَا أَحْزَنُهُ، أَوْ فَعَلَ بِهِ مَا يَكْرَهُهُ (١) وَكَذَلِكَ يَصْنَعُ بِالْكَافِرِينَ.

وَ قِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ وَ لِكَلِمَةِ «تَدْعُونَ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعْنِيَانِ:

الأول: الادعاء بمعنى الزعم و التأكيد، أي تتحدثون بشأنه مما لم يكن في قلوبكم، قال ابن عباس: أي تدعون الأباطيل به، و لا ريب أن الكافرون حينما كانوا يستعجلون وعد الله ما كان هدفهم البحث عن الحقيقة بل كان مجرد الإنكار و الجدل، و لعل في الآيه إشارة إلى حقيقه واقعيه و هي أن كثيرا من عقائد الكفار و مواقفهم الضالاه و هكذا أعمالهم السيئه كانت متأسسه على جحود الآخره (وعد الله)، فكأن إنكارها و سيله مزاعمهم و ادعاءاتهم.

الثاني: الادعاء بمعنى المبالغه في الدعاء، حيث يقال لهم من قبل الله أن هذه الساعه هي الوعد الذي كنتم تكفرون به، و تطالبون مستعجلين وقوعه. مما يكشف عن مدى جحودهم و استبعادهم للساعه.

و هذا القيل و أمثاله عذاب نفسى إلى جانب العذاب المادى، و قد يكون أشد أثرا منه، لما ينطوى عليه من الاستهزاء و التبكيت و إثارة للحسره في نفوسهم.

[٢٨] و بعد حديث الآخره بأمر الله رسوله أن يبين للكافرين خاصه و للناس

ص: ١٨٠

(١ - ١) المنجد ماده ساء.

عامه مجموعه من البصائر ذات الأثر المهم فى إيمان الإنسان و واقعه فى الحياه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَ مَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا وَ لَلْهَلَاكِ فِى الْقُرْآنِ مَعْنَانِ: أحدهما: الموت و الفناء، قال تعالى: وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بَالْبَيْتَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَكُمْ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا (١) أى حتى إذا مات، و الآخر: الموت بالعذاب و الدمار، قال تعالى: وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى إِلَّا وَ أَهْلِهَا ظَالِمُونَ (٢) و تهدينا هذه الآيه إلى الحقائق التاليه:

١- أن الكفار عاده، ما يتهربون من مسئوليه الحقائق الإلهيه بتحويل قضيه الرساله إلى صراع شخصى بينهم و بين الرسول، و كأن الرساله قضيه تهم النبى لذاته و أنه يبحث عن مصلحته الذاتيه لذلك فهو يخوض الصراع مع الذين لا يؤمنون بها. و هذه الآيه تبين سفه هذا الرأى و تذكر بأن الرساله فى البدء قضيه بين الإنسان و ربه و ما الرسول إلا واسطه بينهما، و عبد من عباد الله إن شاء أهلكه و إن شاء رحمه، و قد حذر النبى شعيب-عليه السلام-قومه من الدخول فى هذا النفق فقال: يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٣).

٢- و تحذر الآيه من الفهم الخاطئ للشفاعه سواء الأولياء أو شفاعه الشركاء المزعومين، بزعم أنهم قادرون على منع الله عما يشاء أو التأثير على قراره، الأمر الذى يدعو الإنسان إلى الاسترسال فى الانحراف و اللامسئوليه. و ذلك بيان أن لله

ص: ١٨١

١- (١) غافر ٣٤.

٢- (٢) القصص ٥٩.

٣- (٣) هود ٨٩.

وحده فيما يريد، فهو بيده أن يهلك الرسول و يعذبه أو يرحمه لو شاء. وهكذا تنسف الآية الأفكار الضالة في الشفاعة، حيث يقول النبي محمد-صلى الله عليه وآله- وهو أقرب الخلق إلى الله و أعظمهم عنده و هو الموعود بالشفاعة أنه لا- يملك من الله شيئاً، فكيف بمن هو دونه من الأولياء الصالحين؟ و كيف بالشركاء الموهومين؟! فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ فالكافر إذن معذب لا محاله لأن الشفاعة و الشركاء الموهومين لا يملكون له من الله شيئاً.

قال البعض: إنها تربط إجارة الكافرين من عذاب أليم ببقاء الرسول هادياً و مبشراً و نذيراً (1) و يبدو أن ذلك مستوحى من قوله سبحانه: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

[٢٩] و بعد التخويف و التحذير يفتح القرآن على القلوب باب الرجاء بذكر اسم الرحمن حتى لا تصاب باليأس و القنوط.

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَدًا بِهِ و يبدو أن في الآية إشارة لطيفة إلى أن الله لا- يهلك الرسول-صلى الله عليه وآله- من معه إنما يرحمهم، لأنه الرحمن و قد آمنوا به و أطاعوه بالتوكل عليه وحده.

وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا

ص: ١٨٢



و لا يخيب من توكل على الرحمن، فإنه سيكون حسبه، يفيض عليه من بر كاته و رحماته، و يجيره من العذاب و الهلاك. أمّا الكفار و المشركون فقد ضلّوا ضلالاً مبيناً حينما كفروا برّبهم و بالآخره، و اعتقدوا بالأنداد المزعومين و اعتمدوا عليهم، و إذا كانوا يجهلون مدى ضلالتهم، أو استطاعوا أن يخفوها عن الآخرين، فإنّ الحقيقه ستظهر جليه فى المستقبل، و سيفتضحون أمام الناس عند الجزاء، بالرغم من أنّهم يتهمون المؤمنين و القيادة الرساليه بالانحراف و يحاولون أن يقنعوا الرأى العام بذلك.

فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [٣٠] أو يختم السياق سوره الملك مثيراً الخشيّه من الله بما يؤكد أنّه وحده الذى بيده الملك و أنّه على كلّ شىء قدير و أنّه الرحمن، و يحذّر بأنّه قادر على الذهاب بمائهم الذى تركز عليه الحياه، فلا أحد حينئذ يقدر على أن يأتهم بماء. أ ترى لو جعل الله الماء أجاجاً من الأساس بحيث لا يصلح للشرب و الزراعه، أو لا يمكن تفكيك أجزائه و تحليلته، أو قرّب موقع الشمس حتى تبخّرت المياه جميعاً، هل استمرت الحياه عليها، و من أين كانوا يأتون بالماء؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا و الغور: القعر و العمق من كل شىء، و غار الماء: ذهب فى أعماق الأرض و اختفى فلا تصل إليه يد الناس. و إنّ وقع هذا الإنذار فى الوسط الذى تنزلت فيه يومئذ (شبه الجزيره العربيه) حيث يعزّ الماء، و فى تلك العهود حيث الإنسان لم يكتشف بعد وسائل التنقيب عن الماء و حفر الآبار العميقه، لا شك أنّه كان عظيماً، و لا يزال و لن يزال كذلك عند أولى الألباب من المؤمنين الذين يعرفون ربهم و قدرته المطلقه، فهم يخشونه دائماً و يخافون سطواته، و يدركون الإجابة على

قوله تعالى:

فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ أَنَّهُا النَفْيُ الْقَاطِعُ الشَّامِلُ الْأَبَدِيُّ: لَا أَحَدٌ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ لِأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الرَّحْمَنُ وَالْمَالِكُ وَالْقَادِرُ الَّذِي لَا يَغْلِبُ. وَقَدْ قَالَ الْمَفْسُرُونَ فِي مَعْنَى «مَعِينٍ» أَنَّهُ الْمَاءُ الَّذِي مِنْ كَثْرَتِهِ يَظْهَرُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَيُرَى بِالْعَيْنِ، فَهُوَ مَعِينٌ، خِلَافًا لِلغَائِرِ الَّذِي شَجَّ وَخْتَفَى، وَقِيلَ: هُوَ الْمَاءُ الْجَارِي مِنَ الْعْيُونِ.

وقد أعطى أئمة الهدى -عليهم السلام- بعدا عميقا للآية بتأويلها في إمام الحق، بأنه الماء بما يحمله من رساله الله و الهدى للناس، أو ليس الماء عصب الحياه و عمادها؟ كذلك الإمام، لأنه يحيى أتباعه ببصائر الوحي و بالهدى إلى الحق في حياتهم. أو ليس الكفر و الضلال موتا؟

قال الإمام الصادق -عليه السلام-: «هذه نزلت في الإمام القائم، يقول:

إن أصبح إمامكم غائبا عنكم لا- تدرون أين هو فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم بأخبار السماوات و الأرض، و حلال الله و حرامه؟» (١)، و

قال الإمام موسى الكاظم -عليه السلام-: «إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فما ذا تصنعون؟» (٢).

ص: ١٨٤

١- ١) نور الثقلين ج ٥ ص ٣٨٧.

٢- ٢) المصدر.

سوره القلم

اشاره

ص: ۱۸۵



## فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام- قال: «من قرأ سوره ن و القلم فى فريضة أو نافله آمنه الله عزّ و  
جلّ من أن يصيبه فقر أبداً، و أعاده الله إذا مات من ضمّه القبر» نور الثقلين /ج ٥ ص ٣٨٧.

يبلغ الصراع بين الرسالات الإلهية و الجاهلية أوجه في قياده، و استقامه النبي و أتباعه تحسم الموقف لصالح الوحي. من هنا جاءت فاتحه السوره في عظمه الرساله و الرسول، و انعطفت سريعا نحو رفض القيادات الجاهليه، و بالذات تلك التي تقوم بقيمه الثروه، و تبين الآيات الستة عشر الأولى مفارقات القيادتين، فبينما الرسول مقام نعم الله، و له عنده أجر لا ينقطع، و هو على خلق عظيم، و تتجلى آيات حكمته على كل أفق، ترى القيادات الجاهليه تتشكّل من كلّ دجال حلاف مهين، يستهزأ بالناس يفرّق بينهم، و هو مناع للخير معتد أثيم.. قد أغلق منافذ قلبه دون أيّ شعاع من نور الحق، فإذا تليت عليه آيات الله قال إنّها أساطير الأولين.

و لا بد أن يبقى التمايز بين الفريقين قائما أبدا، فلا يجوز أن يداهن الرساليون مثل هذه السلطات الفاسده التي تستعد لتقديم بعض التنازل من أجل هذه المداهنه.

و يمضى السياق فى قصه أصحاب الحقل الذين منعوا المساكين حقّهم فأهلك الله زرعهم، لعلّها تكون عبره لأصحاب الثروه فلا يطغون بها، و لكى يعلموا أنّ هذا

العذاب إشاره إلى العذاب الأكبر في الآخرة.

و في الآيات ٤١/٣٤ يبيّن السياق عمق الفجوه بين المتقين و المجرمين، و ينسف أساس تفكير المبطلين بأنهم شرع سواء مع المتقين، لأنّ العقل يرفض ذلك، و لا- حجه لهم بذلك لا- من كتاب مدروس و لا- عهد من الله، و لا- كفيل و لا شركاء، و يحذّره الله من يوم القيامة الذي لا- ينفع فيه عمل أو ندم، و يبيّن أنّ أموالهم قد تكون لعنه عليهم، لأنّ الله يستدرجهم بها، و يملئ لهم بكيده المتين.

و إنّ بعضهم يخشى من أجر يعطيه إزاء رساله، كلاً.. بل رساله تنفعهم في دنياهم.. و ينهى السياق هذا الحديث بأنهم لا يعلمون الغيب فكيف يتشبّهون بأفكارهم؟ و ينعطف نحو الرسول و كل رسالي يتبعه أن يصبر (حتى يحكم الله)، و لا- يكون كصاحب الحوت الذي استعجل في الدعاء على قومه، فلو لا أنّ نعمه من الله تداركته لكان ينبذ بالعراء (بعد التقام الحوت له) و هو مذموم، و لكنّ الله اجتباه بنعمته فجعله من الصالحين.

و تختم السوره بأنّ الذين كفروا يكادون يزلقون الرسول بأبصارهم التي يتطير منها شرر البغض و الحسد و ذلك حينما يسمعون الذكر، و يتهمون الرسول بالجنون خشيه تأثرهم به و من شدة عداوتهم له، بينما هو ذكر للعالمين يذكّرهم بالله و اليوم الآخر، و لو اتبعوه لكان شرفاً لهم و مجداً.

و بهذا تنتهي سوره القلم التي فصلت بين خطي العلم و الجهل على صعيد الفكر و في صميم الحياه حقا.





## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تَطْعُ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عَتَلٌ بَعِيدٌ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَشْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ أُعِدُّوا عَلَىٰ حَزْنِكُمْ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَىٰ حَزْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَيْطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبُحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْأَخْرَجَهُ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)

## اللغة

٦[المفتون]:المبتلى بتخييل الرأى، كالمجنون.

٩[تدهن]:أى تجامل الكفار و تلين لهم، فكأنَّ المجامل يستعمل الدهن ليتلائم مع الطرف المقابل كما يستعمل الدهن لتلائم الشئيين الخشنيين حتى لا يصطدما و لا يصطكًا بعنف.

١١[هَمَّاز]:أى كثير الهمز للناس،و الهمز هو الطعن فى الغير بشده،و فى مفردات الراغب:الهمز كالعصر يقال همزت الشىء فى كَفَى،و همز الإنسان اغتيا به.

[مَشَاء بنميم]:كثير المشى بين الناس بالنميمه.

١٣[عتل]:العتلّ الجافى الغليظ.

[زَنِيم]:الزَنِيم الدعى الملتصق بالقوم و ليس منهم،و أصله الزنمه و هى الهَيَّه المتدلّيه تحت حلق الجدى.

١٦[سنسمه]:سنعلمه بعلامه يعرف بها أنّه مجرم.

١٧[أصحاب الجنة]:أصحاب البستان الذى كان قرب صنعاء.

[ليصر مَنّها]:أى يقطعون ثمرها من الصرم بمعنى القطع.

ص:١٩٢

٢٠] كالصريم]: أى كالمقطوع ثماره، أو كالليل المظلم.

٢٥] حرد]: بمعنى المنع، يقال: حاردت السنه، إذا منعت قطرها.

ص: ١٩٣

هدى من الآيات:

بالأدله الدامغه يفنّد السياق تهمة المكذبين، ثم يحذّر النبي -صلى الله عليه وآله- من خلاله كلّ قائد مؤمن من التأثر بقوى الضغط، سواء الظاهره منها التى تكذّبه جهرا أو المنافقه التى لا يهّمها سوى مصلحتها الشخصيه.

ثم يفضح القرآن فنه المنافقين ببيان صفاتهم السيئه، كالمبالغه فى الحلف، و المشى بالنميمة، و منع الخير عن الآخرين، و إذ يولى الوحي هذا الاهتمام بفضحها بالتركيز على بيان صفاتهم تفصيليًا فلاّتها الأبلغ أثرا على المؤمنين بحكم سرّيتها، و تؤكّد الآية (١٤) على حقيقه أساسيه و هى أنّ جذر تلك الصفات السيئه يكمن فى الافتتان بالمال و الأتباع، محذّرا المسلمين من مغبته الفتنه بالثروه و الأولاد.

ثم يعطف السياق نحو قصه أصحاب الجنه مثلاّ سيئا لأولئك الذين افتتنوا بزينه الحياه الدنيا، إذ استكبروا على الحق، و تعالوا على المساكين، إلّا أنّهم

اكتشفوا خطأهم فتابوا إلى ربهم قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ بل قالوا:

إننا تجاوزنا الحدّ فطغينا. و إننا نجد في هذه القصة دعوته للمترفين إلى التوبة و الحذر من مغبه الافتتان بزينة الدنيا لأن ذلك ينتهي إلى عذاب الدارين.

### بينات من الآيات:

[١] اختلفت أقوال المفسرين في معنى «ن» فقائل أنها الحوت لقوله تعالى في هذه السوره: **وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ** وقوله: **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا (١)**، و قائل أنها اللوح المحفوظ الذي كتبت فيه الأقدار الإلهيه، و روى ذلك مرفوعا إلى النبي، حيث ذكر أنه لوح من نور، و استدلوا من الآية على هذا الرأي بذكر القلم، و قيل: هي الدوات التي منها يأخذ القلم مداده، و في الدر المنثور و التفسير الكبير أنها إشاره لاسم الرحمن باعتبارها من حروفه، و قيل: هي من أسماء رسول الله -صلى الله عليه و آله-.

و

قد سئل الإمام الصادق -عليه السلام- عن «ن» ما هي؟ فقال: ...

و أمّا «ن» فكان نهرًا في الجنة، أشد بياضًا من الثلج، و أحلى من العسل، قال الله تعالى عزّ و جلّ له: **كُنْ مَدَادًا، فَكَانَ مَدَادًا (٢)**، و الذي أعتقده بالإضافة إلى ما سبق و أن بينا في شأن الحروف القرآنيه المقطّعه أنّ تفسير «ن» يتسع لبعض ما ذهب إليه المفسرون، و لكن يبقى علمه عند الله و الراسخين فيه لما علمهم إياه من المعاني و التأويلات.

و اختلف في القلم ما هو؟ فقالوا: إنه القلم الذي يكتب أقدار الله في اللوح المحفوظ،

قال الإمام الصادق -عليه السلام- (يعنى الله): ثم أخذ شجره

ص: ١٩٥

(١ - ١) الأنبياء ٨٧.

(٢ - ٢) نور الثقلين / ج ٥ ص ٣٨٨.

فغرسها بيده، ثم قال: و اليد القوه و ليس بحيث تذهب إليه المشبّهه، ثم قال لها:

كونى قلمًا، ثم قال له: اكتب، فقال له: يا ربّ و ما أكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة، ففعل ذلك (١)، و

فى حديث آخر قال لسفيان الثورى: «فنون ملك يؤدى إلى القلم و هو ملك، و القلم يؤدى إلى اللوح و هو ملك، و اللوح يؤدى إلى إسرافيل، و إسرافيل يؤدى إلى ميكائيل، و ميكائيل يؤدى إلى جبرئيل، و جبرئيل يؤدى إلى الأنبياء و الرسل صلوات الله عليهم» (٢).

و يبدو لى أنّ معنى القلم يتسع لمصداقها المعروف عند الإنسان، باعتبار القلم وسيله لنقل العلم و تثبيته بالكتابه، و العلم قيمه اعتمدها الوحى، فيكون القسم بالقلم كوسيله للعلم كاشفا عن عظمته لأنّه يرفعه إلى مرتبه سائر الحقائق التى أقسم الله بها فى القرآن، و إذا كان الإنسان يستمد قوه لحديثه بالقسم و المقسم به فإنّ كلام ربنا يعطى ما يحلف به قيمه و شأنًا، فنحن إذن نعرف عظمه القلم لأن ربنا أقسم به.

و هكذا نستوحى من هذا القسم دور القلم فى منح المؤمنين الكرامه و العزه و فتح آفاق العلم، و أنّ علينا أن نملك ناصيه القلم إذا أردنا امتلاك ناصيه الحياه، و قد قال ربنا سبحانه: عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٣) و يدل على ذلك القسم بما يسطر القلم (و هو العلم).

ن وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ قالوا: يعنى الملائكه الذين يكتبون بالقلم أقدار الله فى اللوح، أى قسما باليراع

ص: ١٩٤

١- ١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٣٨٨.

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) العلق ٤/٥.

و بما يكتبه سطرًا بعد سطرًا، أو بما يسطره من العلوم الحقّه، فإنّ العلم هو الآخر عظيم و حرّى أن يقسم به، و هكذا يأتي قسم القرآن بالقلم و العلم تمهيدا لتفنيد تهمة الكهانه و السحر و الشعر من رساله الله. و ليعلم الناس أنّ العقل و الوحي صنوان، و أنّ الرساله و العلم كجناحي طائر تحلّق به الإنسانيه عاليا، و أنّ ما يتقوله أدعياء الدين بأنّ العلم ليس منه هراء، و ما يزعمه أدعياء العلم بأنّه يتنافى مع الدين ضلال بعيد..فها هو الكتاب يشيد بالعلم و بما يكتب به.

و نستوحى من كلّ ذلك أنّ موقع القلم هو خدمه الدين و العلم لا تضليل الناس أو استعبادهم، و لا يكون ذلك إلا إذا تسلّح به المؤمنون و بادروا للانتفاع به قبل الجبارين و مرتزقتهم السفله.

[٢] و يربط الوحي بين حقيقه العلم الذى يسطره القلم و حقيقه الرساله، و قد ظهرت هذه الصله مره أخرى فى سوره العلق عند قوله تعالى: **اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ\* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ\* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (١)** فما هى العلاقه بين الأمرين؟ إنّ هذا الربط يكشف بصيره مهمه و هى علاقه العلم بالإيمان، و بتعبير آخر علاقه العقل بالوحي، ذلك أنّ العقل هو الذى يذكّرنا بالوحي و يهدينا إليه، كما أنّ الوحي هو الذى يستثير العقل و يستخرج كوامنه و يوجه مسيرته نحو الحق. و إنّ من يتعلّم و يقرأ تجارب العقل البشرى عبر التاريخ لا ريب يهتدى إلى أنّ الرساله الإلهيه ليست جنونا، و لا إلقاءات الشيطان، و لا أساطير الأوّلين، و أنّها لا يمكن أن تنزل إلا من ربّ العالمين، لو أنصف الحق من نفسه و قصد سواء السبيل. إلا أنّ المكذبين يكيلون التهم الباطله التى يرفضها كل عاقل ليبروا رفضهم للحقيقه، و تهربهم من المسؤوليه التى تفرضها. ثم هل اكتفوا بذلك؟ كلا..لقد حاولوا

ص: ١٩٧

التأثير على الرسول ليداهنهم فى بعض قيم الرساله بما يحفظ مصالحهم و يحولها إلى طائفه من الطقوس الخفيفه الفارغه عن قيم الحق و التقوى و العدل و الاجتهاد، فقالوا له ما قاله الطغاه لكلّ مصلح و داعيه حق عبر التاريخ. قالوا: إنك لمجنون. لماذا؟ لأنّ القيم التى تؤمن بها و تسعى لنشرها تنافى و قيم النخبه المستكبره التى تتحكم بمصائر الناس، ثم جندوا لنشر هذه الدعايات إمكانياتهم الماديه و المعنويه، و هكذا استهدفوا هزيمه المصلحين نفسياً لعلهم يتنازلون عن بعض قيمهم.

و أمام الهجمه التى يشنّها أولئك المضللون ضد الرسول و الرساله يقف الوحي مسددا للرسول-صلى الله عليه و آله- و لكل الرسالين عبر التاريخ و مدافعا عن قيم الحق حيث يؤكد القرآن أنّ ما يزعمونه ما هو إلاّ كذب و افتراء، و ذلك بالتذكّره بالبصائر التالیه:

أولاً: إنّ الرساله التى يحملها الرسول و يدعو إليها نعمه إلهيه لا يدانيها جنون، لأنّها حيث يدرسها الإنسان و يتدبر معانيها يجدها قّمه العقل، بل هى متقدمه بخطوات كثيره على مسيره العقل البشرى لأنّها من عند ربّ العقول.

﴿أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ لَأَنَّ الْمَجْنُونِ هُوَ الَّذِي سَلَبَ اللَّهُ عَقْلَهُ، بَيْنَمَا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ بِالْوَحْيِ الَّذِي يَكْمَلُ الْعَقْلَ، وَ كَيْفَ يَكُونُ مَنْ يَحْمِلُ لِلْبَشَرِيَّةِ نَوْرَ الْحِكْمَةِ وَ الْعِلْمِ وَ الْبَصِيرَةِ مَجْنُونًا؟! إِنَّ الرِّسَالَهَ الَّتِي تَنْظُمُ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ الشَّخْصِيَّةِ وَ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَ السِّيَاسِيَّةِ وَ.. وَ.. وَ تَنْطَوِي عَلَى أَسْرَارِ الْوُجُودِ، وَ تَكْشِفُ لِلْبَشَرِيَّةِ السَّنَنَ الْإِلَهِيَّةَ، وَ الْأَقْدَارَ الَّتِي تَسِيرُ الْخَلِيقَةَ، وَ مَا أَمَرَ الْخَالِقُ بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَ مَا نَهَى عَنْهُ مِنْ ضَرٍّ وَ سُوءٍ



و شر! بل و تتجاوز هذه الحياه إلى المستقبل الأبدى البعيد لتحدثنا عن العالم الآخر و ما فيه من حساب و جزاء، و تبين تفاصيل دقيقه متناسبه و عقل الإنسان و أحاسيسه، فهل يمكن أن تكون هذه الرساله طيشا و من يحملها إلى الناس مجنوناً؟! و هل يتسنى لغير المجنون و المكابر أن يتجاهل حقيقه الرساله التي هي نعمه و نور و يزعم بأنها جنون و نقمه و ظلام؟! و لعلنا نستشف من قوله سبحانه «أنت» بأنّ الذي لا يكتشف الفرق بينهما لهو المجنون حقاً و ليس أنت يا رسول الله.

و عند التأمل في قوله الله: «بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» نهتدى إلى فكرتين: الأولى: أنّ عظمه النبي -صلى الله عليه و آله- ليست بذاته فهو بشر كسائر الناس، و إنما عظمته برساله ربه (نعمه الله عليه)، و قد قدّم ربنا السبب (نعمته) ربما لبيان أنه ليس هناك سبب آخر غير الرساله استمد منه النبي عظمته و بلوغه كمال العقل، و الثانيه: أنّ إضافه النعمه إلى الله سبحانه ينفي نفيًا شديدًا مزاعم الكفار بأنّه قد تلقى الوحي من الجن فَقَدْ جَاؤُ ظُلْمًا وَ زُورًا (١).

[٣] ثانياً: إنّ النتائج و المعطيات العظيمة التي وصل إليها الرسول في الدنيا و التي ستكون له في الآخرة أظهرت بجلاء أنّ الرساله وحي، و أنّ النبي أعظم الخلقه، و أنّ جهلهم هو الذي جعلهم لا يفترقون بين العظمه و الجنون، و لا بين رساله الغيب و أساطير الأولين. كيف ذلك؟ إنّ الكفار و المشركين كانوا يعدّون الرسول -صلى الله عليه و آله- مجنوناً لأنه ينشد التغيير الحضارى الجذرى و الشامل ليس لمجتمع شبه الجزيره العربيه فقط بل للبشرية كلّها، فيؤخّذ المجتمع المتمزق بالتناحر، و المختلف بالأديان، و يرقى به

ص: ١٩٩

إلى قَمَه التقدّم الحضارى السامقه، و ينتصر على أعدائه الأقوياء و الكثيرين و هو اليتيم العائل.. و ما إلى ذلك من الأهداف العظيمة. كانوا يعدّونه مجنوناً لأنّه يطلب المستحيل الذى لا يخطر ببال بشر و لا خياله، و لكنّ القرآن جاء و نسف هذه المزاعم مؤكّداً بأنّ النبى يبلغ ما يريد بإذن الله، كما قال فى سورة الضحى: **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿١﴾** و كما يقول فى هذه السوره:

وَ إِنَّ لَمَكَّ لَمَاجراً غَيْرَ مَمْنُونٍ أَى غير مقطوع، فهو أجر متواصل يزداد مع الزمن، و ما توسّع الأمّه التى بناها -صلىّ الله عليه و آله و سلّم- إلاّ- جزء من ذلك الأجر و دليلاً- عليه، فكيف و فى الآخره ما هو أعظم إذ يعطى من قبل الله الوسيله و الشفاعة و أعلى درجات الجنه و الثواب؟ إنّ بلوغ الرسول -صلىّ الله عليه و آله- أهدافه التى تراءت لهم بأنّها مستحيله أوضح دليل على عقلانيته و سلامه رسالته التى حقّقت أهدافه باتباعها، لأنّ وصول الإنسان إلى أهدافه يحتاج إلى معرفه بسنن الحياه و قوانينها.

و كلمه أخيره نقولها فى الآيه هى: أنّ تأكيد الله للنبى و كلّ رسالى يتبعه بأنّ له أجراً غير ممنون يصنع فى الإنسان المؤمن روح التعالى على إغراءات الدنيا التى يقدّمها الأعداء و التى قد يثنى الافتتان بها الرساليين عن أهدافهم الربّانيه فيداهنون فيها.

[٤] ثالثاً: و آيه أخرى لعظمه الرسول -صلىّ الله عليه و آله- أخلاقه العظيمة التى فاق بها عظماء البشريه و هم النبيون و الصديقون مما يكشف مدى كمال عقله و عظيم حلمه و واسع علمه و نفاذ بصيرته.

ص: ٢٠٠

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ و كفى بعظمه أخلاقه أن يصفه ربّ العالمين بالعظمه، و كيف لا يكون كذلك و قد أدبه الله حتى

قال-صلى الله عليه و آله:- «لقد أدبني الله فأحسن تأديبي» و

قال الإمام الصادق-عليه السلام:- إن الله عزّ و جلّ أدب نبيه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب قال: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»  
(١).

و من تأكيد الله أنّ الرسول «على» خلق عظيم يتبين أنّه -صلى الله عليه و آله- ما كان يتكلّف الأخلاق، و لا كانت عرضيه تأتي و تزول، بل هي سجايا و ملكات اختلطت بكيانه فلا تفارقه و لا يفارقها، و ذلك من أفضل ما يصير إليه بشر في الأخلاق. و إنّما بلغ النبي تلك العظمه و المكانه الرفيعه لأنّه جسّد الدين في حياته،

قال الإمام الباقر-عليه السلام- في قول الله: «الآيه»:

«هو الإسلام» (٢)، و قال: «على دين عظيم» (٣)، إذن فالطريق إلى العظمه موجود في القرآن، و من أرادها فإنّها ثمره تطبيقه.

و حيث ندرس حياه حبيب الله-صلى الله عليه و آله- فإننا نهتدى إلى أنّ من أعظم أخلاقه و ما يمكن لإنسان أن يبلغه هو سعه الصدر، التي كانت آلته للرئاسه بعد الإسلام، و وسيلته التي استوعب بها الناس في الدين، و ملك قلوبهم.. و فيهم العدو الحاقد، و الجلف الصلف، و الكافر الجاهل، و المشرك الضال و.. و.. و إنّها لأهمّ ما يحتاجه المصلحون من الأخلاق، و لذلك مدحه ربّ العالمين بها و ثبت ذكرها بالذات في كتابه من دون سائر الأخلاق فقال:

ص: ٢٠١

١- ١) نور الثقلين/ ج ٥ ص ٣٨٩.

٢- ٢) المصدر/ ص ٣٩١.

٣- ٣) المصدر/ ص ٣٩٢.

وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (١)، و

روى البرقي عن أحد الأئمة-عليه السلام:-

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَدَبٌ نَبِيَّهُ فَأَحْسَنُ تَأْدِيئِهِ، فَقَالَ: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ «إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٢)، وهذه بعض أخلاقه-صلى الله عليه وآله:-

«كان رسول الله حييا لا يسأل شيئا إلا أعطاه» (٣)، و

كان يقول لأصحابه: «لا يبلغني أحد منكم عن أصحابي شيئا، فإنني أحب أن أخرج إليكم و أنا سليم الصدر» (٤)، و

«كان أجود الناس كفاً، وأكرمهم عشرة، من خالطه فعرفه أحبه» (٥)،

«و كانت له إذا شرب الماء ثلاثون سنة، وليس من خلق حسن إلا و كان الأسوه فيه -صلى الله عليه وآله-» (٦) «بحيث اعترف له بذلك العدو و الصديق، و المسلم و غيره» (٧).

[٥] رابعاً: و يبقى المستقبل دليلاً- فصلاً يكشف عن الحقيقه للجميع، و هنالك يتبين العاقل و المجنون، فهل هو أبو لهب و أعداء الرساله الذين خلدوا باللعنه، أم الرسول-صلى الله عليه وآله- و أتباعه الصادقون؟ فَسْتَبَيِّرْ وَيُصَيِّرْ وَ بَاعْتَبِرْ كُلَّ الْمَقَائِسِ الماديه و المعنويه عند ما يأتي المستقبل بالحقيقه.

ص: ٢٠٢

١- (١) آل عمران ١٥٩.

٢- (٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٣٨٩ نقلاً عن بصائر الدرجات.

٣- (٣) موسوعه بحار الأنوار/ج ١٦ ص ١٣٠.

٤- (٤) المصدر.

٥- (٥) المصدر.

٦- (٦) راجع المصدر من/ص ١٩٤ الى ص ٢٩٤.

٧- (٧) راجع كتاب المائه الأوائل للدكتور مايكل هارت.

[٦] بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ أى المجنون (١)، لأنّ افتتان الإنسان بأى شىء دليل اتباعه لغير العقل، فإنّ العاقل لا ينهزم فى الابتلاءات و عند الفتن، إنّما يتجاوزها و ينتصر عليها. و هو المضلل المصدود عن الحق (٢). فالمعنى أنّكم ستبصرون فى المستقبل بمن هو مجنون و من هو عاقل، أو تكون الباء بمعنى فى فىكون المفهوم أنّكم سوف ترون فى أيكم سكن الشيطان (المفتون عن الحق) فأعماه عن رؤيته، و فتنه مثله عنه. و بالتالى سيظهر الطرف المحق الذى يتلقى الهدى من ربه و هو الرسول، و أنّ الرساله ليست من إلقاءات الشيطان كما يزعم الجاهليون، بل مواقفهم المعاديه لها و للنبي و بهتانهم العظيم. و يبدو لى أنّ الباء هنا ضروريه و ليس كما قال بعض المفسرين أنّها زائده، و ذلك لأنّ الجنون حقيقه معنويه لا يمكن أن يبصرها الإنسان بذاتها، و إنّما يبصرها من خلال الدلالات و العلائم الموحيه بوجوده، فهو يبصر بالواسطه، و لعلّه لذلك جاءت الباء فى الكلمه «بأيكم» كما جاءت فى قوله تعالى: وَ شَجَرَهُ تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَ صِيغَ لِلآكِلِينَ (٣) لأنّ الشجره لا تثمر دهنًا و أنّما تثمر ثمره فيها الدهن.

و نستوحى من الآيه أنّ المنهج السليم لتقييم الأمور معرفه عواقبها، لأنّ الإنسان فى بادئ الأمر و مع المتغيرات قد يدخله الريب و التردد فى استصدار حكمه الأخير على الأمور، و لكنّها حينما تستقر فى مستقبل الزمن يرى بوضوح تام الموقف الواقعى الحق منها.

ص: ٢٠٣

١- (١) المنجد ماده فتن.

٢- (٢) المصدر.

٣- (٣) المؤمنون ٢٠.

إذ الإحباطات الآنيه التي يواجهها المؤمنون في مسيرتهم و انطلاقا من هذه البصيره لا ينبغي أن تبث فيهم اليأس أو التشكيك في صحه خطهم و سلامه قيادتهم، فإنّ المستقبل مهما طال الزمان و رغم الظواهر السلبيه في صالحهم و في صالح رسالتهم، لأنهم يتبعون الحق.

[٧] و مع أنّ هذه من القواعد الأساسيه التي يجب على الرساليين اعتمادها في تحركهم، إلاّ أنّهم يستمدون مناعتهم بالحق، و إيمانهم بسلامه الخط من الإيمان بالله، فليس المهم عندهم أن يكونوا في نظر الآخرين أصحاب حق، أو أن يكشف لهم واقع الدنيا عن هذه القضيه، إنّما الأهم أن يكونوا عند الله من المهتمدين، ذلك أنّهم لا ينفعم ثناء أحد إذا كانوا عند الله من الضالين، كما لا يضرهم شيء لو كانوا عنده من أهل الهدايه. و إنّ الرساليين إذا ما تمسكوا بهذا الأصل فلن يتأثروا بالضغط أو الاعلام المضاد، و لن ينال أحد من قناعتهم قيد شعره.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَ السُّؤال: كيف يكتشف الإنسان واقع انتمائه هل هو إلى فريق الضالين أم إلى فريق المهتمدين؟ و بتعبير آخر: كيف يصل المؤمنون إلى القناعه التامه و الراسخه بأنهم أهل الحق؟ و الجواب على ذلك: إنّ لله في هذه الحياه سبيلا واحدا هو الصراط المستقيم (الحق) الذي يتجسد في رساله الله و في القياده الرساليه و خطها السليم، فمن اتبع رسالته و دينه، و سلّم لقياده الحق (الرسول و أئمه الهدى الذين يمثلون امتدادا حقيقيا لهم عبر التاريخ) و انتمى لخطهم، فهو من المهتمدين، و إلاّ فهو من الضالين.

و نهتدى من الآيه الكريمه إلى أنّ هناك علمين هما: علم الإنسان عبر عقله،

العقل الذى يتجلى فى المستقبل، و علم الله الذى يكشفه الوحي، و أنّ الإنسان قد يعجز عن تمييز الأشياء بعقله، بينما علم الله يجعله له تماما.

[١٣-٨] و يمضى بنا السياق إلى محور أساسى فى السوره عند ما يبين الموقف السليم الذى يجب على القيادة الرساليه اتخاذه من قوى الضغط، التى تحاول التأثير على القائد و تجيير قراراته و مواقفه فى صالحها، بتطويعه لخدمه أغراضها من حيث يدرى أو لا يدرى، و عاده ما تكون تلك القوى من المترفين أصحاب المال و القدره الاجتماعيه أو السياسيه أو هما معا فى المجتمع.

و يتوجه الوحي بالنهى إلى القائد بالذات، لأنّ قوى المترفين المستكبره تسعى لإفساد المجتمع و نظامه السياسى، من خلال إفساد جهازه الدينى و السيطرة عليه، لأنّ السيطرة عليه تجعلهم أسرع نفاذا فى المجتمع، كما توفرّ لفسادهم غطاء شرعيا.

و هم يتسللون إلى الجهاز الدينى و يؤثرون عليه بسلاح المال، حيث يجعلونه يعتمد على أموالهم التى يقدمونها خمسا و زكاه و تبرّعا أو هديه و رشوه. و إنّ هذه الحقيقه تظهر بوضوح حينما ندرس مسيره الجهاز الدينى عبر التاريخ و فى كلّ المذاهب و الأديان تقريبا، فالقوى المترفه هى التى حوّلت الأحبار إلى جماعه يكتزون الذهب و الفضة و أداه طيّعه فى أيدي أصحاب المال و السلطه. كما أنّ التحليل المتأنّى لكثير من الصراعات التى كانت تدور بين القيادات الدينيه و المترفين يؤكّد بأنّ سببها يكمن فى رفض القيادات الدينيه لهم و لسيطرتهم على الناس، فهذا السامرى و من حوله بعض أصحاب المال فى مجتمع بنى إسرائيل يبغون على موسى -عليه السلام- لأنّه وقف ضد مطامعهم و محاولاتهم الخبيثه فى تطويع الدين لصالح شهواتهم و أهوائهم.

و موقف القرآن يبدو موقفا عنيفا و واضحا فى تحذير الرسول

-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- من المترفين، لأنَّ خطرهم عظيم و عاده ما يكون متسللاً، بعيداً عن التحديات و الضغوط المباشره الحادّه، فقد يظهر أحدهم لدى القوه الدينيه بمظهر التقوى و التأييد فإذا به يصارع الآخرين على الصفّ الأول من الجماعه، و يبذل الأموال التي تخدم الجهاز الدينى و مشاريعه فى المجتمع و لكن ليس لوجه الله و تقرباً منه، و لا عن قناعه بالقاده الدينين أبداً، بل لحاجه فى نفسه هى أن يستغلهم لمصالحه و أهوائه، اقتصاديه أو سياسيه أو اجتماعيه، بإعطائهم الخط السياسى و الاجتماعى الذى يناسبه من جهه، و باستخراج الفتاوى التي تخدم أغراضه من جهه ثانيه.

و تقسّم الآيات قوى الضغط المترفه إلى فريقين:

الفريق الأول: المكذّبون الذين لا يؤمنون بالرساله و لا بالرسول، كالطواغيت الذين يجاهرون بالتكذيب، و كالقوى المستكبره التي فى عصرنا هذا، فهم أشبه ما يكونون بالكفّار، و لا ريب أنّ لهؤلاء أطماعهم تجاه الأمه الإسلاميه، و بالتالى فهم يسعون للتأثير على قياده المجتمع الإسلامى الدينيه و تطويعها.

إنّهم- كما الفريق الثانى- لا يسعون فى البدء للقضاء على الجهاز الدينى إنّما يحاولون الإبقاء عليه ممسوخاً و مفرغاً من محتواه الرسالى، لكى يركبونه مطيه إلى مصالحهم.

فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ وَ يَفْضَحِ الْقُرْآنَ خَبْثَهُمُ الْمَثَلُ فِي خَطِّهِ الْمَسْخُ وَ الْإِفْرَاقُ الَّتِي يَتَّبَعُونَهَا، مَبِينًا أَنَّهُمْ يَسْعَوْنَ لِتَغْيِيرِ بَعْضِ الْقِيَمِ وَ مَوَاقِفِ الْقِيَادَةِ لِمَصَالِحِهِمْ بِمَقَابِضِهِ الدِّينِ الْحَقِّ بِأَمْوَالِهِمْ، وَ كَأَنَّ قَضِيَةَ الْحَقِّ كَالْتِجَارَةِ تَقْبَلُ الْبَيْعَ وَ الشَّرَاءَ. فيجب أن تكون القياده



الدينيه(لكى تفشل المترفين فى مرامهم)على مستوى رفيع من تقوى الله فلا تخدعها زخارف الدنيا عن الحق،و أيضا فى مستوى عال من الوعى السياسى و الحنكه الإداريه و الفطنه الاجتماعيه،و مستوى من الوعى يكشف مكرهم مهما كان خفيا و محكما،و لذلك جاءت النصوص الدينيه مؤكده على هذين الأمرين.

وَدُّوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ يبدو أنّ أصل معنى المداهنه جاء من وضع الدهن على الشىء لكى يلين جانبه و يكون مطواعا،و المعنى أنّهم يطمعون لو أنّك يا رسول الله تطيعهم فى التنازل عن بعض القيم الإلهيه و المواقف فيبادرون هم بالتنازل عن بعض مواقفهم منك و من رساله،كما فعل من قبل بعض أحبار اليهود و النصارى.

و ما أكثر ما تتعرض القيادات الرساليه لهذا اللون من الضغط الماكر،فما أحوجها لتقوى الله.و لا ريب أنّ أعظم مداهنه يسعى المترفون لإيقاع القيادات الدينيه فيها هى فصل الدين عن السياسه لكى يتسنّى لهم التلاعب بمقدرات الشعوب بصوره أفضل،و لكى تبقى سلطتهم فى مأمن من ثوره المجتمع،باعتبار أنّ ربط الدين بالسياسه يبعثه نحو الثوره للتحرر و التغيير.

و يتأثر الإنسان بالمداهنه عبر أحد عاملين:الأول:الافتتان بحطام الدنيا الذى يقدمه المترفون،و الثانى:تغيير قناعه القائد بالقيمه التى يداهن فيها فيتنازل عنها بحثا عمّا هو أفضل منها،و لذلك فإنّ المستكبرين يوظفون جانبا كبيرا من إمكاناتهم الإعلاميه لتحقيق هذا الهدف،بمحاربه قناعات الرساليين ليس فى المجتمع و حسب بل فى داخل أنفسهم أيضا،فمثلا تراهم يوحون عبر إعلامهم المضلل بأنّ المجاهدين الذين يسعون للإصلاح الشامل إرهابيون،و يضربون على هذا الوتر طويلا لعلهم يجدون تجاوبا عند بعض المجاهدين فيغيّروا من خططهم بما

لا يتنافى و مصالح المستكبرين! كما كانوا أيام رسول الله-صلى الله عليه و آله- حيث كانوا يسمونه مجنوناً لأنه أراد تغيير الواقع و الإنسان تغييراً جذرياً، طمعا في هزيمته نفسياً ثم تنازله عن ذلك الهدف العظيم.

و من الجدير ذكره هنا أنّ من أسباب تحريف الديانة المسيحية و اليهودية في التاريخ أنّ القيادة الدينيه تأثرت بعاملين: أحدهما الخوف من المترفين الجبارين، و الآخر الرغبه في استقطاب المزيد من الجماهير في ظلّ حمايه الدوله، ممّا دعاهم إلى المداهنه بحذف بعض القيم و الأحكام التي في الإنجيل و التوراه، و إدخال بعض الأفكار و الأحكام التي تتوافق مع أهواء الناس، و نسوا أنّ ما بقى لم يعد دين الله، بل دين الجبارين، و أنّهم بذلك أصبحوا خدما في بلاط السلاطين و ليسوا منقذين لعباد الله المحرومين! الفريق الثانى: المنافقون في المجتمع المسلم، الذين يتمسكون بقشور الدين، كالصلاه التي لا تنهى عن الفحشاء و المنكر، و الصوم الذي لا يورث تقوى و لا يعطى صاحبه إحساساً بالم الفقراء، و الإنفاق المحفوف بالرياء و حب السمعه، و هكذا الممارسات التي فرّغت من محتوياتها الإصلاحية، و هؤلاء لا يرب يكذبون بكثير من الحقائق الإلهيه كالجهاد، و حرمة الاستغلال، و يودّون لو تداهنهم القيادة الرساليه، و لكنّهم لا يجهرن بذلك. و ما يبدو من الآيات التي تبين صفاتهم أنّ أهمّ هدف يسعون لتحقيقه من تزلفهم للجهاز الدينى في الأمه أن يجعلوه مقمعا في أيديهم يضربون به الآخريين، كالمحرومين المستضعفين و المصلحين المغيّرين أفراداً و جماعات، و السبب أنّهم لا يريدون إلاّ مصلحتهم، كما أنّهم أول من يعارض الإصلاح و التغيير، ذلك أنّ وجود الأنظمه الفاسده و المنحرفه عن الحق عامل أساسى في استغلالهم للطبقه المحرومه و وصولهم إلى مآربهم الماديه. فما هي صفات هذا الفريق؟

١-المبالغه فى الحلف إلى حدّ الا-حتراف،من أجل إعطاء كلامهم قيمه شرعيه و من ثمّ التأثير به على موقف القيادة و رأيها،بالذات و أنّ للأيمان اعتبار عظيم عند المؤمنين،و لا- يعنى ذلك أنّ المترفين من هذا الفريق يقتصرون على مجرد الحلف،فهم يكذبون و ينمّون الكلام بشتى الوسائل،و ما الحلف إلّا واحدا منها،و على القائد أن يحذرهم.

و لا- تُطع كُلاًّ حَلّافٍ مَهِينٍ و يبدو أنّ كلمه «مهين» من الهوان و الضعه حيث أنّ الحلاف إنّما يلجأ إلى ذلك لكونه حقيرا فى نفسه و عند الناس،و انطلاقا من ذلك يحس على الدوام و يظنّ أنّ كلامه لن يعطى اعتبارا و قيمه عند الآخرين،الأمر الذى يلجؤه إلى المبالغه فى الأيمان ليصطنع قيمه لكلامه بها لعله يكون مقبولا.

و عاده ما يحاول الوضعاء الذين تمكّنت من أنفسهم عقده الحقاره أن يوصلوا أنفسهم بمراكز القوى فى المجتمع دينيه و سياسيه و اقتصاديه و اجتماعيه ليغطّوا على ضعّتهم و يجبروا نقصهم،و إنّك لو فتشت فى أجهزه القمع و التجسس الطاغوتيه فلن تجد إلّا أمثال هؤلاء.

٢-الهمز و المشى بالنميمة فى المجتمع،و بالخصوص عند القيادة،و ذلك لأهداف ثلاثه:

الأول:لكى يبقوا هم فى المجتمع الشخصيه الأفضل،فتجدهم يسقطون شخصيات و يضعفونها بتقليل قدرهم عند القيادة و تلصيق التهم ضدهم،و لقد ثبت فى علم النفس أنّ أصحاب عقده الهوان و الحقاره تنمو فيهم روح الانتقام من المجتمع،و يسعون لكى يكون مجتمعا ساقطا مثلهم فلا يحسبون شاذّين.

الثانى: فصل القيادة عن المجتمع حتى تظل أذنا صاغية لهم وحدهم فتكون قراراتها و مواقفها لصالحهم فقط، بل لا يريدون أحدا سواهم يتصل بمركز القوه فى الأمه، لتكون لهم اليد الطولى فيها. ولأنهم عادة ما يكونون من الطبقة المستكبره المترفه فإنه يهتمهم أن يوجدوا فاصله بين الأمه و بين القيادة لكى يبقى الناس فريسه لسياساتهم الاستغلاليه و المنحرفه دون علم من القيادة يدعوها للتدخل ضدهم.

الثالث: ضرب القوى الإصلاحية و المنافسه، فأتى ظهرت بوادر الإصلاح تصدوا لها، و سؤدوا الصفحات بالتقارير المضلله التى لا تحوى سوى الطعن و الكذب على الآخرين، و ملأوا بيت القيادة و أذنها بالشائعات المغرضه و بالتهمه و البهتان، و كل ذلك ليصير القائد مقمعا فى يدهم يضربون به يمينا و شمالا هذا العالم و ذلك الثائر و تلك الحركه الرساليه.

هَمْزٌ أَزْ قِيلَ: الهمّاز هو المغتاب، و فى المنجد: الطّعان العيّاب النّخّاس (١) و قال صاحب البرهان: لكن فى الصحاح همزه أى دفعه، و قوس همز أى شديده الدفع للسهم، و فى النهايه: كل شىء دفعته فقد همزته، و فى سوره المؤمنين: أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ أى وساوسهم و نخساتهم و غمزاتهم (٢) و أضاف مجمع البيان قائلا: و الأصل فيه الدفع بشده اعتماده، و منه الهمزه حرف من الحروف المعجمه فهى نبره تخرج من الصدر بشده اعتماده (٣)، و يبدو لى أنّ الهمّاز هو الذى يثير الناس و يستحثهم و يحركهم ضد الآخرين بالكلام أو الفعل، و آله الهمز حديده

ص: ٢١٠

١- (١) المنجد ماده همزه.

٢- (٢) تفسير البرهان/ ج ٤ ص ٣٤٠.

٣- (٣) مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٣٣١.

فى مؤخر خف الرائض، أو عصا فى رأسها حديده تنخس بها الدابه (١) فتستثار لتحت المشى. و ما أكثر ما جرّ المترفون بهمزهم القيادات عبر التاريخ إلى مواقف و آراء راح ضحيتها الأبرياء و الصالحون. و لعلّ من وسائل همزهم النميمه التى يبالغون فيها و فى المشى بها بين الناس كما تمشى جراثيم الأوبئه بالمرض.

□  
مَشَاءٍ بَنِيمٍ فَأَتَى مَا حَلَّ وَ ارْتَحَلَ حَمَلٌ مَعَهُ دَاءُ التفرقه، و النميمه هى نقل كلام الناس على بعضهم عند بعض ممّا يميم الألفه و يحيى الفتنة، و هى بذلك تعدّ من أعظم الذنوب و أخطرها لأنه يهدّد وحده الأئمّه و صفاء أجوائها، و إلى هذه الحقيقه و ردت الأحاديث الإسلاميه:

قال رسول الله-صلى الله عليه و آله-: «يا على كفر بالله العظيم من هذه الأمه عشره (منهم): العيآب و الساعى فى الفتنة» (٢)، و

قال -صلى الله عليه و آله-: «ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال:

المشآؤون بالنميمه، المفترقون بين الأحبه، الباغون للبراء العيب» (٣)، و

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: «ثلاثه لا يدخلون الجنة: السفآك للدم، و شارب الخمر، و مشآء بنميمه» (٤).

٣-منع الخير عن الغير و الاعتداء عليهم و ممارسه الإثم، و هذه كلّها من الصفات اللصيقه بالمنافقين إذ أنّهم يريدون الخير لأنفسهم فقط، لذلك يقفون أمام أىّ محاوله من قبل القياده للإصلاح، و يمنعونها بالتعويق و التثييط عمليًا و بالرأى، فليس من صالحهم أن يعمّ الرفاه الاقتصادى كل أفراد المجتمع، و أن تزال

ص: ٢١١

١- ١) المنجد ماده همز.

٢- ٢) كتاب المواعظ للشيخ الصدوق/ص ١١.

٣- ٣) نور الثقلين/ج ٥ ص ٣٩٣.

٤- ٤) الخصال/ص ١٨٠.

الطبقية، لأن قوتهم الاجتماعيه و الاقتصاديه قائمه على معادله الاستكبار و الاستضعاف، و الغنى و الفقر، و بعبارة: على دماء الآخرين و حرمانهم.

□  
مَنَعَ لِلْخَيْرِ وَ تَسَعِ الْكَلِمَةُ إِلَى مَصَادِقِ كَثِيرَةٍ مِنْهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ حِينَما يَتَحَلَّقُونَ حَوْلَ الْقِيَادَةِ يَعْمَلُونَ عَلَى حَصْرِ اعْتِمَادِهَا فِيهِمْ، وَ سَدِّ الْأَبْوَابِ أَمَامَ أَيِّهِ كِفَاءً سِيَاسِيَةً أَوْ إِدَارِيَةً أَوْ اِقْتِصَادِيَةً نَاشِئَةً. وَ أَعْظَمُ خَيْرٍ يَمْنَعُونَهُ أَيْمَهُ الْهَدْيِ أَنْ يَأْخُذُوا مَوَاقِعَهُمُ الشَّرْعِيَّةَ فِي الْمَجْتَمَعِ.. وَ قَدْ أَشَارَ الْقَمِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ إِلَى مَا ذَكَرْنَا مُؤَوَّلًا فَقَالَ: (الخير أمير المؤمنين) (١).

و لا يكتفى المنافقون بمنع الخير عن الآخرين، بل يتمادون في غيهم إلى حدِّ الاعتداء على حدودهم و حقوقهم، ماديًا بضربهم إذا كانوا منافسين أو معارضين، و باستغلالهم إذا كانوا من المحرومين، و معنويًا بالتهم المغرضه و تشويه سمعتهم و..و.

مُعْتَدٍ أَثِيمٍ وَ لِأَثِيمٍ تَفْسِيرَانِ: الْأَوَّلُ: بِالنَّظَرِ لِلْكَلمَةِ كَشَىءٍ مُسْتَقِلٍّ فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ فِي حُدُودِ عِلَاقَتِهِمْ مَعَ الْغَيْرِ يَتَّصِفُونَ بِمَنْعِ الْخَيْرِ وَ الْاِعْتِدَاءِ، وَ فِي حُدُودِ أَنْفُسِهِمْ يَتَّصِفُونَ بِمُخَالَفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ (الإثم) كَشْرِبِهِمُ الْخَمْرِ وَ ظَنِّهِمُ السُّوءِ وَ الْحَقْدِ وَ الْحَسَدِ، وَ بِصُورِهِ مَبَالِغُهُ كَمَا وَ نَوْعًا، لِأَنَّ أَثِيمَ صِيغُهُ مَبَالِغُهُ مِنَ الْاِثْمِ.

و الثاني: بالنظر إلى الكلمة متصله بما قبلها «معتد» و في ذلك معان منها: أن اعتداءهم لا يقوم على الحق، فهناك تجاوز على الآخرين بالحق كالذي أمر الله به في

ص: ٢١٢

---

١- (١) تفسير القمي/ ج ٢ عند الآية.

قوله: **فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ (١)**، و هناك تجاوز بالباطل و الإثم، و منها: أن اعتداءهم ليس عرضا بل هو من طبيعتهم و متجدد في نفوسهم التي جبلت عليه، فما هو إلا مظهر يعكس ما انطوت عليه أنفسهم من الإثم العريض، و منها: أنهم حين يعتدون يوغلون في الاعتداء بالمبالغة في آثامه.

و إنه لثابت علميا و عمليا أن المعتدى لا يعتدى في الواقع الخارجى و يتجاوز الحدود حتى يكون قد تجاوز الحدود في داخل نفسه، و أسقط اعتبار الحق و الآخرين قبل ذلك في نفسه و تفكيره. فلا اعتداء هؤلاء فلسفه تتأسس عليها حياتهم حيث أنهم لا يعترفون بوجود حق يجب الالتزام به و احترامه و بوجود حدود و قوانين تفصل بين الناس.

٤- كما تتداعى صفات الخير في الصالحين تتداعى صفات الشر في المفسدين، فهم يبدءون من الحلف و لكنهم لا ينتهون عند الاعتداء و الإثم بل يتسافلون بعد ذلك إلى صفات سيئه أخرى.

عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِمٌ فَمَا الْعَتَلُ و ما الزينيم؟ أَلْف: العتل، قالوا: إنه شخص عظيم الجته، قبيح المنظر، ناقص الخلقه.

و لعل ما ذهب إليه المفسرون كان بسببين: أحدهما: بالنظر إلى تأويل الآية في (الوليد بن المغيرة) و اتخاذ مقياسا لصفاته المعنويه و الماديه السيئه، و الآخر:

ص: ٢١٣

عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- لَمَّا سئل عن العتل الزنيم: «هو الشديد الخلق، الشحيح، الأكل الشراب، الواجد (شديد الحب) للطعام و الشراب، الظلوم للناس، الرحيب الجوف» بيد أنّ هذه الصفات -حسبما يبدو- ليست مقصوده بذاتها، بل هي فى حقيقتها كنايات عن صفات معنويه أو مقارنات معها تتصل بأخلاق الإنسان، و الشاهد على ذلك ما جاء فى اللغه من جذر هذه الكلمه حيث نقرأ فى اللغه: عتله: جذبته و جرّه، يقال عتله إلى السجن أى دفعه بعنف (١)، و قال الله يأمر خزنه النار بعذاب الأثيم: خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٢) أى ألقوه بدفع و عنف، و العتل:

الجافى الغليظ (٣)، و

فى بعض الروايات قال رسول الله صلى الله عليه و آله : «رحب الجوف، سىء الخلق، أكل، شراب، غشوم، ظلوم (٤)، و عن ابن مسكان عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبى عبد الله الصادق -عليه السلام-: ما معنى قول الله عزّ و جلّ: «الآيه»؟ قال: «العتل العظيم الكفر» (٥)، و الذى يبدو لى أنّ الكلمه تتسع إلى الكثير من صفات الشر و الباطل، و لا يكون الإنسان عتلا حتى يعظم انحرافه كما قال الإمام الصادق عليه السلام، و تنداعى فيه الصفات السيئه تسافلا نحو الحضيض، و ذلك ما يشير إليه السياق القرآنى حيث جعل (العتل) من آخر الصفات، و قال مبيناً أنّها تأتي بعد اجتماع كثير من الصفات السيئه فى الإنسان «بعد ذلك» فهى غايه الشر، و مجمع الأخلاق الدينيه.

باء: الزنيم.. هو اللصيق و المزئم اللاحق بقوم ليس منهم و لا هم يحتاجون إليه

ص: ٢١٤

١- (١) نور الثقلين /ج ٥-ص ٣٩٤ عن المجمع.

٢- (٢) الدخان ٤٧.

٣- (٣) المنجد ماده عتل.

٤- (٤) مجمع البيان /ج ١٠ عند الآيه.

٥- (٥) نور الثقلين /ج ٥-ص ٣٩٤ نقلا عن عيون الاخبار.



فكأنه فيهم زنمه (١)، وسمى الدعى زنيما لأنه شاذ عن المجتمع و لا ينسجم معه فكأنه من غير جنسه، و لعل هذه الكلمه تتسع للعملاء الدخلاء على المجتمع الإسلامى، و المتصلين بأعدائه العاملين لمصالحهم، و ما أقرب المنافقين من حقيقه الكلمه. أو ليسوا فى الأسمه و ليسوا منها و لا معها؟ و كلمه أخيره نقولها فى الآيات: أن نهى الله عن الطاعه للذين مرّ ذكرهم هو نهى عن اتخاذهم بطانه للقياده و أعضاء فى جهازها الدينى و السياسى لما فى ذلك من أخطار عظيمه على واقع الأئمه و مستقبلها، و على مسيره القياده الفكرية و الإيمانيه و السياسيه، و مكانتها الجماهيريه فى المجتمع.

[١٤] و يبين السياق جذور الصفات السيئه عند المنافقين و هما اثنان:

الأول: الافتتان بالدنيا. و قد ذكر الأموال و الأولاد من زينه الدنيا لأنهما غايه ما فيها، و المال لا يقصد به الدينار و الدرهم بل هو كل ما يملكه الإنسان من حطامها و المال رمزه، كما أن الأولاد لا ينحسرون فى الأبناء من الصلب و حسب بل هم كل أتباع المترفين، و الأولاد أقرب المصاديق فى التبعية و الطاعه، و هذا ما أكدده الله فى قوله: **الْمَالُ وَ الْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** (٢)، و افتتان الإنسان بهما يعنى حبه للدنيا و

«رأس كل خطيئه حب الدنيا» (٣)، كما قال الإمام الصادق عليه السلام ، أو كما

قال رسول الله صلى الله عليه و آله : «حب الدنيا أصل كل معصيه و أول كل ذنب» (٤).

ص: ٢١٥

١- ١) المنجد/ماده زنم.

٢- ٢) الكهف/٤٦.

٣- ٣) موسوعه بحار الأنوار/ج ٧٣-ص ٧.

٤- ٤) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٢.

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ يَعْنِي أَنَّ أَصْلَ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُتَرَفِّينَ الَّذِينَ نَهَى الرَّسُولُ عَنْ طَاعَتِهِمْ وَالتِّي ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ (الْحَلْفُ وَالْمَهَانَةُ وَالْهَمْزُ وَالنَّمِيمَةُ وَمَنْعُ الْخَيْرِ وَالْإِعْتِدَاءُ وَالْإِثْمُ وَالْعِتَالَةُ وَالزَّنَامَةُ) كُلُّهَا الْإِفْتِتَانُ بِالْدُنْيَا (الْمَالُ وَالْبَنِينَ). إِذْنُ فَطَرِيقُ تَكَامُلِ أَخْلَاقِ الْخَيْرِ فِي شَخْصِيَةِ الْإِنْسَانِ، وَبِالتَّالِيِ التَّسَامِيِ إِلَى قِمَّةِ الْفُضَيْلَةِ السَّامِقَةِ (أَعْنَى التَّوْحِيدِ) لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَجَاوُزِ فِتْنَةِ الدُّنْيَا بِأَمْوَالِهَا وَبِنِيهَا. وَلَيْسَ تَجَاوُزُ الْفِتْنَةَ بِبِنْدِ الْمَالِ وَالْأَتْبَاعِ، لِأَنَّهَا حِينَمَا يَحْسُنُ الْبَشَرُ التَّصْرَفَ فِيهِمَا يَكُونَانِ خَيْرَ مَعِينٍ لَهُ عَلَى الرَّقِي فِي سَلْمِ الْكَمَالِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالْإِيمَانِيِّ،

فَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «نَعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْغَنَى» (١)، وَ

عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«نَعْمَ الْعَوْنُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ» (٢)، أَوْ لَيْسَ الْعَوْنُ سَبَبُ التَّبَعِيَّةِ، وَالْحَاجَةُ تُوْدِي إِلَى الذَّلِّ؟ وَنَهْتَدِي إِلَى فِكْرِهِ أُخْرَى هَامِهِ حِينَمَا نَرْتَبُطُ هَذِهِ الْآيَةِ بِنَهْيِ الْقِيَادَةِ عَنِ طَاعَةِ الْمُتَرَفِّينِ، وَهِيَ: أَنَّ الْقَائِدَ قَدْ يَنْخَدِعُ هُوَ الْآخِرُ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا (أَمْوَالٍ وَ أَتْبَاعًا) فَيَطِيعُهُمْ أَوْ يَدَاهِنُهُمْ طَمَعًا فِيهِمَا أَوْ خَشْيَةً مِنْهُمَا، وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ هَذِهِ الْعَقْبَةَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّهِ وَالرَّغْبَةِ فِيهِمَا عِنْدَهُ.

[١٥] الثَّانِي: نَبَذَ رِسَالَةَ اللَّهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِمْ. وَ مَا هِيَ رِسَالَةُ اللَّهِ؟ إِنَّهَا الْحَقُّ وَالْفُضَيْلَةُ، وَحَيْثُ رَفَضُوهَا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهْوَاتِهِمْ فَقَدْ اخْتَارُوا الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ، وَالرَّذِيلَةَ عَلَى الْفُضَيْلَةِ.

إِذَا تُثَلِّقَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

ص: ٢١٤

١- ١) فروع الكافي / ج ٥- ص ٧١.

٢- ٢) المصدر / ص ٧٢.

أى؛ إنها قيم رجعية لا- تنسجم مع الواقع المعاصر فهي أساطير تشبه ما يسطره الأولون بخيالاتهم من القصص البعيده عن واقع الحياه و حقائقها، و هذه من طبيعه الإنسان حينما يتكبر و يعاند لا يبحث عن صحة الفكره، و لا كونها حقًا أم باطلا، و إنما يبحث قبل ذلك و بعده عن التبرير بغضّ النظر عن سلامته.. فالمهم أن يقدم عذرا مبرّرا، و لكن هل درس المترفون رساله الله دراسه موضوعيه عقلانيه أو صلتهم إلى هذا الحكم، أم أنّهم وجدوها لا- تتفق مع أهوائهم، و وجدوا الرسول لا يداهنهم و لا يطيعهم فقالوا ذلك؟ بلى. إنّهم ربطوا رساله بمصدر بشرى (الأولين) و لم يربطوها بالله حتى يهربوا من مسئوليّه الحق، و لكن هل يصير الحق باطلا بمجرد أن يقول أحد أنه أسطوره أو باطل؟ كلا.. و هكذا لا تغيّر أباطيل المترفين من حقيقه رساله شيئا أبدا، و دليل ذلك أنّهم لن يفلتوا من الجزاء.

[١٦] بل سيتأكد لهم يوم الجزاء أنّ رساله حقائق واقعيه عند ما يجازيهم الله و يعذبهم، و هذا ما يوضّح لنا العلاقه بين قول المترفين أن رساله أساطير الأولين و بين قول الله مباشره:

سَنَسَبُهُمْ عَلَى الْخُرْطُومِ وَ الْوَسْمِ: العلامه التي يعرف بها الشىء، و يقال للكى و سما لأنّ العرب كانت تحمى حديده تكوى بها الدواب لتكون فيها علامه مميزه، و الميسم هو آله الوسم، و إنّ المترفين ليكونون يوم القيامه بمياسم خزنه النار، التي ترك عليهم علامه يعرفهم بها الخلائق فيفتضحون و يعيرونهم على أفعالهم و ذنوبهم الدنيئه. و قد نستوحى من هذه الآيه أنّ الإنسان و حتى المترف لا يعترف و هو يمارس الذنب كالهمز و النميمه و منع الخير أنّه على الباطل، بل يخفى الحقيقه بشتى الوسائل و المبررات عن الآخرين، و لذلك كان من جزائه فى الآخره الفضيحه بالوسم على

الخرطوم، فما هو الخرطوم؟ فى المنجد: خراطيم القوم ساداتهم و أبرزهم، يسمّى بذلك الأنف، و يستعمل خصوصا للفيل (١)، و قيل للأنف خرطوما لأنّ الوجه أبرز ما فى الإنسان، و الأنف أبرز ما فى الوجه، و ربما وصف القرآن أنوف المترفين بالخراطيم (أنوف الأفيال الطويله) لأنّهم عادة ما يشمخون بها على الناس استظاله و تكبرا، حتى لتكاد تطول لو أمكنها. و قد تمحورت كنيات العرب عن التكبر حول الأنف، يقولون:

شمخ بأنفه، و أرغم الله أنفه، و آتى برغم أنفه (٢)، و حيث يعذبهم الله بالوسم على أنوفهم فذلك إهانه لهم باعتبارها مقياس العزه و التكبر، يقال: أعزّ الله أنوفهم إذا رفع القوم شأوا. و لعل الكلمه تتسع إلى اللسان الذى يحلفون به، و يهمزون به، و ينمّون، و يمنعون الخير، و يحاربون به الرسول و رساله، و ما إلى ذلك من سائر المعاصى التى يلعب اللسان فيها دورا رئيسيا، و إنّما يطيل الله أنوفهم أو ألسنتهم فى الآخره لتستوعب بمساحتها قدرا أكبر من العذاب.

### قصه أصحاب الجنه:

[٢٠-١٧] و يشبه القرآن واقع المترفين مذكرا بقصه أصحاب الجنه، لأنّهم كهؤلاء افتتنوا بزينه الحياه الدنيا فاتبعوا الأهواء و خالفوا الحق و استكبروا على المحرومين، لو لا أنّهم بعد طائف من الله عليها اكتشفوا خطأهم و بادروا إلى التوبه خشيه العذاب الأكبر فى الآخره. قال ابن عباس: (إنّه كان شيخ كانت له جنّه، و كان لا يدخل بيته ثمره منها و لا إلى منزله حتى يعطى كلّ ذى حقّ حقّه، فلمّا قبض الشيخ و ورثه بنوه - كان له خمس من البنين - فحملت جنتهم فى تلك

ص: ٢١٨

١-١) المنجد/ماده خرط (١٢) بتصرف.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ عند الآيه.

السنه التي هلك فيها أبوهم حملا لم يكن حملته من قبل ذلك، فراحوا الفتيه إلى جنتهم بعد صلاه العصر، فأشرفوا على ثمره و رزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياه أبيهم، فلما نظروا إلى الفضل طغوا و بغوا، و قال بعضهم لبعض: إن أبانا كان شيئا كبيرا قد ذهب عقله و خرف فهلّموا نتعاهد و نتعاقد فيما بيننا أن لا نعطي أحدا من فقراء المسلمين في عامنا هذا شيئا، حتى نستغنى و تكثر أموالنا، ثم نستأنف الصنعه فيما يستقبل من السنين المقبله، فرضى بذلك منهم أربعة و سخط الخامس، و هو الذي قال تعالى: **قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ .**

فقال لهم أوسطهم: اتقوا الله و كونوا على منهاج أبيكم تسلموا و تغنموا، فبطشوا به فضربوه ضربا مبرحا، فلمّا أيقن الأخ أنّهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارها لأمرهم، غير طائع، فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله أن يصرموه إذا أصبحوا و لم يقولوا إن شاء الله، فابتلاههم الله بذلك الذنب، و حال بينهم و بين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه (١).

و لعلّ في القصة إشاره إلى أنّه تعالى أجرى نفس السنّه على المترفين أو طالهم منه شيء من العذاب في الدنيا، و

في روايه أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام تأكيد لذلك، قال: «إنّ أهل مكه ابتلوا بالجوع كما ابتلى أصحاب الجنه» (٢)، و إذا لم يكن أهل مكه بأجمعهم فلا أقلّ مصاديق الآيات السابقه كالمغيره و آخرين ممّن نزلت في شأنهم يومذاك. قال تعالى:

**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَي اخبرناهم بالثروه بمثل ما اختبرنا أصحاب المزرعه و ما دامت السنن الإلهيه في**

ص: ٢١٩

١- (١) تفسير القمي/ ج ٢- ص ٣٨١.

٢- (٢) المصدر/ ص ٣٨٢.

الحياه واحده فيجب إذن أن يعتبر الإنسان بالآخرين سواء المعاصرين له أو الذين سبقوه،و أن يعيش فى الحياه يتلمذ فإنها مدرسه و أحداثها خير معلّم لمن أراد و ألقى السمع و أعمل الفكر و هو شهيد،و بهذه الهدفيه يجب أن نطالع القصص و نقرأ التاريخ،فهذه قصه أصحاب الجنه يعرضها الوحي لتكون أحداثها و دروسها موعظه و عبره للإنسانيه.

و القرآن فى عرضه لهذه القصه الواقعيه (1)لا- يحدثنا عن الموقع الجغرافى للجنه هل كانت فى اليمن أو فى الحبشه،و لا عن مساحتها،و نوع الثمره التى أقسم أصحابها على صرمها،لأنّ هذه الأمور ليست بذات أهميه فى منهج الوحي،إنّما المهمه المواقف و المواعظ و الأحداث المعبره سواء فضّل العرض أو اختصر و أوجز.

إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصِيرُ مِنْهَا مَصِيدًا بِحِينِ أَيْ أَوَّلِ الصَّبَاحِ،و خلافا لعاده الفلاحين الذين يصرمون بعد طلوع الشمس، و ذلك لكى لا يعلم المساكين بالأمر فيحضرون طلبا للمعونه،و يظهر أنّهم تعاقدوا على ذلك ليلا.و الصرم أصله القطع،يقال:تصارم القوم إذا تقاطعوا و هجر بعضهم بعضا،و سيف صارم يعنى شديد القطع،و الرجل الأصرم الذى قطع طرف أذنيه، و صرم النخل إذا قطع عروقها..و لعل فى الآيه إشاره إلى نوع شجر الجنه بأنّه مما يصرم كالنخل و العنب و ليس مما يحصد كالحنطه أو يجنى كالفاكهه.و القسم هو غايه العزم و الإصرار.و لعلهم إنّما تحالفوا و تعاقدوا لكى لا ينفرد بعضهم بإعطاء شىء للفقراء أو إفشاء سر مؤامرتهم حيث يبدو أنّ بعضهم كان مخالفا لمثل هذه العمليه و هو أوسطهم.

ص: ٢٢٠

---

١- ١) أقول واقعيه لأنّ بعض المفسرين و الذين درسوا القصص القرآنيه حاولوا تصويرها بأنّها قصص خياليه وهميه وضعها الله لتكون وسيله لأفكار القرآن،و ليس فى ذلك مقدار من الصحه.

وَلَا يَسْتَشُونَ وَ تَنْطَوِي هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا:الاستثناء بمعنى أَخَذَ مَشِيئَةَ اللَّهِ وَ الْمَتَغِيرَاتِ بِعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ، فَإِنَّهُ نَهَى سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يَلْقَى أَحَدٌ عَزْمَهُ وَ قَرَارَهُ بِمَشِيئَتِهِ فَقَالَ: وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (١) وَ هَذِهِ حَقِيقَةُ عِلْمِيهِ وَاقِعِيهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْعَاقِلَ حِينَمَا يَخْطُطُ لِأَمْرٍ مَا يَجِبُ أَنْ يَضَعَ فِي فِكْرِهِ الْإِحْتِمَالَاتِ الْمُمْكِنَةَ الَّتِي قَدْ يُوَاجِهُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَ لَقَدْ أُثْبِتَتْ التَّجَارِبُ الْعِلْمِيَّةُ مَا نَعَايَشُهُ يَوْمِيًّا مِنْ إِحْتِمَالَاتِ الْخَطَا وَ مَخَالَفِهِ مَا نَخْطُطُهُ عَمَّا يَقَعُ فِعْلًا، مِمَّا يَكْشِفُ أَمْرَيْنِ: الْأَوَّلُ: جَهْلُنَا بِكُلِّ الْحَقَائِقِ الَّتِي قَدْ تَقَعُ، وَ الثَّانِي: أَنَّ هُنَاكَ إِرَادَةَ فَوْقَ الْقَوَانِينِ وَ الْأَنْظُمَةِ الْوَاقِعِيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ تَخْرُقَهَا وَ تَخْرِبَ الْحِسَابَاتِ وَ الْخَطَطِ فِي أَيِّ لِحْظَةٍ بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ إِلَّا- الْإِسْتِسْلَامَ لَهَا، أَوْ يَكُونُ قَدْ اسْتَعَدَّ لِلْأَمْرِ سَابِقًا وَ وَضَعَ الْخَطَطَ الْمُنَاسِبَةَ، وَ تَعَرَّفْنَا الْبَصَائِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِتِلْكَ الْإِرَادَةِ أَنَّهَا مَشِيئَةُ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ..

يقول الإمام علي عليه السلام:- «عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم، و حل العقود، و نقض الهمم» (٢)، و ما أكثر البحوث الفلسفية التي تفتح هذه الآيه آفاقها أمام المتدبر، و التي خاض فيها المفسرون و الفلاسفة.

الثاني: الاستثناء بمعنى الاقتطاع و العزل من الثمر للفقراء و المساكين. و لقد أغفل أصحاب الجنبه قول «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» كما عقدوا العزم بالأيمان المغلظة أن لا يعطوا و لا فقيرا واحدا شيئا مما يصرمون، و لكن هل أفلحوا في أمرهم؟ كلاً..

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ

ص: ٢٢١

١- (١) الكهف ٢٣-٢٤.

٢- (٢) نهج البلاغه/ حكمه ٢٥٠.

قبل حلول موعدهم الذى تعاقدوا على أن يهتوا فيه للصرم (أول الصباح)، و ما يدريك لعلهم ناموا أول الليل طمعا فى الجلوس مبكرين. بلى. إنَّ الله الذى لا تأخذه سنه و لا نوم ما كان ليغفل عن تدبير خلقه و إجراء سننه فى الحياه، فقد أراد أن يجعل آيه تهديهم إلى الإيمان به و التسليم لأوامره حيث أمر بالاستثناء (إنشاء الله) و بالإنفاق على المساكين، و أن يعلم الإنسان بأنَّ الجزء حقيقه واقعيه و أنه نتيجة عمله.

و الطواف هو المرور بالشىء و حوله، و الطائف الذى يقوم بذلك الفعل، و لقد قال المفسرون أنه العذاب، و قد يكون تأويله بالريح المدمره، أو طوفان الرمل، أو الماء العاتى، أو الجراد تأكل الثمر و كأنها تصرمه، و لعلَّ الأخير أقرب الاحتمالات.. يقال: طاف الجراد إذا ملأ الأرض كالطوفان (١).

فَأَضِيحَتْ كَالصَّرِيمِ و كأن أحدا سبقهم إلى صرمها، و هكذا يواجه مكر الله مكر الإنسان فيدعه هباء منثورا و مَكْرُوا و مَكَّرَ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٢)، و إذا استطاعوا أن يخفوا مكرهم عن المساكين فهل استطاعوا أن يخفوه عن عالم الغيب و الشهاده؟ كلاً..

و أرسل الله طائفه ليثبت لهم هذه الحقيقه، و ربما جعله ليلا «وَهُمْ نَائِمُونَ» لتكون القضييه أعمق أثرا حيث يعلمون أنَّ الجزء من جنس العمل، فكما أنهم أخفوا مكرهم عن أولئك كذلك أخفى الله مكره عنهم فما جعلهم يعاينونه.

[٢٣-٢١] و لأنَّ من طبيعه الإنسان أنه سريع الانتباه من الرقاد عند انتظار أمر هام، فإنهم كانوا-فيما يبدو- أيقاظا قبيل الصبح.

ص: ٢٢٢

١-١) المنجد/ماده طاف.

٢-٢) آل عمران ٥٤.



فَتَنَادُوا مُضِيِّينَ نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاجْتَمَعُوا بِالْفِعْلِ عَلَى ضَرُورِهِ التَّبْكَيرِ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْجَنَّةِ وَصَرْمِهَا، وَاسْتَحْتَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

أَنْ اغْتَدُوا عَلَيَّ حَرْثُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ أَى إِذَا كُنْتُمْ تَرِيدُونَ الْوَقْتَ الْأَنْسَبَ لِلصَّرْمِ مِنْ دُونَ اسْتِثْنَاءِ فَلَا أَنْسَبَ مِنَ الْغَدْوِ، وَهُوَ السَّعَى أَوَّلَ الصَّبْحِ. وَأَصْلُ الْحَرْثِ مِنْ قَلْبِ الْأَرْضِ بِأَلِهِ الْحِرَاثَةِ، وَحَرْثُكُمْ يَعْنُونَ الَّذِي أَتَعَبْتُمْ أَنْفُسَكُمْ حَتَّى حَرَثْتُمُوهُ، وَفِي ذَلِكَ اسْتِثْنَاءٌ لِلذَّاتِ، بِأَنَّكُمْ الَّذِينَ أَجْهَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَحَرَثْتُمْ الْأَرْضَ وَزَرَعْتُمُوهَا وَنَاضَلْتُمْ مِنْذُ الْبَدَايَةِ حَتَّى أَثْمَرْتُمْ.. فَأَنْتُمْ وَحْدَكُمْ إِذْ الَّذِينَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ النَّتَاجُ لَا يَشَارِكُكُمْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ.

فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ فِي سُرْعَةٍ مَتَأَنِّيَةً مَحْفُوفَةً بِالْحَيْطَةِ وَالْحَذَرِ مِنَ الْفُضِيحَةِ، لَكِي يَنْجُزُوا الْمَهْمَةَ لَوْ أَمَكْنَهُمْ قَبْلَ اسْتِيقَازِ الْمَسَاكِينِ وَرَوَاحِهِمْ إِلَى حَوَائِجِهِمْ. وَالتَّخَافَتُ نَقِيضُ الْجَهْرِ وَالْإِعْلَانِ فَهُوَ التَّسَارُّ، وَيَبْدُو أَنَّهُمْ يَدْعُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْكُتْمَانِ وَالتَّخْفِيِّ.

أَوْ كَانُوا فِي أَثْنَاءِ انْطِلَاقِهِمْ إِلَى الصَّرْمِ يَتَنَاجَوْنَ الْحَدِيثَ وَالتَّأْمِرَ. وَعَمَلُوا الْمَسْتَحِيلَ مِنْ أَجْلِ هَمِّهِمُ الشَّاعِلِ الَّذِي تَخَافَتُوا بِهِ طِيلَهُ الطَّرِيقِ إِلَى جَنَّتِهِمْ، وَهُوَ إِخْفَاءُ الْأَمْرِ عَلَى الْمَعُوزِينَ حَتَّى لَا يَسْأَلُوهُمْ شَيْئًا مِمَّا يَصْرُمُونَ.

أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَالمَسْكِينُ هُوَ الْمَعُوزُ الَّذِي لَا يَمْلِكُ حَتَّى قُوَّةَ يَوْمِهِ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مَدَى شَحْمِهِمْ

إذ لا- يريدون أن يتعطفوا ولا- على واحد و لو كان من أحوج الناس! أو أكدوا على ذلك اليوم بالذات لأنه يوم الصرم و القسمة، فلا يضرهم أن يدخل المساكين بعده إذ لا ثمر ولا قسمة، والآيه تعكس ظاهره كانت شائعه في ذلك المجتمع و هي أن المساكين و المعوزين يدخلون المزارع و البساتين في مواسم الجنى و الحصاد و الصرم، و لعلهم كانوا يحاولون التعرف على اليوم الذى يبادر فيه الملاك إلى ذلك فيطوفون عليهم في حقولهم طمعا في المساعدة و الإغناء، و لعل والد الأخوه الخمسه (أصحاب الجنة) الذى توفى و أورثهم إياها كان قد عود المساكين على المعونه يوم الصرم من كل عام، و قد أخذ أصحاب الجنة ذلك بعين الإعتبار في خطتهم و احتاطوا للأمر بحيث أنهم من الناحيه الظاهرية ما أغفلوا شيئا.

وَ غَدَوْا عَلَى حَزْدٍ قَادِرِينَ فِي ظَنِّهِمْ إِذْ أَحْكَمُوا خَطِّهِمْ وَ كَيْدَهُمْ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ. و اختلف في معنى الحرد ف قيل: هو القصد (١)، فالمعنى غدوا على قصدهم الذى قصدوا أى الصرم و المنع قادرين عند أنفسهم، و قيل: الغضب (٢)، و قيل: المنع، و قيل: الجد (٣)، و يبدو لى أنه المنع المقصود الجاد و المشرب بالحقد و الغضب على المساكين و النفور منهم. و إنما تصوّروا أنفسهم قادرين على ذلك لأنهم أخذوا بكل الأسباب التى من شأنها إيصالهم إلى الهدف، و غاب عنهم- بسبب ترفهم و ضعف إيمانهم- أن قدره الله المطلقه فوق كل شىء، و أنه وحده الذى لا يمنعه مانع. و مشوا نحو جنتهم و كلهم ثقه بأن ما أرادوه سوف يتحقق.

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ

ص: ٢٢٤

١- ١) فى مجمع البيان و الكشاف و تفسير البصائر عند الآيه.

٢- ٢) المنجد/ماده حرد.

٣- ٣) فى الدر المنثور عند الآيه.

عن الحق، و إن شيئاً لا يصير إلا أن يشاء الله، وإنه يعلم حتى السر، وإن في الإنفاق في سبيل الله خيراً عظيماً و بركه، و قيل: ضالون أى أننا ضيّعنا الطريق و صرنا إلى غير جنتنا إذ لم يصدّقوا أنفسهم أن الأرض التى تركوها أمس بأفضل حاله قد تحوّلت إلى بلقع فزعموا أنهم قد ضلوا الطريق إلى أرضهم إلى غيرها، و لكن كيف يضيّع الإنسان أرضه؟! كلاً.. إنها أرضهم بعينها، و إنهم ضالون عن الحقيقة و ليسوا ضالين عن جنتهم، و إنهم حرمهم الله بمشيئته و حكمته.

بَيْلٌ نَحْنُ مَحْرُومُونَ و ثمّ علاقه بين ضلالهم و حرمانهم و هى أنّ بلوغ الإنسان تطلعاته و أهدافه المعنويه و الماديه متصل بالمنهج الذى يتبعه فى الحياه، فحينما يخطئ اختيار المنهج أو يضل عن المنهج الصحيح فإنّه بصوره طبيعیه مباشره سيحرم ليس من معطياته المعنويه بل حتى الماديه منها، و هذا ما وقع فيه أصحاب الجنه، و

فى الحديث قال الإمام الباقر عليه السلام:- «إنّ الرجل ليذنب الذنب فيدرأ عنه الرزق» (١).

و نستوحى من الآيه بصيره أخرى و هى: أنهم اهتموا إلى أنّ الحرمان الحقيقى ليس قلبه المال و الجاه بالمسكنه، و إنّما الحرمان و المسكنه قلبه الإيمان و المعرفة بالله بالضلال.

و هكذا أصبح الحادث المريع بمثابة صدمه قويه أيقظتهم من نوم الضلال و الحرمان، و بدايه لرحله العروج فى آفاق التوبه و الإنابه، و التى أولها اكتشاف الإنسان لخطئه فى الحياه. و هكذا نهتدى إلى أنّ من أهمّ الحكم التى وراء أخذ الله

ص: ٢٢٥

للناس بالبأساء و الضراء و ألوان من العذاب فى الدنيا هى تصحيح مسيره البشر، بإحياء ضميره و استثاره عقله من خلال ذلك، كما قال تعالى: فَأَخَذْنَا هُمْ بِالْبِأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (١). فما أحوجا نحن المسلمين أن نتأمل قصه هؤلاء الأخوه الذين اعتبروا بآيات الله و راجعوا أنفسهم بحثا عن الحقيقه لما رأوا جنتهم و قد أصبحت كالصرير، فنغير من أنفسنا ليغير الله ما نحن فيه، إذ ما أشبه تلك الجنه و قد طاف عليها طائف من الله بحضارتنا التى صرمتها عوامل الانحطاط و التخلف.

و لو أنهم استمعوا إلى نداء المصلحين لما ابتلوا بتلك النهايه المريعه.. و هكذا كل أمه لا تفلح إلا إذا عرفت قيمه المصلحين الشائرين، فاستمعت إلى نصائحهم، و استجابت لبلاغهم و إنذارهم. و لهذا الدور تصدى أوسط أصحاب الجنه، فعارضهم فى البدايه حينما أزمعوا و أجمعوا على الخطيئه، و ذكرهم لِمَا أصابهم عذاب الله بالحق، و حملهم كامل المسئوليه، و استفاد من الصدمه التى أصابتهم فى إرشادهم إلى العلاج الناجح.

قَالَ أَوْسَطُهُمْ وَ هُوَ يذَكِّرُهُمْ وَ يُلُومُهُمْ، وَ يَرشُدُهُمْ فِى آن وَاحِدٍ:

أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا - تُسَبِّحُونَ أَى أَنَّ التسييح هو السبيل لعلاج الضلاله و الحرمان، فهو إذن ليس كما يتصور البعض مجرد قول الواحد سبحان الله، إنما هو شريعته نظام و منهجيه حياه، تتسع لعلاج كل انحراف و مشكله لدى الإنسان، و هدايته إلى الحق و الصواب فى كل

ص: ٢٢٤

ميدان و جانب، حيث أنه بالتسبيح يقدر المرء ربه فلا ينسب الذنب إليه و إنما إلى نفسه، و لهذا يأتي التسبيح عند الاعتراف بالذنب، مثل قوله سبحانه في قصه ذى النون و على لسانه: **سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** و الذى ذهب إليه البعض من تفسير للتسبيح هنا بأنه الاستثناء (بالعطاء للمساكين، و قول إنشاء الله) أو التوبه بعد الذنب صحيح و لكنه من المصاديق و المفردات التى إلى جانبها الكثير مثيلاتها.

و تتساءل: من هو أوسطهم؟ قال أكثر المفسرين أنه أوسطهم فى السن، و ذلك ممكن إلا- أن الأقرب للمعنى أنه أعدلهم و أرجحهم عقلا، ذلك أن السن فى مثل هذه القضية ليس بذى أهميه حتى يذكر، و إلى ذلك ذهب ابن عباس و قد سأله سائل: يا ابن عباس كان أوسطهم فى السن؟ فقال: لا بل كان أصغر القوم سنا و كان أكبرهم عقلا، و أوسط القوم خير القوم، و الدليل عليه فى القرآن أنكم يا أمه محمد خير الأمم، قال الله: **«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيًّا»** (١)، و إنما يكتشف الإنسان الطريق السوى باعتداله فى العقل و البصيره لا- بمقدار عمره، و حيث كان أخوهم هذا صاحب بصيره نافذه فقد سبقهم إلى معرفه الحق و نصحهم، و قرأ النتائج المستقبلية قبل وقوعها، و كذلك يكون أولوا الأبواب من القاده الصالحين.

و من موقف أوسط أصحاب الجنه نهتدى إلى بصيره هامه ينبغى لطلائع التغيير الحضارى و قاداته أن يدركوها و يأخذوا بها فى تحركهم إلى ذلك الهدف العظيم، و هى: أن المجتمعات و الأمم حينما تضل عن الحق و تتبع النظم البشريه المنحرفه تصير إلى الحرمان، و تحدث فى داخلها هزه عنيفه (صحوه) ذات وجهين: أحدهما:

ص: ٢٢٧

القناعه بخطأ المسيره السابقه،و الآخر:البحث عن المنهج الصالح،و هذه خير فرصه لهم يطرحوا فيها الرؤى و الأفكار الرساليه و يوجهوا الناس إليها.و إنها لظروف أمتنا الإسلاميه التي جرت اليمين و اليسار و تعيش الآن مخاض العوده إلى الخيار الإلهى الأول بروح عطشه لتلقى الرساله و الطاعه لحملتها و القاده إليها.

و كذلك وقف أصحاب الجنه من أوسطهم و دعوته للعوده إلى الحق:

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ أَنَا كُنَّا ظَالِمِينَ فالقيم الإلهيه إذن صحيحه لا خطأ فيها لأنها تنزل من عند الله صاحب الكمال المطلق،إنما الخطأ و الداء فى الإنسان الذى يظلم نفسه بالانحراف عن الحق.و كذلك ينبغى للأمم الإسلاميه أن تقيم واقعها و هى تبحث عمّن هو المسؤول عن تخلفها،هل الإسلام أم المسلمين؟ و هكذا سبّحوا ربهم لكى لا يلقوا بمسؤوليه خطئهم على الأقدار،لأنّ ذلك كان يعيق انطلاقتهم نحو التغيير و الإصلاح.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ يلقى كلّ واحد المسؤوليه على غيره،و هذه من الطبائع البشريه أن يدعى الإنسان المكاسب و يتهرّب من التبعات و النكسات،و على ذلك مضى المثل:

«الhezime يتيمه و للانتصار ألف أب»،و لكنّ أصحاب الجنه تجاوزوا هذه العقبه أيضا،و اعترفوا جميعهم بالمسؤوليه إيماننا منهم بأنّها الحقيقه الواقعيه،و السبيل النافع الوحيد للتغيير الجذرى الشامل.

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنْ كُنَّا طَاغِينَ

أى الويل (العذاب) لنا و بسببنا إذ طغينا، و الطغيان أعظم من الظلم لأنه تجاوز الحد فيه، و هكذا يجب أن يعترف الإنسان (فردا و أمه) بحجم الخطيئه الواقعي دون تصغير يدعو إلى التبرير، و لا تضخيم يبعث روح اليأس من الإصلاح، بل اعتراف الشجعان الذى ينفخ فى النفوس روح التوبه النصوح إلى الله، و رجاء المتطلعين إلى الإصلاح و الخير.

عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يُّبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.

إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ وَ بالرغبه إلى الله يتجاوز الإنسان فتنه الدنيا و أسرها الذى يقع فيه بالرغبه الطاغيه إليها.

و فى نهايه القصة يضع القرآن أماننا أعظم المواعظ و العبر التى تهدي إليها و هى: ضروره أن يتخذ الإنسان حوادث الدنيا و أحداثها علامه و آيه هاديه لما فى الآخره.

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ قيل: يعنى لو كانوا يعلمون عذاب الآخره، و هو صحيح، و الأقرب منه أن صاحب البصيره و العلم يعرف و هو فى الدنيا بإيمانه و بصيرته أن ما فى الآخره أعظم حينما يرى العذاب فى الدنيا. و هنا يتضح الفرق بين صاحب البصيره الذى يرى الحقائق بعقله (كأوسط أصحاب الجنه) و بين أصحاب الجنه الذين اهتمدوا لعظمه عذاب الآخره بما وقعوا فيه من الويل الدينوى، أو يكون ضالا فلا يهتدى

رغم الآيات و المواعظ.

و لعلنا نستوحى من عموم القصة أنّ بعضا من المكذّبين و المترفين الذين كانوا فى محيط الرسول آنذاك ترجى لهم التوبه و الهدايه كأصحاب الجنه،بالذات و أنّ الله فى الآيات القادمه يدعو النبى-صلّى الله عليه و آله و سلّم-أن لا يتعجل كصاحب الحوت فى الحكم على قومه بل يصبر لحكم الله الذى سيظهر فى المستقبل فقد يتوبون كما تاب قوم يونس-عليه السلام-و من هذه الفكره يجب على الدعاه أن يستمدوا سعه الصدر و كظم الغيظ إذ يواجهون الرفض و العناد فى طريق نشر الرساله بين الناس.

ص: ٢٣٠



اشاره

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَآيَاتٍ تَحِيرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ آيَاتٌ أَنْ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَأَلُهُمْ آيُهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَفِّ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّي لَنَبَذَ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)

اللغه

٤٣] ترهقهم]: الرهق لحاق الأمر، ومنه: راهق الغلام إذا لحق بالرجال، وقال البعض: الرهق اسم من الإرهاق وهو أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه، ومنه: «سأرهقه صعوداً».

٤٦[مغرم]: ما يلزم من الدين الذى يلح فى اقتضائه، و أصله من اللزوم بالإلحاح، و منه قوله: إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا أَى لازما ملحا.

٤٨[مكظوم]: المكظوم هو المحبوس عن التصرف فى الأمور، و منه: كظمت رأس القربه إذا شددته، و كظم غيظه إذا حبسه بقطعه عما يدعو إليه، و كظم خصمه إذا أجابه بالمسكت.

ص: ٢٣٢

فى هذا الدرء تعالج الآيات أسباب التكدب بالرساله و التهرب من مسئولياتها، وهى:

أولاً- الأمنيات الباطله التى تحلم بتساوى الناس فى الجزاء، الأمر الذى يبرر للمترفين عدم التصديق بالرساله و العمل بمضامينها و تحمل المسئوليه فى الحياه، و لماذا يكلف الإنسان نفسه ما دام الجزاء واحداً؟ و القرآن بعد أن يؤكّد على عظيم ثواب المتقين و شديد عذاب المجرمين، يسفّه الحكم الباطل لى البعض بتساوى الفريقين عند الله، و ذلك بأدله وجدانيه لا بد للإنسان السوى من التسليم لها.

ثم تبين الآيات بأنّ جزاء الآخره ليس إلاّ تجسّدات واقعيه لأعمال الإنسان

التي اختارها بتمام وعيه و إرادته في الدنيا، لذلك لا يستطيع أحد سجوداً يوم يكشف عن ساق الجد رغم الدعوه الإلهيه له إلى ذلك، و تغطى وجهه الذله.

لماذا؟ لأنه أعرض عن السجود و قد كان في سلامه ماديه و معنويه في الدنيا، و إنّ هذه الحقيقه تبعث في وجدان المؤمنين روح المسؤليه التي يعتمقها الوحي بتحذير الإنسان من أنه لو كذب بهذا الحديث فسوف يستدرجه من حيث لا يعلم، الأمر الذي يصير به إلى سوء العذاب، و لا يكون له في الآخره من خلاق، و ذلك من متين كيده عزّ و جلّ الذي يحسبه المترفون خيراً.

ثانياً: الموقف الخاطئ من الرساله و الاعتقاد بأنّها مغرم، لما فيها من مسؤليه و بالذات واجب الإنفاق المفروض على أصحاب الثروه، و إنّها لكبيره على المترفين الذين أسرتهم الأموال و يتضاعف حرصهم كلّما فتح الله لهم أبواباً من الدنيا و أملى لهم.

ثالثاً: البطر الذي يجعل الإنسان لا يشعر بالحاجه إلى الرسول و الرساله، بل قد تراه يزعم أنه قد أعطى الغيب بيده! الآية (٤٧).

و هذه الأسباب الثلاثه ذاتها تجعل الحركه التغييريه في أوساط المترفين و في ظلّ هيمنتهم حركه بطيئه و صعبه مما يوجب على كلّ مصلح رسالي أخذها بعين الإعتبار، فيصبر لحكم ربه، مستقيماً على رسالته لا يتراجع عنها، و لا يصاب بردّه فعل سلبيه قد تقوده إلى تكفير مجتمعه أو هجرته، كما فعل النبي يونس بن متى -عليه السلام- الذي يثس من التغيير فدعى على قومه فابتلى بالسجن في بطن الحوت، فإنّه يجب على كلّ رسالي الصبر في طريق الرساله و إن كان المكذّبون يكادون من الحقد و البغض يزلقونه بأبصارهم، و يمارسون ضده حرباً إعلاميه شعواء سلاحها الشائعات و التهم و الدعايات المغرضه، الآيات (٥١/٤٨).

و كما يجب أن يستقيم الداعيه على أهدافه الربانيه دون يئس من إصلاح الناس، كذلك يجب أن لا يفقد ثقته برسالته فيشكك نفسه في قيمها لعدم تجاوب الناس معه أو لإعلام المترفين و المتسلطين ضدها.

### بينات من الآيات:

[٣٨-٣٤] بعد التحذير من العذاب في الدنيا و من العذاب الأكبر في الآخرة يرغّبنا السياق في الجزاء الحسن الذي أعدّ للمتقين دون سواهم، و ذلك بالتأكيد على أنه لا يشمل كلّ من هبّ و دبّ، لأنّ للجزاء الإلهي مقاييس دقيقه حيث يتناسب بنوعه و قدره و درجات الناس الإيمانيه و أعمالهم الصالحه.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ و لم يقل (جنات نعيم) لأنّ الألف و اللام يجعلان الكلمه أوسع معنى، فبينما يدل قولنا: (نعيم) على جزء منه يتسع النعيم لتمام المعنى مما يتناسب و معالجه السياق لموضوع الترف حيث يسمو بالمؤمنين عن فتن الدنيا و يفتح أمامهم أفقا من النعيم الذي لا ينتهى عند حدّ و لا زمان فتصاغر عنده الدنيا، فلا يجدون ضيرا لأنّها زويت عنهم، لأنّ الآخرة خالصه لهم، كما قال تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١)، و بهذا تتعادل الصوره في أذهان المتقين بأنهم إن لم يملكوا في الدنيا من متاعها فالآخرة خالصه لهم.

و بيان هذه الحقيقه أنّ الجنات للمتقين يمهد القرآن لإبطال أمانى المجرمين بتساويهم مع المؤمنين في الجزاء، و تلك الأمانى عامل من عوامل تكذيب المترفين

ص: ٢٣٥

الرساله يعالجها القرآن الكريم فى هذا السياق، و هى التاليه:

أولاً: الأمنيات الباطله بالتساوى فى الجزاء مع المؤمنين.

هل يتساوى الصالح و الطالح؟ كلاً..إنه مرفوض عند كل عاقل.

أَفَنَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ و المسلم هو الذى سلم نفسه لله بتطويعها وفق أوامره. و السؤال: لماذا قدّم المسلمين على المجرمين بينما يفترض العكس باعتبار السياق ينفى مزاعم المجرمين بأنهم متساوون مع المتقين فى الثواب؟ و لكنّ المتدبر حينما يمعن النظر يهتدى إلى لطائف بلاغيه لترتيب الكلمات فى الآية:

١- أنه تعالى فى نهايه قصه أصحاب الجنه أكد حقيقه العذاب و أنه فى الآخره أكبر، ممّا يرجّح كفه الرهبه فى النفس، فجاءت الآيتان (٣٥/٣٤) لتحقيق المعادله عند المؤمنين بالتأكيد على أن لهم جنات النعيم، و أنهم لا يعذبون كالمجرمين، و يرفع الله رجاء المتقين إلى أقصاه حينما ينفى تساوى المجرمين مع المسلمين الذين هم أقل شأنًا من المؤمنين فكيف بالمتقين الأرفع درجه حتى من المؤمنين؟ و من جانب آخر يزيد من يأس المجرمين من الثواب حينما لا يفسح مجالاً حتى لمجرد الاحتمال بأنهم يمكن أن يتساووا مع المسلمين بتقديمهم فى الآية (المجرمين كالمسلمين) و جعل مدارها حول الثواب بدل العقاب، فإنّ الآية على حالها تجعل العذاب مسلماً به للمجرمين و يبقى التساؤل عن مصير المسلمين هل يتبعونهم فيه أم لا؟ ٢- إنّ الجزاء فى واقعه ذات العمل الذى يقوم به كل إنسان خيراً أو شراً، و لو أنه سبحانه أعطى للمجرمين جنات النعيم كما يعطى المسلمّين له لكان الأمر من

أحد جهاته جعلاً- لهم كالمجرمين، و كأنهم لم يعملوا ما يميّزون به عنهم، بل و كأنهم عملوا أعمالهم الإجراميه التي ساوت المصير و الجزاء بين الفريقين، و هذا ما ينكره كلّ عاقل سليم، و يستنكره السياق:

﴿لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعنى على أى أساس و منهج؟ و لا- يملك المترفون المجرمون أمام هذا المنطق إلاّ- التسليم له و نبذ الأمنيات الباطله بالعوده إلى الحق و تحمل المسؤوليه فى الحياه كضروره وجدانيه و عقليه. و إنّه ليضعهم أمام واحده من إجابتين: فإما أن يحكموا بالتساوى، و هذا ما يرفضه كل عاقل، و إمّا أن يحكموا بالاختلاف و أنّ الثواب للمسلم و العذاب للمجرم (كما يحكم العقلاء) فلا بد إذن أن يضرّبوا بظنونهم عرض الحائط، ثم كيف يتمنون على ربهم ذلك الحكم الجائر و هو المنزّه عن الظلم و الجهل؟ و ما أظهر تسفيه هاتين الآيتين لبعض الفلسفات الصوفيه المفرطه فى الرجاء، التي يستبعد دعائها أن يعذب الله أحدا من الناس و هو الرؤوف الرحيم، بل و يفسرون آيات العذاب القرآنيه على أنّها لمجرد التخويف و سوق الناس نحو العمل بالحق ليس إلاّ!! إنّ أمانى المترفين بالتساوى مع المؤمنين عند ربهم من العوامل الخطره التي تدعوهم إلى التكذيب بالحق و الحياه اللامسؤوله، و التي تعيق فيهم أىّ سعى جاد، بل و تبعث فيهم أسباب الاجرام. و أىّ قيمه تبقى للأحكام و الحدود الإلهيه إذا كفر الإنسان بحقيقه الجزاء و بأنّه من جنس العمل؟! و أىّ حافز للالتزام بأوامر الله، و الارتداع عن نواهيه يظلّ إذا كفرنا بالآخره أو فصلنا بينهما و بين الدنيا؟! و لذلك يتصدى السياق حتى الآيه (٤٥) للرد على تلك الأمانى و الظنون.. و هكذا بعد أن أوضح بأنّها لا تستند إلى أى دليل وجدانى و لا عقلى ينفى استنادها إلى الوحي

المصدر الثاني للعلم الحق، بل حتى إلى كتاب معتبر لدى العقلاء.

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ\* إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لِمَا تَحْيُرُونَ و الكتاب الذى يدرسه الإنسان هو العلم الثابت الذى يعتمد منهجا فى الحياه فيعكف على دراسته بالبحث لفهمه و تطبيق ما فيه، وليس ثمه كتاب إلهى و لا حتى بشرى معتبر لدى الناس يساوى فى قوانينه و قيمه بين البرىء و المجرم مهما اختلفت الكتب البشرية و القوانين الوضعيه فى تحديد مصاديق المجرم، لأنّ الكتاب الذى يخالف كلّ قيم العرف لن يكون مقبولا عند الناس، و إذا يحكم المترفون بالتساوى عند الله بين المجرم و المسلم فإنّما ينطقون من الأهواء و الأمانى التى لا اعتبار لها عند العرف العام.

و هذه الآيه تستثير فطره الإنسان و وجدانه و تستشهد بما تعارف عليه الناس على اختلاف مذاهبهم و قومياتهم، كما الآيات القرآنيه الأخرى التى تفرّق بين المسلمين و المجرمين كآيئه (٣٥)، و بين الجاهل و العالم (١)، و بين الأعمى و البصير (٢)، و بين أصحاب الجنه و أصحاب النار (٣).

و الآيه (٣٨) تكشف عن حقيقه يمكن لكلّ إنسان أن يلمسها فى واقع المترفين المستكبرين السياسى و الاجتماعى، و هى أنّهم لا يريدون أن تحكّم شريعته أو نظام قانون أنّى كان نوعها، فحتى الدستور الذى يضعونه بأنفسهم، و حسب القياسات التى يختارونها لحكّمهم تراهم يتهربون منه، و لا يرضون به حكما بينهم و بين الناس. لماذا؟ لأنّ ذلك الدستور مهما كان ظالما و منحرفا لا بد أن ينطوى على نسبه

ص: ٢٣٨

١- (١) الزمر ٩ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

٢- (٢) فاطر ١٩ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ .

٣- (٣) الحشر ٢٠ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ .



من القيم حتى يكون مقبولاً عند العرف العام، وتلك النسبه تدين طائفه من تصرفاتهم فلا يريدونها، وهكذا كانت مخالفه حكم العقل والقانون من أظهر سمات المجرمين، كما أنّ تحكيم الهوى والشهوات من أعظم بواعث الجريمة.

ولعلنا نهتدى من ذلك إلى أنّ من عظمه الإسلام أنّ فيه قيماً أساسيه ثابتة لا يمكن تبديلها وتحويلها، بل أن تبقى هي الميزان في المجتمع، وهذه القيم لا يعطى الله لأحد (من رسول وإمام أو حاكم شرعى أو دوله) الحقّ فى خرقها تحت أىّ عنوان، ولأىّ سبب بالغ ما بلغ، والحكمه فى ذلك أنّها فوقهم جميعاً، وأنّ دورهم هو التنفيذ وليس التشريع، كما أنّ رساله تفقد مصداقيتها وقيمتها لو بدلت فيها هذه القيم، بل إنّ المصلحه العامه قد تقتضى تغيير بعض القوانين ولكن ضمن إطار قانونى معيّن.

[٤٣-٣٩] وبعده أن نفى السياق أىّ شاهد من عقل أو نقل (كتاب) يؤيد مساواه المسلمين والمجرمين، ينفى أن تكون للمجرمين أيمان على الله تقتضى براءتهم من النار وتحللهم عن أيّه مسئوليه تجاه أعمالهم.

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْبَالِغَةِ وَالْأَيْمَانُ الْبَالِغَةُ إِمْيَا بِمَعْنَى التَّامَةِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَشُرُوطِهَا، نَقُولُ: بَلَغَ الصَّبِي إِذَا تَمَّتْ رَجُولَتُهُ وَاسْتَوَى، أَوْ بِمَعْنَى الْإِيمَانِ الَّتِي لَا تَنْقُضُ وَالَّتِي تَتَّصِلُ..

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتَقْضَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُونَ بِضُرْسٍ قَاطِعٍ أَنَّ لَهُمْ بَرَاءَةً مِنَ الْعَذَابِ.

إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ

فأنتم مَفْوضون من قبل الله؟! أو هذا لا دليل عليه، فلو كانت ثمه يمين حلف بها الله فإنها ستكون في رسالته و الحال أن فيها أيما مناقضه بأن يملأ جهنم من المجرمين، و لعل قوله تعالى **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَهْدِينَا إِلَى أَنَّهُمْ فِي الظاهر يحكمون رقاب الناس في الدنيا و لكنّ الوضع يختلف تماما في الآخرة إذ لا تبقى لهم أيّة سلطه، فهناك الولايه لله الحق و له الحكم، بل في الدنيا أيضا ليس بالضروره أن يكون لهم ما يتمنون و يحكمون، لأنهم لا يقدرّون على شيء إلا بإذن الله القاهر فوق عباده.**

بلى. هناك وعد عند الله للمؤمنين بالمغفره و الجزاء الحسن إذا ماتوا مؤمنين، و ليس إلى يوم القيامة دون شرط أو قيد. و ما يتوهمه بعضهم من أنّ السلطان ظل الله في الأرض، أو أنّه يعفى عن مسؤوليات أفعاله، لا يعدو مجرد تمنيات تفرزها الأهواء، و هي تتبخر عند الحجّه العقليه. من هنا يتحدى السياق أن يملك أحد الشجاعه على تبني ذلك القول و الدفاع عنه و المجادله بشأنه.

**سَلُّهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ وَ الزعيم: الكفيل الذي يقوم بالأمر و يتصدى له، و منه زعيم القوم، و لا أحد يتكفل هذا الأمر لأنه لا يعتمد على دليل منطقي، إنّما ينطلق من الخيال و الظن، و هذه الآيه تتشابه و قوله تعالى: **فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١).****

و يمضى السياق قدما في تسفيه الزعم الواهى بتساوى المجرمين مع المسلمين، حيث ترى كثيرا من المجرمين و المذنبين يتكلمون على الشركاء و الأنداد، و يزعمون بأنهم ينقدونهم من جزاء أفعالهم المنكره، و يزعمون بأنهم يستطيعون التأثير على

ص: ٢٤٠

حكم الله بحكم الشركاء معه في الملك و التدبير، سبحانه، وهكذا تراهم يعتقدون بالشفاة الحتمية التي تقتضى نجاتهم من العذاب يقينا بفعل تأثير الآلهة الصغار كالأصنام و الملائكة و الجن و الأولياء الذين يتوهم البعض أنهم يتقاسمون الله الربوبية سبحانه و تعالى.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ و المشركون حينما يعودون إلى وجدانهم، أو عند المواجهه العلميه بالجدال أو الواقعيه حيث يجازى الله الناس، يعرفون أن لا- حول للشركاء، و أنهم إنما يخذعون أنفسهم و يخادعون الآخرين إذ يتظاهرون بعقيدته الشرك، و لقد رأينا كيف أفحم نبي الله إبراهيم-عليه السلام-المشركين في عصره عند المجادله، قالوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَةِ يَا إِبْرَاهِيمَ\* قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَدُّوا لَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ\* فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ\* ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ\* قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ أَفْ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١).

و في هذه النهايه القويه يتضح لنا أنه تعالى في الآيه (٤١) من سوره القلم إنما طالبهم بأن يأتوا بشركائهم استنثاره لوجدانهم و عقولهم للتحقيق في زعم الشركاء، باعتبار أن بطلانه لا يحتاج إلى أكثر من ذلك، فهناك مزاعم كثيره يسترسل معها الإنسان و يعتبرها مسلّمات بل مقدّسات و لكن بمجرد عرضها على عقله و وجدانه و التفكير فيها بجدّ يتبين له مدى سخفها، و إنما كانت هذه المسلّمات تستمد قوتها من التمنيات و من الغفله و الجهل.

و إذا كان الإنسان قادرا على فضح باطل الشركاء بالوجدان و العقل في الدنيا

ص: ٢٤١

فإنَّ كذب كل مزاعمهم و ظنونهم الباطله يتبين بأجلى صورته فى الآخريه.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ و للكشف عن الساق تفاسير أهمها:

ألف: قيل أنه ساق العرش يكشف الله عنه يوم القيامة، و

قال الإمام الرضا -عليه السلام-: «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجدا» (١).

باء: و أوغل البعض فى الوهم إذ قالوا أنه ساق الله سبحانه عمّا يصفون، و

رووا عن النبي -صلى الله عليه و آله- أنه قال: (يكشف الله عزّ و جلّ عن ساقه) و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن منده عن ابن مسعود..

قال: عن ساقه تبارك و تعالى.. و ضعّفه البيهقي (٢)، و يبدو أنّ ذلك من أفكار المجسّمه التى تسرّبت إلى الثقافات الدينيه لدى بعض المسلمين، كما اختلطت مع الأفكار المسيحيه من قبل. و قد ردّ الفخر الرازى ردّا مفصّلا على هذه الخرافه فى التفسير الكبير (٣).

جيم: و قد يكون الكشف عن الساق كناية عن أنه يوم الجد و الشده، و فى المجمع عن القتيبي: أصل هذا أنّ الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه يشمّر عن ساقه، فاستعير الكشف عن الساق فى موضع الشده.. تقول العرب:

قامت الحرب على ساق، و كشفت عن ساق يريدون شدّتها.. قال الشاعر:

قد شمّرت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا و القوس فيها وتر

ص: ٢٤٢

١-١) نور الثقلين ج ٥ ص ٣٩٥.

٢-٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٥٤.

٣-٣) التفسير الكبير عند الآيه فى المجلد ٣٠.

دال: و يمكن القول أنه كناية عن تجلّي أصول الحقائق، و إنما استخدم القرآن الكشف عن الساق لأنّ ساق الشيء أصله، و على هذا قيل ساق الشجرة. و يوم القيامة هو يوم الكشف عن أصل الحقائق فهناك يكشف للناس الحق الأصل و أعمالهم، قال على ابن إبراهيم: يوم يكشف عن الأمور التي خفيت (٢)، و لعلنا نلمس تلويحا إلى هذا المعنى في قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٣). إذن فيوم القيامة هو يوم سقوط الحجب عن الحقيقه ليراها الناس كما هي، و هل ترى الساق إلا- حينما يكشف عنها ما يمنع الرؤيه عنها؟ و كذلك يتضح للمجرمين بطلان حكمهم بالتساوى مع المسلمين، و أنه ليس من كتاب يؤيد ذلك، و لا- يمين بالغه قطعها الله على نفسه لصالحهم، و لا شريك موجود فينفعهم يوم القيامة إن لم يكتشفوا ذلك بأنفسهم في الدنيا، فيهدتوا للحق، و يسلمون لله بدل ممارسه الجريمه حيث الفرصه قائمه لا تزال، و إلا فإن شيئا من ذلك لا ينفعم قيد شعره في الآخره لأنها دار جزاء لا عمل فيها.

وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ دَعْوَةَ تَشْرِيْعِيَةٍ يُوَجِّهُهَا مُنَادَى الْحَقِّ يَوْمَئِذٍ، وَ تَكْوِينِيَةٍ يَفْرُضُهَا هَوْلُ الْمَوْقِفِ وَ عَظْمَةُ تَجَلِيَّاتِ الْحَقِيقَةِ، وَ هُنَالِكَ يَسْتَجِيبُ الْمُؤْمِنُونَ لِرَبِّهِمْ بِطَبِيعَةِ التَّسْلِيمِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا، وَ بِفِعْلِ الْخَشْيَةِ مِنْ مَقَامِ اللَّهِ، بَلْ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَحْشَرِ

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٣٩.

٢-٢) تفسير القمي ج ٢ ص ٣٨٣.

٣-٣) ق ٢٢.

إلا الاستجابة لدعوه الحق لو لا أنه تعالى بحكمته يمنع المجرمين من ذلك.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

جاء فى الحديث المأثور عن النبى-صلى الله عليه و آله-: «تبقى أصلابهم طبقا واحدا» (١) أى فقاره واحده، و

فى نور الثقلين عن الإمام الرضا-عليه السلام- «تدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود» (٢)، و بالاضافه إلى هذا المعنى الظاهرى تتسع الآيه لمعنى أعم و هو أن المجرمين لا- يملكون يوم القيامة أيه حريه، ليعلموا أن ليس لهم ما يتخيرون و لا- ما يحكمون كما كانوا يظنون، و ليسوا كوضعهم فى الدنيا حيث أطلقوا العنان لأهوائهم فلم يراعوا حلال الله و حرامه و لا حقا و باطلا، و بالذات أولئك الذين تسلطوا على رقاب الناس فتمادوا فى الجريمة طغيانا و ظلما.

و يصور لنا القرآن حالهم حيث الهوان الظاهر على جوارحهم و وجوههم، و الذله الباطنه التى تكاد تقتلهم إرهاقا فى المحشر. و قد شمخوا بأنوفهم حتى كادت تستطيل مثل الخرطوم، و استكبروا و بالغوا فى التظاهر بالعه فى الدنيا لأنهم فى أيديهم المال و السلطه و حولهم الأتباع.

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ مَّرْسَلَةٌ إِلَى الْأَسْفَلِ لَا- يرفعونها بين الناس لما هم فيه من ذلّ الموقف الذى لا يستطيعون معه حتى النظر إلى الآخرين.

تَزَهَّقُهُمْ ذَلَّةٌ

ص: ٢٤٤

١- ١) الكشاف ج ٤ ص ٥٩٥.

٢- ٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٣٩٥.

أى تغشاهم و تعلقو وجوههم ذله، و يحتمل أن يكون المعنى أى تحمّلهم الذله مالا- يطيقون من الأذى المعنوى، و تتعبهم كما تتعب الكلاب الصيد، يقال: أرهقه أى حمّله على ما لا يطيق، و حكمه الله فى منع المجرمين عن السجود بعد أمرهم به فضيحتهم فى المحشر حيث يمتاز بامتحان السجود المسلم عن المجرم،

قال قتاده ذكر لنا أنّ النبىّ -صلى الله عليه و آله- كان يقول: «يؤذن للمؤمنين يوم القيامة فى السجود فيسجد المؤمنون، و بين كل مؤمن منافق فيتعسّر ظهر المنافق عن السجود» (1)، و بذلك يعرف الناس حقيقته، حيث أنّ الآخرة فى حقيقتها انعكاس لأعمال الإنسان فى الدنيا، و بالتالى فإنّ التمايز فى الجزاء هناك هو صورته للتمايز فى الأعمال و الصفات هنا فى الدنيا، و هذا يعمّق المسؤوليه فى النفوس، و يدفعها باتجاه التسليم لربها و استغلال فرصه الدنيا لمستقبل الآخرة.

وَ قَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ مَعْنَوِيًا وَ مَادِيًا بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِذْرٌ يَبْرُرُ عَدَمَ تَسْلِيمِهِمْ لِدَعْوَةِ اللَّهِ سِوَى اتِّخَاذِهِمُ الْهَوَىٰ إِلَهَا مِنْ دُونِهِ عِزٌّ وَ جَلٌّ، وَ لَعَلْنَا نَسْتَوْحِي مِنْ الْآيَتَيْنِ (٤٢-٤٣) فَكْرَهُ هَامَهُ تَتَّصِلُ بِسَلُوكِ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا، وَ هِيَ: أَنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يَسْتَغْلِ نَعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ كَالصَّحْحَةِ وَ الْغِنَىٰ فَإِنَّهَا قَدْ تَسَلَّبَ مِنْهُ فِي فُتُوته الْإِنْتِفَاعَ بِهَا، أَوْ يَسْلُبُهُ اللَّهُ تَوْفِيقَ الطَّاعَةِ بِسَبَبِ تَمَادِيهِ فِي الْمَعْصِيَةِ وَ الْجُرَيْمِ حَتَّىٰ يَصِلَ بِهِ الْأَمْرُ أَنَّهُ قَدْ يَفْكَرُ فِي التَّوْبَةِ وَ الْإِسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ رَبِّهِ وَ لَكِنَّهُ لَا يَوْفُقُ لِذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ طَبَعَ عَلَىٰ قَلْبِهِ.

[٤٤-٤٥] و لأنّ المترفين يعتبرون تتالى النعم عليهم دليلا على رضاه تعالى عنهم، فيتمادون فى التكذيب بالرساله و محاربه الرسول اعتمادا على ذلك، جاءت الآيات تؤكّد بأنّ الحقيقه عكس ذلك تماما لأنّ الله يكيّد لهم عبر خطه حكيمه،

ص: ٢٤٥

وَأَيُّ كَيْدٍ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي يَحْسِبُهُ الْإِنْسَانُ خَيْرًا وَهُوَ شَرٌّ وَبِيلٌ، وَيَنْطَوِي عَلَى حَرْبٍ مَبَاشِرَةٍ بَيْنَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ الْجَبَّارِ الشَّدِيدِ الْعِقَابِ وَبَيْنَ الْمَخْلُوقِ الْحَقِيرِ الضَّعِيفِ الْمَسْكِينِ يَمْشِي إِلَيْهَا بِرِجْلِهِ وَيَقَعُ فِي فَخَاخِهَا بَغْتَةً؟! فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ يَعْنِي الرِّسَالَةَ الَّتِي هِيَ حَدِيثُ اللَّهِ إِلَى الْإِنْسَانِ، وَمِنَ الرِّسَالَةِ حَدِيثُ الْآخِرَةِ وَالْعَذَابِ، وَمَا أَخُوفُ هَذِهِ الْآيَةِ لِلْمَكْذِبِينَ أَنْ يَبَارِزَهُمْ رَبُّ الْعِزَّةِ مَبَاشِرَةً، وَمَا أَسْوَأُ مَصِيرٍ مِنْ لَا تَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ رَحْمَةٌ! وَمَا أَرْجَى هَذِهِ الْآيَةَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ لِلرِّسَالِيِّينَ الَّذِينَ يُوَاجِهُونَ تَحْدِيَّاتِ الْمُتَرَفِّينَ فِي مَسِيرَتِهِمُ الْجِهَادِيَّةِ، فَإِنَّهَا تُلْجِجُ صُدُورَهُمْ وَتَزْرَعُ فِيهَا الْإِطْمِئْنَانَ وَالسَّكِينَةَ بِأَنَّهُمْ مُنْتَصِرُونَ وَمَحْمِيُونَ لِأَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنْهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَدْمُرُ الْمَكْذِبِينَ بِدَعْوَتِهِمُ الصَّادِقَةِ وَالْمُعَارِضِينَ لَهَا، إِنَّ خَطَةَ الْحَرْبِ الْإِلَهِيَّةِ ضَدَّهُمْ تَمَرَّ خِلَالَ كَيْدِ مَتِينٍ (قَوِيٍّ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ تَحْدِيَّهَ وَالْإِنْتِصَارَ عَلَيْهِ، وَمُحْكَمٌ لَا يَجِدُ الطَّرْفَ الْآخَرَ ثَغْرَهُ يَنْفِذُ فِيهَا حِينَمَا يُوَاجِهُهُ) بِحَيْثُ يَدْخُلُ هُوَ كَعَنْصَرٍ فَعَّالٍ ضِدَّ نَفْسِهِ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ وَمِنْ حَيْثُ لَا يَتَوَقَّعُ.

سَسَيَتَدْرَجُ جُحُومُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ فِي الْمُنْجَدِ: تَدْرَجُ إِلَى كَذَا تَقْدِمُ إِلَيْهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَاسْتَدْرَجَهُ صَارَ بِهِ مِنْ دَرَجِهِ إِلَى دَرَجِهِ وَخَدَعَهُ (١)، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُمْ يَتَقَدَّمُونَ لِلْوُقُوعِ فِي الْمَكِيدَةِ مِنْ خِلَالَ نِقَاطِ ضَعْفِهِمْ عِنْدَهُمْ، هُمْ قَاصِرُونَ عَنْ وَعِيهَا، بِحَيْثُ يَصِيرُهَا اللَّهُ عَامِلًا يَسْتَحْتَهُمُ لِلْوُقُوعِ فِي عَذَابِهِ. وَمِنْ أَهَمِّ نِقَاطِ ضَعْفِهِمْ مَا أَتْرَفُوا فِيهِ

ص: ٢٤٦

١-١) المنجد مادة درج بتصرف.



من الأحوال و الأتباع الذى يزيد لهم فيه ليظفوا فى الدنيا و يأتوا يوم القيامة لا خلاق لهم.

وَ أَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ وَ كَلَّمَا أترفهم الله ظنوا ذلك دليلا على رضاه عنهم، و أنّ مسيرتهم سليمة، فيتمادون فى الانحراف و لا يعلمون أنّ الإملاء كيد متين ضدهم، فذّرهم فى غمّرتهم حتّى حين\* أ يحسبون أنّما نمدّهم به من مالٍ و بين\* نَسَارِعُ لَهُمْ فى الخيرات بل لا يشعرون (١)، و لا يحسبنّ الذين كفروا أنّما نملى لهم خيرا لأنفسهم إنّما نملى لهم ليزدادوا إثما و لهم عذاب مهين (٢)، و الإملاء هو الزيادة فى النعم و الإمهال فى الأخذ، و لماذا يستعجل الله و هو لا- يفوته أحد و له الأولى و الآخرة؟ و فى النصوص تحذير من حاله الاستدراج الذى يأتى نتيجة لاسترسال الإنسان،

قال الإمام الصادق-عليه السلام:- «إذا أحدث العبد ذنبا جدّد الله له نعمه فيدع الاستغفار فذلك الاستدراج» (٣) و

قال-عليه السلام:- إذا أراد الله عزّ و جلّ بعبد خيرا فأذنب ذنبا تبعه بنقمه و يذكره الاستغفار، و إذا أراد الله عزّ و جلّ بعبد شرا فأذنب ذنبا تبعه بنعمه لينسيه الاستغفار و يتمادى به، و هو قول الله عزّ و جلّ: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» بالنعم عند المعاصى (٤)، و

فى روايه: «أنّ رجلا- من بنى إسرائيل قال: يا ربّ كم أعصيك و أنت لا تعاقبنى؟! فأوحى الله إلى نبيّ زمانهم أن قل له: كم من عقوبه لى عليك و أنت لا تشعر، إنّ جمود عينيك و قساوه قلبك استدراج منى و عقوبه لو عقلت»، و فى

ص: ٢٤٧

١-١ (١) المؤمنون ٥٤-٥٦.

٢-٢ (٢) آل عمران ١٧٨.

٣-٣ (٣) مجمع البيان ج ١٠ عند الآية.

٤-٤ (٤) نور الثقلين ج ٥ ص ٣٩٧.

الكشاف قال الرمخشى: قيل: «كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه» (١).

ثانياً: الاعتقاد بأن الرسالة مغرم.

[٤٦] و ثمّه مرض عضال يستولى على قلوب المترفين يدعوهم للتكذيب بالرسالة و الرسول و كل حركه إصلاحيه فى المجتمع و هو شعورهم الخاطئ بأن الاستجابة لها و اتباع المصلحين مغرم يخالف مصالحهم و من طبيعه رؤوس الأموال و أصحابها الجبن. و لكن هل الرسالة جاءت لتأخذ منا شيئاً أم جاءت لتعطينا الكثير و فى مختلف جوانب الحياه الفرديه و الاجتماعيه و الحضاريه؟ بلى. قد يتصور الإنسان حينما يلاحظ برامج الإنفاق التى تفرضها رساله الله و تدعوا القيادات الرساليه إليها أن الاستجابة لذلك مغرم، و لكنّ البصيره النافذه تناقض ذلك تماماً، فإنّ المجتمع حينما تحكمه القوانين الإلهيه سوف ينمو اقتصادياً و حضارياً لصالح الناس و حتى لصالح أصحاب الثروه، لما فى الرسالة من برامج لتنميتها و تدويرها. و ليس أدلّ على ذلك من دراسه تجربه مجتمع الجاهليه المتخلف فى شبه الجزيره العربيه و مقارنتها بواقع الإسلام حينما آمنوا بمناهجه و كيف تطوّرت حياتهم، فلما ذا إذن يكذب المترفون؟! أم تشيئلتهم أجراً فهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ و المغرم فى التجاره الخساره أو ما يعطى من المال على كره (ه)، و التجاره التى يدل الرسول الناس عليها لا خساره فيها، بل هى مشتمله على أرباح الدنيا و الآخره، كما أنه صلى الله عليه و آله لا يسأل أحداً أجراً على تبليغ الرسالة لأنه صلى الله عليه و آله (و كذلك كل قياده رساليه) إنما يبلغ لوجه الله لا يريد جزاء و لا شكوراً، و لا يطالب بمال و لا منصب،

ص: ٢٤٨

(١ - ١) المنجد ماده غرم.

إنما لأجر الله عزّ وجلّ الذى وعده و كل مصلح مخلص فقال: وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ كما مرّ فى مطلع السوره.

نعم. إنّ دعوه الرسول صلى الله عليه و آله خالصه من أىّ تطلّع نحو حطام الدنيا، فلا مبرّر يدعو المترفين للتكذيب به أو التشكيك فى سلامه رسالته، و حيث يتناقفون عن اتباعه فلمرض فى صدورهم.

### ثالثا: البطر.

[٤٧] إنّ المترفين ينظرون إلى الحياه و يقيمون كلّ شىء فيها من خلال الماده (المال و الثروه) و كأنّها كل شىء، و ما دامت فى أيديهم فإنّهم لا- يحسّون بالحاجه إلى العلم أو القائد العالم الذى يهديهم إلى الحق، و يرشدهم فى جوانب الحياه المعنويه، و القرآن ينفى ذلك فيتساءل مستنكرا:

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ كَلًّا- . إنّ علم الغيب يختص بالله، و إذا أخرجه الله فهو إمّا فى رسالته و إمّا عند رسله الذين يرتضى، لأنّهم و حدهم الذين يتصلون به عبر الوحي. و الذى يريد اتصالا بالغيب فلا طريق له إليه إلاّ بالتصديق بالرساله و الرسول و ما كان الله ليطلعكم على الغيب و لكنّ الله يجتبي من رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ (١)، و المترفون يكذبون بهما فكيف يدعون علم الغيب؟! إن علم الغيب عند الله و هو وحده الذى يستطيع أن يكتبه بالقلم على لوح الأقدار، لأنّه لا يتبع الظن أو التخمين. أمّا البشر فإنّهم و لو ادّعوا ذلك

ص: ٢٤٩

(١- ١) آل عمران ١٧٩ و لقد جاءت هذه الآيه الكريمه فى سياق مفصل للترف و المترفين.

(كالمنجمين و الكهنة) فهم لا- يثبتونه بمثل الكتابه باعتباره لا قطع به. و إن المترفين ليدعون علم الغيب حيث يظنون في أنفسهم بأن أموالهم باقيه و سوف تزداد في المستقبل، و لا- يدرون لعلها في علم الله تزول، قال تعالى: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا\* أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا\* كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (١).

و ما داموا لا- يملكون ناصيه العلم فهم بحاجه ماسه إلى مصادره (الرساله) و ما تكذبيهم بهما إلا دليل على ما هم فيه من العتو و الجحود.

[٥٠-٤٨] و الأسباب الثلاثة التي مرّ ذكرها تجعل الحركه التغييريه في أوساط المترفين تواجه تحديات صعبه من شأنها أن توحى للبعض بأن التغيير مستحيل البته، و في ذلك خطران على المصلحين:

الأول: خطر التراجع عن المسيره، كنتيجه طبيعيه لليأس من الوصول إلى الأهداف المنشوده من الحركه التغييريه، أو لا أقل التنازل عن بعض القيم و التطلعات، و الاستسلام للتحديات المضاده، و من ثم المداهنه فيها، و إلى ذلك أشار الله في قوله: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٢).

الثاني: خطر اليأس من الناس، ممّا يؤدي إلى اعتزالهم و الانطواء على الذات، و من ثم إصدار حكم الكفر عليهم ممّا يفقد المصلحين الفاعليه التغييريه.

و هكذا يحتاج الرساليون إلى مزيد من الصبر في مواجهه تكذيب المترفين. الصبر

ص: ٢٥٠

١-١) مريم ٧٧/٧٩.

٢-٢) هود ١٢.

كصفه نفسه تعطيهم روح الاستمرار و الاستقامه على طريق الرساله.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ أَي أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ أَمْرًا شَاذًا، بَلْ هُوَ مِنَ الْقَوَانِينِ وَ السَّنَنِ الطَّبِيعِيَةِ الَّتِي حَكَمَ اللَّهُ بِهَا أَنْ تَكُونَ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ، وَ مَعْرِفَهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَنْفِخَ رُوحَ الصَّبْرِ وَ الِاسْتِقَامَةِ فِي نَفُوسِ الْمَصْلُوحِينَ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ النَّتَائِجَ أَوْ يَكْفُرُونَ الْمَجْتَمَعَ، وَ لَا حَتَّى يَكُونُونَ كَيُونِ بْنِ مَتَّى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الَّتِي زَرَعَتْ تَحْدِيثَاتٍ قَوْمَهُ فِي نَفْسِهِ الْغِيْظَ وَ الْغَضَبَ لِرِسَالِهِ رَبِّهِ فِدَعَا عَلَيْهِمُ بِالْهَلَاكِ.

وَ لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَ هُوَ مَكْظُومٌ

قال الإمام الباقر - عليه السلام - «أى مغموم» (1)، و فى تضاعيف الآيتين (٤٨-٤٩) تحذير للمؤمنين من أن عدم الصبر لحكم الله ليس لا يخدم الرساله فقط، بل و يضرب بهم أنفسهم، كما أضرب بيونس - عليه السلام -.

لَوْ لَا أَنَّ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَسَبَّحَهُ وَ اعْتَرَفَ أَنَّ النِّقْصَ كَانَ فِيهِ إِذْ تَعَجَّلَ بِالْدَعَاءِ عَلَى قَوْمِهِ، وَ لَمْ يَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّهِ فَظَلَمَ نَفْسَهُ، وَ لَيْسَ فِي تَدْبِيرِ اللَّهِ وَ لَا فِي حُكْمِهِ.

لَنَبِّذَ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ مِنْ قَبْلِ رَبِّهِ أَوْ عِنْدَ قَوْمِهِ وَ عِبْرَ التَّارِيخِ بِسَبَبِ مَوْقِفِهِ، وَ نَبَذَ اللَّهُ لَهُ بِالْعَرَاءِ يَدِلُّ عَلَى عَدَمِ رِضَاهُ عَنْهُ، وَ لَكِنَّهُ تَعَالَى تَدَارَكَهُ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ مَعْنُوِيَهُ حَيْثُ تَابَ إِلَيْهِ، وَ مَادِيَهُ حَيْثُ أَخْرَجَهُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ وَ أَنْبَتَ عَلَيْهِ شَجْرَهُ مِنْ يَقْطِينٍ تَظَلَّهُ عَنْ ذَلِكَ الْعَرَاءِ.

ص: ٢٥١

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ و الاجتباء هو الإختيار و الاصطفاء، و قد بين الله ذلك حتى لا تصير قصه يونس -عليه السلام- مع قومه سببا للطعن فيه، و النيل من شخصيته. و الآيه تهدينا إلى أنّ الإنسان بعد الخطيئه و التوبه يمكن أن يسمو بنفسه إلى مقام يجتبيه ربه، فيصيّره في عداد أئمه الصلاح و التقوى، كما تهدينا عموم قصه يونس إلى أنّ الله يمتحن الرساليين بعناد أقوامهم ليرى هل يصبروا لحكمه أم لا.

و هذا جانب من القصة نقلها العياشي في تفسيره بالتفصيل:

عن الإمام الباقر -عليه السلام- قال: «كتب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب -عليه السلام- قال: حدّثني رسول الله -صلى الله عليه و آله- أنّ جبرئيل حدّثه أنّ يونس بن متى بعثه الله إلى قومه و هو ابن ثلاثين سنه، و كان رجلا تعتريه الحده، و كان قليل الصبر على قومه و المداراه لهم، و أنّه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله و التصديق به و اتباعه ثلاثا و ثلاثين سنه، فلم يؤمن به و لم يتبعه من قومه إلاّ رجلا: اسم أحدهما روبييل و الآخر تنوخا، و كان روبييل من أهل بيت العلم و النبوه و الحكمه، و كان قديم الصحبه ليونس بن متى من قبل أن يبعثه الله بالنبوه، و كان تنوخا رجلا مستضعفا عابدا زاهدا منهمكا في العباده و ليس له علم و لا -حكم، و كان روبييل صاحب غنم يرعاها و يتقوّت منها، و كان تنوخا رجلا حطّابا يحتطب على رأسه و يأكل من كسبه، و كان لروبييل منزله من يونس غير منزله تنوخا لعلم روبييل و حكمته و قديم صحبته، فلمّا رأى أنّ قومه لا يجيونه و لا يؤمنون ضجر، و عرف من نفسه قلبه الصبر، فشكا ذلك إلى ربه، و كان فيما شكا أن قال: يا ربّ إنّك بعثتني إلى قومي ولى ثلاثون سنه فلبثت فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك و التصديق برسالتى و أخوفهم عذابك و نقيمتك ثلاثا و ثلاثين سنه فكذبوني، و لم يؤمنوا بى و جحدوا نبوتى و استخفّوا برسالتى، و قد توعدوني

و خفت أن يقتلونى، فأُنزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون، فأوحى الله إلى يونس: إن فيهم الحَمَل و الجنين و الطفل و الشيخ الكبير و المرأه الضعيفه و المستضعف المهين و أنا الحكم العدل، سبقت رحمتى غضبى، لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك، و هم يا يونس عبادى و خلقى و برّيتى فى بلادى و فى عيلى، أحب أن أتأناهم و أرفق بهم و أنتظر توبتهم، و إنما بعثتك إلى قومك لتكون حيطا عليهم، تعطف عليهم سخاء الرحمه الماسه منهم، و تتأناهم برأفه النبوه، فاصبر معهم بأحلام الرساله، و تكون لهم كهينه الطيب المداوى العالم بمداواه الدواء، فخرجت بهم و لم تستعمل قلوبهم بالرفق، و لم تمسسهم بسياسه المرسلين، ثم سألتنى مع سوء نظرك العذاب لهم عند قله الصبر منك، و عبدى نوح كان أصبر منك على قومه، و أحسن صحبه، و أشد تأنيا فى الصبر عندى، و أبلغ فى العذر، فغضبت له حين غضب لى، و أجبته حين دعانى، فقال يونس: يا رب إنما غضبت عليهم فيك، و إنما دعوت عليهم حين عصوك، فوعزتك لا- أنعطف عليهم برأفه أبدا، و لا أنظر إليهم بنصيحه شفيق بعد كفرهم و تكذيبهم إياى، و جردهم نبوتى، فأُنزل عليهم عذابك فإنهم لا يؤمنون أبدا، فقال الله: يا يونس إنهم مائه ألف أو يزيدون من خلقى، يعمرن بلادى، و يلدون عبادى، و محبتى أن أتأناهم للذى سبق من علمى فيهم و فيك، و تقديرى و تدبيرى غير علمك و تقديرك، و أنت المرسل و أنا الرب الحكيم، و علمى فيهم يا يونس باطن فى الغيب عندى لا تعلم ما منتهاه، و علمك فيهم ظاهر لا باطن له، يا يونس قد أجبته إلى ما سألت، أنزل العذاب عليهم، و ما ذلك يا يونس بأوفر لحظك عندى، و لا أحمد لشأنك، و سيأتيهم العذاب فى سؤال فى يوم الأربعاء وسط الشهر بعد طلوع الشمس، فأعلمهم ذلك، فسرّ يونس و لم يسؤه و لم يدر ما عاقبته» (١).

[٥٢-٥١] و بعد أن يأمر الله نبيه (و عبره كل داعيه رسالى) بالصبر لحكم

ص: ٢٥٣

١- (١) تفسير العياشى ج ٢ ص (١٢٩/١٣٠).

اللّه، مشيراً إلى قصه صاحب الحوت النبی یونس و تجربته مع قومه، و محذراً له من الوقوف كموقفه في هذا الجانب، یوصل الكلام بذلك الأمر، مؤكداً على الصبر في طريق الرساله، مهما كانت التحديات المضاده و الضغوط مدعاه للتخلى عن الرساله أو ردّات الفعل العشواء ضد المكذبين و الكافرين.

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ أَيْ اصبر لحكم ربك بالرغم من ذلك، و الزلق من الانحراف، قال صاحب المنجد: أزلقه: أزله و أبعده عن مكانه و نّحاه، و زلقت القدم: لم تثبت، و الفرس:

أجهضت و ألت ولدها قبل تمامه، و الأرض الزلقه: الملساء التي لا شيء فيها (١)، و لا- تثبت عليها قدم.. فيزلقوك إذن بمعنى يزلون قدمك عن مسيره الحق، سواء بالمداهنه التي يودّها المكذّبون أو بالمواجهه و التحدى.

و لقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنّ معنى الإزلاق بالإبصار هو الحسد العدى يؤثّر في الإنسان بصورة غيبية، و نقلوا عن الرسول- صلى الله عليه و آله:-

«إِنَّ الْعَيْنَ تَدْخُلُ الرَّجُلَ إِلَى الْقَبْرِ، وَ الْجَمَلَ إِلَى الْقَدْرِ» و

قوله يعوذّ الحسنيين: «أعيذ كما بكلمات الله التامه، و أسمائه الحسنی كلّها عامه، من شرّ السامه و الهامه، و من شرّ كلّ عين لأمه، و من شرّ حاسد إذا حسد» (٢)، و قد يكتشف البشر أسرار ظاهره الحسد إذا تقدموا في العلم و دراسه الحالات النفسيه، و لكنّ الأقرب من هذا المعنى أنّها كناية عن المواقف الحاقده التي تعبّر عنها نظراتهم الحاده كالسهم النافذ و كحدّ الحسام المرهف. نحن من هذه الظاهره البصريه يجب أن ننطلق لمعرفة ما وراءها و ما تعبّر عنه من الضغوط، و المواقف النفسيه و الاجتماعيه و السياسيه للكفّار ضد

ص: ٢٥٤

١-١) المنجد ماده زلق.

٢-٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٤٠٠.



كل قياده رساليه تشد التغيير، وبالذات إعلامهم الموبوء بمختلف الدعايات و التهم الباطله.

وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ و قولهم هذا يعبر عن ذلك الفيض الذي امتلأ به قلوبهم و الموقف الذي أظهرته أبصارهم، و هكذا كلمات القرآن يفسر بعضها بعضا، فقوله سبحانه لِيُرْلَقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ يفسر قوله سبحانه: وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ، فعبر أبصارهم الحاده و كلماتهم النايه يريدون ابعادك عن الصراط المستقيم.

و اليوم و مع تطور الوسائل الإعلاميه ينبغي أن يتوقع كل مصلح رسالي أن يواجه المزيد من الضغوط في مسيرته، و بالتالي عليه أن يصبر في نفسه، و يستقيم في حركته و عمله لوجه الله و تسليما بقضائه و حكمه، فأنى كانت الضغوط و التهم لا يمكنها أن تغير من الواقع شيئا، فهل يصبح العاقل مجنونا و الذكر أساطير الأولين بمجرد أن يقول الكافرون ذلك؟ كلا.. لأن الحقائق لا تتغير بقول المكذبين المنكرين، و إن الدارس للقرآن لا يمكنه إلا التسليم بأنه رساله من الله إلى الناس.

وَ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ و الذكر في مقابل الغفله و النسيان، و قد سمي القرآن بذلك لأنه يذكر البشر برّبهم و بالحق في جوانب الحياه المختلفه، بل و يكشف لهم من أسرار الوجود و قوانينه، و يذكرهم بعقولهم التي تستثيرها آياته، فهو الذي يحافظ على مسيره الإنسان مستقيمه على الفطره و الحق و نحو الهدف السليم دون غفله أو انحراف، إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ \* لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (١).

ص: ٢٥٥

و حينما يكون القرآن ذكرا للعالمين (و ليس لقوم النبي وحده) يتبين أنه يتجاوز البيئه الجاهليه الضيقه و الموبوءه بتلك الدعايات التافهه، و يتسامى فوق تلك الحواجز التي وضعها الجاهليون حول أنفسهم، و مجرد هذا التجاوز يدل على أن القرآن ليس وليد تلك البيئه، و أن النبي ليس مجرد حكيم عظيم أفرزه ذلك المحيط، بل هو رسول الله رب العالمين. ترى كم هي المسافه شاسعه بين قولهم أنه مجنون و بين الحقيقه؟

ص: ٢٥٦

سوره الحاقه

اشاره

ص: ۲۵۷



## فضل السوره

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أكثر من قراءه»الحاقه»فإن قراءتها في الفرائض و النوافل من الايمان بالله و رسوله، لأنها إنما نزلت في أمير المؤمنين -عليه السلام- و معاويه، و لم يسلب قارئها دينه حتى يلقي الله عزّ و جل» تفسير نور الثقلين-ج ٥ ص ٤٠١ و

في مجمع البيان، بإسناده عن جابر الجعفي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«أكثروا من قراءه الحاقه في الفرائض و النوافل، فإن قراءتها في الفرائض و النوافل من الإيمان بالله و رسوله، و لم يسلب قارئها دينه حتى يلقي الله» مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٤٢

ص: ٢٥٩

ثلاث آيات غرر في هذه السوره ترسم معالمها، و تحدّد-فيما يبدو لى- إطارها: فاتحتها: «الحاقه»، و عند الخاتمه: «وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ»، و أوسطها «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»، و حين يفتح القلب على أشعه السوره يلامس الحقيقه -كلّ حقيقه و كلّ الحقيقه- بلا حجاب، و كذلك سور القرآن جميعا هى الجسر بين الإنسان و الحقيقه، يتجاوز المتدبرون فيها كلّ الحواجز، و لكن كل سوره تسقط عنّا حاجزا.

و سوره الحاقه- كما آيات أخرى مبثوثة فى كتاب ربنا العزيز- تسقط حاجز التهاون، ذلك أنّ الإنسان بطبعه يعيش الغفله عن الحق، و التهاون فيه، و عدم الجدّيّه فى التعامل معه، و اتخاذ أمره بسداجه بل و بسفاهه. كلاً.. إنّهُ حق و للحقّ ثقله، و للحق اقتداره، و للحق حقيقته و طاقته التى تثبته و تجعل مخالفيه فى حرج عظيم. ألم تسمع بقصه عاد و ثمود و فرعون و قوم نوح

و المؤتفكات ماذا حدث بهم حينما اتخذوا موقف اللاهى عن الحق فصارعوه كيف نزلت بهم القوارع فتركتهم صرعى؟! أو تدرى ما الحكمه فى ذلك العذاب العريض؟لكى يذكّرنا(فلا نبقى سادرين فى غياهب الغفله)و لكى تعيه أذن واعيه..

و تتجلى الحقيقه بكلّ جلالها و عظمتها فى يوم القيامه،و حين نتصور أهوالها نزداد وعيا بها فى الدنيا أيضا.

و أصعب المواقف و أشدها جديده و هولاء عند استلام الكتاب المصيرى،فمن أوتى كتابه يمينه فطوبى له،و من أوتى بشماله فيقول من فرط حسرته:يا ليتنى لم أوت كتابيه،و يقول:يا ليتها كانت القاضيه.

إنّها عاقبه المتهاونين الذين لم يكونوا جدّيين فى وعى الحقيقه،و فى الإيمان بالله و الحض على طعام المساكين.

و يقسم القرآن بكلّ حقيقه نبصرها و كلّ حقيقه قائمه و لكن لا نبصرها بأنّ القرآن حق،و هو قول رسول كريم.

و إنّهُ بالتالى ليس خيالات باطله و لا ظنون كاهن.

و تتجلى حقّانيه الرساله فى شدّه الله الجبار مع من يخالفها،بل و مع المرسل بها لو افترض التقوّل عليه ببعض الأقاويل،فإنّهُ ليأخذ منه باليمين ثم ليقطع منه الوتين.

و يبدو أنّ من يتهاون فى شأن الحق أو يكذب به أولا يعيه أولا يوقن به حقّ اليقين..يبدو أنّه لم يعرف ربه الذى يضمن الحق و يجريه بقوّته الشديده و قدرته

الواسعه، لذلك فنحن بحاجة إلى تقديس الله و تنزيهه حتى نقترب من معرفته و معرفه الحقّ به، و لعله لذلك اختتمت السوره المباركه بقوله سبحانه: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

ص: ٢٦٢



## [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ١ الى ١٨]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا  
 بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ  
 أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَى رَسُولَ رَبِّهِمْ  
 فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَبِّيَّةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَعَيْنٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي  
 الصُّورِ نَفَخَهُ وَاحِدَةً (١٣) وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ  
 يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ  
 (١٨)

## اللغة

٦[صرصر]: أى ذات صوت، و بارده، لفظه من الصرّ أى الشدّ، فالصرصر يرجع إلى الشدّ لما فى البروده من التعقّد، وقال البعض فى  
 الريح الصرصر: كأنّه تصطكّ الأسنان بما يسمع من صوتها لشدّه بردها.

٩]و المؤتفكات]:المنقلبات بأهلها، جاء فى مفردات الراغب:

الإفك كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه، وقيل للرياح العادله عن المهاب مؤتفكه.

١٠]رابيه]:زائده فى الشده، وقيل:زائده على عذاب الأمم.

١٦]واهيه]:شديده الضعف، وقال الراغب فى مفرداته:كل شىء استرخى رباطه فقد و هى، وقيل:إن السماء تنشق بعد صلابتها فتصير بمنزله الصوف فى الوهى و الضعف.

ص:٢٦٤

الحق و الجزاء توأمان لا- ينفصل أحدهما عن الآخر، فإنما تحكم الحياه مجموعه من القوانين و السنن التي وضعها و أجراها الله فيها فهي مخلوقه بالحق، ولأنها كذلك فإنّ الجزاء واقع لأنّه حق، و إيمان الإنسان بالحق مرهون بمدى إيمانه بالحساب و الجزاء، إذ لا تعنى الدعوه للإيمان به شيئاً و لا تعكس استجابته فى النفس لو لا ذلك، و هكذا جاء التعبير القرآنى عن كفر ثمود و عاد ببيان كفرهم بالجزاء (القارعه) مع أنّهم كذبوا أيضا بالرسل، لأنّ الكفر بالجزاء يساوى الكفر بالحق.

و فى هذا المحور تنتظم آيات الفصل الأول من سوره الحاقه فى سياق التأكيد على حقيقه الجزاء فى الحياه، كفضيه تشريعيه و تكوينيه، تتصل بالحق اتصالاً متيناً، ففى مطلعها و حتى الآيه الثانيه عشره يبين لنا صوراً من الجزاء الذى حلّ بالأقوام السالفه نتيجة تكذيبهم بالحق و اتباعهم الباطل، كدلالات واقعيه على هذه السنّه الإلهيه، و كآيات هاديه إلى الجزاء الأكبر فى الآخره.

و لكن تبقى (الواقعه) أجلى آيات الجزاء و الحق معا بالنسبه للإنسان، حيث ينفخ فى الصور، و تحدث التحولات الكونيه الهائله و المفزعه، و تتجلى الملائكه المقربون يحملون عرش الله، و يعرض يومئذ الناس بكيانهم و أعمالهم لا تخفى منهم خافيه، و لعله لذلك جاءت تسميه القيامه فى هذه السوره بالحاقه.. باعتبارها ذات وجهين: يتصل الأول بالجزاء التى هى عرصته و أعظم آياته، و يتصل الثانى بالحق، إذ هى جزء لا ينفك من أعظم حقائق الوجود، و لقد سماها ربنا فى نهايه الدرس بالواقعه للمبالغه فى التأكيد على أنها حقيقه واقعيه لا بد أن تقع، و من ثم فإن التأكيد بها لا ينفىها و لا يمنع وقوعها أو حتى يغير أجلها.

و تبقى الآيه لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَ تَعِيَهَا أُنْذُنٌ وَأَعْيُنٌ مَّحُورًا فى هذا السياق بل فى سياق السوره كلها، إذ لا تدرك غور الآيات بما تتضمنه الحقائق إلا تلك القلوب الزاكيه التى صيرها الإيمان و العلم أذنا لوحى الله و آياته.

### بينات من الآيات:

[٣-١] إن الإيمان بالآخره—و كما أكدنا مرارا—حجر الأساس فى الإيمان بسائر القيم و المبادئ، و لذلك لا تكاد تخلو سوره قرآنيه من التأكيد عليها، بل و إن الحديث بشأنها ترهيبا و ترغيبا أصبح السمه الأساسيه للجزئين الأخيرين (تبارك و عمّ) المكيين فى الأغلب عدا سوره (الإنسان الزلزله و النصر)، و إذ يوليها الربّ هذا الاهتمام فلعلمه بموقعها فى بناء شخصيه الإنسان.

و الذى يتتبع حديث القرآن عن الآخره يجد أنه عبّر عنها بعده أسماء تختلف فى ظاهرها و بعض مضامينها، كأن يكون كل اسم يعبر عن جانب أو مرحله زمنيّه منها، إلا—أن هدفها واحد لا— يتجزأ، و هو زرع الإيمان بالآخره و تعميقه فى النفوس لتتبصر من خلالها بسائر الحقائق. و هنا تطالعنا أولى الآيات باسم من أسماء القيامه

و عبر بلاغه فائقه، تهتز لها القلوب، و تقشعرّ منها جلود المؤمنين.

[الحاقه] و للمفسرين أقوال كثيره فى معنى هذه الكلمه، و لماذا سميت القيامة بها؟ و أبرزها التفسيرات التاليه أولاً: اللازمه الواجبه الوقوع، قال تعالى: **وَ لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ (١)** أى وقع فأوجبته، و قال: **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُتَقَدُّ مَنْ فِي النَّارِ (٢)** أى وجب و لزم، ثانياً: المحيطه، جاء فى المنجد: حاق بهم العذاب: نزل و أحاط، و الحيق: ما يشتمل على الإنسان و يلزمه من مكروه فعله، قال تعالى **وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٣)** أى لا- يقع و يحيط إلا بهم، و قال: **أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصِيرُواً عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٤)** يعنى وقع و أحاط.

و الذى يبدو لى من معنى الكلمه بالإضافة إلى ما تقدم: أنها الحق الذى يقع فيكشف عن الحقائق و يظهرها، كما قال الله: **وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ (٥)** يعنى يثبت و يظهره و يجعل الغلبه له على الباطل. و نحن إذا عرفنا بأن أكثر الناس محجوبون بألوان الأغطيه عن معاينه الحق فسنهتدى بسهولة إلى معنى «الحاقه» إذ هى التى تكشف عن الإنسان غطاءه، و تجعل بصره حديدا يرى الحقائق، حقيقه ما جاءت به الأنبياء و الكتب الإلهيه، و حقيقه نفسه و أعماله، هل هو من أصحاب الحق «اليمين» أم من أصحاب الباطل «الشمال»؟ و حقيقه

ص: ٢٤٧

١- (١) السجده ١٣/

٢- (٢) الزمر ١٩/

٣- (٣) فاطر ٤٣/

٤- (٤) هود ٨/

٥- (٥) الأنفال ٧/

مصيره..و القيامة ليست تجعل الحق حقاً فهي المحقّقه، لأنّ الحق و الباطل شيان واقعيان لا تصنعهما الأحداث، إنّما دورها الكشف عنه، و سوق النفوس إلى التسليم له، حيث تنسف بأحداثها المريعة كل الحجب عن قلبه و عينه ليرى الحق، كما قلنا فى معنى يوم التغابن، فإنّه ليس بيوم يتغابن فيه الناس، و إنّما يكشف عنه، و يؤكّد ربّنا عظمه القيامة و هذه الصفه منها إذ يقول:

مَا الْحَاقَّةُ إِنَّهَا أمر عظيم مادياً، حيث الوقائع الكونية المهوله، و معنويا بآثارها فى النفوس - كل النفوس - و كيف لا ترهب الإنسان الضعيف تلك الأحداث الفظيعة التى أشفقت منها السموات و الأرض، و كيف لا يخشى و هو يلاقى ربه، و يرى عمله، و يمضى إلى مصيره الأبدى؟! إنّ الحاقه ليست كلمه تقال، فهذه الحروف عنوان لأمر عظيم، تزلزل به الأرض، و تمور السماء، و تسجّر البحار، و تتلاشى الجبال، و تذهل كلُّ مُرْضِعِهِ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ. و تساؤل القرآن ب«ما» يأتى فى سياق التعظيم و التذكير و التحذير و الإلفات، و لا يقف عند ذلك بل يضيف:

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ و هذه الآيه تفيد التعظيم، كما تبين أنّ أحدا لا يدرك حقيقه القيامة، و قد يعلم بعض المجملات عنها: بأنّها حق، و أنّ من أحداثها زلزه الأرض، و حشر الناس، و دكّ الجبال، و لكنّه لا يعلم ميقاتها، كما لا يملك أدوات يتمكّن بها و عى أحداثها العظيمة.

[٨-٤] إذن فكيف نؤمن بالحاقه؟ إننا لسنا مطالبين بمعرفه دقائق القيامه و تفصيلات وقائعها، فإذا عجزنا عن ذلك كفرنا بها. كلاً.. إنما يكفي لكى يأخذ الإيمان بها دوره فى حياتنا أن نسلم بأصل وجودها، و كونها حقاً لازماً مفروضاً من قبل الله عز و جلّ.. و أنّ نظره معتبره إلى التاريخ تهدينا إلى ذلك، حيث أنّ كلّ ما حلّ بالأقوام الأولين صورته مصغره عن سنّه الجزاء التى تتجلى بكامل حجمها و معناها يوم القيامه، و الدراسه الموضوعيه لحضاراتهم و بالذات عند منعطف النهايه و الدمار تكشف بوضوح أنّ حركه التاريخ ليست عفويه تدور فى الفراغ، بل هى محكومته بقوانين و سنن و من أبرزها-على صعيد الأمم-سنّه الجزاء و يضرب القرآن أمثله على ذلك رابطاً بين دمار الأقوام بالعذاب و تكذيبهم بالحق.

كَذَّبَتْ ثَمُودٌ وَ عَادٌ بِالْقَارِعَةِ وَ ثمود قوم صالح عليه السلام بينما عاد قوم هود عليه السلام، و القارعه التى تفرع الناس، و أساس القرع فى اللغه هو الضرب، يقال: قرعت الباب إذا دقت و ضربها ضارب، و قرعته بالعصا: أى ضربته، و سواء كانت القارعه هى الواقعه التى قرعت حياتهم فى الدنيا، أو الآخره التى سوف تفرع الدنيا عند الساعه، فأصلها واحد و هو الجزاء، و حيث ندرس حياه عاد و ثمود نجد أنّهما كذبوا ليس بالجزاء و حسب، بل كذبوا بالرسل و الرسالات و سائر آيات الله، و لكنّهم فى الحقيقه إنّما انطلقوا إلى كلّ ذلك التكذيب العريض و الشامل من خلال التكذيب بالجزاء و بالذات الآخره، الأمر الذى دعاهم بالإضافه إلى التكذيب بالحقائق الأخرى إلى الطغيان فى الانحراف، و ممارسه الذنوب، و هذه نتيجته طبيعياً للتكذيب بالجزاء أن يتحلل البشر من قيود المسؤوليه و حدودها.

و لكن هل بقيت ثمود و عاد على التكذيب بلا رادع؟ كلا..

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَ فِي الطَّاغِيَةِ قَوْلَانِ قَرِيبَانِ مِنَ الْمَعْنَى:

الأول: أنها الصيحة التي أرسلها الله عليهم، فجعلتهم غناء خامدين، و سوى بها بيوتهم، و سميت بالطاغية مبالغة في وصف عظمتها، و إشارة إلى أنها جاءت خارج السياق المعتاد للظواهر، و زائده عن حدّ القوانين الطبيعية، فإننا نقول: طغى الماء: إذا تجاوز الحد، و فاض به النهر.

الثاني: و لعلها اسم لحاله الطغيان، قال تعالى: كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا\* إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا\* فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا\* فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَصُدُّهُمْ عَنْهَا\* وَ لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١)، و الذي يبدو أن الكلمة تعبر عن المعنيين في آن واحد، و نهتدى منها أن الجزء الإلهي حكيم للغاية، فهو من جنس العمل و بحجمه.

وَ أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ أَيْ رِيحٍ بَارِدَةٍ وَ ذَاتِ صَوْتٍ، جَاءَ فِي الْمُنَجَّدِ: الصَّرْصَرُ مِنَ الرِّيَاحِ: الشَّدِيدَةُ الْهَبُوبُ أَوْ الْبَرْدُ، وَ صَرْصَرُ الرَّجْلِ: صَاحٌ شَدِيدٌ، وَ سَمِيَ الصَّرْصَرُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَصِيحُ صِيَاحًا رَقِيقًا فِي اللَّيْلِ (٢).

و أما العاتية ففيها أقوال: أحدها أنها التي خرجت عن أمر الملائكة الموكلين

ص: ٢٧٠

١-١ (١) الضحى ١١/١٥.

٢-٢ (٢) المنجد ماده صر.



بالريح (الخرنه) بأن أوحى الله لها مباشرة أن تهلكهم بلا واسطه، و الآخر: أنها التي لا قبل لأحد بمواجهتها و مقاومتها، فهي تعتو على كل أحد و كل وسيله، قال الزمخشري: شديده العصف و العتو، أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيله، من استتار ببناء، أو التجاء بجبل، أو اختفاء فى حفره (١). و المعنى الأصيل:

أنها التي بلغت من الشده ما تجاوزت به القوانين و المقاييس الطبيعیه، و بكيفيه لا- يمكن البشر تصورها، لأن أصل العتو هو الخروج عن الحد، قال تعالى: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ (٢)، و قال: فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ (٣)، و إنما جعل الله الريح عاتيه على عاد لكي يعكس عتوهم عن أمره عز و جل، فإنه لو أراد أحد تصوّره فى عالم التكوين فسيجده تماما كالريح الصرصر حينما تتجاوز الحد المتعارف، بل هى أعظم من ذلك لأن رياح الشهوات العاتيه فى الحقيقه هى التي دمّرتهم، و لم تكن الريح الظاهره إلا تجسيدا و عاقبه لها.

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَهِيَ لَمْ تَأْتِهِمْ صَدْفَهُ بِسَبَبِ نَحْسٍ أَوْ تَغْيِيرِ كَوْنِي خَارِجٍ عَنِ الْحِسَابِ وَ السَّنَنِ، إِنَّمَا جَاءَتِ الرِّيحُ بِإِرَادِهِ إِلَهِيهِ سَخَّرَتْهَا، وَ كَذَلِكَ يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْأَحْدَاثِ وَ يَحْلُلُونَهَا، أَمَّا غَيْرُهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا تَفِيدُهُمْ عِبْرَةٌ، لِأَنَّهُمْ يَفْسِرُونَهَا بِالصَّدْفَةِ أَوْ بِتَغْيِيرَاتٍ مَبْتُورَةٍ تَعَكِّسُ جَهْلَهُمْ أَوْ تَجَاهِلَهُمْ، وَ لَا يَفَكِّرُونَ بِعَقُولِهِمْ الَّتِي لَوْ اسْتَثَارُوا لَهَدَتْهُمْ إِلَى يَدِ التَّدْبِيرِ الَّتِي تَهَيِّمُ عَلَى الْخَلِيقَةِ! قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: وَ ذَلِكَ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: إِنَّ تِلْكَ الرِّيَّاحَ إِنَّمَا اشْتَدَّتْ لِأَنَّ اتِّصَالَ فَلَکْيَا نَجُومِيَا اقْتَضَى ذَلِكَ، فَقَوْلُهُ: «سَخَّرَهَا» فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى

ص: ٢٧١

١- (١) الكشاف/ ج ٤ ص ٥٩٩

٢- (٢) الطلاق/ ٨

٣- (٣) الذاريات/ ٤٤

نفى ذلك المذهب، وبيان أنّ ذلك إنّما حصل بتقدير الله و قدرته، فإنّه لو لا هذه الدقيقه لما حصل التخويف و التحذير عن العقاب (١)، و الكلمه نفسها تنفى الوهم بأن العاتيه هى التى خرجت عن التقدير و التدبير، كذلك تجاوز الخطر عن النبى هود و الذين آمنوا معه (حيث كانت تمرّ عليهم كالنسيم) دليل على أنّها كانت مسخره مدبره.

و نساء: لماذا لم يجعل الله الريح لحظه واحده و هو قادر على إهلاكهم بها؟ ربما صيرها الله سبع ليال و ثمانيه أيام (قالوا: من صباح الأربعاء إلى مساء مثله من قابل) (٢) لأنّه أبلغ أثرا فى نفوس المعذبين حيث المده أطول، كما أنّه أفضل موعظه فى قلوب المؤمنين و المعاصرين لهم، و أشد تحذيرا للأحقين، و لعل فى ذلك إشاره عبر التاريخ إلى مدى تحصّينهم و أسباب البقاء التى كانت فى حضارتهم، قال الطبرسى فى مجمع البيان: الحسوم: المتواليه، مأخوذه من حسم الداء بمتابعه الكى عليه، فكأنّه تتابع الشر عليهم حتى استأصلهم، و قيل: هو من القطع، فكأنّها حسمتهم حسوما، أى أذهبتهم و أفنتهم، و قطعت دابرههم (٣)، و سمى السيف حاسما لأنه يحسم الأمر و يقطعه (و يقطع المضروب به) (٤).

فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَبْرًا صَيْرَعِي كَأَنَّهُمْ أَغْجَازُ نَخْلٍ حَاوِيَهُ أَي فى تلك الأيام و الليالى، أو فى قراهم، و حيث وقعوا صرعى فهم أشبه ما يكون بجذوع النخل المنتشره على الأرض و الخاليه بالنخر من داخلها فهى لا تنفع

ص: ٢٧٢

١-١) التفسير الكبير/ ج ٣٠ ص ١٠٤.

٢-٢) كذلك فى النصوص.

٣-٣) مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٣٤٤

٤-٤) التحقيق فى كلمات القرآن/ ماده حسم.

للحديث الشريف: «من أبدى صفحته للحق هلك» (٢)، و الآخر

«من صارع الحق صرع» (٣)، و إنها لعاقبه كل من يكذب بالحق و يتنكب عن طريقه.

و اللطيف فى تعبير القرآن مخاطبته المباشره «فترى» للرسول صلى الله عليه و آله و من خلاله كل تال للآيات، و ذلك أن الله لا يريد من نقل القصص مجرد المعرفه أو التسليه، بل يريد من سامعها الاتعاظ و الإعتبار، و الذى يتم بتخييل القصص و مشاهدتها و الحضور فى أحداثها و خلفياتها، و بعبارة أخرى: أن يكون نفسه شاهدا عليها، و لا شك أن القلب و العقل أعظم شهاده و حضورا، و الإنسان قادر على الحضور بهما، و رؤيه حتى الماضى و المستقبل، فالخطاب هنا موجه للأذن الواعيه، ثم يؤكد ربنا بالتساؤل: أن قوم عاد أهلكوا جميعا، فلم يبق منهم أحد.

فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ قِيلَ: لم يبق لهم أثر من نفس و غيرها، و قيل: بل المعنى لا ترى من نفس باقيه فقط (٤) و هكذا حصرنا الهلاك فى النفوس لقوله تعالى عن قوم عاد:

فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ (٥)، و هذا هو الأقرب.

إذن فتكذيبهم بالقاره لم يغير من الحقائق الواقعيه شيئا، بل قرعتهم فى الدنيا قبل الآخره، و نحن الذين نقف على أخبار الأقدمين يجب أن نتخذها حاقه تكشف لنا عن سنّه الجراء، و من ثم حقيقه الساعه و القيامه و البعث (الآخره).

ص: ٢٧٣

١- ١) مرّ بيان مفصل فى معنى أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فى الآيه ٢٠ من سوره القمر فراجع.

٢- ٢) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٧٠ ص ١٠٧ عن الإمام على عليه السلام

٣- ٣) المصدر/ ج ٧٧ ص ٤٢٠.

٤- ٤) الدر المنثور و الكشاف و الرازى.

٥- ٥) الأحقاف ٢٥/

[١٠-٩] و يضع السياق صوراً أخرى تكشف عن ذات الحقائق: هيمنة الله على الحياة، و سنّه الجزاء، و الآخره.. و إنّما يكثّر القرآن الأمثال لكي لا تبقى عندنا ذرّه شك أو شبهه أنّ تلك الحوادث كانت صدفة، و بالتالي لكي يتعمّق في نفوسنا الإيمان بالله و الجزاء.

وَ جَاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ أَي بِالْقِيمِ وَ الْأَعْمَالِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْحَقِّ وَ الصَّوَابِ، كَالظُّلْمِ وَ الْعُلُوِّ وَ الشَّرْكِ وَ ادِّعَاءِ الرَّبُوبِيَّةِ، وَ قَدْ اختلف في الذين قبل فرعون إلى قولين: أحدهما: أنّهم الأمم و القرون التي سبقتهم و أهلكتها الله، و الآخر- و هو صحيح أيضاً-: أنّ فرعون كان حلقه من نظام سياسي كان يحكم مصر، و الذين قبله يعنى الحلقات الأخرى منه،

قال الإمام الباقر عليه السلام في قوله: وَ جَاءَ فِرْعَوْنُ: «يعنى الثالث و من قبله الأولين» (١)، و إلى ذلك تشير الآثار و الدراسات العلمية للتاريخ السياسي لمصر (٢)، و ربما الأولى الجمع بين الرأيين، و القول بأنّ «من قبله» تشمل كلّ من كان قبل فرعون من ملوك مصر و غيرهم.

و أمّا «المؤتفكات» فهي قرى لوط التي جعل الله عاليها سافلها جزاء شذوذهم الجنسي، و مشيبتهم المقلوبه في الحياة، حيث كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، و إنّما خصّ الله قوم لوط بالذكر مع شمول «من قبله» لهم لأنّهم من أظهر شواهد الانحراف، و لعلّ أعظم الخطيئات التي جاءت بها تلك الأقوام هي اتباع المناهج و القيادات المنحرفة، و من ثمّ التكذيب برسالات الله و رسله.

ص: ٢٧٤

١- ١) البرهان/ ج ٤ ص ٣٧٥.

٢- ٢) راجع كتاب (مدخل في علم السياسة) لمؤلفه بطرس غالي وزير داخلية مصر الأسبق، و مدرس العلوم السياسيّه في جامعه القاهرة.

فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ كُنْتِيَجِه مَبَاشِرِه لِدَلِك. و مَاذَا يِعْنِي عَصِيَان الرِّسُول؟ إِنَّه الْاِنْحِرَاف عَنِ الْحَقِّ وَ السَّنَن الطَّبِيعِيَه فِي الْحَيَاة، وَ مَحَارِبِه اللّٰه. و هَلْ يَنْتَهِي ذَلِك إِلَّا إِلَى الْاِنْحِطَاطِ وَ الْهَلَاكِ؟! فَآخِذْهُمْ أَخِذَهُ رَائِيَةً وَ أَصْل الرَّاِيَه: الزِّيَادَه، وَ يَسْمَى مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ رَائِيَةً لِأَنَّهُ فِي حَقِيقَتِه زِيَادَه فِيهَا بِالْاِرْتِفَاعِ، وَ أَمَّا الْأَخِذُ الرَّاِيَه فَهِيَ: إِمَّا الَّتِي زَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ وَ أَخِذَهُ، أَوْ الَّتِي نَمَتْ وَ تَعَاظَمَتْ بِسَبَبِ تَرَكَمِ الْخَطِيئَاتِ، وَ هَذَا قَرِيبٌ، وَ فِيهِ دَلَالَه عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَمَلَى لَهُمْ وَ أَمَهُلَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا، فَيَزِيدُوا بِأَنْفُسِهِمْ غَضَبَ اللّٰهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرِه.

[١١] وَ يَذَكِّرُنَا الْقُرْآنَ بِأَعْظَمِ مَا شَهِدَه تَارِيخَ الْبَشَرِيَه مِنَ الْجَزَاءِ الْإِلَهِيِّ، وَ هُوَ ذَلِكِ الطُّوفَانِ الَّذِي تَفَجَّرَتْ بِهِ يَنَابِيعُ الْأَرْضِ، وَ انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مِنْهُمْ، فَابْتَلَعَ الْيَابِسَه كُلَّهَا فِي عَصْرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ لَكِنَّهُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ يُوَجِّهُنَا إِلَى لُطْفِ اللّٰهِ بِالْبَشَرِيَه كُلَّهَا حِينَ حَفِظَ وَ جَوَّدَهَا بِحَمَلِهَا فِي السَّفِينَه، هَذِهِ الْآيَه الَّتِي يَهْدِينَا التَّفَكِيرَ فِيهَا وَ بِصُورِه مَسْلَمَه إِلَى أَنَّ سَنَه الْجَزَاءِ لَيْسَتْ صَدْفَه، إِثْمًا هِيَ تَحْتَ هَيْمَنَه اللّٰهِ الْحَكِيمِ فِي تَدْبِيرِه.

إِنَّمَا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ أَيِ السَّفِينَه الَّتِي تَجْرِي عَلَى الْمَاءِ، وَ طَغِيَانُ الْمَاءِ: زِيَادَتُه عَنِ الْمَعْتَادِ وَ عَنِ حَاجَه النَّاسِ وَ النَّبَاتِ إِلَيْهِ، وَ يُقَالُ لِلْبَحْرِ: طَغَى: إِذَا تَجَاوَزَ عَلَى الْيَابِسَه، وَ فِي الدَّر الْمُنْثُورِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، قَالَ: طَغَى عَلَى خَزَانِه فَتَزَلُّ، وَ لَمْ يَنْزَلْ مِنْ

السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح عليه السلام فإنه طغى على خزانه، فنزل من غير كيل ولا وزن (١)، و

أخرج بن جرير عن الإمام على عليه السلام قال: «لم تنزل قطره من ماء إلا بمكيال على يدي ملك، إلا يوم نوح فإنه أذن للماء دون الخزان فطغى على الخزان فخرج» (٢)، ولا يعنى ذلك أنه لا مكيال ولا وزن معلوم له عند الله، كلا.. وإنما المعنى أن الله لا ينزل الأمطار إلا عبر حسابات دقيقة، تتناسب مع حاجات الخلق، أميا في الطوفان فقد أمر السماء والأرض أن تتفجر ماء ما تستطيعان.

و لم يقل الله: (حملناهم) يعنى الذين ركبوا السفينه مع نوح، بل قال:

«حملناكم» موجها الخطاب للبشرية جمعاء، لأنها يوم الطوفان كانت منحصره فيهم، وليس الناس بعدها إلا نسل أولئك، فنحن معتيون بالحمل أيضا، إذ لو لا السفينه لما كنا الآن موجودين.

[١٢] و بعد العرض الموجز لقصه الطوفان فى آيه واحده يوجهنا القرآن إلى العبره الهامه منها، و التى يقتضى الإشاره إليها، و هى: أن بقاء السفينه و نجاه ركابها فى ذلك الطوفان المروع آيه إلهيه عظيمه، تذكّرنا بكثير من الحقائق الإيمانيه، إذا كانت ثمه أذن و اعيه تستوعب ما تذكّر به.

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا و إنّ مرورا سريعا بآيه (الجاريه) يذكّرنا بهيمنه الله على الوجود، و سنّه الجزاء، و لطف ربّنا، و دور الإيمان به، و اتباع رسله و رسالاته فى نجاه الإنسان، و فضل الأنبياء على البشرية.. و هكذا الكثير من الحقائق التى من شأنها زراعه تقوى الله

ص: ٢٧٦

١-١) الدر المنثور/ج ٦ ص ٢٦٠

٢-٢) المصدر/ص ٢٥٩

و تعميقها في النفس، و ما أحوج البشريه أن تدرس هذه الآيه لتتذكر بها لتتجنب الأخطاء، و تبنى الحياه السعيده، إلا أننا لا نعيها اهتماما و لا جزء من تفكيرنا، بل نمز عليها مرور الغافلين اللأباليين، و كأنها مجرد قصه خياليه أو قصه تروى للتسلية.

بلى. إن الآيات و الحقائق كما الماء و الكائنات الأخرى تحتاج إلى وعاء يستوعبها، و لكن من جنس آخر. إنه القلب المزكى بالإيمان و العرفان هو وحده و عاؤها، و إن في قصه الإعدام الجماعى للبشريه بالطوفان لدرسا يجب أن يبقى نصب أعين الناجين، يعتمق فيهم الخشيته من ربهم، و يحيى ضمائرهم، و يستثير عقولهم باتجاه الحق أبد الدهر.

وَ تَعِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ أَى تعى التذكره. و من وصل هذه النهايه بالشرط السابق للآيه نهتدى إلى أن المسيره الطبيعيه للبشريه هى مسيره التقدم، حيث تتراكم خبراتها و تجاربها عبر الزمن، ممّا يزيد و عيها و معارفها و إيمانها، هذا إذا كانت من الناحيه المعنويه سليمه و ذات أذن و اعيه، أمّا إذا لم تصل بنفسها إلى مستوى القدره على عقل الحقائق و استيعابها فإنها لن تتقدم إلى الامام، بل ستهوى فى ذات المزالق التى دفع فيها السابقون، و ستواجه ذات المصير. بلى. إن تلك القصص نداءات موجهه إلينا لا يسمعها الصم، و قال تعالى «أذن» لأن السمع هو نافذه المعرفه الإنسانيه على التاريخ، و وصفها ب«واعيه» لكى يهدينا بأن منهج القرآن فى بيان الحق و التذكير به منهج كامل لا نقص فيه، فإذا لم يستوعبه الإنسان أو لم يقبله فإن الإشكال فيه، لأن أذنه غير واعيه، و ليس فى رساله الله، و لا شك أن المقصود هو ما وراء الأذن و ليست الأذن بذاتها، لأنها ليست وعاء للعلم بل وسيله موصله إلى وعائه و هو

القلب، و من أهم شروط استيعاب الحق:

أ- جعله هدفا و محورا، مقدّما على كلّ اعتبار آخر، فمتى وجده سلّم له.

ب- الطهاره من الحجب التي تمنع اتصال القلب به كالغفله و الجحود، و من أبرزها الأفكار و المواقف المسبقة، و ذلك أنّ القلب لا- يمكن أن يستوعب الحق و الباطل معا، فهو إمّا يكون وعاء للحق و إمّا يكون وعاء للباطل، و لا بد أن يطرد الباطل من القلب حتى يستوعب الحق.

د- أن تكون قدره الإستيعاب كبيره، و ذلك أنّ بعض الحقائق عظيمه لا يستوعبها كلّ قلب، بل تختلف درجات المعرفة بالحقائق باختلاف القدرات العلميه و الإيمانيه عند الإنسان.. و

جاء في الحديث الشريف عن الإمام علي عليه السلام :

«اعلموا أنّ الله سبحانه لم يمدح من القلوب إلّا أوعاها للحكمه، و من الناس إلّا أسرعهم إلى الحق» (١)، و

قال عليه السلام : «إنّ هذه القلوب أوعيه فخيرها أوعاها» (٢) و لقد اجتمعت هذه الشروط و غيرها في شخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فاستوعب رساله الله، و أصبح أعرف الناس بعد النبيّ بها، و لذلك أجمع الرواه و المفسرون علي تأويلها فيه عليه السلام كأعظم مصداق للأذن الواعيه..

قال الإمام علي عليه السلام يخاطب أصحابه و خاصته: «ألا و إني مخصوص في القرآن بأسماء احذروا أن تغلبوا عليها فتضلّوا في دينكم- الي أن قال:- و أنا الأذن الواعيه» (٣)، و

قال النبي صلى الله عليه و آله يخاطب عليّا عليه السلام: «دعوت الله- عزّ و جلّ -

ص: ٢٧٨

١- ١) غرر الحكم.

٢- ٢) نهج حكمه ١٤٧.

٣- ٣) نور الثقلين / ج ٥ ص ٤٠٢ نقلا عن معاني الاخبار.



أن يجعلها أذنك يا علي» (١) و

في تفسير القرطبي روى مكحول: أن النبي صلى الله عليه وآله قال عند نزول هذه الآية: «سألت ربي أن يجعلها أذن علي» قال مكحول: فكان علي (رض) يقول: «ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً قط فنسيته إلا وحفظته» (٢) أي ما كنت أنساه وما كنت إلا أحفظه. وعن الحسن نحوه ذكره الثعلبي، قال: لما نزلت «الآيه» قال النبي صلى الله عليه وآله: «سألت ربي أن يجعلها أذنك يا علي» قال علي: «فما نسيته شيئاً بعد وما كان لي أن أنسى» (٣)، وإثما طلب النبي ذلك من الله لأنه يعلم بأن علياً هو الامتداد الحقيقي له ولحظه، فلا بد أن يستوعب رسالته.. وتتسع الآية لمصاديق أخرى وبدرجات متفاوتة، إذ أن كل أذن واعيها هي مصداق لها.

إن التاريخ معلّم للبشريه، ويجب أن تتلمذ في مدرسته، لأن ذلك هو السبيل للتقدم والسعادة في الدارين، فهي لو درست تاريخها وتفكرت في حوادثه ومنعطفاته فسوف تهتدي إلى الحق في كل صعيد وجانب من الحياه.. تهتدي إلى ربها لأن التاريخ كله آيات موصله إلى الإيمان به، وتهتدي إلى الكثير من السنن والقوانين والحقائق الحضاريه التي من شأنها لو وعثها أن تتجنب الأخطاء والأخطار، وتجد طريقها إلى المجد والفلاح.

[١٤-١٣] ثم ينعطف السياق للحديث عن الآخرة لأنها الحاقه العظمى، وأجلى صورته لسنة الجزاء في الوجود.. وإن الأذن الواعيها ليتذكر صاحبها بحوادث التاريخ، وما لقيته الأقوام في الدنيا عن الجزاء الإلهي فيعني بذلك حقيقه الآخرة،

ص: ٢٧٩

١-١ المصدر

٢-٢ القرطبي/ج ١٨ ص ٢٦٤.

٣-٣ المصدر ذكر ذلك وذكره الكشاف، الرازي، فتح القدير، الدر المنثور، شواهد التنزيل للحسكاني، أسباب النزول للنيسابوري/عند تفسير الآية فراجع.

وإنها حقاً لأذن واعيه تلك التي تعالين الغيب من خلال الشهود، و تتسع آفاقها لرؤيه المستقبل عبر الحاضر، فلا- تفاجأ بالواقعه، إنما تأتي مستعده لتجاوز عقبتها بزد التقوى و ذخيره العمل الصالح. بلى. إن الواعين يعيشون فى الدنيا و لكنّ أرواحهم فى الآخره، بل إن حضورها فى قلوبهم أعظم من حضور الدنيا، فتراهم لا- يغفلون عنها لحظه واحده، و حيث ينقل لهم القرآن مشاهد منها فكأنها قائمه بين أعينهم و قلوبهم، كما وصفهم صاحب الأذن الواعيه

الإمام على عليه السلام بقوله:

فإذا مرّوا بآيه فيها تشويق ركنا إليها طمعا، و تطلّعت نفوسهم إليها شوقا، و ظنوا أنّها نصب أعينهم، و إذا مرّوا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنّوا أنّ زفير جهنم و شهيقها فى أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم و أكفّهم و ركبهم، و أطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى فى فكاك رقابهم (١)، و كل ذلك ينعكس على سلوكهم فى الحياه.

و لقد جاءت الآيه (١٢) مؤكّده على دور الآذان الواعيه بين الحديث عن تاريخ الأقسام السالفه (الآيات ١١/٤)، و الحديث عن الآخره (الآيات ١٨/١٣) فى هذا الدرس و امتدادها حتى الآيه (٣٧) فى الدرس اللاحق، لأنّها وحدها القادره على استيعاب مواعظ التاريخ و آياته، و الإيمان بحديث الوحى عن الآخره و وعيه، فحقائق الغيب- سواء غيب التاريخ أو غيب الآخره- حقائق كبيره، بحاجه إلى أذن مرهفه تنفذ بسمعها من الآيات إلى ما تهدى إليه، و قلب واسع كبير يحتمل أن يكون وعاء لها.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةً وَاحِدَةً وَيَبْدُو أَنَّهَا النّفْحَةُ الثّانِيَةُ لِأَنَّهَا التّي يَقُومُ فِيهَا النَّاسُ لِلْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ، قَالَ

ص: ٢٨٠

تعالى: وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يَنْظُرُونَ (١)، و ما يؤكد أنها الثانية أن السياق هو سياق الحديث عن الجزاء، مما يستلزم الكلام عن النفخة الثانية التي يكون الجزاء بعدها، و نقرأ هنا بعض الأخبار عن أئمة الهدى في شأن النفخ في الصور،

قال الإمام على عليه السلام: «و ينفخ في الصور فتزهق كل مهجته، و تبكم كل لهجه، و تذلل الشّم الشوامخ، و الصم الرواسخ، فيصير صلدها سرابا رقراقا، و معهدا قاعا سملقا (مستويا) فلا شفيع يشفع، و لا حميم ينفع، و لا معذرة تدفع» (٢)، و في صلاته على حمله العرش

قال الإمام زين العابدين: «و إسرائيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن، و حلول الأمر، فيتبه بالنفخه صرعى رهائن القبور» (٣)، و

عن وهب بن منبه عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «خلق الله الصور من لؤلؤه في صفاء الزجاجه، ثم قال للعرش: خذ الصور، فتعلق به، ثم قال:

كن، فكان إسرائيل، فأمره أن يأخذ الصور فأخذه، و به ثقب بعدد كل روح مخلوقه، و نفس منفوسه، لا تخرج روحان من ثقب واحد، و في وسط الصور كوه (فتحه) كاستداره السماء و الأرض، و إسرائيل واضع فمه على ذلك الكوه، ثم قال له الرب تعالى: قد وكلتك بالصور فأنت للنفخه و للصيحه، فدخل إسرائيل في مقدم العرش، فأدخل رجله اليمنى تحت العرش، و قدم اليسرى، و لم يطرف منذ خلقه الله ينظر متى يؤمر به» (٤)، و

في روايه: «مخافه أن يؤمر بالصيحه قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عيناه كوكبان دريان» (٥)

ص: ٢٨١

١-١) سورة الزمر/٦٨

٢-٢) نهج البلاغه/ج ١٩٥ ص ٣١٠.

٣-٣) موسوعه بحار الأنوار/ج ٥٩ ص ٢١٧

٤-٤) المصدر/ص ٢٦١.

٥-٥) المصدر/٣٦٢.

و هو لا يحتاج حتى يهلك الأحياء بالنفخه الأولى و يبعثهم قياما بالثانيه إلى أكثر من مجرد نفخه واحده،لما أعطاه الله من القدره العظيمه.قال علامه الطباطبائي:و فى توصيف النفخه بالواحد إشاره إلى مضى الأمر،و نفوذ القدره، فلا وهن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخه (١).

و يا لها من نفخه صاعقه مخيفه،لا تذهب بالأنفس و حسب بل تزلزل الكائنات و كأنها ترليونات الترليونات من القنابل النوويه التى تنفجر فى دفعه واحده،فتدمّر الكون و نظامه،بحيث تخرج الأرض عن مدارها،و تستأصل الجبال الراسيه من فوقها،ثم يدكها الله ببعضها.

وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً وَأَصْلُ الدِّكِّ هُوَ الْهَدْمُ،يقال:دك الجدار إذا هدمه و سَوَّاهُ مع الأرض، و لا ندرى هل يضرب الله أجزاء الأرض و الجبال ببعضها بتركيز الجاذبيه تركيزا هائلا بين أجزاءهما،أو برفعها تماما مما يسبب تلاشيها،أم يضرب الجبال بالأرض و العكس،أم يرطمهما معا بكوكب آخر؟المهم أنّهما يتداكّان..و فى الآيه إشاره إلى حقيقه علميه جيولوجيه:إذ لم يقل الله:«و حملت الأرض»فقط،باعتبار أنّ الجبال جزء منها،و ذلك لأنّها فى الواقع كيانات شبه مستقله،جعلها الله فيها، فنصبها و أرساها أو تادا للأرض (٢)،فهى كما الشجره لها هيكلها و جذورها الضاربه فى التخوم..كما نهتدى إلى أنّ الأرض تكون مستويه بالدكّ يوم القيامه،و لذلك خص القرآن الجبال بالذكر لأنها الزوائد المرتفعه على سطحها.

و يتزامن بعث الناس للحساب مع تلك الأحداث الكونيه الرهيبه لكى تتجلى

ص:٢٨٢

١-١) الميزان/ج ١٩ ص ٣٩٧.

٢-٢) راجع الآيات:الغاشيه ١٩،النازعات ٣٢،النبأ ٧

لهم قدره الله، و تتساقط عندهم كل الحجب و التبريرات هنالك، بل فى الدنيا أيضا لمن يؤمن بالآخريه و يعى آياتها.

[١٧-١٥] و بعد أن يصوّر لنا القرآن مشهدا من القيامة يؤكد بأنّها أعظم الوقائع التى تمر بالإنسان، لأنّها تدمّر الكائنات، و تسوق الإنسان إلى مصيره الأبدى.

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ و التعريف بالألف و اللام يعظّمها فى ذهن السامع، و يؤكد بأنّ للإنسان معها عهدا أودعه الله فى فطرته، فهى ليست نكره للبشر سوى.. و إنّ فى تسميتها (القيامة) بالواقع يأتى للتأكيد باللفظ على كونها حقيقة لا بد من حصولها، فكون الشىء الواقعى فى الغيب، و يفصل الإنسان عنه الزمن المستقبل لا ينفى أصل وجوده، و هذه مسلّمه فطريه و عقليه، و كأنّ الآيه تقول: بأنّ تكذيبكم أيها البشر بالآخريه لن يغير شيئا فيها، و لا فى ما يتصل بها من الاحداث، فهل يمنع تكذيبنا -مثلا- من تأثير نفخه إسرافيل فى الأرض و الجبال؟ كلا..

و يوصلنا كتاب الله بالغيب، إذ يضع أمامنا مشهدا آخر من مشاهد الواقعه و هو انشقاق السماء المحبوكه و المتينه الخلق إلى حدّ تكون فيه واهيه كالخرقه الباليه التى تصير رمادا أو هباء.

وَ انشَقَّتِ السَّمَاءُ المحبوكه التى لا فروج فيها و لا ضعف.

فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهية

ص: ٢٨٣

أى شديده الضعف و قليله التماسك، ليس فى هيكلها و حسب بل فى جزئيات كيانها، مما يجعلها تتبدل شيئا آخر كالمهل أو الدهان كما قال الله: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١)، وهكذا لا تبقى السماء سقفا محفوظا يمنع عن الأرض النيازك و الأخطار.

و مشهدا آخر عظيم هو منظر الملائكة على الأرجاء و الملائكة الثمانية العظام الذين يحملون عرش الله فوقهم.

وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا أى أطرافها و نواحيها، قالوا: بأن الضمير عائد إلى السماء التى تشقق و تصير قطعاً و أجزاء على كل واحده منها ملائكة كثيرون.

وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ من أعظم ملائكة الله، و ربما أعظمهم على الإطلاق، و لفوقهم تفسيران:

أحدهما: فوقهم بالمسافه، و الآخر: فوقهم بالمرتبه، فالثمانية يحملون العرش من أركانه و معهم من الملائكة من يحملونه من أطرافه الأخرى، أو أنّ الثمانية لهم الرئاسة على بقية الملائكة فهم فوقهم مرتبه، و بهذا نجمع بين الروايات القائلة:

بأنهم ثمانية، و القائلة: بأنهم أكثر من ذلك.

قال الإمام على بن الحسين عليه السلام فى صفه خلق العرش: «له ثمانية أركان، على كلّ ركن منها من الملائكة ما لا يحصى عددهم إلاّ الله - عزّ و جلّ - يسبحون الليل و النهار لا يفترون» (٢)، و

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ حمله العرش

ص: ٢٨٤

١- ١) إبراهيم/٤٨

٢- ٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٠٤.

أربعة: أحدهم على صورة ابن آدم يسترزق الله لبنى آدم، والثاني: على صورة الديك يسترزق الله للطير، والثالث: على صورة الأسد يسترزق الله للسباع، والرابع: على صورة الثور يسترزق الله للبهائم، ونكس الثور رأسه منذ عبد بنو إسرائيل العجل، فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية» (١) ولقد خاض بعض المفسرين في مواضع لا داعي لها، واختلفوا مع بعضهم في عدد الملائكة وأشكالهم، وهي بحوث لم نكلّف بها، بينما توجه أئمة الهدى -عليهم السلام- للرد على الأفكار المادية التي حاول أصحابها إثبات معتقداتهم التجسديّة والتشبيهيّة من خلال الفهم الخاطيء لهذه الآيّه الكريمه، حيث شبهوا عرش الله بعروش السلاطين التي يتربعون عليها. تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً.

قال سلمان المحمدي: سألت بعض النصارى أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام قال له: أخبرني عن ربك أ يحمل؟ فقال عليه السلام: «ربنا جل جلاله يحمله ولا يحمل»، قال النصراني: وكيف ذلك ونحن نجد في الإنجيل:

«وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً»؟ فقال على عليه السلام: «إن الملائكة تحمل العرش، وليس العرش كما تظن كهيئته السرير، ولكنه شيء محدود مخلوق مدبر، وربك -عزّ وجلّ- مالكة، لا أنه عليه ككون الشيء على الشيء، وأمر الملائكة بحمله يحملون العرش بما أقدرهم عليه»، قال النصراني صدقت رحمك الله (٢) و

قال الإمام الرضا عليه السلام: «والمحمول ما سوى الله، ولم يسمع أحد آمن بالله و عظمته قط قال في دعائه: يا محمول» فقال له أبو قره: فإنه قال: «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً»؟ وقال: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ»؟! فقال أبو

ص: ٢٨٥

١-١ المصدر

٢-٢ المصدر نقلاً عن كتاب التوحيد.

الحسن عليه السلام: «العرش ليس هو الله، والعرش اسم علم وقدره، وعرش فيه كل شيء، ثم أضاف: الحمل إلى غيره، خلق من خلقه لأنه استعبد خلقه بحمل عرشه و هم حمله العلم» (١) والعرش هو رمز الهيمنة والسلطان والعلم، والموضع الذي يتجلى فيه علم الله وقدره وقضاؤه وأمره للملائكة، الذين هم بدورهم يمضون ما يؤمرون به، ولعل أهم حكمه لخلق العرش أنه تعالى قد أوكل إلى الملائكة إنفاذ مقاديره وتدييره للخلق، وهو الذي لا يحده مكان ما كان لهم أن يتصلوا به، وكيف يتصل المخلوق المحدود بالخالق لو لا خلق الأسماء والأشياء كالبيت الذي يكون مركز عبادته، والعرش الذي يكون مركز إدارته للكائنات وهيمنته.

وقد أولت بعض النصوص الحمله في خير خلق الله

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«حمله العرش ثمانية أربعه منّا وأربعه ممن شاء الله» (٢)، و

في حديث آخر: «حمله العرش ثمانية: أربعه من الأولين وأربعه من الآخرين، فأما الأربعة من الأولين: فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وأما الآخرون: فمحمد وعلي والحسن والحسين -عليهم السلام- ومعنى «يحملون» يعنى العلم» (٣) وإذا كان الظاهر أنّ الملائكة هم الذين يحملون العرش فإنّ الباطن هو أولئك الذين خلقت الملائكة لأجلهم وهم الصفوة من عباد الله. أليس قد خلق الأشياء لأجل الإنسان، وأى إنسان أعظم من الأنبياء والأوصياء؟ [١٨] وأعظم مشهد في القيامة هو عرض الناس للحساب والجزاء، لأنه أشدّ

ص: ٢٨٤

١-١ المصدر/ص ٤٠٥

٢-٢ المصدر/ص ٤٠٦.

٣-٣ المصدر



رهبه، حيث يلقي الإنسان حسابه و مصيره الأبدى، ولأنه الهدف الأساسي من وراء كل أحداثها و مشاهدتها المرعبه..

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ وَإِذَا كَانْتَ لَا تَخْفَى عِنْدَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَلَا حَتَّىٰ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي أَخْفَاهَا  
الإنسان و قام بها فى السر، فكيف بالظاهر منها؟ فالحساب اذن دقيق، لأنه يتأسس على علم الله المحيط بكل شىء، و بالحساب يوم  
القيامه يتجلى عدل الله و لطفه و غضبه و علمه،

قال رسول الله صلى الله عليه و آله : «لا- تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله حتى يسأله عن أربع خصال: عمرك فيما  
أفنيته؟ و جسدك فيما أبليتة؟ و مالك من أين اكتسبته و أين وضعته؟ و عن حبنا أهل البيت» (١)، و يعرض أعمال العباد ليظهر  
الحق جليًا، كما تتأكد القارعه و الواقعه بوقوعها، و لذلك سميت القيامة بالحاقه.

و كلمه أخيره:

إننا نلاحظ فى القرآن أنه لا يكاد يتحدث عن التاريخ و مصير الأرقام السالفه إلا و يوصل ذلك بالحديث عن الآخره، فما هو  
السر فى ذلك و ما هى العلاقة بينهما؟ ١- لأن الإسلام لا يريد للإنسان أن يعيش لحظته الراهنه فقط، إنما يعيش الحاضر على  
ضوء الماضى و المستقبل معا، فيتحرك من حيث انتهى الآخرون، و يتعظ بتجاربهم لبناء حياه سعيده فى الحاضر، و فى نفس  
الوقت يخطط و يعمل لكى يربح المستقبل.

٢- لأن الآخره كما التاريخ غيب لا سبيل للإنسان إلى معرفته إلا بالآيات

ص: ٢٨٧

(١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٧ ص ٢٥٩.

و الآثار الدالّة عليه، و الذى يكفر بالآخره لأنّه لا يعاينها بذاتها كالذى يكفر بالتاريخ لأنّه لم يعاصر أحداثه، مع أنّ الأدله قائمه تهدى إليه.

٣- و يتشابه التاريخ مع الآخره فى كون الإثنين عرصه تكشف عن سنه الجزاء الحاكمه فى الحياه، و هيمنه الله عليها، و تمايز المؤمنين عن سواهم، و هكذا الكثير من الحقائق، بل أنّ التاريخ هو الآيه الماديه العظمى التى تهدى إلى الإيمان بالآخره و الجزاء.

ص: ٢٨٨

اشاره

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاغِبًا (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَذْرَ مَا حِسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩) خُدُوهُ فَعُلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُنَ (٣٧) فَلَا أُفْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصَرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمِمَّا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مِمَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

اللغة

٣٦[غسلين]:الصديد الذي ينجسل بسيلانه من أبدان أهل النار،و وزنه فعلين من الغسل.



هدى من الآيات:

يأتى كلّ إنسان إلى الدنيا و أمامه طريقان و فرصه واحده: طريق الحق الذى ينتهى به إلى الجنه و النعيم، و طريق الباطل الذى ينتهى به إلى النار و العذاب، و أمّا الفرصه فهى عمره الذى يفنيه فى أحد الطريقتين، فإمّا يختار الجنه و يسعى لها سعيها أو العكس، فالدنيا وحدها هى دار الابتلاء و العمل و حيث تقع الوقعه و يعرض للحساب فإنّه لا يملك تبديلا و لا تحويلا، لأنّ الآخره دار الحساب و الجزاء فقط.

و فى الدرس الأخير من سوره الحاقه يضعنا القرآن وجهها لوجه أمام هذه الحقيقه مؤكّدا بأنّ هناك عاقبتين و فريقين، فإمّا العيشه الراضيه فى الجنه التى هى نصيب أصحاب اليمين، و إمّا تصليه الجحيم جزاء لأصحاب الشمال. و بعد أن يبين فى الأثناء بأنّ المصير فى الآخره متأسس على موقف الإنسان و عمله فى الدنيا يوجّهنا ربنا إلى رسالته الحقه الصادقه باعتبارها الصراط المستقيم و النهج الذى يقود إلى الفوز و الفلاح يوم القيامه، مدافعا عنها ضد ضلالات أعدائه و أعداء رسوله الذين

قالوا بأنّها شعر تاره و كهانه تاره أخرى جحودا و استكبارا، و إنّها لتذكره للمتقين و حسره على الكافرين، و إنّّه لحق اليقين، فسبحان الله عمّا يصفون و يشركون.

### بينات من الآيات:

[١٩] بعد عرض الناس للحساب تظهر حقيقتهم، و تتعين مصائرهم على أساسها في ظل الهيمنة المطلقة للحق، و لعله لذلك سمّيت القيامة بالحاقه، فإنّما أن يكون الحق مع الإنسان فيقوده إلى الفوز بالجنه، و إمّا أن يكون ضده فيسوقه إلى بئس المصير في جهنم. و يكشف لنا القرآن عن غيب الآخرة ليضعنا أمام مصيرين لا ثالث لهما بعد أن وضعنا في أجواء القيامة و أحضر مشاهدتها في قلوبنا لكي نختار أحد الإثنين، و بالطبع نرى السياق القرآني يرجح لنا بعرضه الحكيم خيار أصحاب اليمين.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ مِمَّا يَعْنِي فَوْزَهُ بِالْجَنَّةِ وَالرِّضْوَانِ، لِأَنَّ الْيَمِينَ رَمَزَ ذَلِكَ، وَ كُنَايَهُ عَنِ الْيَمَنِ وَالْبِرِّكَهِ وَالْخَيْرِ.

فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ قَالَ الْعَلَامَةُ الطَّبْرَسِي «هَؤُلَاءِ» أَمْرٌ لِلْجَمَاعَةِ بِمَنْزِلِهِ هَاكُم (و أضاف:) بمنزله خذوا، و إنّما يقول ذلك سرورا لعلمه بأنّه ليس فيه إلا الطاعات، فلا يستحي أن ينظر فيه غيره (١)، و قال الرازي: دلّ ذلك على أنّه بلغ الغايه في السرور فأحبّ أن يظهره لغيره حتى يفرحوا بما ناله (٢)، و لعل خطابه موجّه لإخوانه من أصحاب

ص: ٢٩٢

١-١) مجمع البيان/ج ١٠ عند الآية.

٢-٢) التفسير الكبير/ج ٣٠ عند الآية.

الجنة، وبالخصوص أئمة الحق الذين ينصبهم الله موازين للأمم عند الحساب، كما قال تعالى: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِتْيَالًا (١).

قال الإمام الصادق عليه السلام: كل أمة يحاسبها إمام زمانها، ويعرف الأئمة أولياءهم و أعداءهم بسيماهم، وهو قوله تعالى: «وَ عَلَى الْمُعْرِفِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ» وهم الأئمة «كلاً- بسيماهم» فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم، فيمروا إلى الجنة بلا حساب، ويعطوا أعداءهم كتابهم بشمالهم فيمروا إلى النار بلا حساب، فإذا نظر أولياءهم في كتابهم يقولون لإخوانهم: الآيتان ٢٠/١٩ (٢) و كتاب المؤمنين الذى سجّلت فيه صالحاتهم هو جوازهم على الصراط إلى الجنة، وشهادتهم فى الانتماء إلى الصالحين و الأبرار، و تسجيل الله لهذه اللقطة «أَقْرَأُ كِتَابِيَهٗ» يأتى للتأكيد على أنّ أحدا لا يدخل الجنة من دون ثمن، بل إنّ الله خلق كلّ واحد و أعطاه الإرادة و الإختيار بأن يكتب بنفسه حياته و مستقبله المصيرى، و صفحات الإنسان التى يتألف منها كتابه هى ساعات عمره التى يكتب فيها ما يشاء من الأعمال التى تحدّد مصيره فى الآخرة، و

فى الخبر النبوى أنه: «يفتح للعبد يوم القيامة على كلّ يوم من أيام عمره أربعة و عشرون خزانه (عدد ساعات الليل و النهار) فخزانه يجدها مملوءة نورا و سرورا، فينالها عند مشاهدتها من الفرح و السرور ما لو وزّع على أهل النار لأدهشهم عن الإحساس بألم النار، و هى الساعه التى أطاع فيها ربه، ثم يفتح له خزانه أخرى فيراها مظلمه منتنه مفرعه، فينالها عند مشاهدتها من الفزع و الجزع ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمها، و هى الساعه التى عصى فيها ربه، ثم يفتح له خزانه

ص: ٢٩٣

١- (١) الإسراء ٧١.

٢- (٢) نور الثقلين/ ج ٥ ص ٤٠٧.

أخرى فيراها فارغه ليس فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهي التي نام فيها، أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا، فينالها من الغبن و الأسف على فواتها حيث كان متمكناً من أن يملأها حسنات ما لا يوصف» (١)، أمّا المتقون الذين لا يفتر عن طاعه الله و يذكرونه دائماً و على كل حال قِيَاماً وَ قُعُوداً وَ عَلَي جُنُوبِهِمْ فَإِنَّ أَكْثَرَ صَفَحَاتِ كِتَابِهِمْ تَتَأَلَّقُ بِنُورِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَسْتَبِشِرُونَ بِهَا، وَ يَدْعُونَ الْآخِرِينَ لِقَرَاءَتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٢٠] و يؤكد الله أنّ الإيمان بالجزاء (الآخرة) أصل كلّ خير، و أساس كلّ عمل صالح في حياة المؤمنين، فهو الدافع الذي يقف وراء الصالحات، و الجامع المشترك بينها كلها، و هذه الحقيقة تتضح لو قمنا بعملية استقراء دقيقة لحياه واحد من أصحاب اليمين، الذين يعلن الواحد منهم هذه الحقيقة في صفوف المحشر يومئذ.

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ وَ لَا يَقُولُ: سَأَعْرِفُ أَوْ سَأَعْلَمُ حِسَابِيَّةٍ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرِهِ فَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ كِتَابَهُ بِنَفْسِهِ.. إِذَنْ فَهُوَ يَعْلَمُ بِحِسَابِهِ وَ لَوْ بِصُورِهِ مَجْمَلَةً، فَكَيْفَ وَ الْمُؤْمِنُونَ يَحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ؟ إِنَّمَا يَرِيدُ سَأَلًا قِيَامَةً مِنْ يَحَاسِبُنِي وَ هُوَ اللَّهُ وَ سَاجِزِي، لِأَنَّ مَا بَعْدَ الْحِسَابِ هُوَ الْمَقْصُودُ لِدَاتِهِ. وَ الْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ مَا تَقْرَأُونَهُ فِي الْكِتَابِ مِنَ الصَّالِحَاتِ هُوَ ثَمَرُهُ لِشَجَرَةِ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، وَ نَبْتُهُ جَذْرُهَا يَعُودُ إِلَى ذَلِكَ.

و في معنى الظن اختلفت تعابير المفسرين، فقال الزمخشري و تابعه الفخر الرازي: أي علمت، و إنّما أجرى الظن مجرى العلم لأنّ الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات و الأحكام، و يقال: «أظن ظناً كاليقين أنّ الأمر كيت

ص: ٢٩٤



و كيت» (١)، وهو ضعيف، لأن فيه تضعيف لكون الظن هنا بمعنى العلم و اليقين الذى ذهب إليه أغلب المفسرين و هو الأقرب و دلت عليه النصوص،

قال الإمام على عليه السلام و قد سأله رجل عما اشتبه عليه فى القرآن: «و أمّا قوله: «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ»، و قوله: «وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» فإنّ قوله: «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ» يقول: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي أَبْعَثُ فَأُجَابُ، و قوله للمنافقين:

« وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » فهذا الظن ظن شك، و ليس الظن ظن يقين، و الظن ظنان: ظن شك و ظن يقين، فما كان من أمر معاد من الظن فهو ظن يقين، و ما كان من أمر الدنيا فهو ظن شك» (٢).

و يبدو لى أنّ الظن فى هذه الآيه مرمله متقدمه من العلم و اليقين، لأنّه بمعنى الاستحضار و التصور، فإنّ المؤمنين المتقين ليركزون الفكر فى أمر الآخره و يتخيلون مشاهدها الغيبية قائمه فى الشهود أمام أعينهم، فتاره يتصورون الجنه و ما فيها من النعيم، و أخرى يتصورون النار و ما فيها من شديد العذاب، ممّا يزرع فيهم الخوف و الرجاء، بل و يرون الجنه و النار بكلّ وضوح فى الأعمال الدنيويه.

و إنّ يقين المؤمنين بوجوب الحساب يجعلهم يتحركون فى الحياه على أساس ذلك، فإذا بهم يحاسبون أنفسهم و يسعون جهدهم أن تكون صحائفهم منوره بالصالحات، فلغتهم فى الحياه لغه رياضيه ذات حسابات دقيقه فى علاقاتهم، و أوقاتهم، و جهودهم، و إنفاقهم و..و..

[٢٣-٢١] و يبيّن الوحي جانباً من نعيم كل صاحب يمين فيقول:

فَهُوَ فِي عَيْشِهِ رَاضِيَهٗ

ص: ٢٩٥

١- (١) الكشاف/ ج ٤ ص ٦٠٣.

٢- (٢) التوحيد للصدوق/ ص ٢٦٧.

أى كامله لا- يعترىها نقص و لا- عيب، فإن الرضى لا يحصل إلا إذا وجد الإحساس بالكمال و عدم النقص، و كون المؤمن فى عيشه راضيه دليل على بلوغه قمه الرضى لأن رضى المحيط و العيشه جزء من رضاه و يعززه، فليس ثمه فى محيطه شىء و لا أحد غير راض يبعث فى نفسه عدم الرضى و الراحة النفسيه، فنعيم الجنه و حورها و كل شىء فيها ليفرح بالمؤمن و يرضى به.

و فى الآيه فكره عميقه و هى: أن المؤمن أين ما حلّ يحبه المحيط، و تستأنس به الحياه، لأنه مبارك أين ما كان، يرضى عنه الناس و الحيوان و النبات و حتى الأرض و الجمادات التى تربطه بها رابطه، فهو يخدم الناس و يتعب نفسه من أجلهم، و يرفق بالحيوان، و يرمى النبات، و يصلح الأرض، و يستخدم كل شىء فى طاعه ربه و لأهدافه المحدده، ممّا يسبب شعورا داخله بالرضى، و يضىف جو الرضا على ما حوله، بينما الكافر العكس من ذلك تماما، نفسه ساخطه، و كل شىء ساخط منه، لأن علاقته ليست سليمه بما حوله.

قال الرسول صلى الله عليه و آله: «الناس اثنان: واحد أراح، و آخر استراح، فأما الذى استراح فالمؤمن إذا مات استراح من الدنيا و بلائها، و أمّا الذى أراح فالكافر إذا مات أراح الشجر و الدواب و كثيرا من الناس» (١)، فهم غير راضين به، و لا- مستأنسين لوجوده، بعكس المؤمن الذى ترضى به عيشته حتى إذا مات تأثر له و حزن عليه كل شىء، حتى

جاء فى الأخبار أنه: «ما من مؤمن يموت فى غربه من الأرض فيغيب عنه بواكيه، إلا بكته بقاع الأرض التى كان يعبد الله عليها، و بكته أثوابه، و بكته أبواب السماء التى يصعد بها عمله، و بكاه الملكان الموكّلان به» (٢)، هذا فى الدنيا، أمّا فى الآخره فالنصوص كثيره و مستفيضه تحدثنا عن

ص: ٢٩٦

١- (١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٦ ص ١٥١.

٢- (٢) المصدر/ ج ٦٧ ص ٦٦.

رضى الجنة و نعيمها حتى الفاكهه و الطير و القصور بسكانها من المؤمنين، فقد جاء فى الروايات أنّ الفاكهه تخاطب ولى الله أن كلنى قبل هذه و تلك، و أنّ الطير بعد أن يأكله يعود سوياً فيطير فى الجنة فرحاً يفتخر على سائر الطيور قائلاً: من مثلى و قد أكل منى ولى الله؟ (١).

و فكره أخرى نفهمها من الآيه و هى: أنّ المؤمن لفى عيشه راضيه حتى فى الدنيا بسبب تسليمه لما يقسمه ربه له فيها، و بسبب تطلعه إلى الآخرة و نعيمها، فلا يسأم من فقر، و لا تعكر صفو عيشه مصيبه،

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من مؤمن إلاّ و قد جعل الله له من إيمانه أنسا يسكن إليه، حتى لو كان على قمه جبل» و لرضاه فى الدنيا لله فإنه يجعله فى كمال الرضى معنويا و ماديا فى الآخرة.

فى جَنِّهِ عَالِيَهُ فى درجتها و مقامها المعنوى، و فى ارتفاعها فإنّ خير الجنان منظرا و ثمرا ما نبت على الروابى و ما كان شجرها عاليا رفيعا ممّا يزيد روعه و ظلّالا، و لكنّ علوّ الجنة ليس بالذى يجعل ثمارها لا تطلها الأيدي، كالأشجار. إنّما هى أقرب ما تكون ثمره من قاطفها و جانبها.

قُطُوفُهَا دَائِيَةٌ بحيث لا- يحتاج المؤمنون لبذل جهد و عناء من أجل جنيها و أكلها، و للدانيه بالإضافه إلى معنى القرب (من الدنو) معنى النضج و البلوغ، فهى مقتربه من حين قطفها و قطعها من شجرتها.

ص: ٢٩٧

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهي من الثمار بفيه وهو متكئ، وإن الأنواع من الفاكهه ليقطن لولى الله: يا ولى الله كلنى قبل أن تأكل هذا قبلى» (١).

[٢٤] وهالك يدعى المؤمنون إلى مأدبه الله، والمشملة على ما لذ وطاب من أنواع الأكل و الشراب التى لا يعلمها إلا هو عز وجل.

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا لا يَنْغَصِبُ عَيْبُ فِيهِ وَ لا سَبَبُ خَارِجِهِ، وَ إِنَّمَا يَبِيعُ الْهِنَاءُ بِمَنْظَرِهِ (هو و آنيته و مائده) و بطعمه اللذيذ و فوائده الجمه. و فى الدعوه بفعل الأمر «كُلُوا وَ اشْرَبُوا» إشاره إلى فكرتين: الأولى: الإباحه، فكل شىء هناك مأكول و مشروب حلال مباح للمؤمنين لا حرام فيه، و الثانى: أن الله يعطى أصحاب الجنه القدره الواسعه على الاستلذاذ بنعيمها فهم يستطيعون الأكل و الشرب كلما شاؤوا لا يمنعهم مانع،

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «و الذى نفسى بيده إن الرجل منهم ليؤتى قوه مائه رجل فى الأكل و الشرب و الجماع» (٢).

و لأنّ منهج الرساله يهدف إصلاح الإنسان فهو لا يذكر قصص التاريخ و لا مشاهد القيامه إلا و يوجد رابطا بينه و بينها، ليحدّد لنا الموقف السليم تجاه ما يذكره، كما سبق و أن قلنا: بأنّ القرآن يريدنا أن لا نعيش اللحظه الراهنه فقط، إنّما نعيش الحاضر على ضوء الماضى و المستقبل.. كذلك بيّن الوحي أنّ نعيم الجنه نتيجته للعمل الصالح فى الدنيا.

ص: ٢٩٨

١-١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٢١٦.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٤٦.

بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَبِهَذَا يَنْسِفُ الْأَمَانِي وَالظُّنُونِ الْكَاذِبَةَ، وَيُضَعُّ الْإِنْسَانَ أَمَامَ الْمَسْئُولِيَّةِ. وَقَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُ الْمَفْسَرِينَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ «أَسْلَفْتُمْ» تَعْنِي الصِّيَامَ، وَاسْتَشْهَدُ

الدر المنثور بقول الله في حديث قدسي: «يا أوليائي! طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربه، وغارت أعينكم، وجفت بطونكم، كونوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية» (١)، و التفت الفخر الرازي إلى معنى لطيف للكلمة فقال: و الاسلاف في اللغة تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير فهو كالإقراض، و منه يقال: أسلف في كذا إذا قدّم فيه ماله (٢).

و الذي أراه أنّ الصيام أحد مفردات الاسلاف، أمّا الكلمه فهي عامه تتسع لكل الصالحات كالإنفاق و الجهاد و الصلاه و..التي هي ثمن الجنه بعد فضل الله و:

«شَتَانُ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ: عَمَلٌ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَ تَبْقَى تَبَعَتُهُ، وَ عَمَلٌ تَذْهَبُ مَوْثِقَتُهُ وَ يَبْقَى أَجْرُهُ» (٣)، و ذلك هو الفرق بين أصحاب النار و أصحاب الجنه.

[٢٧-٢٥] و يمضى السياق قدما فى تصوير جزاء الكفار الذين تعطى كتبهم فى شمالهم دلالة على الشؤم و سوء المصير، و ذلك لتوازن معادله الخوف و الرجاء فى ذهن الإنسان و يسمو بنفسه فى آفاق القرب من الله، يدفعه الرجاء للمزيد من العمل الصالح، و يردعه الخوف عن محارم الله و اقتراف السيئات.

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ

ص: ٢٩٩

١- (١) الدر المنثور/ج ٦ ص ٢٦٢

٢- (٢) التفسير الكبير/ج ٣٠ عند الآية.

٣- (٣) نهج البلاغه/حكمه ١٢١.

الذى اختطّه و ألف ما فيه بنفسه.

بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه و تعكس هذه الآيه مدى الفارق بين الإثنين: الأول الذى يكاد يطير فرحا بكتابه، و يدعو الآخرين لقراءته حتى يشاركوه السرور، و الآخر الذى ليس لا يدعو الآخرين لقراءه كتابه بل يتعذب هو خجلا و حسره مما فيه، إلى حدّ يتمنى لو ذهب به إلى العذاب دون أن يقرأ كتابه.

قال الفخر الرازى: و اعلم أنه لما نظر فى كتابه يذكر قبائح أفعاله خجل منها، و صار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب النار، فقال: يا ليتهم عدّبونى بالنار و ما عرضوا هذا الكتاب الذى ذكرنى قبائح أفعالى، حتى لا أدفع هذه الخجالة، و هذا يتبّهك على أنّ العذاب الروحانى أشد من العذاب الجسمانى (1)، و إلى مثل هذا ذهب أكثر المفسرين. ثم يضيف القرآن بلسان حال أصحاب الشمال قائلا:

و لَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ: عَذَابِ الْفُضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ وَ الَّذِى يَحِلُّ بِأَصْحَابِ الْجَحِيمِ فَوْرَ إِعْطَائِهِمْ كِتَابَهُمْ بِشِمَالِهِمْ مِمَّا يَعْرِفُهُمْ لِأَهْلِ الْمَحْشَرِ بِأَنَّهُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْمَعْدِبِينَ، وَ الْعَذَابِ النَّفْسِ (بِالْخَجَلِ وَ النَّدَمِ) الَّذِى يَحِلُّ بِالنَّظَرِ فِي صَحَائِفِهِمُ الْمَسْوُودَةِ بِالْقَبَائِحِ وَ السَّيِّئَاتِ الَّتِى اكْتَتَبُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ، وَ الْعَذَابِ الَّذِى يَتَلَقَّوْنَهُ عِنْدَ وِرْوَدِهِمُ النَّارَ، وَ لِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَتَمَنُّونَ لَوْ أَنَّ مَوْتَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ كَانَتْ النِّهَايَةَ، فَلَا بَعْثَ وَ لَا حِسَابَ وَ لَا جَزَاءَ بَعْدَهَا.

ص: ٣٠٠

لَا يَلْتَمِتُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ وَالْقَاضِيَةَ الَّتِي يَنْتَهِي بِهَا كُلُّ شَيْءٍ. وَحِينَمَا تَدَقُّ النَّظْرَ فِي الْآيَاتِ قَدْ تَهْتَدِي إِلَى حَقِيقَةِ لَطِيفِهِ وَذَلِكَ مِنْ تَكَرُّرِ صَيْغِهِ التَّمَنَّى عَلَى لِسَانِ أَصْحَابِ النَّارِ (الآيَاتِ ٢٥/٢٧) وَهِيَ: أَنْ مِنْ أَهْمِ أَسْبَابِ الْخَسْرَانِ هُوَ التَّمَنَّى الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْكَافِرُ بَدَلًا عَنِ الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ، وَالَّذِي لَا يَغْتَيَّرُ فِي الْوَاقِعِ شَيْئًا، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.. إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى النِّجَاحِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ وَالْجِزَاءِ وَالْإِنْتِقَالِ مِنْ أَصْحَابِ الشَّمَالِ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَ لَكِنْ عِبْرَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ، وَ لَيْسَ بِالتَّمَنِّيَاتِ الْخَادِعَةِ الَّتِي يَلُوكَهَا بِلِسَانِهِ حَتَّى فِي عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ.

[٢٨/٣٠] وَ حَيْثُ أَنَّ الْقِيَامَةَ - كَمَا سَبَقَ وَ بَيْنَا - سَمَّيْتُ بِالْحَاقَةِ لِكُونِهَا تَحَقُّقَ الْحَقِّ (تَظْهَرُ وَ تَغْلِبُهُ) فَإِنَّ أَصْحَابَ الشَّمَالِ الَّذِينَ حَجَبَهُمْ ضَلَالُهُمْ عَنِ مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ وَ التَّسْلِيمِ لَهَا فِي الدُّنْيَا تَزِيلُ حَوَادِثَ الْآخِرَةِ وَ أَهْوَالَهَا الْغَشَاوَةَ الَّتِي عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيُرُونَ الْحَقَّ بِكُلِّ وَضُوحٍ وَ جَلَاءٍ، وَ يَكْتَشِفُونَ أخطاءَهُمُ الْفَادِحَةَ الَّتِي طَالَمَا أَصْرَوْا عَلَيْهَا وَ حَسَبُوا أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ بِهَا صِنْعًا. وَ تَبْرُزُ هُنَا الْمَفَارِقَةُ الرَّئِيسِيَّةُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَفَاجِئُهُ الْبَعْثُ وَ الْجِزَاءُ، بِاعْتِبَارِهِ كَانَ حَاضِرًا عِنْدَ هَذَا الْغَيْبِ وَ هُوَ فِي الدُّنْيَا «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً»، وَ بَيْنَ الْآخِرِ الَّذِي كَذَّبَ بِالْآخِرَةِ، وَ وَجَدَ نَفْسَهُ أَمَامَ حَقِيقَتِهَا يَوْمَئِذٍ فَكَتَشَفَ أخطاءَهُ فِي وَقْتٍ لَا تَنْفَعُ الْمَعْرِفَةَ وَ لَا يَنْجِي الْإِيمَانَ.

وَ مِنْ أَفْدَحِ الْأخطاءِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الْإِنْسَانُ، وَ بِالتَّالِيِ يَدْخُلُ بِسَبَبِهَا أَكْثَرَ النَّاسِ نَارَ جَهَنَّمَ، هُوَ الْاعْتِمَادُ عَلَى الْمَالِ، وَ الْحَالُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَحْدَهُ زَادَ النِّجَاحَ وَ الْفَلَاحَ فِيهَا.

إِنَّ الْمَالَ بِذَاتِهِ لَا - يَغْنَى، وَ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِذَا عَمِلَ بِهِ أَعْمَالٌ خَيْرٍ وَ صَالِحٍ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.. وَ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَصْحَابُ الشَّمَالِ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْحِسَابِ وَ الْجِزَاءِ.

و الآيه توجهنا إلى معنى لطيف للغنى فهو لا- يتحقق بوجود المال و كثرته، إنما بأدائه دوره، و هدفه في الحياه، فأصل الغنى من ارتفاع الحاجه، و مع أنّ المال يقضى للمترفين و المخدوعين بعض الحاجات الظاهريه، و تستطيل به أيديهم إلى كثير من بهارج الدنيا و زخارفها، إلا أنّ ذلك لا يعدّ غنى إنّما الغنى حقًا يكون بانقضاء الحاجات الحقيقيه للبشر، و أهمّها رضى الله و الزحزحه عن النار التي لم يوظّف أصحاب الشمال و بالذات المترفون منهم أموالهم من أجل قضائها.

مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةٌ و لقد بينت أحاديث أنه الهدى المعنى الأصيل للغنى،

قال الإمام على عليه السلام :

«الغنى و الفقر بعد العرض على الله» (١)، و

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام فشكا إليه الفقر، فقال: «ليس الأمر كما ذكرت، و ما أعرفك فقيرًا»، فقال:

و الله يا سيدى ما اسبنت (ما عرفت)، و ذكر من الفقر قطعه و الصادق عليه السلام يكذّبه، إلى أن قال عليه السلام: «خبّرني لو أعطيت بالبراءه منا مائه دينار كنت تأخذ؟» قال:

لا- إلى أن ذكر ألوف الدنانير، و الرجل يحلف أنّه لا- يفعل، فقال له: «من معه سلعه يعطى هذا المال لا يبيعها هو فقير؟» (٢)، و العمل الصالح و الولايه هما اللذان يبقيان مع الإنسان و يغنيانه يوم القيامه، و ليست الأموال التي تفنى أو يرتحل عنها خالى اليدين.

و يضيف القرآن على لسان من يؤتى كتابه بشماله قوله:

هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ

ص: ٣٠٢

١- (١) نهج البلاغه/ حكمه ٤٥٢.

٢- (٢) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٦٧ ص ١٤٧.



و لعل من أسباب تقديم الحديث عن المال على الحديث عن السلطان أنّ المال هو طريق الإنسان للسلطة و الحكم و الهيمنه فى أغلب الأحيان. و فى معنى السلطان ذهب أكثر المفسرين القدماء و الجدد إلى أنّه الحجّه، باعتبارها تعطى صاحبها الحق و الهيمنه، و تجعل الآخرين يسلمون له، قال القمى: «سلطانيه» أى حجته، و مثله الدر المنثور و الكشاف و التبيان، و زاد الرازى بقوله: ضلّت عنى حجتي حين شهدت على الجوارح بالشرك (1)، و ما أرجحه أن تصرف الكلمه إلى عموم السلطان، بينما (الحجّه) من مصاديقه، و هناك مصداقان أساسيان آخران نجد الإشاره إليهما:

الأول: السلطان بمعنى الهيمنه الاجتماعيه و السياسيه و الاقتصاديه التى عاده ما ترافق المال و الثروه عند المترفين، فتريدهم بعدا عن الحق و غرورا ببقائها، فإنّها تسلب بالموت و فى الآخره بصوره أشمل، و قد أشار إلى هذا المصداق العلامه الطبرسى بقوله: «سلطانيه» أى ملكى و تسلطى على الناس (2)، و ما أحوج الحكّام و المترفين إلى استحضر ذلك المشهد فى أذهانهم لعلّه يدعوهم إلى العدل و توجيه السلطه فى مرضاه الله عزّ و جلّ.. و إنّ الآيتين «مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ» لهما أيضا لسان حال كلّ طاغيه و حاكم قرعته يد القدره و الجزاء فى الدنيا قبل الآخره.

الثانى: السلطان بمعنى الإبراده، إذ أنّ الوجه البارز من الكلمه هو الهيمنه التى تجعل إرادته المتسلط ماضيه و نافذه، و هذه هى الأخرى تسلب بكلّ ما تؤدى إليه الكلمه من معنى، لأنّ السلطه هنالك للحق و لمن تمسك به.

ص: ٣٠٣

١-١) راجع التفاسير المذكوره عند الآيه.

٢-٢) مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٣٤٨.

و تؤكد الآيه اللاحقه هذا المعنى حيث يأتى أمر الله لملائكته العذاب بوضع الأغلال على أعدائه كرمز لسلبهم الحريه، فلا يستطيعون حتى حراكا و هم يعذبون.

و إنه ليقطع عليهم تمنياتهم و ملامتهم لأنفسهم بنقلهم إلى عذاب النار.

خُدُوهُ فَعَلُوهُ «فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، و لا تنفعه قبيلته»،

قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«ثم تجيء صحيفته تطير من خلف ظهره فتقع فى شماله، ثم يأتية ملك يثقب صدره إلى ظهره، ثم يفتل شماله، ثم يقال له: اقرأ كتابك، قال: فيقول: أيها الملك! كيف أقرأ و جهنم أمامى؟ قال: فيقول الله: دق عنقه، و اكسر صلبه، و شد ناصيته إلى قدميه، ثم يقول خذوه فغلّوه فيتدبره لتعظيم قول الله سبعون ألف ملك غلاظ شداد، فمنهم من ينتف لحيته، و منهم من يحطم عظامه، قال: فيقول: أما ترحمونى؟ قال: فيقولون: يا شقى كيف نرحمك و لا يرحمك أرحم الراحمين؟ أ فيؤذيك هذا؟ فيقول: نعم أشد الأذى، قال: فيقولون: يا شقى و كيف لو قد طرحناك فى النار؟ قال: فيدفعه الملك فى صدره دفعه فيهوى سبعين ألف سنه» (١)، و

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «و أميا أهل المعصيه فخذلهم فى النار، و أوثق منهم الأقدام، و غلّ منهم الأيدي إلى الأعناق، و ألبس أجسادهم سراويل القطران، و قطعت لهم منها مقطعات من النار» (٢)، و لعمرى إن أمر الله بالأخذ ليخصّ بالذات الطغاه من الحكام الذين تسلطوا على رقاب الناس فراح ضحيه لأوامرهم بالسجن و التعذيب و القتل الكثير من الأبرياء و الصالحين.. و قد ذكر صاحب الكشاف (أنها نزلت فى أبى جهل) لأنه كان سلطانا يتعظم على الناس (٣).

ص: ٣٠٤

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٨ ص ٣٢٠.

٢- ٢) المصدر/ ص ٢٩٢.

٣- ٣) الكشاف/ ج ٤ ص ٦٠٤.

[٣٧-٣١] و بعد أن يغلّ المجرمون تؤمر الملائكة بواحدهم أن تصليه بالنار.

ثُمَّ الْجَحِيمَ صِلُوهُ و من طبيعه الإنسان أنه يهبّ للدفاع عن نفسه أو الهرب عند مواجهه الخطر، أمّا المجرمون الذين تغلّ أيديهم و أرجلهم فإنهم يقاسون عذاب جهنم و عذاب الأغلال في نفس الوقت، و ذلك من أشدّ ألوان العذاب أن يصطلى الواحد بالنار و لا يجد سبيلا للخلاص و المقاومه.

قال الرازى عن المبرّد: أصلية النار إذا أوردته إياها (١)، و قال القمى:

(أى) أسكنوه (٢)، و يبدو لى أنّ أصل الاصطلاء من الصله و الوصول، و «صلّوه»، أى اجعلوا النار واصله إليه كأكثر ما يكون وصولها لأحد و اتصالها به كيفاً و زمناً، و قيل صله الرحم لأنّ المراد العلاقه الحميمه المتصله فلا انقطاع فيها.

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ دَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ أى طولها سبعون ذراعاً، و الذراع ما يساوى ١٨ بوصة ١٢٦٠ ١٧٠٠ بوصة، و هذا الطول كاف لتلتف السلسله على جميع أجزاء البدن، فكيف و بعض المفسرين يعتبر السبعين للمبالغه، كقول الله: إِنْ تَشْتَغِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣)؟! و قد ذهب البعض إلى أنّها سبعون ذراعاً و لكن من أذرع الملائكه الطويله التى لا نعلم قياسها، و قيل بأن الحلقة الواحده منها ما بين الرحبه فى الكوفه و مكّه، و نحن

ص: ٣٠٥

١- (١) التفسير الكبير/ ج ٣٠ عند الآيه.

٢- (٢) القمى/ ج ٢ عند الآيه.

٣- (٣) راجع الكشاف و التفسير الكبير/ ج ٣٠ عند الآيه.

لا نخوض فى هذا الأمر بل نورد

حديثاً عن السلسله مروياً عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لو أنّ حلقة واحده من السلسله التى طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها» (١)، و يحتمل أنّها سلسله عظيمه تمتد فى كلّ جهنم إلا أنّ لها أذرعاً طول الواحد منها سبعون ذراعاً يسلك كل مجرم فى أحدها (و الله العالم).

أمّا كيف يسلكون فيها؟ فهناك احتمالان:

الأول: أنّها تخترق أبدانهم، كأن تدخل من أفواههم و تخرج من أديبارهم و تخترق بها أبدانهم من كل ناحيه، فأصل السلك من إدخال الشىء فى الشىء، كإدخال الإبره فى الخيط، و كذلك ينظم فيه الخرز و نحوه، و يقال دخل السلك العسكرى أى انسلك فى الجنديه (٢).

الثانى: أنّه يطوّق بالسلسله و تلفّ عليه فكأنّه يسلك فيها، قال الزمخشري فى الكشاف: أى تلوى عليه حتى تلفّ عليه أثنائها (٣).

و قبل أن ننطلق مع الآيات فى بيانها للذنوب الأساسيه التى صارت بهم إلى ذلك العذاب المقيم نقف عند اللهجه القرآنيه المتفرده بها هذه السوره، أعنى إضافه الهاء فى الكلمات: (كتاييه، حسابيه، ماليه، سلطانيه) و ما هو وزنها من الناحيه اللغويه؟ لقد اختلف المفسرون و القرّاء أمام هذه الظاهره القرآنيه فقيل:

١- أنّ الهاء للسكت و الاستراحه و من ثمّ يجب الوقف عندها بين الآيات

ص: ٣٠٦

١- ١) نور الثقلين/ ج ٥ ص ٤٠٩.

٢- ٢) المنجد ماده سلك.

٣- ٣) الكشاف/ ج ٤ عند الآيه.

لتصح القراءة و لتثبت الهاء، ثم ترى البعض قد أوجب الوقف معتبرا الهاء جزء من القرآن لا يجوز حذفه بالوصل عند القراءة و لا بغير ذلك.

٢- وقال البعض: أنها جعلت لنظم رؤوس الآي، و ذلك ممّا لا يليق نسبته لكلام الله عز و جل، لأنه كما تؤكد الآية (٤١) «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ»، لأنّ الشاعر يعتبر القافيه أصلا فإذا عجز من نظمها تخبّط في النحو و الصرف، و المعنى من أجل حفظها واحده، و حاشا لله أن لو أراد النظم أن تعجزه القوافي، ثم من قال أنّ القرآن يلتزم بالقافيه في سوره و آياته؟ فهذا قوله تعالى: لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَفْعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ \* تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ \* فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا \* إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا \* وَ تَرَاهُ قَرِيبًا \* يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ \* وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ \* وَ لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١).

٣- و الذي يبدو لي أنّ الهاء ليست زائده حتى تحذف بالوصل في القراءة، و أنّها لم توضع لنظم نهايات الآي، و ليست إضافتها خارجه عن لغة القرآن (العربية) التي أنزل بها، و لقد أخطأ أولئك الذين حاولوا تقييم كلام الله بشعر العرب و كلامهم، و يجب أن لا يدعوننا عجزنا عن إدراك بعض المعاني القرآنيه إلى افتراضات بعيدة، على أنّ للصيغه (كتائيه، حسابه) إحياء نفسيا قد يبلغه الباحثون في يوم من الأيام. و ما يهمنى التأكيد عليه أننا لم نؤت من العلم إلا قليلا، فالموقف السليم عند العجز عن فهم الآيات هو الاعتراف بالجهل و التواضع للحق لا الخوض فيما لا نعلم أو الطعن في كلام الله.

و نعود إلى الآيات الكريمة، و نستمع إلى صفات أصحاب الشمال، فما هي؟ الأولى: عدم الإيمان بالله.

ص: ٣٠٧

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ و عند ما كفروا بالله العظيم استحقوا جزاء الضعف من العذاب. لماذا؟ أولا: لأن الله عظيم انتشرت آيات قدرته و جلاله في كل شىء، فكيف جاز لهم الكفر به مع ذلك؟! ثانيا: إن الذنب يزداد قبحا حينما يكون عصيانا لرب عظيم.

و لقد عبّر أئمة الهدى عن هذه الحقيقة

بقول الإمام السجاد-عليه السلام:-

«لا تنظر إلى الذنب، و لكن أنظر إلى من عصيت» (١)، فكيف و أنّ عدم الإيمان بالله أصل كل خطيئه و ذنب؟! إنّ عدم الإيمان جذر كل فساد و ضلال و فاحشه و زيغ، فمن كفر بالله أشرك به، لأن من لا يؤمن بالله سيتبع غيره و يتأله إليه بشرا أو حجرا أو هوى نفس، و من لم يؤمن بالله ضلّ ضلالا بعيدا، لأنّه لم يتبع رسالته فتراه يتخبط في ظلمات الباطل، و من كفر بالله أو غل في الفواحش بغير حساب حيث أنّ الإيمان هو الذى يحجز البشر عن الزيغ و يردعه عن المعاصى.

و قد وصف القرآن ربنا بالعظمه هنا لأمرين: أحدهما: لكى لا يظن أحدا بأنه تعالى حينما يعذب المجرمين بذلك العذاب الغليظ الذى وصف آنفا في الآيات (٣٠-٣٢) أو ما سيأتى بيانه في الآيات (٣٥-٣٦) فإنه يظلمهم، كلاً. إنّ الجزاء يبقى أبدا أقل من الذنب، الثانى: ربما لكى نهتدى إلى أنّ مشكله الكثير من أصحاب الشمال و ربما كلهم ليس محض الكفر بالله، و لكن مشكلتهم عدم الإيمان بأسمائه الحسنى و صفاته المثلى، كما قال تعالى:

ص: ٣٠٨

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (١)، فأشركوا بالله أو آمنوا بصفات تعالى ربنا عنها: جسّدوه أو زعموا انه مغلول اليدين أو أنه-سبحانه-ظالم للعبيد أو هازل في الوعيد أو ما أشبه و كان ذلك مساوقا لعدم الإيمان به رأسا، وهذه كلها جرّتهم إلى واد سحيق من الانحراف و الضلال في الدنيا و العذاب في الآخرة.

من هنا نستطيع القول بأن حقيقة التسليم و العبودية لله عزّ و جلّ تتأسس بصورتها السليمة على المعرفة بعظمته من خلال آياته و أسمائه الحسنی و من ثمّ استشعار عظمته في القلب.

الثانية: و ثمّه صفه سيئه أخرى عند أصحاب الشمال تتصل بعلاقتهم مع عباد الله، و هي عدم قضاء حوائجهم بل عدم الحث على قضائها.

وَ لَا يَخْضُ عَلَيَّ طَعَامِ الْمَسْكِينِ فهو يرتكب ذنبين عظيمين: أحدهما: الامتناع عن الإنفاق على المحتاجين الذين فرض الله لهم حقّا في أموال الناس، و الآخر: تركه لواجب الأمر بالمعروف، و الأخير نتيجة طبيعیه للأول، ذلك أنّ الذين ييخلون بأموالهم على الناس يتمنّون أن يكون المجتمع مثلهم حتى يبزروا موقفهم.

و للمتدبّر أن يتصور مدى صلافة من لا يحض على طعام المسكين و انعدام العاطفه و الوجدان عنده، حيث يرى مسّ الجوع و الحاجة عند أضعف طبقه اجتماعيه ثم لا يبالي بالأمر، و لا يتحمّل المسؤوليه، مع وجود أمر الله بالإنفاق، و كون ما عنده من نعمه و فضله الذي يأتمن عليه خلقه.

و لقد ربط الإسلام بين الإيمان بالله و النفع لعباده و كأنّهما صنوان لا ينفكّان،

ص: ٣٠٩

(١ - ١) الحج ٧٤.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أحب عباد الله إلى الله جلّ جلاله أنفعهم لعباده، و أقومهم بحقّه» (١)،

جاء في حديث قدسى أنّ الله عزّ و جلّ قال: «الخلق عيالى، فأحبّهم إلىّ ألطفهم بهم، و أسعاهم فى حوائجهم» (٢)، و حيث ننعّم الفكر فى العلاقه بين الكفر بالله و عدم الحض على طعام المسكين نهتدى إلى أنّ المعتئين بالآيتين لا خلاق لهم فى الآخره، و لذلك يعدّون دون رحمه، لأنّهم لا- إيمان لهم بالله يدعوهم إلى العمل الصالح من الزاويه الدينيه، و لا إنسانيه تدعوهم إلى الإحسان، فقد يكون الإنسان كافرا بالله أو مشركا و لكن تبقى فيه بقيه من الإنسانيه تحثّه على بعض الخير، فهو إن لم يخفّف عنه العذاب لإيمانه فسوف يخفّف عنه لإنسانيته، حيث لا يضيع الله أجر المحسنين.

و إذا آمنّا بهذه الفكره فى ضوء الإيمان بأنّ الجزاء الأخرى صوره لعمل الإنسان و اختياره فى الدنيا فإنّ تعامل أصحاب الشمال الصلف مع عيال الله المساكين فيها هو الذى يحدّد نوع تعامل الله معهم يوم الجزاء. قال الزمخشري: دليلان قويان على عظم الجرم فى حرمان المسكين: أحدهما: عطفه على الكفر و جعله قرينه له، و الثانى: ذكر الحض دون الفعل، ليعلم أنّ تارك الحض بهذه المنزله فكيف بتارك الفعل؟ (٣).

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ و هو القريب الذى يهتم بالإنسان و يحامى عنه، فأمثاله من المجرمين مشغولون بأنفسهم عن غيرهم، و أمّا المؤمنون فإنّهم عدوّهم و هم أعداؤه لكفره بالله، و من يجرأ

ص: ٣١٠

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ج ٧٧ ص ١٥٢.

٢- ٢) أصول الكافي/ج ٢ ص ١٩٩.

٣- ٣) الكشاف/ج ٤ ص ٦٠٥.



على الشفاعة لمن غضب الله العظيم عليه؟ ولعلّ للآية ظلالاً يتصل بعلاقات الإنسان الاجتماعيه، وأنه ينبغي أن يبحث عما يدوم منها و ينفعه في الدارين، فإنّ لأصحاب الشمال أخلاءً كثيرين و أصدقاء بالخصوص المترفين و أصحاب السلطه منهم و لكنهم لا يحمونهم و لا حتى يسألون عنهم يوم القيامه، الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (١).

أما طعامهم فإنّ المجرمين يكادون يموتون جوعاً لأنهم لا يجدون طعاماً، و حيث يمضّ بهم الجوع و يطلبون ما يأكلونه يؤتى لهم بطعام هو لون من أشدّ العذاب.

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ قال القمّي: عرق الكفار (٢) لأنه غساله أبدانهم، و في الدر المنثور عن ابن عباس: أظنه الزقوم، و في خبر آخر: (هو) الدم و الماء الذي يسيل من لحومهم (٣) إثر التعذيب، و في التبيان: و قال قطرب يجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، فعبر عنه بعبارتين (٤)، و لعل أقرب المعاني ما يخرج من أبدانهم من جراحه أو أنه يتصف بمجموعه الصفات السيئه التي يمكن أن يحويها الطعام الرديء لونا و رائحه و مذاقا، و لعل النفي ب«لا» يوحي بأن أصحاب الشمال لا يجدون الطعام بسهولة، بل يقعون مده طويله يتضوّرون جوعاً، و إذا جىء لهم بطعام فإنه لا يكون إلا من «غسلين»، و هذا يتناسب مع موقفهم من المساكين في الدنيا، حيث كانوا لا يشعرون بجوعهم و عوزهم، فهم بذلك يذاقون عذاب الجوع مما يكشف لهم مدى قبحهم إذ لم يطعموا المساكين و لم يحضوا على إطعامهم.

ص: ٣١١

١-١) الزخرف ٦٧.

٢-٢) تفسير القمّي/ج ٢ عند الآية.

٣-٣) الدر المنثور/ج ٦ ص ٢٦٣.

٤-٤) التبيان/ج ١٠ ص ١٠٦.

إنَّ الجزء في الآخرة هو الصورة الحقيقيه لعمل كلِّ إنسان في الدنيا، فهو في الواقع الذى يطعم نفسه هناك ما يقدمه هنا، فالمؤمنون يأكلون من قطف الجنات العالیه بما أسلفوه من الصالحات، و المجرمون يأكلون طعام الغسلین بما قدّموا من الخطیئات و المعاصی.

لا- يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ فهم إذن كما وصف الله: **إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا (١)** حيث يمارسون الخطيئات، و لكنهم- وقد عميت بصائرهم عن الحق- لا يرون ذلك إلا في الآخرة حين تقع الحاقه و تكشف الحجب عن كلِّ حق كسفا معنويًا و ماديًا.

[٣٨-٤١] و في الفصل الأخير من هذه السوره التي سميت بالحاقه يوجهنا الله إلى كتابه العظيم الذى يذكر بها و يسبقها في الهدايه إلى الحق و إحقاقه، و كأنَّ السياق يقول لنا بأنَّ القرآن حاق لأنه كالحاقه يجلى كلَّ الحقائق. كما أنه تعالى آخر الحديث عن أصحاب الشمال على الحديث عن أصحاب اليمين ليكون لصيقا بكلامه عن كتابه، و ذلك لأنَّ الحديث عن أصحاب النار سوف يستثير في السامع السؤال عن النهج الذى فيه الخلاص من غضب الله و عذابه، و الفوز بأجر أهل اليمين و عيشتهم الراضيه.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ و التمهيد لأى حديث بالقسم أو بالإشاره للقسم يؤكّد أهميته و عظم شأنه، و إذ لا يقسم الله فذلك يدلّ على أنّ ما يريد قوله و بيانه غايه فى الوضوح، بحيث لا يحتاج لإقناع الآخرين به إلى القسم، و لكنّه فى الأثناء يلفتنا إلى حقيقه عمليه

ص: ٣١٢

واقعيه، و هي: أن الحياه لا تتلخص في ما يراه الإنسان بيصره، بل لها جانبان:

جانب ظاهر يحضر عنده بحواسه الماديه، و آخر خفي مغيب يحتاج إلى العلم و البصيره النافذه لكي يشاهده، و كأنه بذلك يستحثنا نحو توسيع معارفنا و التطلمع إلى الوجه الآخر من الحياه، فهل نكفر بوجود الميكروبات و الفيروسات لأننا لا نراها بأعيننا؟ كلا.. لأن ذلك لا يعبر من الواقع شيئاً، فهي موجوده رغم ذلك..

و هكذا فإن من يكفر بالآخره لأنه لا يراها بعينه فإنه من الخاطئين (١).

و من هذه الزاويه يوصل القرآن الآيتين الآتيتين بتأكيده على أن الرساله ليست من بنات أفكار النبي صلى الله عليه و آله، إنما هي متصله بالغيب حيث جبريل الأمين يتنزل بمفرداتها كلمه كلمه و بحروفها حرفا حرفا، بل و بحركاتها دون نقيصه أو تغيير، فإن للرساله جانبين: ظاهرا يتمثل في القرآن الذي يبصره الناس بأعينهم و تدركه حواسهم، و غيبا لا يبصرونه و لا يدركونه و لا ينبغي لهم ذلك و هو جبرئيل الواسطه بين المرسل و الرسول و رب العالمين الذي يتنزل من عنده القرآن، و عدم إبصارنا بالجانب الغيبى منها لا يبزر الكفر بها، و ذلك لسببين:

الأول: أن قصور الإنسان عن الإحاطه علما بغيب الحياه من المسلّمات البديهيه التي يقبلها كل عاقل، و هكذا لا يمكن للبشر الإحاطه بالوحى الالهى، و بذلك ينسف القرآن الشيشيه الماديه عند البعض، كالذين كفروا بالرساله لأنهم لم يروا جبرئيل و قالوا **لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ (٢) أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ (٣)**.

الثانى: أن الجانب الظاهر (القرآن) دليل قاطع يهدى كل ذى عقل إلى

ص: ٣١٣

١- ١) تقدّم الحديث حول القسم فى الآيه ٧٥ من سوره الواقعه فراجع.

٢- ٢) الأنعام/٨.

٣- ٣) هود/١٢.

الإيمان بالجانب الآخر (الوحي)، فإنّ المتدبر في الآيات القرآنية لا بد و أن يسلم بأنّها من عند الله، لأنّه يجدها معجزات لا تتأتى إلاّ للخالق العظيم ببلاغتها و نظمها و معانيها الهاديه للحق، كما قال الله:

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ  
أُتِيَ الْمَنْزِلَ إِذْ يَبْتَغِيهِ اللَّهُ مِنَ الْمَنَاجِدِ، وَهُوَ يُعَلِّمُهُ الْوَحْيَ وَإِنَّهُ خَلْقٌ حَكِيمٌ  
بِأَنَّ الرِّسَالَةَ رَفَعَهُ لِيَلْقَىٰ رَبَّهُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ  
بِأَنَّ الرِّسَالَةَ رَفَعَهُ لِيَلْقَىٰ رَبَّهُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ  
بِأَنَّ الرِّسَالَةَ رَفَعَهُ لِيَلْقَىٰ رَبَّهُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

و في الآية تأكيدان لهذه الحقيقه: «إنّ» و اللّام في «لقول»، و بالإضافة إلى هذين التأكيدين اللفظيين هناك ثلاثة تأكيدات معنويه على أنّ الرسالة هي من عند الله:

ألف: كلمه «قول»، فالرسول دوره لا يتعدى نقل الرسالة إلى الناس، فهو يقولها و ليس يؤلفها أو يخلقها.

باء: إنّّه تعالى لم يقل فلانا (جبرئيل أو محمد) بل لم يقل نبي و لا ملك.. إنّما اختار كلمه «رسول» لأنّها أدلّ على المعنى المراد من سواها.. فالرسول هو الذى يحمل الرسالة من عند غيره.

جيم: و إذ امتدح الله رسوله بأنّه «كريم» دلّ ذلك على أمانته و وصول الرسالة كما أراد المرسل، و إذا كان نكران الذات من أبرز صفات الكريم فإننا نفهم من وصف الله لرسوله بذلك أنّه تنازل عن ذاته فى قضيه الرسالة لله، و بالتالى ليس فيها شىء من عند نفسه.

و لقد اختلفت الأقوال فى المقصود بالرسول، فقال فريق: أنّه جبرئيل الذى يتنزل بالوحي من عند الله إلى النبي صلى الله عليه و آله فهو رسول الله إلى نبيه، و قال آخرون:

أنه النبي محمد صلى الله عليه وآله، وما أذهب إليه أن الكلمه منصرفه إلى الإثنين، لأنهما رسولان من عند الله و فيهما ذات الصفات الرساليه، ولأن المقصود هنا إثبات أن القرآن من عند الله و ليس من عند أحد كالنبي أو جبرئيل، مما يستوجب التأكيد على الصفات المذكوره في الإثنين.

وَمِمَّا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ لَا- يشبه أقوال الشعراء لا- في أوزانه و قوافيه و لا- في بلاغته، إذ المسافه بين بلاغته و أدبه الرفيع و بين بلاغه الشعراء و أدبهم مسافه لا يعلمها إلا الله، فهي كما

وصفها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بقوله: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» (١)، و لا في معانيه لأن الشاعر قد يهّمه ظاهر الكلام فقط فيتخبط في المعنى، و لو كان الرسول كالشعراء لكان يضحّم الأمور حتى إذا نقل رساله الله، فتلك طبيعه الشعراء.

و أعظم مفارقه بين رساله الله و الشعر أنها تنطوى على الحق و تهدى إليه، بينما ينطوى أغلب الشعر على الباطل، و أنها تعبّر عن الحقائق الواقعيه، بينما يطلق الشعراء لعواطفهم و ظنونهم العنان دون حساب، فهم يعتمدون على المشاعر و الأحاسيس بينما تعتمد رساله الله على علمه الواسع، من هنا نستطيع القول بأن كلمه الشاعر لا تنحصر في الذي ينظم الأبيات و القصائد، و إن كان من مصاديقها الجليه، إنما تتسع لكل من يتبع الثقافه البشريه المنطلقه من الظنون و المشاعر البشريه لا من العلم الإلهي كأصحاب النظريات و الفلسفات، و لعل هذه المفارقه هي السر في فشل النظريات البشريه و تزلزلها، و ثبات القيم الإلهيه و نجاحها، و إلا

ص: ٣١٥

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٩٣ ص ١٩٠. و لا- يعني ذلك أن القرآن في منزله الخالق لأنه مخلوق له عزّ و جلّ و إنما يعني أن كل فضل في الكلام من قبل القرآن فهو كفضل من الله لأنه كلامه.

لماذا تتبع الملايين جيلا بعد جيل رسول الله و رسالته بينما لا تتبع الشعراء و لا تعتدّ بكلامهم؟ نعم. إنّ إقبال الناس منذ بعث النبي صلى الله عليه و آله إلى اليوم و حتى المستقبل-الذى هو لرسالات الله-على الإسلام و إيمانهم به لآيه بالغه على أنّها من عند ربّ العالمين.

قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ قَالُوا: إِنَّ «مَا» هُنَا بِمَعْنَى الْعَدَمِ، أَيْ أَنْكُمْ لَا تُوْمِنُونَ الْبَتَّةَ، وَ أَضَافُوا: الْعَرَبُ تَقُولُ: قَلَّمَا يَأْتِينَا يَرِيدُونَ لَا يَأْتِينَا (١)، وَ لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ الْقَلْبَ هُنَا بِمَعْنَاهَا حَيْثُ يَنْسَجَمُ ذَلِكَ مَعَ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي تَنْفِي الْإِيمَانَ عَنِ الْكَثْرَةِ إِنَّ تَطْعَمَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضَيِّمُ لُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بَيْنَمَا تَثْبَتَهُ لِلْقَلْبِ وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّاكِرُونَ .

و كلمه أخيره: إنّ الفرق بين الرسول و بين الشاعر هو الفرق بين الكريم الذى يتنازل عن ذاته و بين من تكون ذاته هى المحور فى كلامه و تحرّكه، فالشاعر يسأل الأجر و الرسول يعطى و لا يسأل، و الرسول يقول الحق و لو على نفسه بينما الشاعر لا يملك هذه الشجاعه و الإخلاص. كما أنّ قلبه إيمان الناس لن يكون فى يوم من الأيام مقياسا للحق، لأنّ رساله ذاتها حق، و بالتالى فإنّ الداء فى من لا يؤمن و ليس فيها، لأنّها قَمّه سامقه قلّ أن يصل ذروتها أحد.

[٤٢] و ينفى القرآن أن تكون الرساله من أقوال الكهنه.

وَ لَا يَقُولُ كَاهِنٌ

ص: ٣١٦

فما هي العلاقة بين نفى الشعر و الكهانه؟ أولاً: لأنّ الشعر و الكهانه من الظواهر التي كانت شائعة في المجتمع الذي تنزلت فيه الرسالة يومئذ، و كان الشعراء و الكهّان يمثلون طبقه المثقفين و الواعين بين الناس، و إذ ينفى الله كون القرآن من أفكار أوعى أفراد المجتمع فإنّه ينفى كونها من عند أى أحد من الناس، لأنّ ما يعجز عنه الأقدار لا يستطيع الإتيان به غيره.

ثانياً: لأنّ أى ثقافه يأتى بها الإنسان فإنّما يحصل عليها عن أحد طريقين أو عنهما معاً: فإنّما تكون ذاتيه يتفتق بها عقله و خياله كالشعر، و إمّا تأتيه عبر الآخرين كالكهانه التي يتلقّى الكهّان أفكارها من القوى التي يتصلون بها أمثال الشياطين و الجن، بغضّ النظر عن الصحه و الخطأ. و حيث ينفى القرآن الإثنين فإنّما يؤكد بأنّ الرسالة ليست من عند نفس الرسول صلى الله عليه و آله و لا مصدر آخر يتصل به سوى وحى الله عزّ و جلّ.

إنّ الرسالة هي الحق المرتكز في فطره الإنسان و عقله، و آياتها تترى و تتواصل الحجج الداله عليها حتى يقتنع الإنسان بها، ثم أنّها تقوم بدور تذكره البشر و تنميه عقله و إرادته.

قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ وَ الْقَلِيلَ هُنَا حَسْبَمَا يَبْدُو لِي بِمَعْنَاهِ الْمَعْرُوفِ.

و لعل الترتيب في النفي بتقديم نفى الشعر ثم نفى الكهانه ب«و لا» يهدينا إلى أنّ الكهانه في عرف المجتمع أرفع و أعجب من الشعر، كما في قول الله: «قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التُّجَارَةِ» (١).

ص: ٣١٧

١-١) راجع تفسير هذه الآية في سورة الجمعة.

و الكهانه من حيث المعنى هى التحدّث بالغيب، و الكهّان هم الذين يدعون العلم به، أمّا من حيث اشتقاقها اللفظى فيبدو أنّها من الأسماء المدخيله لأن أصلها دخيل على المجتمع العربى من الثقافات الجاهليه التى تسرّبت إلى الديانات السماويه كاليهوديه و النصرانيه و من خلالهما انتقلت إلى العرب، و يشير إلى أنّ الكلمه مستعربه صاحب المنجد إذ يقول: و اللفظه إمّا من كهن بالعبرانيه، أو من كهنا بالسريانيه (1)، و الأقرب أنّها قدمت اسما و حرفه من الشعب العبرى، لأنّ اليهود كانوا يسكنون شبه الجزيره، و كانت لهم محاولات لنشر مبادئهم و أفكارهم فيها.

و ثابت تاريخيا أغلب روّاد الكهانه من اليهود و النصارى و قد اتخذوها سبيلا للوصول إلى الزعامه الروحيه.

أمّا كيف يقضى الكهّان بما يحسبه الناس غيبا؟ الجواب للأسباب التاليه:

أولا: الذكاء المتميّز الذى يساعدهم على التقاط إشارات الحقائق و إرهاصات الظواهر كبعض الجواسيس المتفوّقين اليوم.

ثانيا: القدره على استششاف المستقبل و التنبأ به، و هذه القدره يمتلكها أغلب الناس إلا أنّ الكهنه ينمّون هذه القدره فى أنفسهم شأنهم شأن السياسيين الكبار أو لاعبى الشطرنج و من أشبه.

ثالثا: الاتصال بالجن و الأرواح الشيطانيه عبر رياضيات روحيه معينه شأنهم شأن المرتاضين اليوم.

رابعا: معرفتهم بالثقافات و العلوم الغربيه عن ذلك المجتمع الجاهلى، و هذه العوامل كانت تساعد الكهنه على التعرّف على بعض الحقائق المجهوله عند الناس و التى كانوا يخلطونها بكثير من الأكاذيب و الأساطير.

ص: ٣١٨

١-١) راجع المنجد ماده كهن.



جاء فى الخبر المأثور فى كتاب الإحتجاج: إنَّ الزنديق سأل الإمام الصادق عليه السلام فمن أين أصل الكهانه و من أين يخبر الناس بما يحدث؟ قال عليه السلام: «إنَّ الكهانه كانت فى الجاهليه، فى كلِّ حين فتره من الرسل، كان الكاهن بمنزله الحاكم يحتكمون إليه يشتهب عليهم من الأمور بينهم فيخبرهم عن أشياء تحدث، و ذلك من وجوه شتى: فراسه العين، و ذكاء القلب، و وسوسه النفس، و فتنة الروح، مع قذف فى قلبه، لأنَّ ما يحدث فى الأرض من الحوادث الظاهره فذلك يعلم الشيطان و يؤديه إلى الكاهن، و يخبره بما يحدث فى المنازل و الأطراف» (١)، و تهدينا هذه النهايه إلى أنَّ نسبة الصدق لدى الكهَّان فيما يتصل بأسرار الناس تكون أكبر من نسبتها فى الحديث عن الغيب، لأنَّ الأسرار قد وقعت و أطلع عليها الجن الذين يتصلون بهم و يخبرونهم، و ليس الغيب كذلك، و لا - سيما فيما يتصل بوضع برنامج حياتى متكامل فى بصائر العقل و تزكيه القلب و تنميه الإراده و نظام الحياه، فإنَّه لم يبلغه أى كاهن عبر التاريخ. إنَّه فقط معاجز الرسل! [٤٣] إنَّ التمايز بين خط الرساله و الثقافات البشريه واضح لا غموض فيه، و لذلك فإنَّ نظره فاحصه للقرآن تهدينا إلى أنه ليس شعرا و لا كهانه إنَّما رساله الله إلى خلقه.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَصْلُهُمْ شَرٌّ مِنَ الْبَشَرِ خَالِدِينَ فِيهَا وَأُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى الْقُرْآنِ الَّذِي فَصَّلْنَاهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَإِنَّمَا نُنزِلُ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا مِّنَ السَّمَاءِ فِي لَيْلٍ مُّبِينٍ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ وَيُطَهِّرَ الصَّالِحِينَ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ وَيُطَهِّرَ الصَّالِحِينَ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ وَيُطَهِّرَ الصَّالِحِينَ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْمَعِينَ وَيُطَهِّرَ الصَّالِحِينَ

بلطفه لما كان العالمون-مهما تفتت عبقرياتهم وبلغت قدراتهم-قادرين على السمو إلى مقام الإتيان بمثل آيات القرآن..لا بالشعر ولا بالكهانه،و لو بلغ الأمر أن تظافت القوى و التقت الحضارتان،حضاره الإنس و الجن قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (١).

ثانياً: أن الله تعالى يتجلى في كتابه بصفاته و أسمائه الحسنی،و كتابه يهدى الله من بدايته حتى نهايته،و إنَّ القارئ آياته و المتدبر كلماته ليرى ربه ببصيره الإيمان و اليقين،

قال الإمام الصادق عليه السلام : «لقد تجلّى الله لخلقه فى كلامه و لكنهم لا يبصرون» (٢)، و

قال الإمام على عليه السلام : «فبعث الله محمداً..بقرآن قد بينه و أحكمه،ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه،و ليقروا به بعد إذ جحدوه،و ليثبتوه بعد إذ أنكروه،فتجلى لهم سبحانه فى كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته،و خوفهم من سطوته،و كيف محق من محق بالمثلات،و احتصد من احتصد بالنقمة» (٣) إنَّ المسافه بين كلام الله و كلام المخلوقين ليست بالتى تخفى على ذى لبّ و فطره حتى يجهل أحد التمييز بين الرساله و أفكار المخلوقين.

و لنا وقفه هنا على العلاقه بين الحديث عن الرساله و أنّها من ربّ العالمين بالذات،فلم يقل الله:تنزيل من الله..أو ما إلى ذلك من أسمائه الحسنی الأخرى.

إنَّ أصل كلمه «ربّ»من التريبه بما تعنى الكلمه من نماء و تزكيه و لطف،

ص: ٣٢٠

١-١ (١) الإسراء/٨٨.

١-٢ (٢) بحار الأنوار/ج ٩٢ ص ١٠٧.

١-٣ (٣) نهج البلاغه/ج ١٤٧ ص ٢٠٤.

و رساله الله هي أظهر آية على علاقه الرب الخالق بالمخلوق المربوب، لأنها وسيله الله في تأديب خلقه و تربيتهم، و طريقهم لكل خير و نماء و بركه إذا عملوا بها، كما أنها علامه حنانه و تطفه بهم.

و ننقل هنا بعض الأخبار التي وردت في شأن الآيات الأربع (٤٣/٤٠) فيما يتصل بشأن نزولها عند المفسرين، من ذلك ما رواه ابن إسحاق عن الوليد ابن المغيرة، و عن النضر ابن الحارث، و عن عتبه ابن ربيعه، و قد جاء في روايته عن الأول:

«ثم إن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، و كان ذا سن فيهم، و قد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش! إنّه قد حضر هذا الموسم، و إنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، و قد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، و لا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، و يردّ قولكم بعضه بعضا، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، و أقم لنا رأيا نقل به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا:

نقول: كاهن، قال: لا- و الله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان فما هو بزمنه الكاهن و لا- سجع، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون و عرفناه، فما هو بخنقه و لا تخالجه و لا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه و هزجه و قريضه و مقبوضه و مبسوطه فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار و سحرهم، فما هو بنفثهم و لا- عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: و الله إنّ لقوله لحلاوه، و إنّ أصله لعذق، و إن فرعه لجناه، و ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنّه باطل، و إنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا: هو ساحر، جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء و أبيه، و بين المرء و أخيه، و بين المرء و زوجته، و بين المرء و عشيرته، فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس- حين قدموا الموسم- لا يمرّ

بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره...» (١) وحكى عن الثاينى (النضر ابن الحارث) قال:

«فقال: يا معشر قريش! إنّه و الله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيله بعد. قد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، و أصدقكم حديثا، و أعظمكم أمانه، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، و جاءكم بما جاءكم به قلم: ساحر! لا و الله، ما هو بساحر، لقد رأينا السحره و نفثهم و عقدهم، و قلم كاهن! لا و الله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنه و تخالجهم، و سمعنا سجعهم، و قلم: شاعر! لا و الله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، و سمعنا أصنافه كلها هزجه و رجزه، و قلم: مجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه و لا وسوسته و لا تخليطه. يا معشر قريش! فانظروا فى شأنكم، فإنّه و الله قد نزل بكم أمر عظيم..» (٢) [٤٤-٤٧] و نعود للآيات الكريمة حيث تؤكد أمانه الرسول و صحّحه الرساله، بنفى أى إضافة منه صلى الله عليه و آله إليها نفيا قاطعا، ممّا يهدينا إلى حقايقه الحق، و أنّ الله يفرضه على الإنسان فرضا دون أن يتساهل حتى مع حبيبه و أقرب خلقه إليه النبى محمد صلى الله عليه و آله .

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ قَالَ الزمخشرى: التقوّل افتعال القول كأنّ فيه تكلفا، من المفتعل، و سميت الأقوال المتقوله أقاويل تصغيرا بها و تحقيرا، كقولك الأعاجيب و الأضحايك،

ص: ٣٢٢

١- (١) فى ظلال القرآن/ ج ٨ ص ٢١٦.

٢- (٢) المصدر.

كأنها جمع أفعوله من القول (١)، والمعنى و لو نسب إلينا قولاً لم نقله (٢)، و الافتراض هنا افتراض جدلى يفيد أن النبى صلى الله عليه و آله لم يتقوّل -حاشاه- إذ لم نر الوعيد الإلهى تحقّق فى هذا الشأن. و الآية تزكّيه للرسول ليس فيما يتصل بالقرآن و حسب بل فى كلّ نطقه و كلامه. و هذه الشهاده الإلهيه البيّنه آيه على عصمه نبينا صلى الله عليه و آله، و أن سنته كالقرآن ليست من أهوائه إنّما هى بعلم الله و حكمته أجراها على لسانه.

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ معنوياً بسلب سمه النبوه منه، و مادياً بمجازاته أشد الجزاء، لأنّ خطأ الإنسان يكون أفضع و أسوأ كلّما كان فى موقع أهم، و هذا ما يجعل ثواب نساء النبى و عقابهنّ مضاعفا عند الله. و لعمري إنّهُ إنذار و وعيد لكلّ من يخون أمانه الله، و بالذات أولئك الذين حمّلهم مسئوليّه الرساله.. أعنى العلماء، فيا ويل الذين يفترون منهم الكذب، و يحزّفون الكلم عن مواضعه.

و قد اختلف فى الأخذ باليمين، فقال جماعه: أنّه كناية عن الأخذ الشديد باعتبار اليمين رمز القدره، و قال آخرون: أنّه أخذ القوه منه أى سلبنا منه القوه (٣)، لأنّ القوه فى اليمين، فإذا أخذت انتفت، و فى المجمع: لأخذنا بيده التى هى اليمين على وجه الإذلال، كما يقول السلطان: يا غلام خذ بيده، فأخذها إهانته، و قيل: معناه لقطعنا يده اليمنى (٤)، و يبدو لى أنّه الأخذ الشديد، و أخذ الله دائماً يكون شديداً. أمّا كيف يأخذ الله؟ فذلك من شأنه.

ص: ٣٢٣

- 
- ١-١) الكشّاف/ ج ٤ ص ٦٠٧.
  - ٢-٢) التفسير الكبير/ ج ٣٠ عند الآية.
  - ٣-٣) التفسير الكبير/ ج ٣٠ عند الآية.
  - ٤-٤) مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٣٥٠.

ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فِي الْدَرِّ الْمُنْثُورِ: عرق القلب (عن ابن عباس) و عن عكرمه قال: نياط القلب (١)، و فى المنجد: عرق فى القلب يجرى منه الدم إلى العروق كلها (٢)، و المهم أنه العرق الذى لو قطع لما بقى الإنسان حيًا.. و لو أخذ الله أحدا يمينه فقطع منه الوتين فمن يستطيع أن يمنع عنه إرادته الله؟ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ أى ما نعين يمنعون نفاذ أمر الله فى شأنه. و الآيه قومه فى البلاغه إذ تتحدى البشر فرادى «من أحد» و مجتمعين «حاجزين» فى آن واحد، و ذلك لكى يمس التحدى أفرادها واحدا واحدا دون استثناء تأكيدا للمراد. و ربما يقرأ المتدبر فى تضاعيفها أنّ هناك قوى تسعى للضغط على القيادة الرسالية للتغيير من نهجها و التقوّل على الله، فيجب أن لا- تستجيب لها أو تنخدع بما عندها، لأنها لا تنفع شيئا و لا تحجز إرادته الربّ عزّ و جلّ. و حيث أنّ الرسول صلى الله عليه و آله مطمئن لهذه الحقيقه فإنّه لا يتوكل إلاّ على الله، و لا ينتمى إلاّ الى الحق، و لا يقول إلاّ الوحي.

و كفى بقول الرسول صلى الله عليه و آله هذه الآيات و إعلانها للناس مع ما فيها من شديد اللهجه دليلا على نقله بأمانه، إذ لو كان يتقوّل على الله لكان يحذفها أو يعزّز نفسه بصوره مطلقه دون حدّ و لا شرط، كما يعزّز الكثير من الدعاه و الحكّام أنفسهم حتى على الحق، و ما أحوج القاده و كل رسالى إلى هذه الشجاعه تأسيا بسيره حبيب الله صلى الله عليه و آله .

ص: ٣٢٤

---

١- ١) الدر المنثور/ ج ٦ ص ٢٦٣.

٢- ٢) المنجد ماده وتن.

[٥٢-٤٨] و بعد أن أثبت القرآن بأنه قول رسول كريم بالمعالجه الموضوعيه الدقيقه، و بالتالى كونه كلام الله عزّ و جلّ، ينثنى لبيان صفه أخرى لنفسه.

وَ إِنَّهُ لَتَيْذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ أَوْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ: هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (١)، لِأَنَّ الْمُتَّقِيَ وَحْدَهُ الَّذِي يَرْتَفِعُ بِنَفْسِهِ وَ عَقْلِهِ إِلَى مَسْتَوَى فَهْمِ آيَاتِهِ، وَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَخْشَى رَبَّهُ فَيَلْزِمُ نَفْسَهُ مَا فِي كِتَابِهِ مِنَ الْحُدُودِ وَ الْأَحْكَامِ وَ الْقِيَمِ لِكَيْ لَا يَتَعَرَّضَ لِعُضْبِهِ وَ عَذَابِهِ، وَ هُمْ وَحْدَهُمُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْاِسْتِعْدَادَ لِلتَّسْلِيمِ لَهُ، لِأَنَّهُمْ يَحَافِظُونَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ سَلِيمَةً كَمَا أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِيهِمْ، فَإِذَا بِهِمْ يَجِدُونَ آيَاتِهِ تَلْتَقِي بِتَطَلُّعَاتِهِمْ السَّامِيَةِ فِي الْحَيَاةِ.

و يتأكد لنا بأنّ القرآن تذكره للمتقين إذا عرفنا أنّ التقوى ليست مجرد الخشيه و الخوف.. إنّما هي مجموعه من الصفات النفسيه و العقليه و الاجتماعيه التي تجعل الإنسان في مستوى التذكر بالآيات و فهمها.. فالمتقون كما وصفهم ربهم:

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ\* وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» (٢)، فالذى لا يؤمن بالغيب كيف يؤمن بالرساله التي مصدرها غيب السموات و الأرض؟ و الذى لا يؤمن بالجزاء كيف يلتزم بها؟ إنّ هذه الآيه تهدينا إلى إحدى خصائص الوحي الإلهي المتميز بها عن الأفكار الأخرى و الفلسفات، و هي أنّه لا يستطيع التفاعل معه و فهمه إلا المتقون فقط، فإذا به شفاءً وَ رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٣)،

ص: ٣٢٥

١- ١) البقره ٣.

٢- ٢) المصدر ٣-٤.

٣- ٣) الإسراء ٨٢.

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى (١)، و لذلك خاطب الله رسوله فقال: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا\* وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (٢)، و لقد اعترف بهذه الحقيقه الكافرون و المشركون منذ قبل: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ (٣)، و هذه الخصيصة في الرساله تفسر ظاهره التكذيب بها من قبل بعض الإنس و الجن، لأن الرساله في مرتبه عاليه قل أن يسموا إليها البشر، و الله يعلم بأن جلا كثيرا منهم سوف يكذبون بها.

وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ بِتأكيدات لفظيه ثلاثه «إِنَّ» و اللام في «لنعلم» و «أَنَّ»، و إذ يكذبون فلا تهم لم يسموا إلى درجه المتقين الذين يتذكرون بالوحي و يسلمون لآياته و يستوعبون حقائقه الكبيره، و ليس لعب في القرآن.

وَ إِنَّهُ لَحَسْبِرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ و الحسره بنت الخساره، و الأثر المعنوي المترتب عليها، و بذلك يكون القرآن قد أشار إلى الأمرين معا، و إنما يكون كذلك لأنه الحق الذي يدمغ باطلهم فإذا هو زاهق في الدنيا، كما أنه ميزان لأعمال الخلق في الآخرة، و الشافع المشفع و الماحل المصدق، و حيث كذبوا به يريهم أعمالهم حسرات عليهم يوم القيامه، و لا يشفع لهم، بل يحلهم بالشهاده عند الله ضدهم.

ص: ٣٢٤

١- ١) فَصَّلَتْ ٤٤.

٢- ٢) الْإِسْرَاءُ ٤٦.

٣- ٣) فَصَّلَتْ ٥.



و من هنا نكتشف خلفيه تأويل الإمام الصادق-عليه السلام-لآية في الإمام علي بن أبي طالب أنه الذي يكون حسره على الكافرين

بقوله: «يعنى علينا» (١)، فإنَّ إمام الحق في كلِّ أمه جنبا إلى جنب القيم الإلهيه حجّه الله على خلقه عند الحساب و الجزاء حين يحشر كل أناس بإمامهم، ممّا يجعله هو الآخر حسره على الكافرين إذ يكون شاهدا و حجّه عليهم.

وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ أَى حق يفرض نفسه على الإنسان فيصبح موقنا به، فهو حق في عالم الواقع و يقين في عالم النفس. قال صاحب الكشاف: إنَّ القرآن اليقين حق اليقين، كقولك هو العالم حق العالم، و حدّ العالم، و المعنى لعين اليقين و محض اليقين (٢)، و قال الرازى: أَى حق لا- بطلان فيه، و يقين لا ريب فيه (٣)، و يأتي التأكيد على هذه الصفه القرآنيه في سياق نفى الشعر و الكهانه عن آياته كتعريض من طرف خفى بالإثنين الأخيرين اللذين ملؤهما الخيال و الكذب و الرجم بالغيب، و هذه من المفارقات الأساسيه بين رساله الله و ثقافه الشعراء و الكهنه، أنّها تحتوى على الحق و العلم بأعلى درجاته (اليقين) من دونهما حيث ينطويان على التناقض و الباطل و حيث يعتريهما الخواء الفكرى و العلمى.

و نهتدى من نعت القرآن بأنه «لَحَقُّ الْيَقِينِ» أنّ انتهاج القرآن هو الشرط الأساسى فى مسيره الإنسان نحو اليقين إيمانا و علما، و أنّه الواجب الذى يفرض نفسه على العقل حينما يتطلع إلى الكمال المعنوى و المادى باليقين، أى أنّ الإنسان يبقى فى حيره و شك لا يصل إلى الإيمان التام ليس بالحقائق العلميه و الحياتيه و حسب،

ص: ٣٢٧

١-١) نور الثقلين/ ج ٥ ص ٤١٠.

٢-٢) الكشاف/ ج ٤ ص ٦٠٧.

٣-٣) التفسير الكبير/ ج ٣٠ ص ١٢٠.

بل بأصل الوجود، وجود نفسه و الكون من حوله بكلّ مفرداته، حتى يكتمل نور عقله بنور وحى الله، لأنّه الذى يعرفه بالخالق الموجد، ويرتقى به إلى آفاق اليقين به، فتتكشف عن بصره و بصيرته الحجب و الأَـعْطيه، و تنزاح الغشاوه.. إذ لا معنى للإيمان بالمخلوق (مادياً كالإنسان و الطبيعه، أو معنوياً كالحقائق و القوانين) إلا بعد الإيمان بالخالق، و ذلك ما يحقّقه اتّباع القرآن.

و نقف قليلاً- نعم الفكر فى حكمه الحديث عن القرآن بهذا التعبير: وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فى سياق سوره الحاقه التى تحدّثنا عن الجزاء.

إنّ نقطه التلاقى بين الحاقه و القرآن تكمن فى أنّ كلاهما يحقّ الحقّ و يظهره، و يهدى الإنسان إليه، و يرفعه إلى أعلى درجات الإيمان و التسليم (حقّ اليقين)، و لكن يبقى القرآن هو الوسيله العظمى و الأقوم للهدايه، أعظم حتى من الحاقه نفسها، لأنّه يهدينا فى الدنيا و الآخره حيث تنفع الهدايه، بل هو طريقنا للإيمان بالساعه و القيامه (الحاقه).

و لكى نفهم القرآن فهما صحيحاً، فنؤمن به، و يكون لنا تذكره و سبيلاً إلى اليقين الخالص، يجب أن نتطهر من الشرك بالله عبر تسيّحه، لأنّ كلّ انحراف فى حياه الإنسان مظهر من مظاهر الشرك و ضلال له، و كلّما سبّح ربه أكثر فأكثر تسيّحاً سليماً كلّما تميّزت فى نفسه و فكره حقائق الوحي عن وساوس النفس، و إلقاءات الشيطان، ثم أنّ التسيّح هو الوسيله لاجتناب القوارع الإلهيه فى الدنيا و الابتعاد عن أصحاب الشمال فى الآخره.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ و قال «بِاسْمِ رَبِّكَ» لأنّه السبيل لتسيّحه تعالى، إذ لا يجد الإنسان وسيله للاتصال بربه لو لا أسماؤه. و قال: «العظيم» بالذات لأسباب منها:

١- أنه رمز التسيح الصحيح، حيث معرفه عظمه الله شرط رئيسى فى تقديره حق قدره. أ و ليست مشكله كل صاحب شمال «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم»؟ بلى. و لو أننا فتشنا فى أى إنسان لما وجدناه خاليا من الإيمان بربه، و لكن أصحاب الشمال (مشركين و كافرين) لا يؤمنون بالله كما هو عظيما منزها عن كل ما لا يليق بمقامه، مما يدعوهم لاتخاذ الأنسداد له من خلقه الذين يجدون فيهم بعض العظمه أو يظنونهم عظماء.. و هذا هو مكنم الداء الذى انطلقت منه الفلسفات البشريه الضاله.. تجسيديه تشبيهيه و شركيه و ما إلى ذلك.. و لعلّه من هنا أصبح تسيح الله بذكر عظمته فى الركوع و علوه فى السجود (سبحان ربي العظيم و بحمده، سبحان ربي الأعلى و بحمده) فرضا واجبا فى الصلوات، بل أصبحت الصلاه من بدايتها حتى نهايتها تسيحا لله عزّ و جلّ.

٢- لأنّ السياق يدور حول القرآن و هو أظهر آيات عظمه الله على الإطلاق، ففيه تتجلى عظمته تعالى.. أوضح و أوسع و أعظم من تجليها فى الطبيعه و فى النفس و فى كل شىء آخر.



سوره المعارج

اشاره

ص: ۳۳۱



بسم الله الرحمن الرحيم

## فضل السوره:

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله -عليه السلام- قال:

«أكثرُوا من قراءه» «سأل سائل» فإنّ من أكثر قراءتها لم يسأل الله تعالى يوم القيامة عن ذنب عمله، و أسكنه الجنّة مع محمّد إن شاء الله» نور الثقلين/ج ٥ ص ٤١١

ص: ٣٣٣

كما هو سياق غالب السور المكيه تعالج سوره المعارج الأمراض القليه التي تمنع الإيمان، كما ترسم منهاجا لبناء الشخسيه الربانيه، ففي الثلث الأول حتى الآية (١٨) يحدثنا السياق عن مشاهد من الآخره حيث الأحداث الكونيه المريعه، و ما تخلفه من الآثار على نفوس المجرمين، فإذا بواحدهم يتمنى النجاه و لو يفتدى بأعز الناس و أقربهم إليه، بل بهم جميعا.

و من خلال الحديث تعالج مرض التسوييف بتصحيح رؤيه الإنسان إلى الزمن عبر وعى الزمن الأبدى الذى لا بد أن يعايشه البشر.

و انطلاقا من ذلك يشير القرآن إلى صفه الهلع لدى الإنسان، و التي تبعثه على الجزع حين الشر و المنع عند الخير، فتجعله متقلب الشخسيه، متغيرا حسب المحيط و الظروف، مؤكدا بأنها ليست فى المصلين بحق، لأنهم تساموا إلى أفق الخلود فلم يعيشوا لحظتهم الراهنه فقط، و لم يتأثروا بعواملها فحسب.



ثم تعالج الآيات حاله التمنى التى يعيشها الإنسان فيطمع أن يدخل الجنة بلا إيمان أو سعى، كلاً.. إنَّ النجاه من العذاب لا تحصل بالتمنى و الودة، إنما بالعمل الصالح و السعى، و إنَّ الصلاة لهى سفينه نجاه المؤمنين، و هى مفتاح شخصيتهم الإلهيه التى تتسم بالإنفاق و الصدقه و خشيه العذاب و رعايه الأمانه و العهد و حفظ الفروج إلّا- من حلال و القيام بالشهاده و المحافظه على الصلوات، و هذا فى الواقع البرنامج المستوحى من الصلاة لبناء شخصيه الإنسان الربانيه.

و فى الخاتمه (الآيات ٣٦-٤٤) ينسف الوحي مركب الأحلام و التمنيات الذى يركبه الهلكى من المجرمين و الكافرين، فلا يرسو بهم إلّا- فى بحر لجّى من عذاب الله و غضبه، و خسران الدنيا و الآخره.. لأنَّ التمنيات تدخل أصحابها فى نفق الخوض و اللعب، فإذا بهم و قد حان اليوم الذى يوعدون، و لم يستعدوا للقاء الله، و لم يمهدوا للمستقبل عملاً و زادوا. و إنّها لعاقبه كلّ منهج يعتمد التمنيات بديلاً عن السعى و العمل.



## [سوره المعارج (٧٠): الآيات ١ الى ١٨]

## إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَ يَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَ لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ (١١) وَ صَاحِبَتَهُ وَ أَخِيهِ (١٢) وَ فَصِيلَتَهُ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا- إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَاعَهُ لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (١٧) وَ جَمَعَ فَأَوْعَى (١٨)

## اللغة

٨[كالمهل]: قيل: هو الزيت المغلى، و جاء فى مفردات الراغب: دردىّ الزيت.

٩[كالعهن]: هو الصوف المنفوش، و قال الراغب فى مفرداته: العهن الصوف المصبوغ، قال: كالعهن المنفوش، و تخصيص العهن لما فيه من اللون، كما ذكر فى قوله: فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ .



هدى من الآيات:

يعايش الكافرون لحظتهم الزمنية الراهنه معايشه حادّه، لأنّهم لا يعون الماضي بتجاربه و لا- المستقبل بتطلعاته، و لا- يؤمنون بالآخره. أمّا المؤمن الذى يعيها حيث الزمن هناك طويل طويل لا ينتهى، و يعى حقيقه الخلود، فإنّه يعيش فى عقله و نفسه و عملنا توازنا زمنيًا.. فلا- يهزم أمام التحديات و المشاكل إنّما يصبر صبيرا جميلا، لأنّها و إن استوعبت كلّ عمره الدنيوى فهى أقل من ساعه من ساعات الآخره، التى مقدار يوم واحد منها خمسون ألف سنه، و لأنّه لا- يدع لحظه تمرّ عليه إلّا- و يملأها بالعمل الصالح، و يستغلّها فى سبيل مستقبل سعيد، ليوازن بين فرصه السعى و العمل القصيره (أعنى الدنيا)، و بين مستقبل الجزاء و الحصاد الخالد (أعنى الآخره)، فإنّك حيث تراه و تدرس حياته تجده شعله من النشاط و السعى المتواصل، و مهما فتشت فى سنّى حياته فلن تجد إلّا شذرا تلك الساعات الضائعه التى تملأ

عاده حياه سائر الناس.و كيف يسمحون لأنفسهم بالخوض و اللعب و كل لحظه من عمرهم هي خطوه إلى اللقاء مع الله؟!إنهم لا يحتملون غضب الله عليهم، و لا أن ترهقهم ذله عند لقائه،و لذلك تركوا التمنيّات و الأحلام إلى السعى الدؤوب،لأنه ليس في أنفسهم ذرّه من شك في حقيقه الآخره و عذابها الواقع حتى يطلقوا لشهواتهم العنان،أو يعيشوا عيشه الهازل!!

### بينات من الآيات:

[١-٤]

قال الإمام الصادق-عليه السلام-: لَمَّا نَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلِيًّا يَوْمَ غَدِيرِ خَمٍ قَالَ: «مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ» طار ذلك في البلاد، فقدم على النبي صلى الله عليه و آله النعمان بن الحارث الزهرى فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله،و أمرتنا بالجهد و الحج و الصوم و الصلاة و الزكاه فقبلناها،ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه؟!فهذا شىء منك أو أمر من عند الله؟!فقال: لا و الله الذى لا إله إلا هو إن هذا من الله،فولى النعمان بن الحارث و هو يقول: **اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ**، فرماه الله بحجر فى رأسه فقتله (١)، و

فى روايه أخرى قال أبو بصير عن الصادق عليه السلام : بينما رسول الله صلى الله عليه و آله جالسا إذ أقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله : إن فيك شبيها من عيسى بن مريم..قال: فغضب الحارث بن عمرو الفهدى فقال: «**اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ أَنْ بَنَى هَاشِمٌ يَتَوَارَثُونَ هِرْقَلًا بَعْدَ هِرْقَلٍ (اسم ملك الروم أراد بنى هاشم يتوارثون ملكا بعد ملك) فَأَرْسَلَ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بَعْدَ أَلِيمٍ**»فأنزل الله عليه مقاله الحارث و نزلت هذه الآية: «**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**» ثم قال له: يا عمرو إمّا

ص: ٣٤٠

تبت و إما رحلت، فقال: يا محمّد بل تجعل لسائر قريش شيئاً ممّا فى يدىك فقد ذهبت بنو هاشم بمكرمه العرب و العجم، فقال النبى: ليس ذلك إلى، ذلك إلى الله تبارك و تعالى، فقال: يا محمد قلبى ما يتابعنى على التوبه و لكن أرحل عنك، فدعا براحلته فركبها فلمّا صار بظهر المدينه أته جندله (أى حجره) فرضّت هامته ثم أتى الوحى إلى النبى صلى الله عليه و آله فقال: الآيات الاولى من سوره المعارج (١).

سَيَأَلُّ سَائِلٌ بَعِيدًا وَأَقْبَعَ و سؤال السائل يكشف ليس عن شك فى وعد الله عزّ و جلّ و حسب، بل يكشف أيضا حاله من الاستهزاء و التحدى دعتهم إليهما الثقافه الجاهليه التى جاءت الرساله لتحرير الإنسان منها، كما دعتهم إليهما الضغائن الدفينه على الرسول و الرساله.

و الآيه الكريمة- كسائر آيات القرآن- أوسع من حادثه تاريخيه، أو مصداق واحد بذاته، بل هى شامله لكل موقف استهزاء بالحق، و تكذيب به. و لا يصف ربّ العزه عظمه العذاب و مدى هول، بل يؤكّد واقعيته فيقول: «واقع»، و ذلك يهدينا إلى حقيقه فطريه و عقليه لا يتردّد فى قبولها أحد و هى أنّ جهل الإنسان بالحقائق القائمه فى الواقع، أو تجاهله بها (تكذيبه) لا يغيّر من أمرها شيئاً. أ ترى أنّ عقيدته الوجوديين الذين زعموا بأنّ الوجود خيال يتراءى للإنسان كالسراب أهدمت الوجود أو غيرت من الواقع شيئاً؟ هل ينفى عدم رؤيه الأعمى لما حوله وجوده؟ كلاً.. و إذا قلنا أنّ كلمه «واقع» تدل على الماضى فإنّها تأتى هنا للتأكيد من حيث أنّه حتمى لا شك فيه و لا تردّد فى وقوعه، لأنّ الله قد قدره و قضاه تقديراً حتماً و قضاء مبرماً.

ص: ٣٤١

١- ١) المصدر/ ص ٤١٢ ذكره أبو عبيده و الثعلبى و النقاش و سفيان بن عيينه، و أشار إليه الرازى و النيسابورى، و نقل القرطبى نص الروايه فى تفسيره و الحسكانى فى شواهد التنزيل.

و يبدو أنّ السؤال لم يكن سؤال مستفهم، بل سؤال مكذّب مستهزء، و لهذا عدّى الفعل بالباء فأعطى معنى التكذيب، فكأنه قال: سأل سائل مكذّب بعذاب واقع. و هكذا أوحى النص بأنّ الدافع إلى السؤال لم يكن المعرفة و إنّما التشكيك به.

و إذ يقع عذاب الله فيآئه-و إن كان- يبدّل وجه الكون و علاقات أجزائه ببعضها فتكون السماء كالمهل و الجبال كالعهن و لا يسأل حميم حميماً، إلاّ أنّه لا يخرج عن إطار حكمه الله و إرادته إلى حاله الفوضى، و إنّما يكون بقدر، و لا يصيب إلاّ من يشاء الله، فإذا بك تراه و قد حان حينه لا يقع إلاّ على الكافرين، الذين لا يجدون ما يدفعونه به عن أنفسهم.

لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَحْجِزُهُ عَنْهُمْ وَ يَدْفَعُهُ عَنْ سَاحَتِهِمْ، وَ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ قَدْرَهُ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ قَادِرًا عَلَى دَفْعِ عَذَابِ يَصِيرُ السَّمَاءَ كَالْمَهْلِ وَ الْجِبَالَ كَالْعِهْنِ، وَ يَقْطَعُ الرُّوَابِطَ الْحَمِيمَةَ بَيْنَ الْأَخْلَاءِ وَ الْأَنْسَابِ لَهْوَلِهِ وَ شِدَّتِهِ! وَ الْإِنْسَانُ هُنَاكَ لَا يَفْكَرُ إِلَّا فِي خِلَاصِ نَفْسِهِ، فَلَا يَسْأَلُ عَنْ غَيْرِهِ، فَكَيْفَ السَّعْيُ لِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُ؟! بَلَى. يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ دَفْعَ الْعَذَابِ عَنْ نَفْسِهِ يَوْمَئِذٍ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ رَحْمَتِهِ، وَ بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَ لَمْ يَتْرِكِ الْكَافِرُونَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ اللَّهِ صِلَةً كَى يَرْحَمَهُمْ، بَلْ سَدَّوْا عَنْ أَنْفُسِهِمْ كُلَّ أَبْوَابِ الرَّحْمَةِ بِكُفْرِهِمْ وَ عَتَوْهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَ الرَّسْلِ، وَ لَمْ يَقْدَمُوا لِآخِرَتِهِمْ وَ مَسْتَقْبَلِهِمْ عَمَلًا صَالِحًا.

و على ضوء هذه الآيه الكريمة ينبغي للإنسان أن يكشف عن نفسه و عقله حجب الضلال و الشرك المتمثلة في العقائد السفيهه التي تجنح به نحو الموبقات و الشهوات و مخالفه الحق، ظنّاً بأنّ أحدا من الجن أو الإنس أو الأصنام يخلّصه من عذاب الله و سطوته، أو العقيدة الباطله بأنّ الله لن يعذب عباده لأنّه رحيم ودود، فإذا به يودّ و يطمع أن يدخل الجنة على جناح التمنيات بلا أيّ سعى و عمل!



و نفهم من قوله «للكافرين» أنهم ليس لهم يوم يقع العذاب دافع يدفعه عنهم لا من عند أنفسهم أو من أشركوا بهم و لا من عند الله. و أى قوّه يمكن أن تتحدى إرادته الله العظيم حتى يتشبّث بها الكفّار؟ إنّ العذاب ليس من بشر مثلهم حتى يقدرُوا على دفعه، و لا من مخلوق. إنّهُ من ربّ العزه المتعال الجبار.

□  
مَنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ قَالَ البعض: إنّ كلمه «ذى المعارج» ليست اسما لله سبحانه، و جاء فى الدر المنثور: أخرج أحمد و ابن خزيمة عن سعد بن أبى وقاص أنه سمع رجلا يقول: لبيك ذى المعارج، فقال: إنّهُ لذو المعارج، و لكنّا كنّا مع رسول الله صلى الله عليه و آله لا. يقول ذلك (١)، و لكنّ الأظهر أنّه اسم لله لوروده فى أدعيه الحج حيث قالوا: يستحب أن يقول فى التلبية: «لبيك ذا المعارج لبيك»، على أنّ نص القرآن ظاهر فى ذلك و هو المقياس.

و فى معنى المعارج أقوال منها: الفواضل، و عليه جلّ المفسرين، و زاد صاحب المجمع: و الدرجات التى يعطىها للأنبياء و الأولياء فى الجنة، لأنّه يعطيهم المنازل الرفيعه، و الدرجات الطيبه (٢)، و فى التبيان قال العلامة الطوسى: هى معارج أو مراقى السماء (٣)، و قال صاحب الميزان: و هى مقامات الملكوت، و قال: الدرجات التى يصعد فيها الإعتقاد الحق و العمل الصالح، قال تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» (٤)، و قيل: هى مصاعد الملائكه.. و يمكن أن تكون الأقوال كلها صحيحه، و يجمعها الأصل اللغوى للكلمه.. فالمعارج مواضع العروج

ص: ٣٤٣

١-١) الدر المنثور/ج ٦ ص ٢٦٤.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٥٣.

٣-٣) التبيان/ج ١٠ ص ١١٤.

٤-٤) الميزان/ج ٢٠ ص ٧.

و هي مرتبه بعد مرتبه. و يبدو أنّ تأويلها هنا ذات العروج المتواصل، و ذلك يظهر من الآيه التاليه.

و لكي ينسف السياق أسس التفكير الخاطئ عند أولئك السفهاء الذين استعجلوا عذاب ربهم العظيم، تلك الأسس القائمه على حسابات قصيره، يهدينا القرآن إلى حقائق الزمن اللامتاهى الذى سوف يعيشه الإنسان، لكى يمتد وعى الزمن لدينا من مقاييس اللحظات الحاضره إلى آفاق الأباد المطلقه و المستقبل الذى لا ينتهى، و هناك نعيش حقيقه أنفسنا و حقيقه الظواهر المحيطه بنا.

إنّ من يتخذ المقاييس الدنيويه معيارا فى معادله الزمن يظنّ أنّ مائه سنه شيئا كثيرا، و لكنّه حين يطلع على الأفق الواسع للزمن عند الله حيث الحساب بمليارات السنين و حيث الخلود فإنّ المعادله تختلف بالنسبه إليه لحتى يكاد يرى وعد الله بالآخره واقعا أمام عينيه.. فهؤلاء الملائكه يسبقهم الروح يعرجون خمسين ألف سنه إلى الله فى الآفاق الواسعه، و لأنّها حسب فهمنا الأرواح النورانيه ذات القدرات الهائله فإنّ عروجها ليس بحسابنا نحن فى السرعه، بل بحساب لا يستوعبه عقل البشر.. و مع ذلك فإنّ خمسين ألف سنه يعرجون فيها ليست عنده تعالى إلاّ - كيوم واحد لا- أكثر! تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ و العروج عروجان: عروج مادي فى آفاق الوجود، و عروج معنوى فى آفاق القرب من الله، و ليس لله مكان، تعالى أن يخلو منه مكان أو يحويه مكان، و من هنا فإنّ عروج الملائكه و الروح إليه عروج فى القرب منه، قرب الفضيله، و لا ينفى ذلك حقيقه عروجهم ماديا فى منازل السموات و إلى العرش، بل هذا العروج بذاته رمز للقرب المعنوى منه سبحانه، و من هنا اختلفت الملائكه فمنهم من يعرج إلى السماء

الرابعه، و منهم من يعرج إلى العرش باختلاف فضلهم عند رب العالمين.

أما الروح فهو أعظم من الملائكه، و لعله الخلق الذى يؤيد به الله ملائكته الكرام و أنبياءه و أوليائه الأبرار، و لعله سمى جبريل ب«الروح الأمين» لكونه مؤيداً-عليه السلام-بالروح.

[٨-٥] و من فتح آفاق المتدبر على الزمن بالحديث عن العروج يعالج القرآن مسألتين:

الأولى: تتصل بالداعيه إلى الله، و هو يواجه تحديات الكفار بالرساله، و بالضبط يواجه تحدى الزمن فى الاستقامه على الحق، و الاستمرار فى الطريق حتى يفتح الله. فإن أكثر الناس قادرون على اتخاذ قرار الجهاد فى سبيل الله، و لكن القليل منهم يقدر على الاستقامه مع طول الأمد و تراكم التحديات المضاده.

و إنما يفتح القرآن آفاق المؤمنين على المعادله الحقيقه للزمن، و يؤكد على أن الزمن الدنيوى ليس المقياس، و إنما معادله الزمن تقاس باليوم الواحد خمسين ألف سنه، كل ذلك ليسهل الاستقامه فى أنفسهم، فلا يعدّ واحد منهم حتى الصبر سنّى عمره مجاهداً فى سبيل الله شيئاً كثيراً، بل يعتبر عنده-أنى طال به الزمن و امتد- أياماً قصيره يصبر فيها على الأذى لتعقبه راحه طويله، و هكذا جاء الحديث بعد بيان الزمن عن الصبر فقال ربنا:

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا- و هو الصبر الذى يكون لوجه الله، و البعيد عن أى ضعف أو هزيمه، و الذى لا- خروج معه عن الحكمه و الصواب. قال أكثر المفسرين: هو الصبر الذى لا شكوى فيه على ما يقاسيه الرسول من أذى قومه، و تكذيبهم إياه فيما يخبر به من الآخره.

و ما أعظم ما تعطيه هذه الآيه بسياقها من روح الصبر و الاستقامه و المقاومه للمؤمنين و المجاهدين فى سبيل الله.

الثانيه تتصل بالكافرين الذين يستبعدون عذاب الله و وعده، و ربما إلى حدّ التكذيب البتّه. و لو بحثنا عن السبب وراء هذا الموقف من وعد الله فسنجده اعتمادهم على مقاييس الزمن الدنيويه فى التقييم و النظر إلى المستقبل. و يعالج القرآن هذه العقده بأمرين:

أحدهما: السعى لتوعيتهم بالمقياس الحقيقى للزمان، حيث مقدار يوم واحد خمسين ألف سنه، ممّا يغيّر رؤيتهم المحدوده برؤيه ربّانيه واسعه لو أنّهم آمنوا و اتبعوا الآيات.

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً لمحدوديه أفكارهم التى تتصور الزمان محدودا. أ رأيت الطفل كيف يستبعد وعدا مدته ساعات؟ كذلك الكفار يرون وعد الله بعيدا لأنّ منهجيه الرؤيه و وسيلتها عندهم محدوده. أمّا المنهجيه الربّانيه التى تتلاشى فيها الأرقام الزمنيه لسعتها فإنّ ملايين السنين ليست بذات شأن حتى يكون أمدها بعيدا.. و كيف يكون ذلك و المؤمنون يطلعون بها على عالم الخلود؟! وَ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

الثانى: التذكير بالوقائع و المشاهد العظيمه التى ترافق وقوع وعد الله، الأمر

الذى يهزّ النفس، و يلقى عنها حجبها و عقدها، و يجعلها ماثله فى و عيهم.

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاوَاتُ كَالْمُهَيْلِ قَالَ الْقَمِي: الرصاص الذائب و النحاس (١)، و قيل: الزيت المغلى، و فى المنجد: ما كان ذائبا من المعدنيات (٢).

وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ أَى الصوف المتفرق، قال فى التبيان: فالعهن الصوف المنفوش، و ذلك أنّ الجبال تقطع حتى تصير بهذه الصفة (٣)، و زاد صاحب المجمع: و قيل: كالصوف الأحمر، و قيل: إنّها تلين بعد الشده، و تتفرق بعد الاجتماع (٤). و علق العلامة الطباطبائى بقوله: فى هذه الآيه و ما قبلها تعليل للصبر، فإنّ تحمّل الأذى و الصبر على المكاره يهوّن على الإنسان إذا استيقن أنّ الفرج قريب (٥).

و لا- يحدّثنا القرآن عن صفة الأرض يومئذ، لأنّ دمار السماء و هى السقف المحفوظ الذى يؤمّن للأرض و لأهلها الحمايه، و كذلك تدمير الجبال التى تحفظ توازنها أن تميد بنا، هذين الأمرين يهدياننا إلى ما تكون فيه أرضنا يومئذ من الزلزال و الخطر العظيم.

و ما هو حال الإنسان الضعيف و موقفه حينما يعاصر هذه المشاهد الرهيبه؟ فهذه السماء على عظمتها أصبحت كالمهل ذائبه، و تلك هى الجبال الراسيات صارت عهنا

ص: ٣٤٧

١-١) تفسير القمى/ج ٢ ص ٣٨٦.

٢-٢) المنجد/ماده مهل بتصرف.

٣-٣) التبيان/ج ١٠ ص ١١٦.

٤-٤) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٥٣.

٥-٥) الميزان/ج ٢٠ ص ٩.

يحرّكها النسيم!إنّه حينئذ يعرف صدق وعد الله،و تقع من على بصيرته كلّ الحجب..فيترك الهزل و الاستهزاء الذى قاد الكافرين إلى السؤال عن العذاب و استعجاله..و هل يستعجل عاقل أمرا إرهاباته تصنع هذا الصنيع بالطبعه و الوجود من حوله؟! إن العذاب الإلهي إذا وقع يذهل الإنسان عن كلّ شيء،و تتقطّع به الأسباب و الروابط،فينسى أقرب المقرّبين إليه بحثا عن الخلاص،فلا يجد فرصه حتى للسؤال عنهم.

□ وَ لَا يَسْتَأْذِنُ حَمِيمٌ حَمِيمًا وَ الْحَمِيمُ هُوَ الْأَقْرَبُ لِلْإِنْسَانِ،و عدم سؤاله عنه دليل على شدّه الموقف،و ذلك أنّ نفس الإنسان أقرب إليه من كلّ أحد..و حيث يهتم بها يغفل عن سواها و لو كان أقرب المقرّبين كالولد و الصاحبه.و فى الروايات أنّ الأم يوم القيامة توزن أعمالها فتنقصها الحسنه الواحده حتى تدخل الجنه أو تصير إلى النار،فتذهب إلى ولدها تستعطفه و تطلب منه التنازل لها عن حسنه من حسناته فلا يقبل.و

قد جاء فى الدعاء (بعد صلاه الليل): «يا من لم أزل أتعرف منه الحسنى،يا من يغذّينى بالنعم صباحا و مساء،ارحمنى يوم آتيك فردا شاخصا إليك بصرى،مقلدا عملى،قد تبرأ جميع الخلق منى،نعم.و أبى و أمى و من كان له كدى و سعى» (١).

و من أهمّ ما يقع يومئذ هو رفع الحجب عن المجرمين حتى يروا الحقائق التى عميت عنها أبصارهم و قلوبهم فى الدنيا،كما يرون أيضا أقرباءهم الذين يتهرّبون منهم.

ص: ٣٤٨

يُبَصِّرُونَهُمْ قِيلَ: يرون الملائكه و الروح الذين يعرجون إلى الله، و قيل: أئمه الهدى و الحق، و قيل: الأحماء، لبيان أن عدم سؤالهم عنهم يومئذ ليس لعدم رؤيتهم إياهم، و إنما لانشغال نفوسهم و أفكارهم، و إلى ذلك ذهب الزمخشري و الرازي و صاحب الميزان، و هذا أقرب إلى السياق. و بنى الفعل للمجهول لأن المجرمين يحشرون عميانا أعينهم و قلوبهم كما كانوا فى الدنيا عميانا لا يرون الحقائق، و إنما يبصرهم الله أو ملائكته بأمره.. و هناك تبلغ ندامتهم ذروتها لما يرون من واقع العذاب الذى كذبوا و استهزءوا به فى الدنيا إلى درجه العتو و التحدى.

يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بَيْنِيهِ وَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَ أَعَزَّهُمْ لَدِيهِ.

وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ.

وَ فَصَّيْلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ قِيلَ: هى العشيره و القبيله، و قيل: هى المنقطعه عن جمله القبيله برجوعها إلى أبوه خاصه، فى التبيان و المجمع و الميزان، و زاد المجمع و الكشاف: أى عشيرته التى تؤويه فى الشدائد و تضمه، و يأوى إليها فى النسب.

وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ أَمَا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ عَلَى الْعَكْسِ يَسْأَلُونَ عَنْ بَعْضِهِمْ، وَ يَسْعَوْنَ فِي خِلَاصِ

بعضهم البعض بالشفاعة و السؤال من الله، و قلوبهم مطمئنه إلى ربّ الأرباب لأنهم لم يتورّطوا في الجرائم حتى يهولهم الأمر.. إلا خشيه الإيمان.

بلى. إنهم آمنوا بوعد الله، فسعوا لخلاص أنفسهم، أمّا المجرمون الذين كفروا، و تمادوا في الجريمة بسبب الكفر بالآخرة و الجزاء، فإنهم يجدون أنفسهم بين يدي عذاب شديد.

كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَىٰ وَالْظَىٰ «اسم من أسماء جهنم، و هي النار شديده التوقد، و قال في المجمع:

هي الدرکه الثانيه من النار، و قال الرازي: اللهب الخالص، يقال: لظّت النار، و تلظّت تلظّيا، و المعنى أنّه لا مصير للمجرمين إلا جهنم و العذاب، و لا مفرّ لهم..

تشويهم حرقا، و تنزع ما ينشوى منهم نزعاً.

نَزَاعَهُ لِلشَّوَى قِيلَ: الشوى فروه الرأس، و قيل: محاسن الوجه و عموم الجلد. و قال صاحب التبيان: و معنى «نزعاه» كثيره النزاع، و هو اقتلاع عن شدة، و الاقتلاع أخذ بشده اعتماد (١)، و في المجمع: تنزع الأطراف فلا تترك لحما و لا جلدا إلا أحرقتة، و قيل:

تنزع الجلد و اللحم عن العظم (٢). و لعلّ الشوى هو عموم ما يعدّ للشواء بالنار، فيكون المعنى أنّ لظى تجذب المجرمين و تنزعهم نزعاً (و هم شواؤها) فتحرقهم.

تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى

ص: ٣٥٠

١-١) التبيان/ج ١٠ ص ١١٨.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٥٦.



أدبر عن الحقّ إلى الباطل، و تولّى عن طاعه القياده الرّيانيه إلى طاعه غيرها، و إنّ النار لتتطاول على المجرمين و تجزّهم إلى قعرها و حريقها مكرهين، لأنّهم قد رفضوا دعوه الرسول إلى الإيمان فأدبروا و تولّوا.

وَ جَمَعَ حطام الدنيا و أموالها حلالا و حراما.

فَأَوْعَى ۖ وَ قد قال المفسرون أنّ المعنى: جمع المال و لم يخرج حقّ الله، فكأنّه جعله فى وعاء على منع للحقوق منه، و قال العلامة الطبرسى: جمعه من باطل، و منعه عن الحق (١).

ص: ٣٥١

---

١- (١) المصدر/ص ٣٥٦.

اشاره

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ  
 دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ  
 عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ  
 أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ  
 هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) فَمَا لِالَّذِينَ كَفَرُوا  
 قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا  
 يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرَهُمْ  
 يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَمَا أَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣)  
 خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

اللغة

١٩[هلوعا]:شديد الحرص،شديد الجزع..و قيل:الهلع هو الخوف و قلق القلب.

٣٦]مهطعين[:المهطع:المقبل ببصره على الشيء لا يزايله، وقيل:الإهطاع الإسراع.

٣٧]عزّين[:أى جماعات متفرّقين، عصبه عصبه وجماعه جماعه. و جاء فى المفردات:أصله من عزوته فاعتزى أى نسبته فانتسب فكأنهم الجماعه المنتسب بعضهم إلى بعض إمّا فى الولاده أو فى المظاهره، وقيل:عزّين من عزا عزاء فهو عز إذا تصبّر و تعزّى أى تصبّر و تأسّى فكأنها اسم للجماعه التى يتأسّى بعضهم ببعض.

٤٣]الأجداث[:القبور.

ص:٣٥٣

## هدى من الآيات:

نستوحى من القرآن أنّ الشخصية البشريه نوعان:

الأول: الشخصية المتقلبه التى تتأثر بالظروف المحيطه، و تنعكس عليها كلّ الظواهر، لا فرق بين ما يسرّو ما يحزن، أو بين الخير و الشر. و هذه طبيعه السواد الأعظم من الناس.

الثانيه: الشخصية المستقره التى تصوغها الصلاه (و الصله الوثيقه برّب الكائنات) و يستمدّ أصحابها استقامتهم فى الحياه من الإيمان برّب العالمين، الأمر الذى يجعلهم يتسامون على المؤثرات السلبيه، ذلك لأنّ الصلاه فى بصائر القرآن ليست الركوع و السجود فقط، بل هى منهج شامل يستوعب كلّ بعد من حياه الإنسان، و هكذا ترى المصلّى هو المنفق فى سبيل الله، و المصدق بالآخره، و الخائف من عذاب ربه، و الحافظ لفرجه، و الراعى لعهدده و أماناته، و القائم بالشهاده

ص: ٣٥٤

الحق على نفسه و في المجتمع، و بالتالى المحافظ على صلاته (أوقاتها و مظاهرها و جوهرها)، و بهذه الصورة ينبغي أن نعى الصلاة، و نعرف المصلين، و نسعى لكي نكون منهم.

إن الصلاة الحقيقيه ثمن الجنه و الكرامه عند الله، لأنها كما بينت الآيات مجمع كل صفه حسنه، و سعى صالح. و من أراد الجنه و الكرامه فإنها شرطهما، أمّا التمنيّات التي تفرغ حياه الإنسان من أيّ سعى و فضيله، و تسوقه إلى الخوض و اللعب -غفله عن الآخره- فإنها تجعل أصحابها خاشعه أبصارهم، ترهقهم ذلّه في يوم القيامة!

### بينات من الآيات:

[٢١-١٩] لأنّ القرآن رساله الله و عهده إلى الإنسان فإنه أودع تبياناً لكلّ شيء حتى لا تكون لأحد حجه على ربه في الإدبار عنه إلى غيره من السبل و المناهج، ففيه يقرأ الإنسان سنن الخالق في الحياه، و يقرأ الخير و الشر، و الحق و الباطل، و الجنه و النار، و الدنيا و الآخره..

و من أبرز ما في القرآن تعريف الإنسان بنفسه، ذلك أنّ الإنسان قد خلق جهولاً، يجهل أقرب الأشياء إليه (و هي نفسه) و في ذلك خطر عظيم عليه، فقد يدعو الجهل بالنفس إلى الشرك بالله، و قد يدعو إلى ممارسه الأخطاء الفظيحه في قيادتها و تربيتها.. و من هنا وجد توجّهاً أساسياً في القرآن اختص بمعالجه موضوع الذات الإنسانية، و بيان أهمّ صفاتها و طبائعها، كما الآيات التاليه من هذه السوره.

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا

ص: ٣٥٥

قيل الهلع شدّه الحرص، وقله الصبر، وقيل: الهلوع الضجور (١)، و في البصائر:

أى البخل و الحرص، أو الخوف و قلق القلب، و اضطرابه من كل صوت و حدوث أمر (٢)، و الذى يبدو أنّ أصل الهلع هو الخوف، فالهلوع يخاف عند الشر فيجزع، و يخاف عند الخير من نفاذه و انتقاله إلى غيره من يديه فيمنع، و هى الصفه التى تفقد الإنسان توازنه و ثباته أمام الظروف و العوامل و الحوادث المحيطه.

و يبقى بيان القرآن لمعنى الهلع أجلى و أبلغ من بيان كل مفسر و أديب حيث يقول تعالى:

□ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا فَإِذَا بِهِ يَصْبِحُ طَعْمَهُ لِحَالَاتِ الْخَوْفِ النَّفْسِيَّةِ، فيفقد توازنه النفسى و الفكرى و السلوكى، إلى حدّ الهزيمه و اليأس. و «الشر» الذى تقصده الآيه شامل لكل الحوادث السلبيه معنويه و ماديه، فالخساره الاقتصاديه شر، و فقدان الأحبه شر، و المرض شر، و.. و..

و لو أننا حقّقنا فى حوادث الانتحار و الحالات النفسيه فى العالم فسنجد أنّ معظمها عائدته إلى صفه الهلع (الجزع) عند الإنسان. و يقول الله «مَسَّهُ» لأنّ المس أدنى ما يصيب الإنسان من الشر أو الخير.

□ وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مُنَوَّعًا وَ السَّبَبُ حَبَّةُ الْمَفْرُطِ لِدَاتِهِ، و شح النفس الذى يجعله يريد الخير لنفسه فقط،

ص: ٣٥٦

١-١) التفسير الكبير/ ج ٣٠- ص ٦١٢.

٢-٢) تفسير البصائر/ ج ٤٩- ص ١٢٠.

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (١) وحق ما

جاء فى الروايه: «ما فتح الله على عبد بابا من أمر الدنيا إلا وفتح الله عليه من الحرص مثله» (٢)، و فى الآيه بصيرتان:

الأولى: إنَّ المتبع لكلمه الإنسان فى استخدام القرآن يجدها ترد دائما عند الحديث عن الصفات السلبيه فيه، قال تعالى: وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٣) وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسِكْفُورًا (٤) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٥) وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (٦) وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٧) وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٨). و هكذا ترد الكلمه عند الحديث عن الصفات الذاتيه للإنسان.

الثانيه: إنَّ المفسرين اختلفوا فى معنى الخلق، وجرى بينهم بحث كلامى و فلسفى حول صفه الهلع كيف خلقها الله و هى ذميمه أم هى صفه يوجد لها الإنسان فى شخصيته بنفسه؟ فصاحب التبيان أكد كونها من فعله تعالى فقال: و إنما جاز أن يخلق الإنسان على هذه الصفه المذمومه لأنها تجرى مجرى خلق شهوه القبيح ليجتنب المشتبهى، لأنَّ المحنه فى التكليف لا تتم إلا بمنازعه النفس إلى القبيح ليجتنب على وجه الطاعه لله تعالى، كما لا يتم إلا بتعريف الحسن من القبيح فى العقل ليجتنب

ص: ٣٥٧

١- (١) العاديات/٨.

٢- (٢) أصول الكافي/ج ٢-ص ٣١٩.

٣- (٣) النساء/٢٨.

٤- (٤) هود/٩.

٥- (٥) إبراهيم/٢٤.

٦- (٦) الإسراء/١١.

٧- (٧) الكهف/٥٤.

٨- (٨) الأحزاب/٧٢.

أحدهما و يفعل الآخر (١).

و فى التفسير الكبير: قال القاضى قوله تعالى: «الآيه» نظير لقوله خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ و ليس المراد أنه مخلوق على هذا الوصف، و الدليل عليه أن تعالى ذمه عليه، و الله تعالى لا يذم فعله، و لأنه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم فى ترك هذه الخصلة المذمومه، و لو كانت هذه الخصلة ضروريه حاصله بخلق الله تعالى لما قدروا على تركها (٢)، و علق الفخر الرازى مفضلاً بأن الهلع واقع على أمرين: أحدهما نفسى باطن، و الآخر فعلى ظاهر، و هو يدل على ما خفى..

و قال: أمّا تلك الحاله النفسانيه فلا شك أنها تحدث بخلق الله تعالى، فهى مخلوقه على سبيل الاضطرار (و الجبر)، و الأفعال الظاهره من القول و الفعل يمكنه تركها و الإقدام عليها، فهى أمور اختياريه (٣).

و الظاهر أن صفه الهلع صفه ذاتيه مركوزه فى الطبائع الأوليه للإنسان، و إنما يبينها الله و يذمها لكى يعرّفنا بها و يحذّرنا منها فنجنبها، و ليس فى ذلك شىء من الجبر لأنّ الله سبحانه قد خلق الإنسان فى أحسن تقويم إلا أنّ ذاته المرتكزه فى الجهل و الجهاله و الضعف و العجله و ما أشبه لم تتغير. أ رأيت الذى يشعل شمعته فى الليل فتضىء ما حولها يحمد عليها و لا يذمّ على الظلام المحيط لأنّه ليس من صنعته، و هكذا تركّب الإنسان من صنفين: النور (من الله) و الظلام (من نفسه)، قال ربنا سبحانه: مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ (٤)، و سائر ما فى الإنسان من جوانب القوه و الضعف و الخير و الشر فإنما هى ظلال لهذين

ص: ٣٥٨

١-١ (١) التبيان/ج ١٠-ص ١٢١.

٢-٢ (٢) التفسير الكبير/ج ٣٠-ص ١٢٨-١٢٩.

٣-٣ (٣) المصدر ١٢٩/بتصرف.

٤-٤ (٤) النساء ٧٩.



الصنفين، إلا أنّ على الإنسان أن يسعى جاهدا للتغلب على الظلام و ضلاله في نفسه، و تنمية النور، و إشعاعاته، و الهلع واحد من ضلال الظلام الذي يجب أن يتغلب عليه بسعيه و عزم إرادته.

و الله تعالى عزّف البشر كوا من نفسه شرها و خيرها، و أعطاه إرادته الإختيار التي يتجاوز بها صفات السوء و طبائعه إن شاء أو يسترسل معها، و رسم له المنهج الذي يسلم بتطبيقه منها. فما هو المنهج القرآني لعلاج صفه الهلع عند الإنسان؟ أولا: حضور الآخرة في وعيه نفسيا و فكريا، فإنّ من يتذكر أهوالها و مشاهدها لا يجزعه من الدنيا شر بالغ ما بلغ، لأنّه يكون أبدا مشغولا عنه بذلك الشرّ المستطير، بل تراه يعيش السكينه و الاطمئنان كالمؤمنين: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، كما لا يبطره خير فيمنع خشيه العذاب و طمعا في الثواب..

و لعل هذه الفكرة تفسر لنا العلاقة بين الحديث عن مشاهد القيامة (الآيات ١٨/٨) و بين الحديث عن الإنسان (١٩-٢١). و المستقرئ للآيات القرآنيه يجد أنّ الوحي ما يكاد يحدثنا عن صفات الإنسان السلبيه إلاّ و يمهد لذلك بالحديث عن الآخرة، أو يلحقه بالتذكير بها، لأنّه علاج ناجح لها.

[٢٢-٣٥] ثانيا: الصلاة التي هي معراج المؤمنين إلى الفضيله، و وسيلتهم للتركيه و التربيه الذاتيه. أ و ليست هي الوسيله التي دعانا الله أن نبتغيها إليه؟ أ و ليست هي جبل الله و سفينه نجاه الإنسان من الباطل و الشر؟.. بلى. و لكن يجب أن نفهم الصلاة و نقيمتها بشروطها كما بيئنها القرآن حتى نخلص من صفه الهلع و سائر الصفات السيئه، و نخرج بأنفسنا روحيا و سلوكيا إلى آفاق الكمال و الفضيله، فإنّ الإنسان كإنسان متورّط في الهلع.

إِلَّا الْمُصَلِّينَ

ص: ٣٥٩

الذين عرفوا الصلاة على حقيقتها فأقاموها في حياتهم.. عرفوا الصلاة بأنها الاتصال الدائم بلا انقطاع مع الله، و الكون في طاعته كل ساعة و لحظه.. عرفوا الصلاة برنامجا متكاملًا- يتصل بكل شؤون الحياه و مفرداتها الخاصه و العامه، الفرديه و الاجتماعيه و التربويه و الاقتصاديه و الأخلاقيه و القضائيه و..و..، لا- صلاة القشور المحصوره في الركوع و السجود و بعض المظاهر. فما هي الصلاة الحقيقيه في مفهوم القرآن؟! إن القرآن لا يفصل لنا في كيفية الصلاة و لا عدد ركعاتها و سجاداتها، وإنما يعرفنا الصلاة الربانيه ببيان صفات المصلين الواقعيين عند الله، و هي:

الأولى: الدوام على الصلاة.

الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ قال الزمخشري: يواظبون على أدائها، و لا يخلون بها، و لا يشغلون عنها بشيء من الشواغل (١)، و في الدر المنثور عن ابن مسعود قال: على مراقبتها، و عن عقبه بن عامر قال: الذين إذا صلوا لم يلتفتوا عن يمين و لا شمال (٢)، و كل ذلك صحيح، إلا أن الآية جاءت لتعطي البعد الأشمل و الأصح للصلاه كما يراها الإسلام و يلتزم بها المصلون الحقيقيون، و هي الصلاة الدائمه التي تورث الصلوه المستمره مع رب الكائنات في القيام و القعود في آناء الليل و أطراف النهار.

إن البعض فهم الصلاة فهما خاطئا على أنها مجرد عدد من الركعات و الأذكار التي يؤدّيها المسلم في وقت مخصوص، و قطعوها- و هي عمود الدين- عن الاتصال

ص: ٣٦٠

١- (١) الكشاف/ ج ٤- ص ٦١٢.

٢- (٢) الدر المنثور/ ص ٢٦٦.

بمفردات الحياه و سلوك المصلّى. أمّا الصلاه التي يريدّها الإسلام فإنّها الصله الدائمه بين العبد و ربه، و ما العباده المتعارفه إلا رمز و مظهر لذلك الجوهر.. فالمصلّى الحقيقي لا- يعيش الحياه مجزأه، و لا يحدّد الصلاه بوقت معين، إنّما يعتبرها موصوله بكلّ مفرده في حياته، و أنّه لو خالف قيمها و أهدافها في واحده منها فإنّها لا تعدّ في نظره مقبوله، فلا يغشّ الناس عند المعامله، و لا يكذب في كلامه، و يبخسهم أشياءهم، و لا يغتاب، و لا يتهم، و لا يركن للظالمين، و لا.. و.. لأنّ كلّ ذلك يسلب صلاته روحها و معناها و ثوابها.. فالصلاه لا بد أن تنهى عن كلّ فاحشه فرديه أو اجتماعيه، و لا بد أن تقطع المسلم عن كلّ أحد غير الله فيعيش مستقلا حتى تسمّى صلاه.

إنّ الذي يصلّى ثمّ يحيد عن أهداف الصلاه في سائر يومه و حياته لا يمكن أن يطلق عليه مصلّيا، لأنّ من شروط المصلّى أن يدوم على صلاته بالتزام مضامينها و قيمها و أهدافها و الاستقامه عليها طيله يومه و حياته. و حيث فهم الواعون المخلصون من الرعيّل الأول الصلاه منهج حياه فداموا عليها أصبحت إليهم معراجا إلى كلّ فضيله و كرامه.

و لقد أولّ أئمه الهدى الصلاه في الآيه بأنّها النوافل (الصلوات المستحبه)،

قال الإمام الباقر عليه السلام: «هذا في النوافل» (١) و قال القمّي: إذا فرض على نفسه شيئا من النوافل دام عليه (٢)، و هذه الأخبار تهدينا إلى أمرين: أحدهما: مدى حرصهم على صلاتهم الواجبه و دوامهم عليها، فإنّ من دام على المستحب كان أدوم على الواجب، و الآخر: درجه التزامهم بالإسلام و منهجيته في الحياه، بحيث أنّهم يرفعون المستحبات المندوبه إلى مستوى الواجبات أداء و التزاما، و هذا بدوره يكشف عن

ص: ٣٤١

١- (١) البصائر/ ج ٤٩- ص ١٢٠.

٢- (٢) تفسير القمّي/ ج ٢- ص ٣١٦.

مدى حبهم للعباده.

وقد ذكر الله صفه المداومه على الصلاه لأن المعطيات الحضاريه و غيرها كالتغلب على صفه الهلع فى النفس البشريه لا تتأتى بصوره سريعه منذ أول ممارسه للصلاه من قبل الإنسان، بل لا بد من الدوام عليها و الاستقامه حتى تعرج بنا إلى تلك المعطيات.

الثانيه: الإنفاق فى سبيل الله.

و به يخرج المصلون من سلطان المال و الثروه الذى يأسر الكثير من الناس الذين أنعم الله عليهم فيمنعون حقوق الله و حقوق المجتمع، و إنها لآيه على تحوّل الصلاه إلى برنامج عملى فى حياتهم. أو ليس هدفها أن يتمحّض الإنسان فى الخلوّص لله، و يتنازل عن كلّ شيء حتى ذاته من أجل الحق؟ بل. فلما ذا يبخلون بالمال؟ إنّ المصلين الحقيقيين حينما يكرّرون فى صلاتهم قوله تعالى الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فإنّهم يعون بعمق أنّ الحمد ليس مجرد كلمات و شعارات يلوکها الواحد بلسانه، بل هو باللسان المعبر عن النيه الصادقه و الإيمان المخلص، و بالعمل من خلال تطبيق منهجيه الحمد فى واقع الحياه، و منها إنفاق نعم الله فى سبيله شكرا له و تعبداً.

إنّهم قد اتصلوا بالله و عرفوه (رب العالمين) و علموا بأنّ ما فى الوجود كلّ من عنده و هو مالکة، حتى أنفسهم، و ما الأموال التى عندهم إلاّ- أمانات استودعهم إياها، فكيف يبخلون بها و يمنعون عن أدائها إليه حين يطلبها فيأمرهم بإنفاقها فى سبيله؟! إنّ الامتناع عن الإنفاق فى يقينهم لون من الخيانه للمستأمن، و هذا ما يدفعهم

ص: ٣٦٢

إلى الإنفاق فى وجوه الخير من جهه، و من جهه أخرى يدفعهم الشعور بالمسؤوليه الاجتماعيه إلى مد يد العون لأصحاب الحاجه و العوز تطبيقا لمنهجيه التكافل الاجتماعى التى تستهدفها الصلاه.

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ \* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالسَّائِلِ هُوَ الَّذِي يَعْرُضُ حَاجَتَهُ عَلَى النَّاسِ وَ يَسْأَلُ الْعُونَ مَعَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَحْتَاجًا وَ قَدْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، وَ لَكِنَّ كِرَامَةَ الْمُصَلِّينَ وَ عِزَّتَهُمْ تَمْنَعُهُمْ أَنْ يَنْتَظِرُوا يَدًا تَمْتَدُّ إِلَيْهِمْ بِالسُّؤَالِ حَتَّى يُعْطَوْهُ مَهْمَا كَانَ الْمَعْطَى كَثِيرًا.. فِهَذَا سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ وَ قَدْ طَرَقَ الْبَابَ طَارِقًا يَنَاولُهُ صِرَهُ مِنَ النُّقُودِ الْكَثِيرَةِ، وَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ بَلْ يَمُدُّ يَدَهُ الْكَرِيمَةَ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ. هَكَذَا

قال المجلسى: فسلم الحسين و قال: «يا قنبر هل بقى من مال الحجاز شىء» قال: نعم أربعة آلاف دينار، فقال: «هاتها قد جاء من هو أحق بها منا»، ثم نزع برديه و لفّ الدنانير فيها و أخرج يده من شقّ الباب حياء من الأعرابى و أنشأ:

خذاها فإنى إليك معتذر\* و اعلم بأنى عليك ذو شفقه لو كان فى سيرنا الغداه عصا\* أمست سمانا عليك مندفته لكن ريب الزمان ذو غير\* و الكف منى قليله النفقه قال: فأخذها الأعرابى و بكأ، فقال له: «لعلك استقللت ما أعطيناك؟» قال: لا. و لكن كيف يأكل التراب جودك؟ (1).

أما المحروم فإن فرقه عن السائل أمران: أحدهما: وجود الحاجه الماسه عنده و كونه مستحقاً، و الثانى: حياؤه الذى يمنعه عن السؤال.. هكذا جاء فى تفسير

ص: ٣٤٣

الرازي و المجمع و التبيان و الميزان و الكشاف: و المحروم الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غتيا فيحرم (١)، و هذا يدل على أنّ المؤمنين ينفقون أموالهم على المحتاجين و هم يشعرون بأنهم هم أهل الحاجه إلى الإنفاق.. فلا- ينتظرون السائل يسألهم، بل يعطوه للسائلين، و يبحثون بأنفسهم عن المحتاجين لينفقوا عليهم لوجه الله، و لقد

جاء في التاريخ: أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام استشهد و في كتفه أثر الجراب الذي كان يمرّ به ليلا على بيوت الفقراء و المحتاجين و قد ملأه تمرا و خبزاً.

و الظاهر من الروايات أنّ الإنفاق الذي تعنيه الآية ليس الواجب المفروض في الشريعة بقدر ما هو الإنفاق المندوب الذي يبادر إليه المصلون أنفسهم قربه لله تعالى،

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله عزّ و جلّ فرض للفقراء في مال الأغنياء فريضه لا يحمدون بأدائها(أى أنه ليس فضلا يمدحون بأدائه) و هي الزكاه، بها حقنوا دماءهم، و بها سموا مسلمين، و لكنّ الله عزّ و جلّ فرض في أموال الأغنياء حقوقا غير الزكاه، فقال عزّ و جلّ: في أموالهم حقّ معلومٌ فالحق غير الزكاه، و هي شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله، يجب عليه أن يفرضه على قدر طاقته و سعه ماله، فيؤدى الذي فرضه على نفسه، إن شاء في كلّ يوم، و إن شاء في كلّ جمعه، و إن شاء في كلّ شهر» (٢)، و

عنه قال- عليه السلام:- «هو الرجل يؤتية الله الثروه من المال فيخرج منه الألف و الألفين و الثلاثة آلاف، و الأقل و الأكثر، فيصل به رحمه، و يحتمل به الكلّ عن قومه» (٣)، و هذا المحمل هو الأقرب لأنّ الإنفاق المستحب أدلّ على رسوخ الإيمان من الواجب.

و حيث يبادر المصلون إلى هذا النوع من الإنفاق فإنّهم لا يعتبرون أنفسهم

ص: ٣٦٤

١- ١) التفسير الكبير/ ج ٣٠- ص ١٣٠.

٢- ٢) البرهان/ ج ٤- ص ٣٨٤.

٣- ٣) المصدر/ ص ٣٨٥.

متفضلين على من أعطوا، بل يشعرون في أنفسهم أنّ ذلك «حق» واجب عليهم أدأوه، ممّا يبعدهم عن الرياء و المَنّ و الأذى. ثمّ أنهم من الناحية الاقتصادية متوازنون في إنفاقهم، فهم لا يسرفون و لا يقترون، بل يقدمون على مواقف و خطوات مدروسة قائمه على الحسابات الدقيقه.. فإنفاقهم كما يصف «معلوم» مدروس و مخطط و محدّد.

الثالثه: التصديق بالآخره.

وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ قَالَ الْعَلَامَهُ الطَّبَسَى: يؤمنون بأنّ يوم الجزاء حق لا يشكّون فيه (١)، و في الكشّاف: تصديقا بأعمالهم و استعدادا له (٢). و سمّيت الآخره «يوم الدين» لأنّها يوم الجزاء و فيها الميزان، و لأنّ الحاكميه المطلقه فيها لدين الله عزّ و جلّ. و إذا كانت الدنيا صولات و جولات بين الحق و الباطل فإنّ الآخره دوله مطلقه للحق.

و تصديق المصلين بذلك اليوم و ما فيه من الحقائق تصديقان: تصديق القلب بالإيمان و اليقين الراسخ أنّ الآخره حق واقع، و تصديق الجوارح بالعمل و السعى الصالح، الذي يكون مصداقا للإيمان، و دليلا على صدق مدّعيه. و قد أعطى الإسلام لهذه الكلمه مفهومها الحقيقي الشامل حينما اعتبر كلّ صالحه و حسنه صدقه،

قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «كلّ معروف صدقه إلى غنى أو فقير» (٣)، و

قال صلى الله عليه و آله: «تبسّمك في وجه أخيك صدقه، و أمرك بالمعروف صدقه، و نهيك عن المنكر صدقه، و إرشادك الرجل في دلو أخيك صدقه» (٤).

ص: ٣٦٥

١-١ (١) مجمع البيان/ج ١٠-ص ٣٥٦.

٢-٢ (٢) الكشّاف/ج ٤-ص ٦١٢.

٣-٣ (٣) موسوعه بحار الأنوار/ج ٩٦-ص ١٢٢.

٤-٤ (٤) كنز العمال/ج ٥-ص ١٦٣.

و نهتدى من قوله: يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ إِلَى أَنَّ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ مُصَدِّقَاتُ إِيمَانِهِمُ بِالْآخِرَةِ، فَلَا يَعْمَلُونَ رِيَاءً أَوْ سَمْعَةً، أَوْ أَشْرًا أَوْ بَطْرًا، أَوْ اسْتِعْلَاءً فِي الْأَرْضِ. كَمَا نَسْتَوْحِي مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ هُوَ الْعَامِلُ الرَّئِيسِيُّ الَّذِي بِهِ يَصَدِّقُونَ وَ يَنْدَفَعُونَ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. أَ تَرَى لَوْ كَفَرَ أَحَدٌ بِالْجِزَاءِ مَاذَا يَدْفَعُهُ إِلَى التَّصَدُّقِ وَ الْإِنْفَاقِ وَ التَّضَحِّيَاتِ؟ لَا شَيْءَ، وَ لِهَذَا فَإِنَّ تَوَقُّفَ مَسِيرِهِ الْإِحْسَانَ وَ الْعَطَاءَ عِنْدَ الْكُفْرِ سَبَبُهُ كُفْرُهُمُ بِالْآخِرَةِ.

وَ حَيْثُ اعْتَبَرَ الْقُرْآنُ التَّصَدِّيقَ بِالْآخِرَةِ صِفَةً أُسَاسِيَةً عِنْدَ الْمُصَلِّينَ حَقًّا فَلَأَنَّهُمْ عِنْدَ مَا يَقُومُونَ إِلَى الصَّلَاةِ يَعِيشُونَ بِوَعِيهِمُ الْإِيمَانِي ظَوَاهِرَ الْآخِرَةِ وَ أَحْدَاثَهَا الْفُطَيْعَةَ.

وَ مَا هِيَ قِيمَةُ الصَّلَاةِ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمُصَلِّي حَاضِرًا بِرُوحِهِ وَ بَصِيرَتِهِ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ أَدَائِهَا؟ وَ إِيمَانِهِمُ بِالْآخِرَةِ لَهُ دَوْرٌ أُسَاسِيٌّ وَ كَبِيرٌ فِي حَيَاتِهِمْ إِيمَانًا وَ تَفْكِيرًا وَ عَمَلًا، فَهُوَ مَقْيَاسُهُمْ فِي الْقَضَايَا الْمُخْتَلِفَةِ، فَلَا يَقْرَبُونَ الذُّنُوبَ خَشْيَةَ الْخِزْيِ وَ الْعَذَابِ يَوْمئِذٍ، وَ يَسْتَزِيدُونَ مِنْ عَمَلِ الصَّالِحَاتِ طَمَعًا فِي الْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَ لَا يَجْزَعُونَ عِنْدَ الْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَاءِ لِأَنَّ الشَّرَّ الْحَقِيقِيَّ لَيْسَ الْفَقْرَ وَ لَا فَقْدَانَ الْأَحْبَةِ وَ لَا الْمَرَضَ إِنَّمَا هُوَ عَذَابُ اللَّهِ وَ سَخَطُهُ، وَ لَا يَمْنَعُونَ عِنْدَ الْخَيْرِ بَرَّهُمْ عَنْ أَحَدٍ طَمَعًا فِي الْخَيْرِ الْعَظِيمِ عِنْدَ لِقَاءِ اللَّهِ. وَ بَعْبَارِهِ: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُمْكِنُ لَهُ الثَّبَاتُ، بَلْ يَبْقَى هَلَعًا مُتَقَلِّبًا الشَّخْصِيَّةَ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْآخِرَةِ، لِأَنَّ ذَلِكَ وَحْدَهُ الَّذِي يُعْطِيهِ الْإِطْمِئْنَانَ إِذْ يَشْبَعُ تَطَلُّعَاتِهِ الْفُطْرِيَّةَ، وَ يَشْعُرُهُ بِأَنَّهُ يَسِيرُ نَحْوَ مُسْتَقْبَلٍ أَفْضَلَ وَ أَنْبَلَ.

الرابعة: الخوف من عذاب الله.

وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ فِي التَّبْيَانِ: الْإِشْفَاقُ رَفَقَةُ الْقَلْبِ عَنْ تَحَمُّلِ مَا يَخَافُ مِنَ الْأَمْرِ، فَإِذَا قَسَى قَلْبُ



الإنسان بطل الإشفاق، وقيل: من أشفق من عذاب الله لم يتعدَّ له حداً و لم يضع له قرصاً (1)، و خوفهم فى الحقيقه ليس من شده العذاب بقدر ما هو خوف من سخط الله، لأن فراق رضوان الله أعمق و أشدّ ألماً من ألسنه النيران.

إنّ المصلين الحقيقين يفترضون أنفسهم فى النار، و ينطلقون من ذلك بالجدّ و الاجتهاد و السعى الحثيث لإنقاذ أنفسهم منها، و إنّما لا يفترضون أنفسهم فى الجنه لكى لا يستبدّ بهم الغرور فيركنون إلى الراحة و الدّعه، و لكى لا يعيشوا فى ظلّ خرافه الشرك أو أمنيّه الشفاعة المحتومه على الله تعالى سبحانه أو حلم الأعمال الصالحه التى لا يعرفون مدى قبولها من عند الله، فهم لا يعطون لها الأمان بالاعتقاد الخاطئ أنّ الله لا يعذبهم، و لا بالاتكال اغتراراً على أعمالهم، و لا بالفهم السيء للشفاعة.

□  
إنّ عذاب ربّهم غير مأمونٍ و تأكيد هذه الحقيقه من قبل الله يأتى فى سياق المنهج التربوى للقرآن، فإنّ من لا يأمن العذاب لا يسمح لنفسه بالغفله، و ضياع الفرصه، كما أنّه يتحرك فى بعدين: بعد اجتناب الذنوب التى جزاؤها العذاب، و الثانى: بعد العمل الصالح الذى يقرب العبد إلى الله، و ينجيه من غضبه، و يقربه من الأمان الحقيقى من عذابه.

إنّ الذى يأمن مكر الله و عذابه أو يكفر به و يكذب كأولئك الذين بلغ كفرهم بوعده الله حدّ الاستهزاء و التحدى بالسؤال عن العذاب؛ إنّ هذا الإنسان لا يتحسس المسؤوليه، و من ثمّ يخوض و يلعب، و قد يعتمد على التمنّيات فيودّ لو يفتدى

ص: ٣٤٧

بالآخرين و ينجو، أو يطمع أن يدخل جنه نعيم، ولكنها لا تعطى أمانا أبدا، قال شيخ الطائفة مفسِّرا الآية: قيل يخافون أن لا تقبل حسناتهم و يؤخذون بسيئاتهم (١)، و فى الكشاف: أى لا ينبغي لأحد و إن بالغ فى الطاعة و الاجتهاد أن يأمنه، و ينبغي أن يكون مترجحا بين الخوف و الرجاء (٢)، و قيل: لأنَّ المكلف لا يدري هل أدى الواجب كما أمر به، و هل انتهى عن المحظور كما نهى (٣).

و كون العذاب غير مأمون لا يعنى أنه تعالى لا يعدل، حاشا و هو السلام المؤمن، بل لكون الإنسان غير معصوم، و لكون التمحّض فى الحقّ من جانبه صعبا و قليلا أهله،

قال الإمام الصادق عليه السلام: «أتى رسول الله -صلى الله عليه و آله- فقيل له:

إنَّ سعد بن معاذ قد مات، فقام رسول الله صلى الله عليه و آله و قام أصحابه معه، فأمر بغسل سعد و هو قائم على عضاده الباب، فلما أن حنط و كفن و حمل على سريره تبعه رسول الله صلى الله عليه و آله بلا حذاء و لا رداء، ثم كان يأخذ يمينه السرير مره و يسره السرير مره حتى انتهى به إلى القبر، فنزل رسول الله صلى الله عليه و آله حتى لحيده و سوى اللبن عليه، و جعل يقول: ناولونى حجرا، ناولونى ترابا رطبا؛ يسدّ به ما بين اللبّن، فلما أن فرغ و حثا التراب عليه و سوى قبره قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «إنى لأعلم أنه سيلى و يصل البلى إليه، و لكنّ الله يحب عبدا إذا عمل عملا أحكمه»، فلما أن سوى التربه عليه قالت أمّ سعد: يا سعد هنيئا لك الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: يا أمّ سعد مه، لا تجزى على ربك فإنّ سعدا قد أصابته ضمّه، قال: فرجع رسول الله صلى الله عليه و آله و رجع الناس فقالوا له: يا رسول الله لقد رأيناك صنعت على سعد ما لم تصنعه على أحد، إنك تبعت جنازته بلا رداء و لا حذاء، فقال صلى الله عليه و آله: إنّ الملائكة كانت بلا رداء و لا حذاء فتأسيت بها، قالوا: و كنت تأخذ يمينه السرير مرّه، و يسره السرير

ص: ٣٤٨

١-١ (١) المصدر.

٢-٢ (٢) الكشاف/ ج ٤- ص ٤١٣.

٣-٣ (٣) الميزان/ ج ٢٠ ص ٢٠.

مرّه، قال: كانت يدي في يد جبرئيل آخذ حيث يأخذ، قالوا: أمرت بغسله و صليت على جنازته و لحدته في قبره ثم قلت إنَّ سعدا قد أصابته ضمّه؟! قال:

فقال صلى الله عليه و آله: نعم. إنّه كان في خلقه مع أهله سوء» (١).

الخامسة: العفة الجنسيه.

إنَّ ممَّا يبعد المصلّين عن صفه الهلع هو سيطرتهم التامه على شهواتهم، فبينما تسير الآخرين غرائزهم و أهواؤهم تجد المؤمنين يوجّهونها على أساس القيم كيفا و مقدارا، مما يعطيهم الثبات في شخصيتهم.

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ و يفسّر علاقه هذه الآيه بالآيتين السابقتين عن الخشيه من العذاب

حديث أمير المؤمنين -عليه السلام-: «من اشتاق إلى الجنه سلا عن الشهوات، و من أشفق من النار اجتنب المحرّمات»، و هذا يؤكّد العلاقه بين عقائد الإنسان المؤمن و سلوكه، و أنّ المصلّي بحقّ هو الذى يترجم القيم الإيمانيه إلى حقائق واقعيه في حياته، فالتصديق بيوم الدين و الإشفاق من العذاب ليس مجرد أقوال على ألسنتهم أو أفكار في أذهانهم، بل هي واقع ملموس في شخصياتهم.

و بالتدبر في معانى الآيه الكريمة نهتدى إلى الحقائق التاليه:

ألف: إنّها باستثناء أوّ ما ملكت أيّما نهمّ شامله للزوجين الرجل و المرأه، فإنّ المرأه كالرجل مكلفه بصيانه نفسها جنسيًا إلا على زوجها، و أن لا تبحث عن طرق ملتويه لإشباع غريزتها الجنسيه.

ص: ٣٦٩

باء: إنَّ حفظ الفرج يبدأ من طهاره القلب بعفّه الإيمان و عفّه النظر عمّا حرّم الله، و هكذا سائر الجوارح كالسمع و اللمس، فإنَّ فرج الإنسان لا يزال محفوظا حتى تدخل قلبه أفكار الشيطان، أو يزيغ نظره إلى الحرام، و كذا سمعه و جلده.

جيم: إنَّ التعبير جاء بالجمع «فروجهم» و ليس بالمفرد، و ذلك يهدينا إلى أنّ من حفظ فرجه فإنّه يحفظ فروج عرضه و من يتعلّق به كسنته اجتماعيه طبيعيه، و هكذا من يقتحم به الفواحش فإنّما يجعل فوجه-زوجته و أخواته و إخوانه و عقبه-عرضه للتورّط في الفاحشه،

فقد أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا موسى! من زنى زنى به، و لو فى العقب من بعده» (١).

«يا موسى! عَفَّ يَعْفُ أَهْلَكَ» (٢)،

«يا ابن عمران! كما تدين تدان» (٣)، و

فى حديث آخر: «لَمَّا أَقَامَ الْعَالَمُ (الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ) الْجِدَارَ (لِلْيَتِيمِينَ) أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي مَجَازِي الْأَبْنَاءَ بِسَعَى الْأَبَاءِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ، وَ إِنْ شَرًّا فَشَرٍّ، لَا تَزْنُوا فَتَزْنَى نِسَاؤُكُمْ، وَ إِنْ مِنْ وَطِئِ فَرَّاشٍ مُسْلِمٍ وَطِئَ فَرَّاشَهُ. كَمَا تَدِينُ تَدَانُ» (٤).

دال: و إذا نظرنا إلى الآيه بتفكّر أمكننا توسيع معنى الفروج ليشمل كلّ فرجه يساهم بها الإنسان فى ممارسه الجنس، كالقلم و الأذن و العين و فتحات الشم، و إنّ المصلين يعفّون بها عن ممارسه الحرام، فلا يقبلون بشفاهم غير أزواجهم، و لا يتلفظون بها كلمات الغرام و الغزل، كما أنّهم لا يستمعون بأذانهم أحاديث الهيام و كلمات الحبّ، و يصونون أعينهم عن النظر إلّا إلى محاسن الأزواج و زينتهنّ، بل و يحفظون مشامهم قدر المستطاع عن الاستلذاذ بالحرام!

ص: ٣٧٠

١- ١) كلمه الله للشهيد الشيرازى/ص ١٩١.

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) المصدر.

٤- ٤) المصدر/ص ١٩٣.

هاء: ولعلنا نقرأ في بطون الآيه الكريمة أنّ المصلين يحسنون إداره عوائلهم في كلّ الأبعاد و منها الجنس، بحيث تتصل الفروج المتعلقه بهم إلى حدّ الإشباع جنسيًا و عاطفيًا، مما يحفظها عن التفكير في ممارسه الجنس الحرام خارج إطار العلاقه الزوجيه، هذا ما يستفاد من السياق و بالذات من قوله سبحانه في خاتمه الآيه فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ كما يأتي تفسيره.

و إنّ الدراسات العلميه في جنس الاجتماع لتؤكد على أنّ أغلب الانحرافات في هذا الجانب-و بالتالي فشل الأزواج في حفظ أزواجهم و حصر علاقاتهم الجنسيه بهم-مبنتيه على سوء إدارتهم للعائله.

إنّ الإسلام دين الفطره، و معنى ذلك أنّه ينسجم مع طبيعه الإنسان، و الغريزه الجنسيه غريزه طبيعيه، و الإسلام لا يحاربها، و لكنّه يفرض عليه منهجا سليما، فهو من جهه يحرم ممارسه الجنس الحرام، و من جهه أخرى يفتح المجال فيما يخصّ الزوجات و ما ملكت اليمين.

□  
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ و إذا عرفنا أنّ الزوجه تعدّد في الإسلام إلى أربعة، كما أنّها تشمل الدائمه و المؤقته، فإنّ مصادر التمتع بالغريزه الجنسيه تكون متنوعه، خصوصا عند ما كانت الظروف موافقه لمملك اليمين في ظلّ نظام الرقيّه الشائع في القديم.

فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ لَا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ وَلَا مِنْ قِبَلِ النَّاسِ.

و الغريزه الجنسيه أشبه شيء بتتار ماء عارم لا يدعه المؤمن يندفع حيث يشاء،

بل يصنع حوله السدود، و يحفر القنوات التي تستوعبه و توجهه إلى ما فيه الحقّ و الصلاح.

فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ نَتِيجَةً لِّلشَّدُوذِ بِمَمَارَسَةِ الْحَرَامِ زَنَا وَ غَيْرِهِ (١).

فَأَوْلِيكَ هُمُ الْعَادُونَ يُقَالُ عَدَىٰ فَلَانٌ: اعْتَدَىٰ، و عدى فى مشيه إذا أسرع و تجاوز الحدّ المعروف، و هو الأصل، و العادى: الظالم بالتجاوز. قيل: فأولئك الذين تعدّوا حدود الله، و خرجوا عمّا أباحه لهم (٢). و من مصاديق «وَرَاءَ ذَلِكَ» الاستمناء (العاده السريه)،

فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الخضخضه فقال: «إثم عظيم قد نهى الله عنه فى كتابه، و فاعله كناكح نفسه، و لو علمت بمن يفعله ما أكلت معه»، فقال السائل فيّين لى يا ابن رسول الله من كتاب الله و نهيه؟ فقال: «قول الله:

«الآيه» و هو ممّا وراء ذلك» (٣) و إنّ من انتصر على هوى النفس و وسواس الشيطان بشأن الشهوه الجنسيه فقد أوتى خيرا كثيرا،

قال الإمام الباقر عليه السلام: «ما عبد الله بشيء أفضل من عفه بطن و فرج» (٤)، و هذه الروايه تفسر لنا العلاقه بين العفه الجنسيه و بين كون العفيف من المصلين الحقيقيين عند الله. و كيف يقيم الصلاه من يخطب خطب عشواء فى الفواحش و ربنا يقول:

ص: ٣٧٢

١-١) راجع سوره المؤمنون عند الآيه: ٦-٧.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠-ص ٣٥٥.

٣-٣) تفسير البصائر/ج ٤٩-ص ١٢٣.

٤-٤) المصدر/ص ١٢٢.

وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (١)؟ أى أن تجنّب الفواحش و المنكرات شرط أساسى لإقامه الصلاه بحدودها.

السادسه:رعايه الأمانات و العهد.

وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ قَالَ الْعَلَامَه الطبرسى:الأمانه ما يؤتمن المرء عليه مثل الوصايا،و الودائع، و الحكومات و نحوها (٢)،و قيل:كل نعمه أعطاه الله عبده من الأعضاء،فمن استعمل شيئاً منها فى غير ما أعطاه الله لأجله و أذن له فى استعماله فقد خانَه (٣).

و إطلاق المعنى هو الأصح،فالأمانه كل ما استؤمن عليه الإنسان،و العهد كل ما تعاهد عليه و قطع على نفسه الوفاء به.و أظهر مصاديق الأمانه العقل و ما يفرضه من مسئوليّه اختيار الحق و الذى يتجلى فى رسالات الله،تلك الأمانه التى عرضها على السموات و الأرض فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان.كما أن أظهر مصاديق العهد ما أخذه الله على بنى آدم أن يوحّدوه و لا- يشركوا به شيئاً،و المشار إليه فى قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (٤).و ما هى قيمه الصلاه التى لا تردع الإنسان عن خيانه الأمانه و العهد؟ و ما هى قيمتها إذا لم تعطه روح الوفاء بهما و الرعايه لهما؟! السابعة:القيام بالشهاده.

ص:٣٧٣

١- (١) العنكبوت ٤٥.

٢- (٢) مجمع البيان/ج ١٠-ص ٣٥٦.

٣- (٣) الميزان/ج ٢٠-ص ٢١.

٤- (٤) الأعراف ١٧٢.

وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ فَلَا يَكْتُمُونَ الشَّهَادَةَ، و لا يشهدون بالباطل، لا فرق عندهم أ كانت لهم أم عليهم، لأنَّ المهم هو إقامة الحق و إعلاء كلمته لوجه الله. و بالتالى فإنَّهم لا يتأثرون بالضغط التى تدعوهم للعدول بالشهادة عن الحق.

و الشهادة أوسع من أن نحصرها فى القضاء، بل هى قيام الإنسان بالشهادة للحق فى كلِّ حقل و بعد، و ذلك بالدفاع عن الحق قولاً و فعلاً، مما يجعله ميزاناً للحق، و حجه بالغه على المخالفين له، كما قال الله يخاطب حبيبه: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (١)، و قال: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (٢).

و بكلمه «قائمون» أعطى القرآن مفهوما أعمق للشهادة، فهى ليست مجرد قول الحق عند اختلاف الناس فيه، بل قد يرقى إلى خوض الصراع الذى قد ينتهى إلى القتل فى سبيل الله، و هو قمة شهادة المرء للحق. و بكلمه: إِنَّ الْقِيَامَ هُنَا قَدْ يَكُونُ نَقِيضَ الْقَعُودِ فى قول الله: وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٣)، مما يجعل كلَّ مؤمن شهيدا شاهدا على عصره، و يجعل الصلاة رمز شهادته و معراج شهوده.

الثامنة: المحافظه على الصلاة.

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ

ص: ٣٧٤

١- ١) الأحزاب ٤٥.

٢- ٢) البقره ٤٣.

٣- ٣) النساء ٩٥.



بمظهرها و كفييتها (يعنى الصلاه المتعارفه)، و قد قدّم الله تلك الصفات للتأكيد بأنّها الجوهر و الأهم فى الصلاه، لأنّها المحتوى و الصلاه إطارها، و هى القيم و الصلاه مقامها، و هى النور و الصلاه مشكاتها، و ينبغى لكلّ مقل على الصلاه أن يضعها نصب عينيه قبلها و بعد أدائها، و يسعى للالتزام بها إلى جانب التزامه بمظاهر الصلاه. قال صاحب المجمع: أى يحفظون أوقاتها و أركانها فيؤدونها بتمامها، و لا يضعون شيئاً منها (١)، و قال الرازى: و محافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل وجه (٢). و لا يمكن لأحد أن يحفظ صلاته من الفساد حتى يلتزم بشروطها فلا يقتحم الفواحش و المنكرات، لأنّها تبطل أجرها، و تمنع قبول الله لها من أحد.

ما هو أجر المصلين الحقيقيين الذين تقدّمت صفاتهم؟ يقول ربّنا:

أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمِينَ كرامه حقيقه تتمثل فى القرب من الله، و كرامه ظاهره فى نعيم الجنّات، و فى هذه الآيه تسكين لروحهم من العذاب، و تأمين لهم بأنّه بعيد عنهم. و جزاؤهم هذا نقيض جزاء الكافرين الذين تخشع أبصارهم، و ترهقهم ذلك و إهانته.

و فى نهايه سردنا لصفات المصلين فى مفهوم القرآن نسجل هاتين الفكرتين:

١- إنّ التعبير يكون صحيحاً لو قال الله عند كلّ صفه (الذين) من غير إلحاق للضمير المنفصل «هم» بالكلام، و لكنّه أثبتته تعالى لغرض التأكيد أولاً، و لبيان أنّ صفاتهم ليست عرضيه، بل هى سجايا و ملكات دافعهم إليها مرتكز فى أنفسهم،

ص: ٣٧٥

١-١) مجمع البيان/ ج ١٠- ص ٣٥٧.

٢-٢) التفسير الكبير/ ج ٣٠- ص ١٢٩.

لا اتباعا لهوى أحد أو استرسالا مع ظرف محدد.

٢- إن بيان تعريف المصلين بهذه الصفات يعطينا مقياسا لتقييم أنفسنا، و ميزانا لمعرفة الناس من حولنا، فما أكثر من يصلى و لكنه لا يقيم الصلاة، فيكون له الويل و اللعنه، لا كرامه الله و الجنة.

[٣٦] و من بيان صفات المصلين التى هى ثمن الكرامه فى الجنات ينعطف السياق القرآنى لانتقاد موقف الكافرين الذين يطمعون فى دخول الجنة، و يتمنونها نصيبا و مصيرا من غير سعى و اجتهاد، مؤكدا بأنها منهجيه خاطئه، لأنها تقوم على التمنيّات، و لأنها لا تقود إلا إلى الخوض و اللعب فى الدنيا، و الخسران المبين فى الآخرة.

فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكُمْ مُهْطِعِينَ قِيلَ أَذَلَاءَ (١)، و فى المنجد: من ينظر فى ذلّ و خضوع لا يقلع (٢)، قال تعالى:

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَزِدُّ إِلَيْهِمْ ظُرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٣)، و الأقرب هنا أنّ الإهطاع إسراع فى ذل، يقال: استهطع البعير فى سيره أسرع، و ناقه هطعى:

سريعه (٤). و يدل على ذلك قوله تعالى: خُشِعَا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ\* مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ (٥) أى مسرعين فى إجابته داعى الله منكسى رؤوسهم أمامه.

ص: ٣٧٦

١- (١) القمى/ج ٢- ص ٢٣٨.

٢- (٢) المنجد/ماده هطع.

٣- (٣) إبراهيم/٤٣.

٤- (٤) المنجد ماده هطع.

٥- (٥) القمر/

و الآيه تستنكر على الكفار بالرسالة مسارعهم في الفرار من دعوه الرسول صلى الله عليه و آله ، كأنهم قطع بعير شارده، أو كما وصفهم تعالى حال إعراضهم عن التذكرة: كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ\* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرِهِ (١) حيث لا يثبتون قبل الرسول الذى يحمل إليهم منهج الفلاح و العزه فى الدنيا و الآخره، و لا يعلمون أنهم بذلك الإسراع فى الفرار إنما يسارعون فى الذلّ و الفشل، و ليس كما يزعمون مسارعه فى الخير، و هذا ما يعاينونه فى الآخره يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ\* خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، و هاتان الآيتان بيان واضح لمعنى الإهطاع أنه الإسراع.

[٣٧-٣٩] و لا يفتر الكافرون قبل الرسول فى صفّ منتظم واحد، بل فى صفوف مختلفه، و ذلك لأنّ المسارعه فى الفرار من الحق موقف مبدئى اجتماعى سياسى يتخذه المهطعون لعوامل متفاوتة بينهم، مما يجعل مواقفهم التابعه للأهواء مختلفه، فمن مشرق و من مغرب كما يقول الله و يصف القرآن:

عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ عَزِينَ أَى متفرقين جماعات كلّ ينتسب إلى جماعه مختلفه. و أصل العزى من النسبه، يقال: تعزى إليه يعنى انتسب، و العزیه: الانتساب (٢)، قال الأزهري: عزا فلان نفسه إلى بنى فلان، يعزوها عزوا، إذا انتمى إليهم، و الاسم العزوه. و كأنّ العزوه كل جماعه اعتزأؤها (و انتسابها) إلى أمر واحد (٣). و لقد رأينا كيف أنّ الانحراف عن الرساله صير الناس مذاهب و طوائف، بينما كانت الرساله - لو استجابوا لها - تجمعهم أمه واحد قويه و عزيزه.. إلا أنّهم مزقوا أنفسهم بالضلال

ص: ٣٧٧

١-١) المدثر ٥٠/٥١.

٢-٢) المصدر/ماده عزى بتصرف.

٣-٣) التفسير الكبير ج ٣٠-٣١ ص ١٣٢-١٣١.

عن هداها كل ممزق فصاروا إلى الضعف و الذل.

و فى الروايات إشاره من رسول الله صلى الله عليه و آله إلى معنى «عزير» على أنه التفرق جماعات و مذاهب،

فعن جابر بن سمره قال: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه و آله المسجد و نحن خلق متفرقون فقال: «مالى أراكم عزير؟ ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟» قالوا: و كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول و يتراصون فى الصف» (١).

و التفرق نتيجة طبيعیه للكفر بالله و الرساله، لأن الإيمان يجمع الناس على محور واحد هو محور الحق، أما الكفر فإنه يتخذ أشكالا مختلفه.. أحزابا و أفكارا و قيادات. و هناك قول بأن المقصود بالكافرين هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان و يخفون الكفر و التكذيب (٢)، و الأقرب تعميم المعنى ليشمل الكافرين و المنافقين جميعا.

و إذا تنكب الإنسان عن صراط الجنه الرسول (قياده) و الرساله (منهج) فكيف يسعد؟ و من أى باب يدخل الجنه؟ و بأى وسيله؟ إن الإنسان إنما يرفض الحق قياده و منهجا فرارا من المسؤليه و الاجتهاد، لا بغضا للحق فى ذاته أو جهلا به، بينما نفسه تظل تتطلع إلى الخلاص من العذاب و الفوز بالجنه، و هكذا تراه يلجأ إلى التمنيات و الظنون. من هنا يستنكر عليهم السياق ذلك الطمع الزائف فيقول:

أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ

ص: ٣٧٨

١- ١) تفسير البصائر/ ج ٤٩- ص ١٢٤.

٢- ٢) هكذا فى مجمع البيان، و إليه ذهب الفخر الرازى و علامه الطباطبائى و صاحب تفسير فتح القدير للشوكانى.

و للآيه إحياء بأن ذلك الذى رفض دخول الجنة بالصد عن طريقها و بابها من أين يدخلها؟ و هل ينتظر أحدا يأتى ليدخله فيها و هو لا- يريد؟ كلاً إنه لا يكون فلا يدخل الجنة أحد من غير بابها، و من دون أن يسعى إليها سعيها، و ما يحمل جناح التمنى و الطمع صاحبه إلا إلى النار و التهلكه. و قال ربنا:

«يدخل» مبتيًّا للمجهول لبيان أن صاحب التمنيات لا يسعى بنفسه، إنما يترقب نجاته من غيره، و ليس يفعل ذلك أحد، فأما الله و الأولياء فهم أعداؤه، و أما الأنداد فإنهم لا يملكون نفعاً و لا ضراً.

ثم إن الإنسان حينما يتفكر فى الخليقه من حوله، بل فى خلق نفسه، يصل إلى حقيقه مهمه تنفى له التمنيات و الأطماع من أساسها، و أنها لا تدخل أحدا إلى جنة النعيم، لأنه أينما نظر و تفكر لن يجد شيئاً يدور فى الفراغ، بلا قانون أو سنه، و من ذلك نفسه.

إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ إشاره إلى خلقه الإنسان الماديه (العناصر التى يتكون منها) و المعنويه (الأطوار و القوانين و السنن). و فكره أخرى تفسر العلاقه بين نفس القرآن للتمنيات و بين إشارته إلى خلقه الناس و هى أن فى الإنسان جانبين لا بد أن يتكاملا: الجسد و الروح، و هو لا- يملك فى تكامل جسمه شيئاً كثيراً، فمن نطفه يصير علقه فمضغه حتى يولد طفلاً فيشَبّ و يشيخ ثم يموت، بينما يعتمد تكامل روحه على إرادته و سعيه، و الجنة جزاء إحرازه للتكامل فى هذا الجانب، و لن يدخلها بمجرد الطمع و التمنيات.

و بصيره ثلثه: أن الكافرين إنما تركوا الإيمان و السعى للطمع و التمنى بسبب

كفرهم بالآخرة، حيث قالوا: كيف نعود أحياء بعد أن نصير تراباً؟ فذكّرهم الله بأصل خلقتهم (التراب) لبيان أنّه تعالى قادر على إعادتهم بشراً أسوياء بعد أن يصيروا تراباً. ولعلّ الآيه تقرير بأنّ جذر ذلك التمني والكفر راجع إلى طبيعه الإنسان الترابيه و جانب الظلام في وجوده.

[٤٠-٤١] و يعالج الله موقف الكفّار من وعده و عذابه الواقع بالردّ على تحديهم للحق و سؤالهم عن العذاب، و ذلك من خلال تذكيره بحقيقتين:

الأولى: طبيعتي الجهل و الضعف عند الإنسان، و اللتان تجعلان تحديه في غير محلّه، فإنّه لو اطّلع على عذاب ربه و عرف قدر خالقه لما ساقه الكفر و التحدى.

و ما عسى أن يكون و هو المخلوق الضعيف حتى يتحدى خالقه، و يسأله إنزال عذابه عليه تكذيباً و هزواً؟! و إلى هذه الحقيقه تشير الآيه (٣٩).

الثانيه: قدره الله المطلقة و حكمته النافذه، فهو قادر لو أراد أن يهلك الكفّار و يمحوهم من الوجود، و لكنّه حكيم لا يفعل ذلك.. و من تحسّس هاتين الصفتين لله ينبغي الإيمان بالآخرة و خشيه العذاب.

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ \* عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ و أول سؤال يفرض نفسه:

ماذا تعنى المشارق و المغارب؟ يجب الإمام أمير المؤمنين على-عليه السلام- عن ذلك عند ما وجّه ابن الكوّا تهمة التناقض إلى القرآن، فقال له-عليه السلام-: ثكلتك أمك يا ابن الكوّا! هذا المشرق و هذا المغرب (مشيرا بيده إلى الجهتين)، و أمّا قوله: «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ» فإنّ مشرق الشتاء على حده و مشرق الصيف على حده، أمّا تعرف بذلك من قرب الشمس و بعدها؟! و أمّا قوله: بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ فَإِنَّ لَهَا ثَلَاثَمِائَةَ وَ سِتِينَ

برجا، تطلع كل يوم من برج، و تغيب في آخر، فلا تعود إليه إلا من قابل في ذلك اليوم (١).

و عن ابن عباس قال: «للمشمس كل يوم مطلع تطلع فيه، و مغرب تغرب فيه، غير مطلعها و غير مغربها بالأمس» (٢).

و العلاقة واضحة بين إشاره الله إلى آية المشارق و المغارب الكونية، و بين تأكيده على أنه قادر على التبديل، ذلك أن تبدل المشارق و المغارب اليومي - هذه الحركة الكونية - آية من آيات قدرته تعالى على التبديل، و أن الخلق و الأمر إليه؛ بحيث لو أراد الرد على تحدى الكفار بإنزال عذابه لفعل فأهلكهم، و أتى بغيرهم خيرا منهم، لا يعجزه شيء أبدا.

و السؤال الثانى: لماذا قال ربنا: «خيرا منهم»؟ لعل الجواب: أن سنه هلاك الأمم الغابرة قائمه على أساس أن الأمم الناشئة البديله تكون أفضل لقربها من فطره الخلق، و عدم تلوثها بعوامل الفساد و الزيف. لقد أهلك الله قوم نوح، و طهرت الأرض جميعا من فسادهم و زيفهم، و أنشأ من بعدهم قوما صالحين (هم ذرية الناجين فى السفينه)، ثم أهلك فرعون و قومه و استعمر بلادهم بنو إسرائيل، و كانوا أمه مؤمنه.. و هكذا لا يكون خلق الله إلا صالحا، كما قال ربنا سبحانه: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ أَى لَا يَسْبِقُنَا شَيْءٌ، و لا يعجزنا أحد، و لم نمارس فى أمر الخلق لغوبا و لا

ص: ٣٨١

١- ١) الإحتجاج/ ج ٢- ص ٢٥٩.

٢- ٢) الدر المنثور/ ج ٦- ص ٢٦٧.

علاجاً، ولا تعلمنا تجربته من أحد أو احتجنا إلى شريك أو معين، سبحانه الله..

وإنما تقتضى حكمته الإمهال. قال شيخ الطائفة مشيراً إلى هذا المقطع من الآية:

وقوله: «الآية» عطف على جواب القسم، ومعناه أن هؤلاء الكفار لا يفوتون بأن يتقدموا على وجه يمنع من إلحاق العذاب بهم، فلم يكونوا سابقين، ولا العقاب مسبوقة منهم، والتقدير: وما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إياهم (١). ويستشف من الكلمه معنى الغلبه لأن من دخل السباق و سبق فهو مغلوب، وتعالى الله أن يغلبه أحد و هو القادر على كل شىء (٢).

و فى الآية نبيدل خيراً منهم اختلاف فى كيفية الإبدال، فقيل: بالإهلاك و ذلك بأن يهلكهم الله و يخلق غيرهم، وقيل: بأنه تعالى يبدل الرسول عنهم - وهم المكذبون المهطعون عن اليمين و عن الشمال عزيزين رافضين لرسالته - يبدلهم بآخرين قبله يطيعونه و يصدقون بدعوته. و الاثنان صحيحان.

ثم يشير تعالى إلى حقيقه أساسيه و هى: أن الدنيا و إن كانت تتجلى فيها سنه الجزاء إلا أنه ليس ضرورياً أن يجازى الله فيها كل أحد، و السبب أنها دار الابتلاء، أما دار الجزاء فهى الآخرة، و إنهم - أى الكفار - لن يفوتوه، بل سيلاقون جزاءهم يوم القيامة.

فَذَرُّهُمْ فِي الدُّنْيَا.

يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا

ص: ٣٨٢

---

١ - ١) التبيان ج ١٠ - ص ١٢٩.

٢ - ٢) لقد مرّ بيانه فى سورة النجم و مواضع أخرى لمعنى (لا أقسم) فراجع.



فيذهبوا بكلّ خلاقهم، و يتمادوا في الذنوب حتى يأتوا في الآخرة لا خلاق لهم، وقد فعلوا ما يستحقّون به المزيد من العقاب و العذاب، فإنّ فرصتهم أنّى بدت طويله فهي محدوده بالدنيا.

□ □  
حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يعني يوم الجزاء عند ما يلاقون الإذلال و العذاب. و من مصاديقه يوم يتوفّاهم الله. أ و ليس إذا مات ابن آدم قامت قيامته؟ أ و ليس الموت يضع حدًا لخوضهم و لعبهم؟ و أصل الخوض دخول الماء، يقال: خاض بالفرس إذا أورده الماء، و الغمرات اقتحمها، و كذا المهالك (1)، و لعلّه الدخول في الشيء بالكامل، و خوض الكافرين هو دخولهم في الذنوب و اتباعهم الأهواء و الشهوات مسترسلين بلا ضوابط أو حدود.

و اللعب كل ما يقدم عليه الإنسان بأهداف شهوانيه تافهه. و قول الله تعالى:

«فذرهم» هو تحديد لموقف الرسول و من يتبعه تجاه الفريق المذكور من الكافرين، و لا يعني ذلك أن يعتزل الرساليون ساحه الجهاد و العمل في سبيل الله، بلى. إنّهم من الناحيه الدينيه العقائديه ليسوا مسئولين عن دعوتهم لقبول الحق و الإيمان بالآخرة عن طريق الجبر، بل يتركونهم فالخيار لهم، كما لا ينبغي أن يذهبوا أنفسهم حسرات على عدم إيمانهم و اختيارهم طريق النار. هذا من جانب، و من جانب آخر يجب أن لا تدعوهم تحديات الأعداء و استفزازاتهم إلى التعجّل بردّات الفعل غير المدروسه، و إنّما يجب أن يصبروا صبرا جميلا، في الوقت الذي يواصلون فيه مسيره الجهاد، حسبما يوحى إليه السياق العام لهذه السوره الكريمه.

ص: ٢٨٣

[٤٣-٤٤] وبيّن القرآن صفات اليوم الذى يوعد الكافرون و أعداء الله، مصوّراً مشاهد منه، تبعث فى القلوب رهبة و تدعوا الإنسان إلى التفكير فى اتقاء سوء عذابه.

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاعاً بِإِذَارَةِ اللَّهِ، فإذا بجسد الإنسان تتصل به روحه، و يصير بشرا سوياً واعيا فى ساعات معدوده، «سراعا» بحيث لا يحتاج الأمر أن يمرّ كل واحد بمراحل خلقه الاولى.. نطفه فعلقه فمضغه.. الخ. و الحدث هو القبر. و إنّ الكافرين الذين تنكبوا عن الصراط و رفضوا دعوه الله عن طريق رسله فى الدنيا لا يملكون يومئذ حيله و لا قدره للصدّ عن دعوه الحق، بل يجيئون دعوه الداعى مسرعين.

كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُوفُضُونَ أَى يَعدون و يسرعون. و للنصب معان:

الأول: العلامات، فكلّ ما نصب و جعل علما و علامه فهو «نصب» و ما أشبه إسراعهم يومئذ بإسراع الضائع فى الصحراء حينما يقع بصره على العلامات الهاديه إلى الطريق! الثانى: الأصنام، جاء فى المنجد: الأنصاب حجاره كانت حول الكعبه تنصب فيهلّ عليها و يذبح لغير الله (١)، قال تعالى: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢).

ص: ٣٨٤

١- (١) المصدر/ماده نصب.

٢- (٢) المائده ٩٠.

قال صاحب التبيان: شبَّههم في إسراعهم من قبورهم إلى أرض المحشر بمن نصب له علم أو صنم يستبقون إليه (١)، و قال الفخر الرازي مثله: كما كانوا يستبقون أنصابهم (٢).

الثالث: قصب السبق الذي ينصب حدًا لميدان السباق أو علامه لمعرفة السابق من المسبوق، و كأنَّ أهل النار يومئذ يسرعون سرعه المتسابق الذي يسعى للوصول قبل غيره من المنافسين.

خاشعَةً أَبْصَارُهُمْ فَاَلْمَوْقِفَ مَنعَكْسَ عَلَيْهِم مِّنَ النَّاحِيَةِ الْمَادِيَةِ حَيْثُ يَعلوهم الوجوم، و لا يَرتدُّ إِلَيْهِم الطرف، و تَرجف أطرافهم من شدَّة الموقف.. و من النَّاحِيَةِ المعنويَّة أيضًا حَيْثُ يَشمَلهم الصغار و الذل.

تَزْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ

ص: ٣٨٥

---

١-١) التبيان/ج ١٠-ص ١٢٩.

٢-٢) التفسير الكبير/ج ٣٠-ص ١٣٣.



سوره نوح

اشاره

ص: ۳۸۷





فى الوقت الذى تبين هذه الآيات من السوره الملامح العامه لرساله نوح عليه السلام و من خلالها للرسالات الالهيه جميعا(الآيات ٤/١) كما تشير الى قصته مع قومه و التى انتهت بهلاكهم غرقا بالطوفان(الآيات ٢٨/٥)، فإن محورها الأساسى كما يبدو ليس ذلك و انما هو التركيز على أن نوحا-عليه السلام-ضرب مثلا رائعا للمعاناه فى سبيل الله، و الاستقامه على نهج الرساله رغم التحديات الخطيره المتماديه، حيث بقى-سلام الله عليه- أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا (١) يكابد مراره نفور قومه الذين أصروا على الباطل، و استكبروا عن الحق، و مكروا مكرا كبارا، لا ينثنى عن أهدافه، و لا يتراجع عن نهجه، و تلك الاستقامه درس عظيم لنا، لأنها كانت من الثوابت التى لا تقبل التغيير..بلى. كان يغير من أساليبه فمره يدعو جهارا، و أخرى إعلانا، و ثالثه إسرارا، لا يدخله ادنى شك فى الحق الذى بين يديه بسبب تكذيب قومه، و البشريه يومئذ معارضه لدعوته، و لا

ص: ٣٩٠



بسبب تأخر نصر الله عنه، وانما كان على عكس قومه تماما، يزداد مضيئا على الحق، و تسليما لأمر ربه، و يقينا بنصره.

إن العناد المقدس الذى اتصف به نوح عليه السلام جعله رمز الرسالين (دعاه و قاده) عبر التاريخ، و من ثم واحدا من أولى العزم من الرسل، و أى عزم ذاك الذى واجه به عناد البشريه كلها.. فله درك يا شيخ المرسلين! و لعمري انك لايه العزم و الاستقامه!

ص: ٣٩١



## [سورة نوح (٧١): الآيات ١ إلى ٢٨]

## إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (٣) يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا بِآيَاتِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقْكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أُنْتَبِخَ مِنْ الْأَرْضِ لِبَنَاتٍ (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالًا وَوَلَدًا وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْفًا وَلَا بَالًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبْرًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَا إِلَّا سَمَاءٌ مَاءٌ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْفًا وَلَا بَالًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطَبُوا تَبَعًا فَذُخِرُوا فَصُبُّوا غُرُقًا فَأَزَلُّوا أَنْ يَرْجِعُوا وَكَانُوا يُعْرِضُونَ (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي وَالْأَرْضَ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ دَارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظْلِمُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)

## اللغة

٢٣[وَدَا]: صنم اتخذته قضاة فعبدوه بدومه الجنادل، ثم توارثوه حتى صار الى كلب حتى جاء الإسلام و هو عندهم، قال الواقدي: كان ودًا على صورة رجل.

[سواعا]: كان صنمًا لآل ذى الكلاع، وقيل: هو صنم لهذيل برهاط، و قال الواقدي: ان سواعا على صورة امرأه.

[يغوث]: كان يعبده بطنان من طي، فذهبوا الى مراد فعبدوه زمانا، ثم ان بنى ناجيه أرادوا أن ينزعوه منهم ففروا به الى بنى الحرث بن كعب، وقيل: إن يغوث كان لبنى غطيف من مراد، و قال الواقدي: كان يغوث على صورة أسد.

ص: ٣٩٤

[يعوق]: صنم لكهلان ثم توارثوه حتى صار إلى همدان و قال الواقدي: انه على صورته فرس.

[نسرا]: صنم لخنعم، وقيل لآل ذى الكلاع من حمير، و عن الواقدي: أنه على صورته نسر من الطير.

٢٦[ديارا]: ديار من فيعال، من الدوران، و نحوه القيام، و الأصل: قيوام و ديوار، فقلبت الواو ياء، و أدغمت إحداهما فى الأخرى، قال الزجاج: يقال: ما بالدار ديار: أى ما بها أحد يدور فى الأرض، و قال الراغب: أنه الساكن.

ص: ٣٩٥

بينات من الآيات:

[١] ان اتباع الحق ضروره حياتيه ليس فى الأفق المعنوى (الروحى و العلمى) و حسب، و إنما فى الواقع المادى أيضا، و هذه الحقيقه أعظم تجليا فى حياه المجتمع منها فى حياه الفرد، و الذى يستقرئ تاريخ البشرىه يجد شواهدا ماثله فى الأمم الغابره، و هكذا حينما ينظر الى الحياه من حوله.

و حيث تسير البشرىه بأقدام الضلال و الفساد الى هاويه العذاب الأليم و نهايه الهلاك بين الحين و الآخر يعطف الرب عليها بلطفه و رحمته فيبعث الأنبياء برسالاته لإنقاذها قبل أن تحين ساعه الصفر، و ذلك من أظهر آيات رحمته، و التى تتجلى فى الرسالات و الرسل الذين هم قمه الرحمه الإلهيه للناس.

و لقد انحرف قوم نوح عليه السلام و كان الخط البيانى لمسيرتهم يتجه نحو الموت الجماعى، و لكن الله الرحمن الرحيم ابى إلا أن يرسل إليهم رسولا منهم رآفه بهم،

و إقامه للحجه عليهم، و إمضاء لسنته في خلقه، إذ ما كان الله معذباً قوما حتى يعث فيهم رسولا، و على هذا الأساس و لهذه الأهداف جاء نوح يحمل رساله الإنذار الى قومه.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ و قومه يومئذ كل البشر الذين عددهم على بعض الأقوال (٧٠٠) ألفاً، و نهتدى الى ذلك من طبيعه العذاب إذ عم الأرض كلها طوفانه، و

في الحديث عن الامام الباقر عليه السلام قال: «كان بين آدم و نوح عشره آباء كلهم أنبياء، و إن الأنبياء بعثوا خاصه و عامه، فأما نوح فانه أرسل الى من في الأرض بنبوه عامه، و رساله عامه» (١). و في الأخبار ان اسمه ليس «نوحا» (٢)، بل «سكن» عن الامام على عليه السلام (٣) و قيل

«عبد الأعلى و عبد الملك» عن الإمام الصادق (٤)

«و انما سمى نوحا لأنه ناح على قومه ألف سنه إلا خمسين عاما» (٥) كما قال أمير المؤمنين عليه السلام للشامى، و

في معانى الاخبار: «معنى نوح أنه كان ينوح على نفسه، و بكى خمسمائه عام، و نحى نفسه عما كان فيه قومه من الضلال» (٦) و

قال الصادق عليه السلام عن النبى: «عاش نوح ألفى سنه و أربعمائه و خمسين سنه» (٧) و

عنه قال:

«كانت أعمار قوم نوح ثلاثمائه سنه، ثلاثمائه سنه» (٨)

ص: ٣٩٧

١- ١) نور الثقلين ج ٥ ص ٤٢١ نقلا عن كمال الدين و تمام النعمه

٢- ٢) راجع موسوعه بحار الأنوار ج ١١ ص ٢٨٦/٢٨٧

٣- ٣) المصدر ص ٢٨٦

٤- ٤) المصدر ص ٢٨٧

٥- ٥) المصدر ص ٢٨٦

٦- ٦) المصدر ص ٢٨٧

٧- ٧) المصدر ص ٢٩٠

٨- ٨) المصدر ص ٢٨٩

و الآيه تشير الى ان الأمم تسير عبر دوره حضاريه،ففى البدء يكونون على فطره الإيمان و الاستقامه ثم ينحرفون،و عند منعطف خطير من حياتهم و بالضبط عند الانحدار القاتل يبعث الرسل و المصلحون لكي يوقفوا مسيره السقوط،و لذلك يبدأ الأنبياء فى الغالب بالإنذار باعتبارهم يرسلون الى قوم ضلوا و انحرفوا ليحذرونها مغبه استمرارهم فى الضلال.

أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ لَأَنَّ الْعَذَابَ لَا يَأْتِي مِنَ الْفَرَاغِ، بل هو سنّه إلهيه و قانون تكوينى له أسبابه و مبرراته التى يستطيع الإنسان بإزالتها تلافيه و النجاه منه،و لهذا فان الاستجابة للإنذار تنفع ما دام العذاب لم يحن أجله، حيث الفرصه لا تزال قائمه،يمكن فيها الإصلاح و التغيير.

و معرفتنا بخلفيات انبعاث الرسل فى الأمم المختلفه و أهدافهم..و بالذات انهم ينهضون للتغيير و يتصدون لقياده الإصلاح حينما تتردى أوضاع المجتمعات و تسير الى العذاب إن ذلك يحملنا بالتأكيد مسئوليه التصدى للتغيير إذا كنا نريد اتباع الأنبياء و مواصلة مسيرتهم،و إذا كنا نريد للناس الخير و الصلاح.بلى.ان النبوه سمه غيبية يختص بها الله من يشاء من عباده،و لكن الرساله أمانه و مسئوليه يمكن لأى إنسان ان يرتفع الى مستوى حملها و التصدى لها،فيكون قائدا رساليا بالتزام الحق،و اتباع النهج الإلهى الذى مشى على هداة الأنبياء و الرسل عليهم السلام.

[٢-٤] إن أحدا لا يستطيع أن يدعى العصمه،أو حضور جبرئيل عنده،و لا حتى بلوغ درجه الأنبياء،و لكن يستطيع أن يحمل رساله الله الى قومه،إذن فللرساله وجهان:وجه خاص يتفرد به من اصطفاهم لوحيه مباشره،و وجه عام يتسع لاتباعهم و السائرين على نهجهم و خطاهم،فما هو نهج الأنبياء فى ضلوعهم



بدورهم الخطير؟ إن حديث القرآن في هذه السوره يبين لنا الخطوط العامه للنهج الذى تلتقى عليه كل الرسالات و الزعامات الإلهيه، و ذلك بعرض قصه نوح عليه السلام.

اولا:التصدى لقياده التغيير:

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ان نوحا لم ينظر للأوضاع نظره لا- أبائيه- كما هو شأن الكثير من الناس الذين لا يهتمهم سوى أنفسهم و مصالحهم-إنما تحسس الانحراف بكل أبعاده (الاجتماعيه، و السياسيه، و الاقتصاديه، و الاخلاقيه) و لم ينتظر من الأقدار ان تغير أحوال الناس، و لم يلق بالمسؤوليه على غيره، بل كان متيقنا بأن الواقع رهن إرادته الإنسان ذاته، و لا يتغير سلبا أو إيجابا إلا تبعا لتغييره ما بنفسه، فبدأ بتغيير ذاته و انطلق منها لإصلاح المجتمع، متحملا- من أجل ذلك كامل المسؤوليه، و متحديا كل العقبات و الضغوط مع إصرار على إبلاغ رساله، و الاستقامه فى طريق ذات الشوكه.

و من هنا طرح نفسه كقائد و رمز للتغيير، و قبلها بالعمل الدؤوب المبرمج، و المخلص لوجه الله. اعتقادا منه بأن القياده أمانه و مسئوليته قبل ان تكون منصبا و شهره، و عملا- و تحديا، فكان أول طريقه مصارحه المجتمع بالحقيقه، و توجيهه الى وجود الانحراف، باعتبار أن وضع اليد على الداء، و القناعه بأصل الخطأ أول خطوه فى طريق الإصلاح، فإن الأئمه التى يأخذها الغرور، و لا تنتهج النقد الذاتى تبقى إلى الأبد فى انحرافها و أخطائها و تخلفها.

و لم يكن نوح عند ما طرح نفسه جاهلا بمدى التحديات التى سيواجهها، و لكنه

ص: ٣٩٩

تحمل ذلك استجابته للمسئولية الإلهية، إذ أمره الله بإنذار قومه، و إذ يدعو ضميره الى القيام بذلك الدور الحضارى الهام، و حيث نهض ينذر قومه اعتماد الأسلوب الواضح و البليغ، إيماناً منه بأن حقانيه الدعوه وحدها لا تكفى بل لا بد حتى يستجيب الناس لها ان يكون الإنذار بها بيناً، يمتاز به الحق عن الباطل و تقوم الحجة، و قد اعطى ذلك بصيره واضحاً لمن قد يطلع على عاقبه قومه بان عدم استجابتهم لم يكن بسبب الغموض فى البيان، و من ثم فإنهم لا يستحقون ما حل بساحتهم من العذاب.

و من تكرار كلمه القوم ثلاث مرات فى هاتين الآيتين الى قومه، انذر قومك، يا قوم» نهتدى الى فكره مهمه و هى: أن الإنسان الفرد مسئول عن قومه و مجتمعه، كما أنهم مسئولون عنه، و لا- يجوز لأحد أن يعيش فرداً لا- يبالي بغيره، و أنّ الفرد قادر على الخروج عن سياق المجتمع الفاسد و تحدى الانحراف، و أنّ نوحاً بوقفته الرساليه الشجاعه لآيه على بطلان حتميه التوافق الاجتماعى.

ثانياً: تشخيص أسس الواقع المنحرف و طرح البدائل الصالحة:

أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ وَ بِهذه الجملة حدد نوح عليه السلام معالم النظام القائم و النظام البديل معا (ثقافياً و اجتماعياً و سياسياً) فإن الآيه تهدينا الى البصائر التاليه: الاولى: الى انحراف المجتمع (كفراً و شركاً و فساداً) و مشكله الإنسان (فرداً و مجتمعاً) ليست الجهل بالخالق من الأساس، بل هى فى الدرجه الأولى عدم الخضوع لإرادته، و تلقى القيم من لدنه، و لقد كان مجتمع النبى نوح عليه السلام متورطاً بالفعل فى الوثنيه و الشرك بتصريح الآيه الكريمه: <sup>□</sup> وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لَا تَذَرُنَّ وَدًّا <sup>□</sup> وَ لَا سُوَاعًا وَ لَا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا وَ مَا أَكْثَرَ مَا يُوْدَى اليه الانحراف المبدئى عن عباده الله و التوحيد من تعويق

لمسيره الإنسان نحو الرقى و التحضر الحقيقى، و من ضلال كبير فى الحياه و بالذات فى جانبها الروحى و الاخلاقى و الثقافى، مما يجعله عاجزاً عن الوصول الى أهدافه و طموحاته الحقيقيه التى لا يبلغها أحد إلا بعباده ربه. الثانيه: ان المجتمع يومئذ لم يكن ضالاً عن المبادئ الأوليه و حسب، بل كان بعيداً عن ربه حتى فى التفاصيل العمليه لمفردات الحياه، إذ لم يكن يخشى الله و يتقيه، و ذلك يعنى انفلاته من كل الضوابط، و استرساله مع الهوى، حيث أن ضمانه الالتزام بالقيم الانسانيه و الدينيه على السواء مرهونه بمدى التقوى عند الفرد و المجتمع.

كما تكشف لنا الكلمه الأخيره وَ أَطِيعُونَ عن وجود الفساد فى النظام السياسى و من ثم الاجتماعى، باعتبار أن النظام السياسى إطار للنظام الاجتماعى و سائر النظم، و المتدبر موضوعياً فيما ورد عن قوم نوح من آيات القرآن يجد فيها بيانا واضحاً لطبيعته القياده السياسيه و الاجتماعيه، و التى ترمز بدورها الى الانحراف المبدئى و العملى، فهى لم تكن قائمه على أساس الكفاءه، إنما على أساس الأموال و الأتباع، الأمر الذى قسم المجتمع الى طبقتين: الأولى: طبقه المترفين الحاكمين، و الأخرى: طبقه المعدمين (الأراذل بتعبير المترفين) و لا ريب أن القياده فى أى مجتمع رمز لقيمه الواقعيه، و من المعالم الاساسيه لمسيرته.

و حيث رأى نوح-عليه السلام-الوضع المتخلف و الفاسد عقد العزم على تغييره، فجعل خطوته الأولى تشخيص العوامل الأساسيه للانحراف باعتباره المصلح و بيانها للناس، و واضح للمتدبر، أنه لم تخذعه المظاهر و النتائج، إنما توجه الى الجذور الأوليه، لأن علاجها هو النهج السليم لعلاج الأعراض و الظواهر التى لا تعدو كونها مجرد نتائج لها، و هذه من أهم خصائص الحركات الرساليه.

و مع أننا نقرأ فى الآيه معالم الوضع القائم إلا أن الظاهر منها هو الإشاره الى

البدائل الحضارية الثلاثة أَعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُوا مِمَّا يُؤَكِّد ان التفكير فى البدائل من قبل المصلحين لا يقل أهمية عن التفكير فى جذور التخلف، بل إنه الأهم، إذ كيف يعرف الناس أن المسيره تكون الى الأمام بعد هدم الواقع إذا لم تكن البدائل مطروحة بوضوح كاف؟ ولقد جسّد نوح عليه السلام هذه القيمه فى حركته فأكد: ان تحكيم القانون الالهى (بعباده الله) و الذى لا يتم إلا- (بالتقوى) و تطبيق تفاصيل النظام الاجتماعى من جهه، و الطاعه للقياده الرساليه من جهه أخرى هو البديل القويم للوضع الفاسد، و من ثم السير بالمجتمع نحو الحياه الأفضل.

و نستطيع القول: أن عباده الله بديل للأصول المنحرفه، و التقوى بديل للفروع الخاطئه، و الطاعه للقياده الرساليه من أجل إصلاح الممارسات اليوميه السلبيه، و بالتعبير القانونى الحديث تمثل عباده الله الدستور (الخطط الاصوليه العامه) و تمثل التقوى القانون (مجموعه القوانين الاقتصاديه و الاجتماعيه و السياسيه و.. و..)، و تمثل الطاعه للقياده اللوائح (مفردات الأمور و التطورات) و من هنا قال بعض المفسرين: و فى الآيه نذب الى أصول الدين الثلاثة: التوحيد المشار اليه بقوله:

□  
«اعْبُدُوا اللَّهَ» و المعاد الذى هو أساس التقوى، و التصديق بالنبوه المشار اليه بالدعوه الى الطاعه المطلقه (1).

و فى قول نوح- عليه السلام-: وَ أَطِيعُوا دَلَالَهُ و اضحه و اكيدته على ضروره بل و جوب أن يطرح القائد المصلح نفسه بديلا للقياده المنحرفه، لأنه ما دام قادرا على تخليص المجتمع من بليته فهو مسئول عن النهوض بمهمته و دوره، و فى الإسلام تفريق بين حب الرئاسة الذى يبغضه الله، و طموح الإمامه الذى يندب اليه

ص: ٤٠٢

و يفرضه على أهل الكفاءة (١).

ثالثاً: التأكيد على المعطيات:

و هذا من الأصول في كلّ دعوته، أن يبين الداعية المعطيات التي تنبثق عن اتباع دعوته، و لا ينبغي للرساليين الغفلة عن ذلك، لأنه يساهم بصوره إيجابيه فعالة في دفع المجتمع للالتزام بالمنهج المطروح، و خلق ديناميكيه التطبيق في نفوس أفرادهم، و لعل ذلك من دواعي تفصيل القرآن في التشويق الى الجنه كنتيجه للعمل بالحق و التخويف بالنار كعاقبه لا تباع الباطل، و بذات المنهج و المنطق حدث نوح قومه:

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ هَذَانِ الْمَعْطِيَانِ أَهْمُ مَا تَحْتَاجُهُ الْأُمَّمُ وَ الْمَجْتَمَعَاتُ الَّتِي تَتَّجِعُ نَحْوَ الْهَلَاكِ وَ النِّهَايَةِ حَضَارِيًّا وَ مَادِيًّا، ذَلِكَ أَنَّ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الَّذِي يَحِلُّ بِالْأَقْوَامِ لَيْسَ الْاَنْتِيْجَةُ لِلذُّنُوبِ وَ الْاِنْحِرَافَاتِ الَّتِي يَتَوَرَّطُونَ فِيهَا، فَتَكُونُ سَبَبًا فِي هَلَاكِهِمْ، وَ السُّؤَالُ: لِمَاذَا قَالَ اللَّهُ: مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ لَيْسَ ذُنُوبِكُمْ، مَعَ أَنَّ مِنْ تَفْيِيدِ التَّبَعِيضِ؟ لَعَلَّ ذَلِكَ لِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

الأول: أن مجرد العباده و التقوى و الطاعه للرسول لا تجبّ عن الإنسان كل ذنوبه، لأن منها ما هو متعلق بحقوق الناس، فلا تغفر إلا بإرضائهم و أدائها، و منها ما لا يغفر الا بالعمل الصالح بعد الايمان، بلى. إن (العباده و التقوى و الطاعه) تسبب غفران الله لأهم الذنوب، أى التي تؤدى الى الهلاك، و هى بعض ذنوب الناس و ليس كلها.

ص: ٤٠٣

---

١- ١) لقد مر الكلام فى سورة الفرقان بهذا الشأن عند قول الله وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا فراجع

الثانى: أنه تعالى لا يريد أن يعطى أحدا صكَّ الأمان المطلق حتى لا يغتر بإيمانه و عمله، إنما يوازن فيه الخوف إذ من الممكن انه لم يغفرها، و الرجاء بما غفر له، و يعبر القرآن عن هذه المنهجية الالهيه بصورة أخرى مثل: لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ و التى تفيد الترجي لا القطع.

الثالث: و إذا فسرنا الغفران بأنه محو الآثار السلبية للذنوب، فانه يمكننا القول:

بأن لبعض الذنوب آثارا واقعية لا تتمحى بمجرد الإيمان، بل يمحو الله ما يترتب عليها من الآثار الأخرويه و بعض الآثار الدنيويه السيئه.

و قيل المعنى: يغفر لكم ذنوبكم السالفه، و هى بعض الذنوب التى تضاف إليهم، فلما كانت ذنوبهم التى يستأنفونها لا يجوز الوعد بغفرانها مطلقا، لما فى ذلك من الإغراء بالقبيح. (1)

و لأن الأجل الذى ينتظر قوم نوح مترتب على منهجهم الخاطئ فى الحياه، و بالتالى ذنوبهم الفظيحه، فان عدولهم الى المنهج الرسالى سوف يجنبهم الأخطاء، و من ثم يؤخر أجلهم الى مدته الطبيعیه أو أكثر و هذا من أعظم الأهداف التى ينشدها الأنبياء باعتبارهم يأتون منقذين.

و من قوله تعالى: وَ يُؤَخِّرُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَيَّمٍ نَهتدى الى ان للإنسان (فردا أو أمه) اجلين: أجل حتمى و آخر معلق، فاما الحتمى فهو الأجل الاعتيادى الذى يوفيه كل فرد فرد عند انتهاء مدته المقدره له بالموت بعد ستين سنه، أو سبعين أو أقل أو أكثر، و أما المعلق فهو الأجل الذى يكتب للمجتمعات بسبب من الأسباب سلبا بتقصير الأجل المسمى نتيجة الذنوب، و إيجابا بمدّه و إطالته نتيجة الأعمال الصالحه

جاء فى الحديث عن الصادق عليه السلام فى تفسير قوله: «ثم قضى أجلا و أجل

ص: ٤٠٤

مسمّى عنده...» قال: «الأجل الذى غير مسمّى موقوف، يقدم منه ما شاء، و يؤخر منه ما شاء، و أمّا الأجل المسمّى فهو الذى ينزل مما يريد أن يكون من ليله القدر..» (١).

و

عنه-عليه السلام- أنه قال: «الأجل المقضى هو المحتوم الذى قضاه الله و حتمه، و المسمّى هو الذى فيه البداء، يقدم ما يشاء، و يؤخر ما يشاء، و المحتوم ليس فيه تقديم و لا تأخير» ٢.

و الذى يظهر من الآيه الاولى و الرابعه: أنّ قوم نوح حينما ضلوا و كفروا قدر لهم الهلاك السلبى، و ثمه التقاء بين الأجلين هو أنهما حينما يأتیان لا يمكن دفعهما بشيء أبداً إلا أن يصلح الناس أمرهم من قبل ان يأتیهم العذاب.

إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ و يؤكد الله هذه الحقيقه لأن الإيمان بها يزرع الخشيه فى النفس، و يدفع الإنسان إلى المزيد من الجد و العزم و استغلال الفرصه.

[٥-٧] تلك كانت رساله شيخ المرسلين-عليه السلام- التى تصدى لإبلاغها، و أعمل كل جهده و صبره و حكمته لكى يؤمن قومه بها، و لكنهم رفضوه و رفضوها إصراراً على اتباع المستكبرين، و على ضلالات الشرك، بالرغم من أنهم و هم يسيرون الى الهلاك أحوج ما يكونون إليه و إليها.

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا وَ هَذِهِ مِنْ صِفَاتِ الْمُجَاهِدِينَ الرَّسَالِيِّينَ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ وَقْتًا مَخْصُوصًا يَحْصُرُونَ فِيهِ

ص: ٤٠٥

دعوتهم و جهادهم، إنما يسخرون كل طاقاتهم، و يصرفون كل أوقاتهم من أجل رسالتهم و أهدافهم، يدفعهم إلى ذلك أمران مهمّان: أحدهما: الرغبة في ثواب الله و خشية عقابه، و الآخر: إحساسهم بعظمه أهدافهم و تطلعاتهم، و أن بلوغها لا يمكن إلا بالجد و الاجتهاد و المزيد من السعي، إذ الأهداف كبيره و الإمكانيات محدوده، فلا بدّ من سد النقص الكمي في العدد و العده بالكيف، الأمر الذي لا يجعل حتى ليهم - كما يتصور البعض - وقت راحه و استرخاء، فإنهم إن لم يشتغلوا فيه بدعوه الناس و الأدوار الاجتماعيه المباشره، فسيجعلونه فرصه للتفكير في شأن رسالتهم و مسؤولياتهم، و الاتصال بربهم تعرّضا لنفحاته و مرضاته، و تلقيا لإرادته العمل الدؤوب في سبيله، و تزودا بالإيمان و روح التسليم.

و لكن جهود نوح ما كانت تنفع قومه لأن بينهم و بين دعوته حجابا سميكة من الإصرار و التحدى الأعمى للحق، بل كانت تزيدهم فرارا منه، و بعدا عن الحق، و هذه من خصائص الصراع بين الحق و الباطل، انه كلما صعّدت جبهه الحق من تحركها و نضالها ازدادت جبهه الباطل في عنجيتها و عنادها.

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا و قد احتار المفسرون بسؤالهم: كيف يعقل أن تكون دعوه نوح سببا لفرار قومه من الحق؟ إلا- أن المسأله طبيعيه و قد أكدنا في مواضع من تفسيرنا على القول بأن في داخل الإنسان ضميرا يدعوه الى الحق (فطرته و نفسه اللوامة و عقله) و حينما يعقد الكفّار عزمهم على رفض الإيمان فإنهم يواجهون حربا نفسيه باطنيه مع الضمير، مما يدعوهم لتحدى عقولهم و وجدانهم، و من جمله وسائل التحدى للحق التهرب من مجالس الدعوه و الدعاه، و ذلك لإقناع النفس بعزه الإثم، و في عالم السياسه لا يخفى على المراقب أن وجود الحركات الرساليه في مجتمع ما تؤثر على النظام القائم



بصوره معاكسه، حيث يقوم بالمزيد من القمع و الظلم، و قد سمي دعوته بالدعاء لأنها فى حقيقتها طلب لنجاتهم من العذاب الأليم.

وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغَفَّرَ لَهُمْ وَبِالتَّالِي يَتَأَخَّرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ، وَ الْأَجَلُ الْمَعْلُوقُ.

جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ كِنَايَةً عَنِ الْحِجَابِ الَّتِي تَمْنَعُهُمْ عَنِ سَمَاعِ الدَّعْوَةِ وَ الْاسْتِجَابَةِ لَهَا، وَ رُبَّمَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَضَعُهَا بِالْفِعْلِ.

وَ اسْتَعْمَلُوا لِيَتَأَبَّهْمُ أَي اسْتَتَرُوا بِهَا فَهِيَ حِجَابٌ كَالْغِشَاءِ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِتِّصَالِ بِالْدَّعْوَةِ، بَلْ حَتَّى مِنْ مَجْرَدِ النَّظَرِ إِلَى الدَّاعِيَةِ، وَ إِلَى جَانِبِ هَذِهِ الْحِجَابِ الظَّاهِرَةِ، هُنَاكَ حِجَابٌ بَاطِنٌ تَغْشَى قُلُوبَهُمْ أَهْمَهَا: الْإِصْرَارُ عَلَى الْبَاطِلِ، وَ الضَّلَالَةُ، وَ الْاسْتِكْبَارُ عَنِ التَّسْلِيمِ لِلْحَقِّ.

وَ أَصْبَرُوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا وَ الْمَفْعُولُ الْمَطْلُوقُ «اسْتِكْبَارًا» يَفِيدُ التَّأَكِيدَ وَ التَّهْوِيلَ. أَي اسْتَكْبَرُوا أَيَّمَا اسْتِكْبَارٍ فَاحِشٍ، تَحَدَّوْا بِهِ الْحَقَّ رِمَا وَ قِيمَا، وَ هَذَا تَمْهِيدٌ لِتَبْرِيرِ الْحُكْمِ الْإِلَهِيِّ بِعَذَابِهِمْ تَبْرِيرًا مَوْضُوعِيًّا، فَإِنَّ مِنْ يَعْرِفُ مَدَى تَوَدُّدِ نُوْحٍ لَهُمْ وَ تَلَطُّفِهِ بِهِمْ مِنْ جِهَةٍ، وَ مَدَى عِنَادِهِمْ وَ جُحُودِهِمْ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى لَا يَسْتَبْعِدُ الْعَذَابَ عَنْ سَاحَتِهِمْ، وَ لَا يَشُكُّ فِي عَدَالَةِ اللَّهِ. وَ فِي الدَّرِ الْمُنْتَوِرِ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّهُ كَانَ يَذْهَبُ الرَّجُلُ بِابْنِهِ إِلَى نُوْحٍ فَيَقُولُ لِابْنِهِ: احْذَرْ هَذَا لَا يَغْرُنْكَ، فَإِنَّ أَبِي قَدْ ذَهَبَ بِي وَ أَنَا مِثْلُكَ

فحدّرنى كما حدّرتك (١) و من ظاهر الأخبار أنه-عليه السلام-عاصر ثلاثه أجيال، كلها كانت لا تؤمن به إلا قليل منهم. لأن معدل الأعمار يومئذ كان ثلاثمائه سنه تقريبا.

قال الصادق عليه السلام : «كانت أعمار قوم نوح ثلاثمائه سنه» (٢).

[١٢-٨] و أمام الموقف الصلف الذى اتخذه قوم نوح عليه السلام ضده و ضد رسالته لم يجعل خياره الهزيمة و التراجع، و لا التوافق و المداهنه، إنما أصر بعزيمه الإيمان على المضى قدما نحو الهدف، و أداء الرسالة بأكمل وجه، فهو متيقن من الحق الذى بين يديه، و لا يساوره أدنى شكّ فيه، فالأهداف و القيم بالنسبه اليه ثوابت لا تقبل التبديل أو التحويل، و هذه من أهم خصائص الخط الرسالى الأصيل. و لذلك عمد شيخ المرسلين الى تغيير أسلوبه.

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهْرًا أَي صَارِح قَوْمَهُ بِأَمْرِهِ، فَبَدَّلَ أَنْ يَطْرَحَ أَهْدَافَهُ وَ قِيمَهُ لِمَنْ يَتَّصِلُ بِهِمْ بِصُورِهِ غَيْرِ مُبَاشِرِهِ، خَشِيَهِ رِدَاتِ الْفِعْلِ، أَوْ خَشِيَهِ عَدَمَ اسْتِعَابِهَا جَاهِرَهُمْ بِهَا.

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا وَ مِنْ آيَاتِنِ يَتَضَحَّ لِمَنْ يَدْرُسُ تَارِيخَ الْحَرَكَةِ الرَّسَالِيَةِ فِي عَصْرِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهَا كَانَتْ تَنْتَقِلُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَ الْآخِرِ مِنْ أَسْلُوبٍ إِلَى غَيْرِهِ تَبَعًا لِمَقْتَضِيَّاتِ الظُّرُوفِ، وَ هَذِهِ مَسِيرُهُ طَبِيعِيٌّ عِنْدَ الْحَرَكَاتِ الرَّسَالِيَةِ وَ بِالْخُصُوصِ تِلْكَ الَّتِي يَمْتَدُّ عَمْرُهَا أَجْيَالًا وَ تَعَاَصَرَ تَطَوُّرَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَلَيْسَتْ أِذْنَ الْعَلْنِيَةِ صَحِيحَةً عَلَى طَوْلِ الْخَطِّ، كَمَا أَنَّ

ص: ٤٠٨

١-١) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٦٨

٢-٢) موسوعه بحار الأنوار ج ١١ ص ٢٨٩

التقيه ليست أسلوباً ثابتاً الى الأبد؛ لان الحركة الرساليه حركه واقعيه، فقد لا تعلن الدعوه لأن الظروف السياسيه و الاجتماعيه و التربويه لا تسمح بذلك.

و قد احتار المفسرون فى التفريق بين الجهار و الإعلان، و الذى يبدو: ان الجهار يعنى التصريح الواضح و المباشر بأفكار الدعوه و قيمها للناس، و قد تكون هذه العمليه محدوده فيمن يتصل بهم الرساليون اتصالاً خاصاً، فالقيم الرساليه كالتغيير الجذرى و الكفاح المسلح أمر صعب و مستصعب لا يتحملة الناس من البدايه مما يضطر الداعيه الرسالى الى الارتقاء بهم نفسياً و فكرياً حتى يتسنى له مجاهرتهم ببعض الأمور، فليس صحيح مثلاً- ان يفهم الفرد أنه فى تنظيم ثورى رسالى من أول لقاء بل لا بد من إيصاله الى هذه الحقيقه شيئاً فشيئاً لكى يمكن مصارحته بها و استيعابه لها. أو أن الجهر مرحله بين الكتمان و الإعلان فليست سريره مائه فى المائه و لا- العكس، أما الإعلان فهو أشبه ما يكون بالإعلام- حسب المصطلح الحديث- أى الطرح الجماهيرى السافر للدعوه الرساليه، و قوله فى الأخير:

«و أسررت» يدلنا على ان هذه المراحل و التكتيكات ليست ذات مراتب حتميه (اسرار، ثم إجهار، ثم إعلان) كلاً- و إنما هى معطيات يملئها الواقع، فقد ينتقل العمل الرسالى من الإعلان الى الكتمان الشديد مباشره لسبب من الأسباب.

و مع هذه التغيرات الظاهرية تبقى الاستراتيجيات المحوريه واحده و ثابتة؛ إنها دعوه الناس الى العوده الى الله، و الترغيب فى معطيات الإيمان، و اتباع رساله، و التحريض على نبذ الأنداد الموهومين من دونه عز و جل.

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً أَى دَعَاهُمْ إِلَى اسْتِغْفَارٍ، وَ طَمَأْنَهُمْ بِأَنَّ الْغَفْرَانَ صَفَهُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ، وَ لَا رَيْبَ أَنَّ الْمَعْنَى مِنَ اسْتِغْفَارٍ لَيْسَ مَجْرَدُ الْقَوْلِ: اسْتَغْفِرَ اللَّهُ، إِنَّمَا هُوَ النَّدَمُ عَلَى الْخَطَايَا فِي

النفس، و الرجوع منها بالقول و العمل، و اللجوء الى الله استجاره به منها و من عواقبها، و بتعبير آخر: إن الاستغفار برنامج متكامل و هذا ما تفصح عنه المعطيات التي يأتي بها.

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا أَي مطرا كثيرا متواصلًا، تدرّه السماء كما يدرّ زرع البقر الحليب، و قد قدم القرآن ذكر الماء لأنه عصب الحياه و الحضاره.

وَ يُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنِينَ يَعْنِي أَنَّ الاستغفار يتسبب في النمو اقتصاديا و بشريا، و قيل: انهم كانوا قد قحطوا، و أستوتوا (أجدبوا) و هلكت أموالهم و أولادهم (قبيل العذاب الأليم) و لذلك رغبتهم في رد ذلك بالاستغفار مع الإيمان و الرجوع الى الله (١) و الى ذلك ذهب أكثر المفسرين، و نهتدى من هذا السياق الى أن الإيمان و الاستغفار ليس من شؤون الآخرة و حسب بل هو متصل أيضا بحياه الإنسان في الدنيا. و عن قتاده قال: رأى نوح عليه السلام قوما تجزعت أعناقهم حرصا على الدنيا، فقال: هلّموا الى طاعه الله فإن فيها درك الدنيا و الآخرة (٢) و

إلى ذات الحقيقه أشار الإمام على عليه السلام في خطبه الاستسقاء حيث قال: «و قد جعل الله سبحانه الاستغفار سببا لدرور الرزق، و رحمه الخلق فقال سبحانه: «الآيه» (٣).

وَ يَجْعَلُ لَكُمْ جَنَاتٍ وَ يَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا

ص: ٤١٠

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٦١

٢-٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٦٨

٣-٣) نهج البلاغه خطبه ١٣٤

تستوعب المياه و تقلها للشاربين إنسا و حيوانات، و سقاء للجنات و الأشجار و المزارع، و ثابت علميا و عمليا ان وجود الأنهار من العوامل الحضاريه الأساسيه، لأنه سبب الزراعه التي هي بدورها من مظاهر الحضارات و مقوماتها، و الجنات و الأنهار يشيع كلاهما حاجات ماديه و معنويه عند الإنسان. و لا ريب أن الجعل هنا لا يتم عن طريق المعجزه بحيث تنزل الجنات من السماء بأشجارها و أثمارها أو تزداد الأموال و الأولاد بعوامل غيبه مجرده، انما تحدث البركه و تكون الحضاره بعاملين (سعى الإنسان الذي قمته و رمزه الاستغفار+بركه الله و فضله) و نحن يجب ان نقرأ في ثنايا دعوه نوح-عليه السلام-حينما قال **إِشِي تَغْفِرُوا رَبُّكُمْ** كل عوامل التقدم و الترقى من سعى و إتقان وجد.. أو ليس الاستغفار غايه سعى الإنسان نحو الفضيله و الكرامه؟! أو ليس يعنى تجنب الأخطاء، و السير على المنهج القويم؟ و كما ان الاستغفار يجلب الخير و التقدم للأمم فإن الذنوب تسلبهما، و تصير بها الى الشر و التخلف، و يبدو من سياق الآيات و من الأحاديث: أن قوم نوح أصيبوا بنقص فى الأموال و الأنفس و الثمرات. بل أنضب ماؤهم، فجاءت دعوه النبي نوح-عليه السلام-بهدف إصلاح مسيرتهم و انتشالهم من حضيض هذه المشاكل إلى آفاق البركه و الرفاه، قال العلامة الطباطبائي معلقا على هذا السياق: أى أن هناك ارتباطا بين صلاح المجتمع الانسانى و فساده و بين الأوضاع العامه الكونيه المرتبطه بالحياه الانسانيه، و طيب عيشه و نكده (١) و الى ذلك أشار الفخر الرازى مستدلا بقول الله: **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** (٢) و بقوله تعالى: **وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَغْفُوا عَنْ كَثِيرٍ** (٣).

ص: ٤١١

١-١) الميزان ج ٢٠ ص ٣٠

٢-٢) الروم ٤١

٣-٣) الشورى ٣٠

[١٤-١٣] و يخاطب نوح قومه بلغه الوجدان، مذكراً بنعم الله و آياته لعلهم يعودون الى فطرتهم، فيعبدون الله و يتقونه، و يطيعونه بدل الطاعة للمترفين.

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْوَقَارُ هُوَ الثَّبَاتُ، مَنْ وَقَرَ إِذَا ثَبَتَ وَ اسْتَقَرَّ، وَ مِنْهُ قَوْلُهُ:

«وَقَرَنَ فِي يُبُوتِكَنَّ» فوقاره تعالى ثبوته و استقراره في الربوبية، المستتبع لألوهيته و معبوديته (١) و قيل: المعنى ما لكم لا توحدون الله تعالى؛ لأن من عظمه فقد وحده، و عن الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً، و لا تشكرون له نعمه (٢) و قد ذهب أكثر المفسرين الى القول بالعظمه، و يبدو أننا نهتدى الى معنى الآية لو قارناها بقول الله: «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» (٣) فان توقير الله بحق هو معرفه قدره بمعرفه أسمائه و صفاته الحسنی، و العيش في الحياه على ضوء هذه المعرفه، و ذلك لا يمكن الا بعبادته و تقواه و اتباع رسله و رسالاته.

و تكشف لنا الآية عن مدى الضلال المتورط فيه أولئك القوم، و نستوحى ذلك من كلمه لا- تَرْجُونَ إذ تبيّن أنهم ليس لا يوقرون ربهم و حسب، بل لا- يرجون أن يوقره الآخرون، و لا- أن يأتي يوم يوقرونه في أنفسهم، فليس ثمه و لا بصيص نور في فكرهم يمكن أن يوقروا ربهم به في المستقبل.

ثم يذكر نوح بعض الآيات و النعم الإلهيه الهاديه إلى الايمان بالله و التسليم، و من ثم توقيره لو أن الإنسان توجه إليها و أراد شكرها، و أولها خلق الإنسان و نظام خلقته.

ص: ٤١٢

١-١) تفسير البصائر ج ٤٩ ص ٢٠١

٢-٢) راجع المصدر فقد أورد (١٥) رأياً في الآية

٣-٣) الانعام ٩١

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا و لهذه الكلمه معان من بينها:

١-المراحل التى يمر بها الإنسان فى خلقه،حيث يبدأ نطفه ثم علقه ثم مضغه...و هكذا،حتى يصير شيخا كبيرا،و ان خضوع البشر الحتمى لهذه الأطوار دليل أكيد على أنه لا يملك أمر نفسه فى كل شىء؛إنما حياته محكومہ بالقانون و النظام،الذى يهديه الى المقنن و المنتظم،كما يدلله على الحساب و الجزاء،حيث أن الإخراج من الأرض كما أطوار الخلق حقيقه لا- يمكن لأحد أن يرفضها أو يدعى قدره على مقاومتها.

٢-التنوع البشرى الذى يؤدى الى التكامل،فقد خلق الله الناس مختلفين فى مواهبهم و قدراتهم و توجهاتهم،مما يكامل مسيرتهم فى الحياه،فلم يخلقهم كلهم أمراء و لا أطباء.و ذلك من عظيم نعم الله،و إلا أصبحت الحياه قسريه، و ذات لون واحد مما يؤدى الى فشلها قال تعالى: وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (١) (سخرتيا:أى سخره)،و ثابت بالتجربه أن النظريات القسريه نظريات خاطئه فاشله،فقد خطط ماوتسى تونغ و سعى لجعل المجتمع الصينى على نمط واحد،و غفل عن أن المجتمع بحاجه الى التنوع لكى يتقدم و يتطور،و لذلك وجدنا كيف ان من خلفه خطأه و خطط للتغيير.

قال الامام الباقر عليه السلام فى معنى الأطوار:«و قد خلقكم على اختلاف الأهواء و الإرادات و المشيئات» (٢).

[٢٠-١٥] و ينطلق السياق بنا يعرفنا ببعض نعم الله و مننه علينا فى الآفاق،

ص: ٤١٣

١-١) الزخرف ٣٢/

٢-٢) تفسير القمى ج ٢ ص ٣٨٧

و ذلك ليطمئن الإنسان بأنه مهما جال ببصره و فتش في الوجود فإنها تهديه آيات الخلق الى ربه، حيث آثار قدرته و حكمته و رحمته مطبوعه على كل جزء جزء فيه.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا إِنَّهَا سَبْعُ سَمَوَاتٍ وَ لَكِنَّكَ لَا تَجِدُ فِيهَا فُطُورًا وَ لَا تَنَاقُضًا، انما هي منسجمه يكمل بعضها بعضا، كما الأطوار في الخلق و الناس، و الآيه تهدينا إلى أن من بين المقصود بالسماوات السبع تلك التي تظل الأقاليم السبعه و ذلك بداليتين، الأولى:

انه قال: أَلَمْ تَرَوْا مِمَّا يَعْنِي ان المقصود مما يراه الإنسان و يشاهده و ذلك لا يمكن لو قصدت السماوات التي تنقل بينها النبي صلى الله عليه و آله في رحله المعراج لأنها طبق فوق آخر و ليس ظاهرا منها سوى الأولى.

و الثانيه: ان التعبير في الآيه اللآحقه جعل القمر نورا فيها كلها، بينما أطلق سراجيه الشمس، لأن دور القمر محدود في أفاق الأرض فقط، بينما دور الشمس يشمل كواكب و آفاقا أخرى فكلمه «فيهن» إذن إشاره الى سماوات الأقاليم و ليست السماوات التي بعضها فوق بعض حسب الظاهر، إذ القمر في واحده منهن و ليس فيهن جميعا.

وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَ بهذه الآيه كشف القرآن للبشرية جانبا من أسرار الكون في وقت ما كانت تحلم بالتطلع الى معرفه طبيعه الأرض فكيف بالاجرام التي حولها كالقمر و الشمس؟ إن القمر يختلف عن الشمس في خلقتة و دوره، فبينما خلقت من كتل النيران حتى توفر الطّاقه الحراريه، و الإضاءة فيها ذاتيه، نجد القمر كالمرآه التي تعكس أشعه الضوء الساقطه من الشمس، و كما أنه تعالى لم يترك الأرض



و السماء تكوينيا مظلمتين من دون نور و سراج، كذلك لن يدع المجتمع البشرى من دون إمام و نهج يهتدى بضوئه، فلا غرابه اذن ان نجد بعض الروايات تأول القمر و الشمس في أئمه الهدى عليهم السلام- و كل امام حق.. قال أبو ذر -عليه السلام-: «ان أهل بيت النبوه فينا كالقمر السارى» (١) وَ اللَّهُ أَنْبَتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لَبَّائًا قَالَ شيخ الطائفه ابو جعفر الطوسى: فالانبات إخراج النبات من الأرض حالا بعد حال، و النبات هو الخارج بالنوى حالا بعد حال، و التقدير فى «أنبتكم نباتا» اى فنبتم نباتا، لأن «أنبت» يدل على نبت من جهه انه متضمن له (٢) و علق صاحب المجمع فقال: يعنى مبدأ خلق آدم، و آدم من الأرض و الناس ولده، و هذا كقوله: وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً وَ قِيلَ: أَنْبَتَ جَمِيعَ الْخَلْقِ بَاغْتِذَاءَ مَا تَنْبَتُهُ الْأَرْضُ، وَ قِيلَ مَعْنَاهُ: أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِالْكَبْرِ بَعْدَ الصَّغَرِ، وَ بِالطَّوْلِ بَعْدَ الْقَصْرِ (٣).

فالإنسان اذن ابن الأرض، لا فرق بين آدم و بين كل فرد فرد من أبنائه، فمع أنه -عليه السلام- خلق مباشره من التراب إلا أننا عند التحليل العلمى الواقعى نهتدى الى أن كل ذرأت الجسم أصلها الأرض.

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا كَمَا أَنْبَتَكُمْ مِنْهَا حَيْثُ يَذُوبُ الْبَدَنُ بِالْمَوْتِ وَ تَتَحَلَّلُ أَعْضَاؤُهُ فِي التَّرَابِ.

ص: ٤١٥

١-١) البرهان ج ٤ ص ٢٧٠

٢-٢) التبيان ج ١٠ ص ١٣٨

٣-٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٦٣

وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا بِالْبَعثِ وَالنَّشُورِ، وَ إِنَّا نَعْرِفُ بِأَنَّ هُنَاكَ تَشَابُهًا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالنَّبَاتِ فِي أَطْوَارِهِ، حَتَّى فِي الْإِخْرَاجِ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي تَصِيرُ يَوْمَ الْبَعثِ كَمَا رَحِمَ الْأُمُّ يَمْطُرُهَا اللَّهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِذَا بَكَتِ تَرَى الْأَرْضَ تَنْشِقُ عَنِ النَّاسِ سِرَاعًا.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطَةً نَفْتَرِشُهَا وَنَمْشِي عَلَى ظَهَرِهَا، وَ الْجَعْلُ يَعْنِي التَّمْهِيدَ الَّذِي تَمَّ بِلُطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ مِنْ خِلَالِ الْقَوَائِنِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَ خَلَقَ الْأَرْضَ بِالْكَفِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْحَيَاةَ عَلَيْهَا مُمْكِنَةً وَ مَيْسِرَةً.

لِتَسِيلُكُوا مِنْهَا سَيْبًا فِجَاجًا أَي طَرَقًا كَثِيرَةً وَاسِعَةً، وَ قِيلَ: طَرَقًا مُخْتَلَفَةً، وَ الْفَجُّ الْمَسْلُوكُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ (١) وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَأْكِيدٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى بَسَطَ الْأَرْضَ لَنَا، إِذْ لَوْ لَمْ يَبْسُطْهَا مَا كُنَّا نَجِدُ لَنَا طَرَقًا لِلْمَشْيِ فِيهَا وَ التَّنَقُّلِ بَيْنَ بَقْعَيْهَا الْمُخْتَلَفَةِ، وَ مِنْ الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ أَنَّهُ لَا تَوْجِدُ بَقْعَهُ إِلَّا وَ فِيهَا سَبِيلًا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ أَنْ يَسْلُكَهَا، وَ قَوْلُهُ: «سَبِيلًا» بِالْجَمْعِ يَهْدِي إِلَى الْكَثْرَةِ وَ التَّنَوُّعِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، فَبَسَطَ اللَّهُ لِلْأَرْضِ يَعْمُ الْيَابِسَةَ وَ الْمَاءَ وَ الْهَوَاءَ.

وَ إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْفَجَاجَ هِيَ الطَّرِيقُ بَيْنَ الْجِبَالِ فَانْه تَابِتٌ عَمَلِيًّا بِأَنَّ أَغْلَبَ الطَّرِيقِ الْبَرِّيَّةِ بَيْنَ الْبُلْدَانِ تَمَرٌ مِنْ خِلَالِ السَّلَاسِلِ الْجَبَلِيَّةِ، وَ ذَكَرَ اللَّهُ لِلطَّرِيقِ الَّتِي بَيْنَ الْجِبَالِ بِالذَّاتِ لِأَنَّهَا أَظْهَرَ آيَةَ وَ دَلَالَةً مِنْ الَّتِي فِي السُّهُوبِ وَ الصَّحَارَى.

[٢١] وَ هَكَذَا ذَكَرْنَا سُبْحَانَهُ بِتِلْكَ النِّعَمِ لَعَلَّنَا نَعْرِفُ عَظِيمَ مَنَّةِ عَلَيْنَا فَلَا نَعْبُدُ

ص: ٤١٦

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ١٣٧

سواه، و تذكير نوح-عليه السلام-لقومه بمنايح الله و نعمه يأتى فى سياق استثاره عقولهم و ضمائرهم التى حجبها الضلال لعلمهم يتذكرون الحق و يتبعونه و يعرفون ان تلك النعم من عند الله رب العالمين، و أنها تدعوا الإنسان الى التسليم بالحق قيما و قياده، و بعبارة أخرى: تفرض القيم الأساسية التى تتضمنها رسالات الأنبياء على البشر(عباده الله و تقواه و الطاعة للقياده الرساليه)الا ان قوم نوح بلغوا من الانحراف عن الحق و الجحود ما لا تنفع معهم الموعظه.

□ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ هَذَا لَوْحده ذنب عظيم ان يرفض الإنسان التسليم لقياده الحق، و لأن أحدا لا يستطيع ان يعيش فراغا قياديا فإنهم اتبعوا قيادات الباطل و الضلال.

□ وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَ وَكَلَهُ إِلَّا خَسَاراً وَ نستوحى من الآية: انهم كانت تحكّمهم طبقه الأغنياء المترفين، و من الطبيعى ان يقف هؤلاء ضد دعوه الأنبياء و القيادات الرساليه و طرحهم القيادى لأنهم حريصون على رئاسه المجتمعات و السيطرة على افرادها و خيراتها و مقدراتها، قال العلامة الطبرسى: اى اتبعوا أغنياء قومهم اغترارا بما أتاهم الله من المال، فقالوا: لو كان هذا رسولا لكان له ثروه و غنى، و قيل: اتبع الفقراء السفله الرؤساء الذين لم يزداهم كثره المال و الأولاد الا هلاكا فى الدنيا، و عقوبه فى الآخرة (1) و ذلك مما يدلنا الى مدى ارتكاسهم فى الماديه و الشئيه، إذ اعتبروا الأموال و الأولاد مقياسا لاختيار القائد و ليس الحق، و هنا نصل الى فكره هامه و هى: ان الخطأ الفظيع الذى وقع فيه قوم نوح عليه السلام أنهم لم يسلكوا السبيل القويم فى الحياه مما أدى

ص: ٤١٧

بهم الى الخسران العظيم، مع انه تعالى فرض على الإنسان ان يختار طريقه تشريعيا و فى الحياه المعنويه و الاجتماعيه كما يختار طريقه بين فجاج الأرض و مناكبها.

و قد أكد نوح ذنب معصيتهم له بالذات، فلم يقل مثلا: أنهم لم يعبدوا الله أو لم يتقوه لأن معصيه القياده الالهيه فى الواقع معصيه لله و عنوان كل انحراف و فساد، و إنما لم يعبدوا ربهم و لم يتقوه لأنهم لا يريدون الطاعه للرسول و اتباعه، بل إن العصيان هنا شامل لعدم استجابتهم للاهداف الثلاثه كلها(عباده الله و تقواه و اتباع القياده الرساليه)لأنه هنا يعنى رفض الدعوه و الداعيه كلاً و تفصيلاً.

و السؤال لماذا يتبع الإنسان المترفين؟ و نجيب: لأنه ينبهر بالمال أو القدره فيلهث وراء من يملكهما، لعله يحصل على بعض الفتات من الخبز، أو تصيبه عزه من عزته، و لكن الأمر على العكس من ذلك بالضبط إذ المجتمع الذى تشيع فيه هذه الثقافه سوف يصبح فريسه ميسره للمترفين، فيمتصون جهوده و يستغلونه استغلالا بشعا، و لو أننا حققنا فى ظاهره تسلط المستكبرين من أصحاب الثروه و القدره على المجتمعات و الشعوب المستضعفه لوجدناها متأسسه على هزيمه المحكوم نفسيا أمامهم، و لا يزيد المستضعفين ذلك الا خساره، لأنه كلما زاد الانبهار زاد المستكبر استكبارا، و استغلالا لجهود المستضعفين، و قمعاً لتطلعاتهم المشروعه، و طبيعى أن من لا يسخر المال من أجل مصالحه الحقيقيه سوف يزداد خساره كلما ازداد مالا، من هنا قال ربنا سبحانه: مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَ وَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا لأن المعنى هنا شامل لخساره الطرفين التابع و المتبوع، بينما قد لا يشملهما لو جاء التعبير بما هو مفترض (لم يزداهم) ذلك أنه إذا خسر المتبوع فستنجر الخساره نفسها على التابع الذى يلحق به فى كل شىء.

[٢٢] فى قلب الإنسان عقل يتوهج بقيم الصدق و الصلاح، و وجدان يقظ

يحاكم صاحبه عند كل انحراف، و في المجتمع الانساني عرف عام يلاحق المجرم باللأئمه و اللعنه.. كل ذلك يدعوا المجرم الى صنع ثقافه تبريريه للتهرب من و خز الضمير و محاكمه الفطره كما يدعوه الى مقاومه المصلحين و إسكات أصواتهم المعارضه، لعلهم ينجون من لومهم و ادانتهم و لعل هذا هو السبب في أن الإنسان كلما ازداد إجراما كلما ازداد مكرا و كيدا لأنه تزداد حاجته الى الفرار من لوم ذاته و إدانه العرف العام.

وَ مَكْرُوا مَكْرًا كَبَارًا بِنِسْبَةِ عَصِيَانِهِمْ وَ ضَلَالِهِمْ، وَ هَذَا مَا يَفْسِرُ مَدَى اهْتِمَامِ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَ أَذْنَابِهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي تَزْدَادُ فِيهِ الْجَرِيمَةُ، وَ يَطغَى فِيهِ الْمُسْتَكْبِرُونَ بِأَجْهَزِهِ الْإِعْلَامِ وَ وَسَائِلِهِ، حَتَّى تَكَادُ الْمِيزَانِيَةُ الْإِعْلَامِيَّةُ تَضَاهِي أحيانًا الْمِيزَانِيَةَ الْعَسْكَرِيَّةَ.

[٢٦-٢٣] و من عظيم مكرهم توأصيهم بالباطل و تضليلهم لبعضهم، إبقاء على الانحراف و إصرارا على الضلال.

وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لَا سُوءًا وَ لَا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسِيرًا وَ قَدْ اخْتَلَفَ الْمَفْسُرُونَ فِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَ أَقْرَبُ الْأَرْءَاءِ: أَنَّهَا تَرْمِزُ إِلَى رِجَالِ عِظْمَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ آدَمَ، أَوْ حَى إِبْلِيسَ إِلَى تَابِعِيهِمْ بِاتِّخَاذِ تَمَاثِيلَ لَهُمْ، ثُمَّ أَمْرَهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ، وَ بِهَذَا وَرَدَتْ بَعْضُ النُّصُوصِ.

و قولهم: «لا تذر» حتى نهايه الآيه (٢٣) مما لا- كنهه ألسن المترفين الذين أحسوا بخطر رساله على زعامتهم و مصالحتهم، و هم لا يدعون الناس للتمسكك بتلك الأصنام ايماننا بها انما لأنها رمز للثقافه التي تمكنهم من السيطرة على المجتمع، كما تنفخ دعاه العنصريه فيها و في رموزها لمواجهه الحركات التحرريه.

وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا بِهذه الدعوات الباطلة، حيث وجدوا بين الناس من اتبعهم بسبب الجهل أو انسياقا وراء المصلحه الدنيويه.

وَ لَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا قِيلَ: ان الضمير فى «ترد» راجع الى الأصنام، فالمعنى أنها لا تزيد الظالمين باتباعها الا ضلالا، وقيل: ان الجملة استثنائية، و هى دعوه من نوح على قومه بأن لا يزيدهم الله إلا ضلالا، و هى دعوه عليهم بكل شرّ مستطير، أو ليس الضلال أصل كل شر، و قد استجاب الله دعاء نبيه الذى أيقن بأن الحياه لا تصلح لهم، و ان الموت أولى لهم، و كذلك اوحى اليه ربه: أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا - مَنْ قَدْ آمَنَ (١) فأهلكهم غرقا بالطوفان، و هنا يلفتنا السياق الى حقيقه أساسيه، و هى أن سنه الجزاء مرهونه بالإنسان نفسه، فهى تجرى فى سياق العدالة الإلهيه، و ان كانت مظهرها لقدره الله أيضا، و لو أننا فتشنا فى الأسباب لهلاك أى قوم لوجدناها أعمالهم و مساعيهم لا غير، و هذه بالضبط قصه قوم نوح مع الطوفان.

مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا أَصَابَهُمُ الْغُرْقُ فِي الدُّنْيَا، وَ نَقَلَهُمُ الْمَوْتَ إِلَى سُوءِ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، حَيْثُ نَارُ جَهَنَّمَ الَّتِي تَنْتَظِرُ كُلَّ كَافِرٍ وَ مُشْرِكٍ، وَ مَا كَانَ مَوْتُهُمْ فِي لَجَّةِ الْأَمْوَاجِ يَنْجِيهِمْ مِنْ نِيرَانِ جَهَنَّمَ فِي الْبَرَزَخِ، لِأَنَّ تِلْكَ النَّارَ تَكْمُنُ فِي وُجُودِهِمْ.

فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا

ص: ٤٢٠

يحجزون عنهم العذاب، أو يقاومون بهم سلطان الله و مشيئته، كما يزعم المشركون بعبادتهم الأصنام بشرا أو حجرا أو غيرهما.

وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۚ وَ الديار- كما يبدو- هو من يسكن الدور و الديار، و إنها حقًا دعوه بعذاب الاستئصال الذى حقت به كلمه الله عليهم، فما بقى يومئذ أحد إلا من آمن بنوح و ركب السفينه، و من هنا نهتدى الى أن عذاب الاستئصال يأتى بهدف تطهير الأرض من العناصر الفاسده التى لا تنفع معها النصيحه، و ان مبرر وجود الإنسان هو ما يشتمل عليه من الحق فى كيانه فإذا صار خلواً من أى حق فقد مبرر الوجود تشريعيا و تكوينيا مما يؤدى به الى الهلاك، و هذه الحقيقه تنطبق بصوره أجلى على الإنسان (المجتمع) منها على الإنسان (الفرد) و من هنا نفهم الآيه الكريمة:

وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ (١) و كذلك الروايات التى تقول:

«ان الله ليدفع بالمؤمن الواحد عن القرية الفناء» (٢) لأنه لو لا وجود المؤمنين من الناس لما بقى مبرر لوجود الآخرين.

[٢٧] ثم بين شيخ المرسلين الخلفيات و الحثيات وراء دعوته على قومه، فهو لم يدع عليهم لأنه مل و تعب من الجهاد فى سبيل الله، و لأنه يحمل العداة الشخصى ضدهم لما لقيه من الأذى و المعاناه على أيديهم، إنما كان منطلقه فى ذلك رساليا خالصا لوجه ربه.

إِنَّكَ إِِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ الْمَوْجُودِينَ، فيزيدون الضالين ضلاله، و يؤثرون على من آمن ليعود كافرا

ص: ٤٢١

١- ١) البقره ٢٥١

٢- ٢) موسوعه بحار الأنوار ج ٦٧ ص ١٤٣ عن أبى جعفر عليه السلام

مشركا مثلهم، و في هذه الآيه يجب ان نقرأ مدى الضغط الذى يواجهه المؤمنون حينما يستقلون برأيهم و مسيرتهم عن مجتمع الضلال و الفساد.. إنه يبلغ حدًا يخشى عليهم من الانحراف بسببه، هذا من جانب، و من جانب آخر أنه لا يرتجى خيرا و لا مستقبلا سليما للأجيال التى تنسل منهم، باعتبارهم قد أحكموا أساليبهم التربويه السيئه التى من شأنها بناء شخصيه الأولاد على أساس الباطل و العدا للقياده الرساليه و لخط المؤمنين.

و لا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا بِالْوِرَاثَةِ وَ بِالتَّرْبِيَةِ، و الفاجر هو من لا يقف عند حدّ شرع أو عرف، و لا يقيم وزنا لقيمه لا فى نفسه و لا فى المجتمع، إنما يطلق لشهواته العنان، بينما الكفّار صيغه مبالغه من الكفر و هو خلاف الإيمان، و الكفور خلاف الشكر.

و لقد انتهى نوح الى هذه النتيجة بتجربته المره الطويله التى عاصر فيها ثلاثه أجيال على الأقل و خبرهم بتمام المعرفه، و كذلك بإخبار الله له،

قال الراوى: قلت لابي جعفر الباقر عليه السلام بما كان علم نوح حين دعا على قومه انهم: «لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا»؟! قال: أما سمعت قول الله لنوح: «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ» (١) و قد ذهب أغلب المفسرين الى القول: بان الله تعالى أخرج من أصلابهم كل من يكون مؤمنا، و أعقم أرحام نسائهم، و أيس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنه (٢).

و الآيه تبين بأن الإنسان قد يرحمه الله ليس لذاته بل لآخرين يتعلقون به كالأولاد.

ص: ٤٢٢

١-١) تفسير القمى ج ٢ عند الآيه

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٦٥



[٢٨] وختاماً لهذه السوره المتضمنه للحديث عن المعانات الصعبه، و دعاء شيخ المرسلين على قومه نجد آثار اللطف و حب الخير يجليها لسان نوح عن قلبه الحنون، و ذلك حتى لا يظن أحد أنه-عليه السلام-يحمل العداة الشخصى ضد قومه بالذات، فإنه وازن بين الدعاء سلباً ضد الكفار الفاجرين، و الدعاء ايجابياً لصالح المؤمنين الصالحين.

رَبِّ اغْفِرْ لِي و هذه قمه العبوديه لله و الخشيه منه، فبالرغم من الجهاد الطويل فى سبيل الحق الذى امتد طيله حياته إلا أنه لم يمن على الله بشىء من طاعاته لإيمانه بأنها ما كانت تكون لو لا لطفه و توفيقه، و ان الخضوع له و الاعتراف بالتقصير تجاهه خير و سيله للمزيد من القرب منه و السعى فى خدمته و إنه حقاً درس يحتاجه كل مجاهد فى سبيل الله ليقاوم به الغرور و همزات الشيطان، و بالذات أولئك الذين يتناول بهم العمر فى خدمه الرساله.

و لكنه بأخلاق النبوه التى تدعوه للخروج من قوقعه الذات، و التفكير فى نجاه الآخرين بمقدار التفكير فى نجاه نفسه، لم ينس غيره بالرغم من أن ساعه دعائه كانت صعبه حرجه، سواء قلنا بأنه دعا ربه قبل الطوفان أو أثناؤه أو بعده.. فهذا هو يلتفت لأولى الفضل عليه (أبوه و أمه) و لشركاء الصف و المسيره (المؤمنين) لا فرق عنده بين من عاصروه و بين من سبقوه أو يأتون بعده، و يلتفت مره مؤكداً براءته من الظلم و الظالمين، كما أكد بسابقتها ولاءه للحق و اهله.

وَ لِوَالِدَيْ إِذْ لهما الفضل فطرياً و تربوياً فى وجوده و بناء شخصيته، و هكذا نتعلم درس

الوفاء لأول معلم يلتقيه الإنسان في الحياه، إنه لم ينس عناء والديه، حيث حملته أمه و هنا على وهن، ثم سهرت ليلها و تعبت نهارها من أجل راحته، و حيث أجهد أبوه نفسه في طلب المعاش له و أكله و شربه و كسوته، و فوق ذلك كله ما تلقاه من تربيته طيبه على الإيمان و حب الله.

وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ انْتَمَوْا إِلَى خُطِّهِ وَ مَسِيرَتِهِ مِمَّنْ عَاصَرُوهُ.

وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَ مَكَانٍ لِأَنَّهُمْ وَ إِنِ اخْتَلَفَتِ الظُّرُوفُ وَ الْإِزْمَانَةُ اخْوَتَهُ الَّذِينَ تَجْمَعُهُ بِهِمْ وَحَدَّهُ الْهَدَفُ وَ الْخُطُّ وَ الْمَسِيرَةُ.

وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا أَي هَلَاكًا وَ عَذَابًا وَ ضَلَالًا، وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَأْكِيدٌ لِلْبِرَاءَةِ مِنَ الْبَاطِلِ قِيَمًا وَ أَنَاسًا فِي مَقَابِلِ تَأْكِيدِ الْوَلَاءِ لِلانْتِمَاءِ لِلْحَقِّ الْآنْفِ.

سوره الجنّ

اشاره

ص: ۴۲۵



## فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال: «من أكثر قراءه «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ» لم يصبه فى الحياه الدنيا من أعين الجن ولا نفثهم ولا سحرهم ولا من كيدهم، و كان مع محمد-صلّى الله عليه وآله-فيقول: يا ربّ لا أريد به بدلا، ولا أبغى عنه حولا» نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٣٠



إنّ التخرّصات بوجود قوى غيبية قاهره تؤثّر في مجريات الحياه من الأفكار التي لا تكاد تخلو منها ثقافه من الثقافات البدائيه، و هي عامل رئيس في الشرك بالله و عباده الأصنام و الأوثان، فالذى يعبد شجره فإنّما لظنه بأنّ فيها حلولا من عالم الغيب، و الذى يعبد الحجر لا يعبده بذاته و إنّما يعبد الروح التي يزعم أنّها تحوم حوله.

و الجن من بين تلك الأرواح التي أثير و لا يزال حولها الكثير من الجدل إلى حدّ الخرافه و الخيال المبالغ، فقد زعم البعض أنّها أرواح خلقت ذاتيا من غير خالق، و قال آخرون أنّها تقوم بدور الخير و الشر في الحياه، و على هذا الأساس ارتأوا ضروره إرضائها فأشركوا بها..

و قد أفرز الوحي الإلهي الخرافه عن الواقع، فبيّن الحق، و نسف الثقافات الباطله حول الجن، كما كشف في هذه السوره التي سمّيت باسمهم عن جوانب من حضارتهم اعتمادا على علم الله المحيط بكلّ شىء، و ليس على الظنون و التخرّصات،

و تحدّثنا آياته بلسانهم:(الآيات ١-١٤).

و الذى يدقّق النظر فى آيات هذه السوره يهتدى إلى وجوه تشابه أساسيه بين حضارتهم و حضاره البشر:

١/ فهم مخلوقون مكلفون من قبل الله بالإذعان للحق، و اتباع رسالته المتمثله فى القرآن.

٢/ إنّ واقعهم الاجتماعى و السياسى يشبه إلى حدّ بعيد واقع المجتمع البشرى، ففيهم الزعماء الذين يتسلّطون على المجتمع و يشطّون طغيانا و سفها..

كطواغيت الناس و حكّامهم الفاسدين.

٣/ كما أنّهم يقعون فى ذات الأخطاء التى يتورّط فيها ضلّال الناس كالشرك بالله عز و جل.

٤/ بالتالى فإنّ فيهم الصالحين و دون ذلك و المسلمين و القاسطين كما هو حال البشر.

و فى البين يشير القرآن إلى أنّ الالتقاء بين حضارتى الإنس و الجن القائم على الشرك بالله و زياده الانحراف و الرهق فإنّه منبوذ و محرّم فى شرع الله.. و منه استعاذه السحره و المشعوذين بالجن، مما يزيدهم بعدا عن الحقّ و توغّلا فى الباطل.

و يفضح الوحي مجموعه التخرصات و الخرافات التى صوّرت الجنّ قوى خارقة، و رفعتهم إلى مستوى الربوبيه، ممّا دعا بعض جهّال الناس لعبادتهم و الشرك بهم، فيؤكّد:

أولا: أنّهم لا يحوزون على العلم الحقّ المطلق، فلا يصح الاعتماد على ما يلقونه

ص: ٤٣٠



من ثقافتهم و أفكارهم فى روع من يعوذ بهم، لأن علمهم محدود إذ يجهلون الكثير من الأمور.. و واضح تأكيد القرآن على أن كثيرا من تصوراتهم و ثقافتهم قائمه على الظن لا- على العلم الواقعى القاطع (يلاحظ تكرار كلمه «ظننا» بلسان حال الجن مرّات عديده)، كما أنهم لا يدرون بمصير من فى الأرض أريد بهم شرا أم أراد بهم ربهم رشدا. و حيث جاء القرآن كشف لهم عن مدى ضلالتهم و جهلهم بجمله من أهمّ الأمور و أوضحها.. أعنى الإيمان بالله و توحيده.

ثانيا: و أنهم ليسوا قوى ذات قدرات خارقه حتى يخشى منهم البشر أو يعوذون بهم طمعا فى نيل القدره، و دليل ذلك اعترافهم أنفسهم بعجزهم عن اختراق الحجب و استراق السمع من الملائ- الأعلى، و عجزهم عن مقاومه إرادته الله، أو حتى الهرب من حكومته و سلطانه.

و حيث تتمحور السوره حول الحديث عن الجن الذين أشرك بهم و لا- يزال بعض الإنس تؤكّد الآيات الأخيره على حقيقه التوحيد، و أنه تعالى الذى يملك الضرر و الرشده، و هو أهل الاستعاذه به، و عالم الغيب لا يشاطره أحد فيه إلا من ارتضى من رسله.. مما يعطى الشرعيه لخطّ الأنبياء فقط، أمّا الجن و من يتصل بهم- سواء كانوا كهنه و سحره و منجمين- فلا يجوز إتباعهم أبدا.

## [سوره الجن (٧٢): الآيات ١ الى ٢٨]

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أُوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَ أَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَ أَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا حَرًّا شَدِيدًا وَ شُهُبًا (٨) وَ أَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَ أَنَا لَا نَدْرِي أَسْرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَ أَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا (١١) وَ أَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَ أَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَ أَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَ أَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَ أَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أملكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَ رِسَالَاتِهِ وَ مَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَ رَسُوْلَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ بِأَصْرًا وَ أَقَلَّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُوْلٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)

## اللغة

٣[جد]:الجد العظمه،قال الطبرسى فى مجمع البيان:

الجد أصله القطع، و منه:الجد العظمه لانقطاع كل عظمه عنها لعلوها عليه.

٤[شططا]:أى قولاً بعيداً عن الحق،جاء فى مفردات.

الراغب:الشطط الإفراط فى البعد،يقال شطت الدار،و أشطت يقال فى المكان و فى الحكم و فى السوم،و شطت النهر حيث يبعد عن الماء من حافته.

٦[رهقا]:تعبا شديدا، و سَمِيَ بذلك لأنه يعلو المرهق كالغشاوه، و قال البعض: رهقا أى طغيانا حيث أنّهم رأوا الجنّ ظهيرا لهم، أو زاد الإنس الجنّ طغيانا حيث أنّهم ظنوا أنّ لهم مدخلا فى الأمور الكونيه حتى استعاذ بهم الإنس، و أصل الرهق اللهوق، و منه غلام مراهق، فكأنّ الإثم و الطغيان يلحق الإنسان.

١١[قددا]: جمع قدّه و هى القطعه، فالجنّ على مذاهب مختلفه و قطع متعدده، و كلّ قطعه مخالفه للأخرى.

ص: ٤٣٣

١٤[تحزوا]:التحرى تعمّد إصابه الحق،و أصله طلب الشىء و القصد له.

١٤[غدقا]:كثيرا،و غدق الماء يغدق غدقا كثر فيه الماء.

١٧[صعدا]:شاقا شديدا غليظا متصعدا فى العظم و منه التنفس الصعداء،و قال البعض: عذاباً صَيَّعَداً أى عذابا يصعد عليه و يعلو بحيث يشمل جميع جسمه من قرنه إلى قدمه.

ص:٤٣٤

١٩[لبدا]:متكاثرين عليه ليمنعوه عن الدعوه. الواحده لبده كاللبد المتلبد أى المجتمع، و جمع اللبد ألباد و لبود، و قد ألبدت السرج جعلت له لبدا، و ألبدت الفرس ألقيت عليه اللبد نحو أسرجته و أجمته و ألبته، و ألبد البعير صار ذا لبد من الثلث، و قد يكتنى بذلك عن حسنه لدلاله ذلك منه على خصبه و سمنه.

٢٥[إن أدرى]:ما أدرى.

ص:٤٣٥

بينات من الآيات:

[١-٣] إنَّ علاج القرآن لموضوع الجن ليس ترفاً فكرياً يهدف إعطاءنا مجرد رؤيه عن خلق غريب، بل هو علاج لمشكله حقيقه موجوده فى ثقافات الناس، و منعكسه على واقع بعضهم بصوره خطيره، حيث الخرافات و الأساطير، و حيث الشرك بالله عزّ و جلّ. و مع أنّ القرآن كلّه موحى به من عند الله إلى رسوله إلّا- أنّ مطلع هذه السوره المباركه يؤكّد بأنّ الحديث عن الجن و الذى تتضمّنه الآيات ليس حديثاً من الرسول عن تجربه شخصيه حدثت له، و لا كسائر كلام البشر عن الجن الذى لا يتأسس إلّا على الخيال و الظنون، بل هو حديث لعالم الغيب و الشهاده أطلع عليه رسوله-صلى الله عليه و آله-عبر الوحي الذى لا ريب فيه.

قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: انطلق رسول الله صلى الله عليه و آله فى طائفه من أصحابه عامدين إلى

سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين و بين خير السماء، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: مالكم؟ قالوا: حيل بيننا و بين خير السماء، و أرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض و مغاربيها، فمّر النفر الذين أخذوا نحو تهامه بالنبي صلى الله عليه و آله و هو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ، و هو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له و قالوا: هذا الذى حال بيننا و بين خير السماء، فرجعوا إلى قومهم و قالوا: **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا... حتى نهايه الآيه الثانيه فأوحى إلى نبيّه-صلى الله عليه و آله-: «الآيه الأولى».** و رواه البخارى و مسلم فى الصحيح أيضا (1). قال الزمخشري فى النفر: جماعه منهم ما بين الثلاثه و العشره (2).

و الاستماع على الأظهر هو مرحله متقدمه من السماع حيث يعنى التركيز و التدقيق فيما يسمع، و لقد انبهر النفر من الجن بإعجاز القرآن و عظمه آياته، انبهارا قادهم إلى التسليم له، و اكتشاف ما هم فيه من الضلال و الباطل بنور آياته البينات. و هكذا يجلى الاستماع و التدبّر عظمه القرآن لقارئه. أمّا الذى يهذّه هذّ الشعر، و ينثره نثر الرمل، أو يكون همّه آخر السوره، فإنّه لا يتجاوز الحروف و الكلمات إلى المعانى المعجزه، كما تجاوز إليها أولئك الجن.

**فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا** و هذا الإعجاب يشبه إلى حدّ بعيد إعجاب السحره بمعجزات موسى-عليه السلام- و من ثمّ إيمانهم به و نبذهم للسحر. و حرىّ بالإنسان أن يبحث عمّا حملهم على ذلك من القرآن، و أن يعجب إذا عجب به و ليس بهم.

ص: ٤٣٧

١- (١) نور الثقلين/ج ٥-ص ٤٣٠

٢- (٢) الكشاف/ج ٤-ص ٦٢٣.

إنّ الجن كما الإنس لديهم ثقافات، و بينهم دعاه العلم (السفهاء بحدّ تعبيرهم) و هم يضلونهم دائما عن الحق، و لكنهم حينما استمعوا للقرآن و أنصتوا بدا لهم الفرق واضحا بين رساله الله التي تحمل العلم و الهدى، و بين الثقافات الشائعه عندهم و التي لا تنطوى إلا على الجهل و الضلال. و لعل هذه المفارقة من أهم عوامل الإعجاب بالقرآن إذ استمعوا له.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ أَيْ يَعْرِفُ بِالْحَقِّ، و يرسم للإنسان المنهج السليم الذى يوصله إليه. و إنّ القرآن ليعلمنا الحق، و ينمى فينا العقل و الضمير و سائر حوافز الخير، ممّا يدفعنا إلى تطبيق الحقّ بالصوره الأكمل، و أين تجد هذه فى غير كتاب الله؟ هل تجدها فى أفكار الفلاسفة الغامضه التي تحتجب وراء الكلمات الكليّيه لإخفاء الجهل و التناقض، أم فى ثقافه البدائيين و الشعراء؟ كلا... و هذا ما دفع النفر من الجن إلى الإيمان بالقرآن و نبذ كلّ الأفكار و الثقافات الأخرى، فهم وجدوه وحده الذى يهدى إلى الرشد.

و مع أنّ للرشد معنى عامّيا يتسع لكثير من المفردات، فالقرآن يهدى إلى معرفه الحقائق العلميه، و السنن الطبيعيه، و الأنظمه الحكيمه التي أجراها الله فى سائر الحقول الاجتماعيه و السياسيه و الاقتصاديه.. إلا أنّ أعظم الرشد الذى يهدى إليه هو التوحيد باعتباره سنام الهدى و قمّه الرشد.

و قد أشار بعض من المفسرين إلى ذلك، قال الفخر الرازى: «يهدى إلى الرشد» إلى الصواب، و قيل إلى التوحيد، و لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا أَيْ و لن نعود إلى ما كنّا عليه من الإشراك به، و هذا يدل على أنّ أولئك الجن كانوا



و لأنّ الهدايه لا تتمّ بمجرد معرفه الحق بالضمير و العقل، بل لا بد من الشجاعه الكافيه لنقد الذات، و تحدى الواقع المنحرف، و بالتالى تحمّل مسئوليهِ الصراع ضد كلّ باطل، لذلك بادر الجن إلى الإيمان بالحق من جهه، و نبذ الباطل بعزيمه الإيمان من جهه ثانيه.

فَأَمَّا بِهِ و الإِيمان بالقرآن يعنى رفضا قاطعا للقوى الأخرى غير الله، و عزمًا على المضىّ قدما فى طريق التوحيد أنّى كانت التحديات.. و قد فهم النفر من الجن الإيمان بهذه الكيفيه و عزموا على رفض الأنداد المزعومين فقالوا:

و لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا و هذا يعنى الاستعداد لدخول الصراع، و الاستقامه على الحق، و تقديم التضحيات من أجل الإيمان و قيمه التوحيد، و كذلك ينبغى أن يكون كلّ من يختار الحق، فالرشد غايه يجب أن يسترخص المؤمنون فى سبيلها كلّ شىء، كما فعل السحره (عند مواجهه عصا موسى) إذ ألقوا ساجدين، و توجّهوا إلى فرعون بخطاب الرفض و التحدى: فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢)، و قدّموا أنفسهم قرابين فى طريق ذات الشوكه، حيث قطع فرعون أيديهم و أرجلهم من خلاف، و صلبهم فى جذوع النخل صبورا.

و نفى الجن القاطع المؤبّد بأنهم لن يشركوا ربما يهدينا إلى وجود قوى تضغط

ص: ٤٣٩

١- (١) التفسير الكبير/ ج ٣٠- ص ١٥٤.

٢- (٢) طه ٧٢.

عليهم باتجاه الشرك بالله بما قد يصل إلى حدّ الإكراه، مثلما أكره فرعون السحره على السحر، و كما يكره الطغاه اليوم جنودهم عسكريين و إعلاميين و مخابرات على ممارسه الظلم ضد الشعوب. و لأنّ أعظم الضغوط التي تمارس و أخطرها هو ضغط التضليل عن الحق، و الإيحاء بالشرك من خلال الترييه الفاسده و الاعلام المضلل، فقد أعلن أولئك النفر المؤمنون أنّهم لن يقبلوا التغرير بوجود الشركاء أو التشكيك في عظمه الله.

وَ أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَ فِكْرُه الصّاحبه و الولد آتیه من تصوّر المخلوق المحدود للخالق العظيم تصوّرا معتمدا على مقايسته بذاته، و هذا بالضبط العامل الفكرى الرئيس الذى تقوم على أساسه النظريات و الفلسفات البشريه التى خاض أصحابها فى الحديث عن ذات الله و صفاته فشبهوه بخلقه سبحانه و تعالى عمّا يصفون.

إنّ الجاهل ينكر وجود آفاق متساميه لا يبلغها علمه، فيريد تشبيه كلّ شىء بما يعرفه، فإذا به يتخيّل أمورا لا واقع لها، و يصبح هذا التخيل -بدوره- حاجزا بينه و بين معرفه الحقائق. لذلك ينبغى تسبيح الله و تقديسه عن الشبه، لأنّ ذلك السبيل الوحيد لمعرفة سبحانه.

و هناك عامل نفسى للشرك يتمثل فى أنّ المشركين يريدون الزعم بأنّهم أبناء الله، كما قالت اليهود و النصارى «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ».. فلا بد من التأكيد على وجود الصّاحبه باعتبار الأبناء نتيجة للعلاقه بين الطرفين، تعالى الله علوا كبيرا.

و لا ريب أنّ دعاه هذه الفلسفه هم أول من يريد تعريف نفسه ابنا للربّ حتى يعطى لنفسه شرعيه خضوع الناس و تقديسهم و طاعتهم له أو ربط نفسه بابن الله حتى يخلصها من المسؤوليه. مما يعنى أنّ نفى الشرك ليس رفضا لفكره مجردة، بل هو

رفض لنظام ثقافى و اجتماعى و سياسى ثقيل.

و فى كلمه «جدّ» اختلاف بين المفسرين،

ففى البرهان عن أبى جعفر عليه السلام قال:

«إنّما هو شىء قاله الجنّ بجهاله فحكى الله عنهم» (١)، و على هذه الروايه يكون المعنى هو المتعارف أى الجدّ أبو الأب و الأم. و قال الرازى: الجدّ الغنى، و منه الحديث: «لا ينفع ذا الجد منك الجد» أى لا ينفع ذا الغنى منك غناه، و كذلك الحديث الآخر: «قمت على باب الجنه فإذا عامّه من يدخلها الفقراء، و إذا أصحاب الجدّ محبوبون» يعنى أصحاب الغنى و الدنيا، فيكون المعنى: و أنّه تعالى غنى عن الاحتياج إلى صاحبه، و الاستئناس بالولد (٢). و لا نجد فى السياق ما يشير إلى أنّ الكلام جاء على سبيل الحكايه، و إنّما يهدينا السياق إلى أنّه تقرير للحق الذى جرى على ألسن أولئك النفر من الجن. و الذى يبدو لى أنّ الجدّ هنا بمعنى العظمه بحيث يمكن أن نجعل الغنى عن صاحبه و الولد فى إطارها أيضا، و قد أشار العلامة الطبرسى فى بيان لغوى لطيف إلى هذا المعنى فقال: الجدّ أصله القطع، و منه: الجد العظمه لانقطاع كلّ عظمه عنها لعلوها عليه، و منه: الجد أبو الأب لانقطاعه بعلوّ أبوتّه و كل من فوقه لهذا الولد أجداد، و الجد الحظ لانقطاعه بعلوّ شأنه، و الجد خلاف الهزل لانقطاعه عن السخف، و منه: الجديد لأنه حديث عهد بالقطع فى غالب الأمر (٣)، فالمعنى من «تعالى جدّ ربنا» أى سمت عظمته و علت. و الفرق بين هذه الآيه و قولنا: (ربنا تعالى) أنّها هنا صرحت بالمتعلّق و هو العظمه (الجدّ)، بينما نطلق فى قولنا بدون المتعلّق علوّ الله على كلّ شىء و عن كلّ ما يصفه المشركون.

و قد خصّص القرآن فى الآيه ذكر العظمه بالذات لأنّ مشركى الجن يعملون من خلال نسبه الشركاء لله على الطعن فى عظمته و التقليل من شأنه. و كيف لا تقلّ

ص: ٤٤١

١-١) البرهان/ ج ٤- ص ٣٩١.

٢-٢) التفسير الكبير/ ج ٣٠- ص ١٥٠.

٣-٣) مجمع البيان/ ج ١٠- ص ٣٦٧.

عظمه من يحتاج إلى صاحبه و الولد؟ و نفى صاحبه عن الله هو نفى قاطع لوجود أى شريك له عزّ و جل، لأنّ المزاعم بوجود الشركاء مبنيّه على أساس بنوّتهم له و التي لا تكون إلا بوجود صاحبه. أمّا نفى الولد فهو نفى للوالد أيضا لأنّ من يلد فهو مولود مخلوق بالقطع،

قال الإمام على عليه السلام فى صفه الله: «لم يلد فيكون مولودا، و لم يولد فيصير محدودا» (١)، و قال: «لم يولد سبحانه فيكون فى العزّ مشاركا، و لم يلد فيكون موروثا هالكا» (٢).

[٤] و يؤكّد القرآن على وجود التشابه بين المجتمع البشرى و مجتمع الجن من الناحيتين الفرديه و الاجتماعيه، فهم خلق مكلفون عاقلون مختارون، و محدوده علومهم كما نحن، و لذلك يقعون فى الأخطاء المقاربه لأخطائنا كالشرك، و هذا يهدينا إلى خطأ الإعتقاد بأطلاعهم على كلّ شىء، و الاعتماد على ما يقولون، إذ قد يقولون شططا. هذا من الناحيه الفرديه، و من الناحيه الاجتماعيه يتشابهون معنا فى كونهم فرقا مختلفين، و طبقات مستضعفه و مستكبره، بل و يعيشون فى ظلّ أنظمه اجتماعيه و سياسيه متشابهه.. حيث يترأسهم سفهاء منهم، كما يترعم المجتمعات البشريه الحكّام و الملوّك.

وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا وَ الشُّطُطُ فِي الْأَصْلِ: الْكَلَامُ الَّذِي يَبْعَدُ عَنِ الْحَقِّ، قَالَ الرَّاعِبُ الْأَصْبَهَانِيُّ:

الشُّطُطُ خَفَهُ النَّفْسَ لِنَقْصَانِ الْعَقْلِ، وَ الشُّطُطُ: الْقَوْلُ الْبَعِيدُ مِنَ الْحَقِّ (٣). و الكلمه تستوعب كلّ قول يحميد عن الصواب إلى الخطأ، و لكنّ أظهر مصاديقها فيما يتصل بالله عزّ و جل هو قول الشرك، و إلى ذلك أشار القرآن فى قوله على لسان أصحاب

ص: ٤٤٢

١- ١) نهج البلاغه/خ ١٨٦-ص ٢٧٣.

٢- ٢) المصدر/خ ١٨٢-ص ٢٦٠.

٣- ٣) مفردات الراغب/ماده شطط.

الكهف: قَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١).

و أما السفيه فمعناه لغه الجاهل الذى لا يحسن رأيا و لا تصرفا،فى المنجد:سفه سفها:كان عديم الحلم أو جاهلا أو ردىء الخلق فهو سفيه،و السافه الأحمق (٢).

و يبدو أنّها كلمه جامعہ لمساوئ الصفات و الأخلاق. و اصطلاحا-المعنى الذى يريده الجن من الكلمه-هو كلّ زعامه سياسيه أو اجتماعيه أو علميه شطّت بها الأفكار نحو الباطل،وسعت فى تضليل المجتمع كالحكام الطغاه و علماء السوء. و ما أكثر ما يقوله سفهاؤنا-نحن البشر-على ربّ العالمين،من على منابرهم،و فى وسائلهم التضليليه،فى كلّ زمان و مكان!فما أحوجنا أن نكون كأولئك النفر من مؤمنى الجن؛نستمع القرآن،و نؤمن بما يهدى إليه من الرشد،و نرفض الشرك بالله بجميع ألوانه و صورته،و ننتفض على سفهائنا تحت رايه التوحيد و على هدى الوحي! و نخلص هنا إلى الحقائق التاليه:

الأولى: أنّ الجن ليسوا مجرد أرواح شريره و حسب،و إنّما فيهم المؤمنون الصالحون،و بهذا يعالج القرآن مزاعم البشر و تصوراتهم الخاطئه عن طبيعه عالم الجن بأنّه شر محض.

الثانيه: أنّ الهدايه و الرشد لا- تتحقق لأحد بمجرد وجود الكتاب الهادى إلى الحق،بل لا بد من التقاء بين العقل الباطن و بين رساله الله،و ذلك بحاجه إلى المزيد من الإصغاء للآيات،و استماعها،و التدبر فى معانيها.

الثالثه: أنّنا إذا فسّرنا الشرك بالتشريع من دون الله فإنّ الآيات تدلّ على أنّ

ص: ٤٤٣

١- ١) الكهف/١٤.

٢- ٢) المنجد/ماده سفه.

الجن كما الإنس يتدعون لهم تشريعات غير هدى الله و آياته، و أنّ القرآن جاء بديلا عن مناهجهم الضاله، و علاجا لكل انحراف فى حياتهم..فهو رساله الله للعالمين إنسا و جنًا.

و إذا فسّرناه بالخضوع لغير حاكميه الله، فإنّ الآيه الرابعه بالذات تدل على أنّ الجن- كما نحن- مبتلون بالحكام السفهاء و الأنظمه الفاسده، و أنّ رساله الله التى تهدف الهدايه إلى الرشده و غايته التوحيد تهدف قبل كلّ شىء إلى تحرير المجتمعات إنسيه و جنيّه من ربه الطواغيت و الحكومات الظالمه (الحاكميات السفيّه).

الرابعه: أنّ أصل أكثر الأفكار الشركيه- كما تقدّم القول- و أصل قبول استعباد السلطات المنحرفه، و أصل التمييز العنصرى و غيره، يعود إلى الزعم بولاده الله، و من ثمّ وجود شىء أو شخص أقرب من شىء أو شخص قريبا ذاتيا إلى الله عزّ و جلّ.

[٥] و يوصل السياق كلام النفر عن طبيعتهم بما يكشف لنا واقع الجن.

وَ إِذَا ظَنَّنَا أَنَّ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَ لَعَلَّ الظن هنا يعنى العلم، و لكن ليس العلم القائم على الحججه و البرهان، و إنّما هو العلم المتأسّس على التصوّر المجرد. و الآيه تبين صفتين سلبيتين كانتا وراء تورّطهم فى الضلال:

الأولى: السذاجه المغرقه إلى حدّ الوثوق فى الآخريين و تصديقهم فيما يقولون، بحمل ما يصدر عنهم على محمل الصدق و الصواب.

الثانيه: التقليد الأعمى للآخرين، قال العلامة الطبرسى معلقا على الآيه:

و فى هذا دلالة على أنهم كانوا مقلّديه حتى سمعوا الحجّة، و انكشف لهم الحق فرجعوا عمّياً كانوا عليه، و فيه إشارة إلى بطلان التقليد، و وجوب اتباع الدليل (١).

و كلتا الصفتين نتيجة لإلغاء دور العقل و فقدان الاستقلال بالتوافق مع تيار المجتمع و التبعية العمياء له. إلا أنّ القرآن الذى أنزله الله لإثارة دفائن العقول فجّر فيهم لما استمعوا آياته كوامن قدراتهم، العقلية و الروحية، و خلق فى أنفسهم إرادة التحرّر من أغلال السذاجة و الجهل و التبعية، و إرادته التحدى للانحراف بكلّ كيانه قيماً (السفه) و أشخاصاً (السفهاء). إنّ مشكله الكثير من الإنس و الجن أنّهم يتخذون الأشخاص لا القيم مقياساً، فمتى ما ضلوا أولئك و انحرفوا ضلّوا و انحرفوا معهم، بينما يجب أن تكون القيم هى المقياس، لأنّها الضمانه الأصيلة و الوحيدة لمعرفة الحق و الاستقامة على هداة.

و فيما يتصل بالكذب تهدينا الآية إلى أنّ الإنسان يرفضه و يستقبّحه بالفطره بحيث لا يتصور أنّ أحداً يجرأ على التورط فيه، و هذا ما يجعله فريسه للكذّابين المرّه بعد الأخرى.

[١٠-٦] ثمّ يحدّثنا نفر بآيه محوريه عن التظاهر بين بعض الإنس و بعض الجن على الباطل، كصوره من صور الشرك لدى بعض أبناء حوّاء، حيث الهاله الكبيره من الأساطير و الأوهام تدعوا البعض إلى الإعتقاد بأنّ الجن قوى خارقه لديها العلم و القدره المطلقين، مما يحدو بهم إلى الاتصال بالجن و طلب العون منهم.

و يجهلون أنّ الأمر على العكس، يضيف جهلاً إلى جهلهم و تعباً إلى تعبهم، إلى حدّ الرهق الشديد.

وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا

ص: ٤٤٥

(١-١) مجمع البيان/ ج ١٠- ص ٣٦٥.

و الرهق: الغشاوه، و قيل للتعب الشديد إرهاق لأنه يعلو المرهق كالغشاوه فلا يكاد يبصر بقلب و لا بعين. و إذا كان المعتيون بالآيه كلّ من غرّتهم خرافه الاستعاذه بالجن و تعظيمهم فإنّ الكهنة و السحرة و من يتصل مباشرة بالجن مخصوصون بقول «رجال من الإنس» أو ليسوا يستعينون بهم في الشعوذه و سحر أعين الناس و الكهانه؟! و لأنّ الجن ليسوا- كما يتوهم هؤلاء الرجال- يعلمون كلّ شيء، و يقدرّون على صنع المستحيل، فإنّهم يزيدونهم رهقا في أبدانهم و أنفسهم، و ضلالا عن الحق باتباع أخبارهم الكاذبه، و خوض اللجج اعتمادا على وعودهم التي يعجزون عن الوفاء بها. أمّا من جانب الجن فلعلّهم كانوا كرجال الإنس يتمادون في الغيّ و الضلاله، حيث يكبرون أنفسهم، و يتوهمون أنّهم أنصاف آلهة نتيجة تقديس رجال الإنس لهم و استعاذتهم بهم.

و الكهنة و السحرة بدورهم كانوا يضللون من حولهم من الناس،

قال الإمام الباقر عليه السلام: «كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الذي يوحى إليه الشيطان فيقول:

قل لشيطانك فلان قد عاذ بك» (١).

و العياذ الاعتصام و هو الامتناع بالشيء من لحاق الشر (٢)، و للاستعاذه هنا أحد معنيين:

الأول: أنّهم كانوا يعتقدون بأنّ الجن قوى شر في طبيعته، و بالتالي يجب إرضاؤها للتخلّص من شرها و أذاها.

ص: ٤٤٤

---

١-١) البرهان/ج ٤-ص ٣٩١.

٢-٢) التبيان/ج ١٠-ص ١٤٨.



الثانى:أنهم كانوا يعتمدون على الجن فى مواجهه الأخطار و المشاكل،أو فى مقاومه القوى التى يخشونها،ظننا منهم بأنهم ينفعونهم أو يضرّونهم..فبدل أن يفكروا فى حلّ مشاكلهم من خلال العقل و السعى تراهم يلجأون للخرافه و الأساطير،و بدل أن يتقرّبوا إلى الله عزّ و جلّ بالطاعه تراهم يعوذون بالجن،ظننا بأنهم قادرون على صدّ غضب الله أو التأثير على أمره سبحانه و تعالى.و هكذا عوض أن يشحذوا إرادتهم و يعملوا فكرهم لمواجهه العدو عسكريًا يتوسّلون بهذه الثقافه الميته و المضلله..فلا يصلون إلّا إلى الشر و الرهق.

و من وجوه التلاقى بين الإنس و الجن-بالإضافه إلى التعاون على الباطل- تشابه وجوه الانحراف و الضلال فى الأفكار و الثقافات،و من بين ذلك الكفر بالآخره كنتيجه للثقافه القائمه على الظنون و التصورات،لا على الوعى بالواقع و المنهجيه العلميه المعتمده على الدليل و الحجّه.

وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا فِي الْمَجْمَعِ: أن لن يبعث الله رسولا بعد موسى و عيسى (١)،و فى التفسير الكبير:

و يحتمل أن يكون المراد أنه لن يبعث أحدا للرساله على ما هو مذهب البراهمه (٢)، و مع إمكانيه صحه هذا الرأى إلّا أنّ الأقرب بعث الناس للحساب و الجزاء،و هذا هو جذر كلّ انحراف و فرار من إطار المسؤوليه.و الآيه تنسف الإعتقاد الواهى بأنّ الجن آلهه خلقوا ذاتيا و لا يموتون،كلّا..إنّهم يموتون-كما يموت بنو آدم- و يبعثون كما يبعث البشر،بلى.و بعضهم يشكّ فى البعث ممّا يدعوه إلى الشرك و المزيد من الزيغ.

ص:٤٤٧

١-١) مجمع البيان/ج ١٠-ص ٣٦٩.

٢-٢) التفسير الكبير/ج ٣٠-ص ١٥٧.

وقد جرى جدل بين المفسرين حول هذه الآيه هل هي من جمله ما حكاه النفر من الجن، أم هي قول الله؟ فقال بعضهم: أنها قول من الله، وقال آخرون- وهو الأقرب-: أنها قول الجن، قال الفخر الرازي: و اعلم أنّ جمله على كلام الجن أولى لأنّ ما قبله و ما بعده كلام الجن، فاللقاء كلام أجنبيّ عن كلام الجن في البين غير لائق (1). و لعلّ التعبير اختلف من المتكلم «و إنّنا» إلى الضمير الغائب «و أنّهم» لأنّ المتكلم نفر من المؤمنين، و هم ليسوا من جمله الكافرين بالبعث، ممّا دعاهم إلى نسب الأمر إلى غيرهم.

ثم يعود السياق إلى مجراه (ضمير المتكلم) باعتبار أنّ ما يأتي أمر عام و شامل حتى للنفر الذين آمنوا من الجن، باعتبارهم كسائر الجن سعوا لاستراق السمع، إلا أنّهم حيث احتجوا عن ذلك تحسّسوا قدره ربهم، و آمنوا به تائبين.

وَ أَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا مُلَأَةً حَرْسًا شَدِيدًا وَ شُهِبًا وَ الْحَرْسَ هُمُ الْمَلَائِكَةُ، بَيْنَمَا الشَّهْبُ أَسْلَحَتَهُمُ التِّي يَرْمُونَ بِهَا كُلَّ مَنْ يَحَاوِلُ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ، فَهِيَ مَشْحُونَةٌ جُنُودًا وَ عِتَادًا إِلَى حَدِّ الْاِمْتِلَاءِ، بِحَيْثُ لَا يَجِدُ مَسْتَرِقَ ثَغْرَهُ يَنْفِذُ مِنْهَا إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى. وَ قَالَ: «لَمَسْنَا» وَ لَمْ يَقُلْ: (رَأَيْنَا) لِأَنَّ اللَّامَ صِفَةٌ مَادِيَةٌ مِمَّا يُؤَكِّدُ الْمَعْنَى وَ يَقْرَبُهُ. وَ حَقًّا: إِنَّهُمْ لَمَسُوا السَّمَاءَ وَ عَرَفُوا تِلْكَ الْحَقِيقَةَ مِنْ خِلَالِ التَّجْرِبَةِ الْعَمَلِيَّةِ.. إِذْ هَلَكَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالشَّهْبِ وَ هُمْ فِي مَهْمَةٍ اسْتِرَاقٍ.

وَ أَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ سَابِقًا قَبْلَ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ مَنَعَهُمْ تَمَامًا.

فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا

ص: ٤٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
اصبهان  
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

